علم الاجتماع

الأستاذ الدكتور
محمد عاطف غيث
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٣

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

اهداءات ٢٠٠٣
إبراهيم مصطفى إبراهيم
الإسكندرية

علـــم الاجتمـــاع

علم الاجتماع

الأستاذ الدكتور
محمد عاطف غيث
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

إهداء

الى الـــروح الطـــــاهرة

الى امى

مقـــدمة

يتقدم الانسان منذ مطلع القرن العشرين فى محاولته العلمية لفهم مجتمع الانسـان • ولازالت أمامه جهود كثـيرة لابد أن يبذلها ليبلغ بالنسبة للمجتمع مابلغه بالنسبة للعالم الطبيعى • ويتوقف قدر كبير من هذه الجهود على نجاح علم الاجتماع فى فهم الحقيقة الاجتماعية وتحديد أبعادها ، وتطويع هذا الفهم لابتكار تكنولوجيا اجتماعية تعبر وتيسر طريق الانسان فى عالم الانسان•كما أن تعقد حياة المجتمع الحديث وتثاقة علاقاتها واتساع مداها ، ألقى على عـلم الاجتماع مسئولية التقريب بين المتباعدين والتوفيق بين المتصارعين بازالة الجفوة التى صنعها التخصص ومواجهة الانعزاليةالتى تنمو مع نمو الحياة الحضرية•

ان خبرة الفرد فى المجتمع الحديث المترامى الاطراف ، تقتصر على عدد قليل من الناس ، بل ان عددا كبيرا من الافراد قد ينغلقون داخل جماعة واحدة وينعزلون بذلك عن كل أعضاء المجتمع • والمجتمع المعاصر ينقسم بطبيعته الى أقسام سكانية ومهنية متعددة ، قد يتاح للفرد أن يخبر بعضها عن قرب ، ولكنه لن يستطيع مدى حياته أن يخبر كل هذه الاقسام • ولذلك يظل الفرد بعيدا عن أغلب مواطنيه ، لايعرف دوافعهم أو نظرتهم أو طريقتهم فى الحياة ، ولا القيم التى تسيطر على سلوكهم الاجتماعى • ومهما كانت أيديولوجية المجتمع واحدة ، الا أنها تتعدل فى أقسام المجتمع الواحد ، وتلبس رداء كل جماعة بحسب اتجاهاتها وطابعها المميز فى الحياة • ومن أجل هذا كان علم الاجتماع ضرورة ثقافية واجتماعية ملحة ، فهو وحده الذى يقدم صورة متكاملة لحياة المجتمع ، ويعطى أهمية للمسائل المتعلقة بالاختـلافات والتشابهات ،

ويحاول أن يتعمق اتجاهات الفعل الاجتماعى والصور المختلفة للعلاقات الاجتماعية التى تترتب على ذلك •

أن علم الاجتماع يحاول أن يمد بصره بعيدا ليدرك أبعاد السلوك الاجتماعى وأهدافه ووسائله • فعن طريقه يستطيع الفرد فى المجتمع أن يكون على علم بما يجرى فى نطاق الحياة الاجتماعية لافراد آخرين أو فى جماعات أخرى قد لا يتيسر له طوال حياته أن ينتمى اليها أو أن تكون له بها صلات • واذن فعلم الاجتماع ينمى التكامل الاجتماعى ، وهو لذلك عنوان وحدة المجتمع •

هذا الى أن علم الاجتماع يستطيع أن يقـــدم معاونة جوهرية فى تحديد الاهداف التى يمكن الاتفاق عليها ، ويمكنه أن يرسم الوسائل الناجحة لبلوغها ، ويظهر ذلك واضحا من أن السياسات الاجتماعية فى مجتمع يتغير باستمرار لا يمكن أن تقوم على أساس من العـــادة أو العاطفة ، ولن يتسنى لمشتغل بالسياسة الاجتماعية العامة أن ينجح فى مهمته ، الا اذا كان لديه قدر كاف من المعرفة عن المجتمع الذى يرسم له خطوط نموه الاقتصادى والاجتماعى ، وخاصة فى مثل هذا المجتمع، ومن الضرورى للمخطط أن يعلم على وجه الدقة معوقات التغير وعوامل التأخير التى قـــد تلبس ثيابا تضلل ، فتساير فى الظـــاهر وتخرب فى واقع الامر • •

وبعد ••• لقد حاولت فى هذا الكتاب أن أتقدم خطوة أخرى بعد «مقدمة فى علم الاجتماع» فى طريق استكمال مقومات عـــلم الاجتماع الاساسية ليكون مرجعا للطالب وعونا للقارىء فى فهم المجتمع الذى نعيش فيه وقد عرضت من أجل ذلك ما تصورته ضروريا فى ضوء تقدم علم الاجتماع فى مجتمعنا •

ولقد حرصت على أن تكون فصول الكتاب شاملة للتاريخ والنظرية والمنهج والموضوعات الهامة التى صارت محل اتفاق بين عدد كبير من علماء الاجتماع • ولكننى لم أتعرض لموضوعين هامين ، عما التنظـــيم

السياسى والنظـام الدينى ، واكتفيت بالاشارات المتعددة لهما ، التى وردت فى أكثر من موضع عند مناقشة الموضوعات الاخرى المرتبطة بها.

ان من يكتب فى العلم ، لا يكتب آخر كلمة فيه ، لان العلم يتقدم دائمـا عن طريق الاضـافات التى يضيفها الباحثون الذين يتجددون ويتعاقبون باستمرار . وبدون هذا التجديد والتعاقب يتجمد التراث الثقافى وتتوقف خصوبة العلم . ومن أجل هذا سأرحب بكل نقد بناء ، لاننى اعتبر هذا النوع من النقد جزءا متمما لرسالة العلم .

ان المرء لا يستطيع أن يعلم على وجه الدقة ، ما الذى شكل تفكيره وحدده ، لانه من الصعب تتبع كل الخيوط التى تشابكت وتفاعلت خلال سنوات طويلة بطرق متعددة ، حتى بلورت هذا الاتجاه أو ذاك . ولكن مهما كانت الرؤية عسيرة ، فاننى أرى مصباحا على الطريق : رائدى وأستاذى الدكتور محمد ثابت الفندى ، بدونه ، تعثر طريقى الى ذاتى والى علم «المجتمع» ، وبصحبته عرفت الفضل والصفاء . لقد اشترك هو والاستاذ الدكتور محمد عبد المعز نصر ، ايجابيا فى رعاية أول تقدم علمى أحـرزته ، اشرافا وتوجيها ، وسوف أظل ذاكـرا لهما مواقف لا تنسى. أما الاستاذ الدكتور على سامى النشار فهو لى المعلم الصديق.

ولا يفوتنى أن أذكر بالشكر والامتنان ، أصدقائى وزملائى وطلابى الذين تعلمت الكثير من مناقشاتهم ونقدهم البناء .

عـاطف غيث

محتويات الكتاب

مقدمة ... ... ز

الفصل الاول

تمهيد ١

- اتجاهات التفكير الاجتماعى قبل قيام علم الاجتماع (الشرق القديم، اليونان، الرومان، ابن خلدون، فلسفة التاريخ) ... ٥
- فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ١٥

الفصل الثانى

ميدان علم الاجتماع ٢١

تعريف علم الاجتماع ٢٤
موضوعات علم الاجتماع ٣٠
أهمية التفاعل المنظم ٣٩
اهمية الثقافة ٤٢
علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية ٥٢
الاقتصاد ٥٢
علم النفس ٥٤
علم السياسة ٥٥
التاريخ ٥٧
الانثروبولوجيا ٥٨
القيمة العملية لعلم الاجتماع ٦٠

الفصل الثالث

علم الاجتماع والمنهج العلمى ٦٥

خصائص العلم ٦٧
مفهومات ضرورية ٧١
المنهج العلمى ٧٥
تطبيق المنهج العلمي عمليا ٧٧
ميادين نامية فى البحث ٧٩

خطوات المنهج العلمى ٨٤
الاختبار والوصف والتفسير ٨٦
المتغيرات ٨٧
كيف تختار موضوعات البحث ٨٩

الفصل الرابع

المجتمع والحياة الاجتماعية ٩٣

تعريف المجتمع ٩٥
المجتمع والفرد ١٠٣
العمليات الاساسية فى الحياة الاجتماعية ١٠٦
التعاون والتنافس والصراع ١٠٨
التوافق ١٠٩
التمثيل ١١١
عوامل التأثير فى التعاون والتنافس ١١٢
المبادىء العامة فى العمليات الاجتماعية ١١٣
مكونات التكامل الاجتماعى ١١٥
العوامل المؤثرة فى التكامل ١١٨
الجماعات والتنظيم الاجتماعى ١٢٠

الفصل الخامس

المجتمعات المحلية ١٤٥

تعريف المجتمع المحلى ١٤٧
اهمية البيئة الجغرافية فى المجتمع المحلى ١٥٢
المجتمع المحلى الحضرى والقروى ١٥٣
خصائص الحضرية ١٥٤
الدراسة العلمية للمجتمع الحضرى ١٦٠
تعريف المدينة ١٦١
المقارنة بين الحياتين الحضرية والريفية ١٦٥
نمو المدينة ١٦٦
الفوارق الاساسية بين الحضر والريفية ١٦٨
النسق الطبقى الحضرى ١٧٦
مستقبل الحياة الحضرية ١٨٠

الفصـــل السادس

النظم الاجتمـــاعية ١٨٣

اهمية دراسة النظـم الاجتماعية ١٨٣
البنـــاء والوظيفـة ١٨٦
الجانب الوظيفى فى النظم الاجتماعية ١٩١
العـــلاقات المتبادلة بين النظم الاجتماعية ١٩٤
انتقال الوظائف من نظام لاخر ١٩٦

الفصـــل السابع

الاقتصاد والمجتمع ... ١٩٩

مقـــدمة ٢٠١
الاقتصـــاد والثقـــافة ٢٠٢
المعالم الرئيسية للاقتصاد القديم ٢٠٥
تطـــور الاقتصـــاد ٢٠٦
الاقتصاد الاشتراكى ٢١٢
الخصـــائص المشتركة للسلوك الاقتصـــادى ٢١٣

الفصـــل الثامن

الاســـــرة ٢١٥

الدراســات الاسرية ٢١٧
تعـــريف الاسرة ... ٢٢١
العـــائلة والاسرة ٢٢٥
مظـــاهر البنـــاء الاسرى ٢٢٦
الضبط العام والزواج ٢٢٦
الأســاس البيولوجى ٢٢٧
تنظـيم الاسرة ٢٢٩
وظـــائف الاسرة ... ٢٣١
مشاكل الاسرة ٢٣٣
التوافـــق الزواجى ٢٣٥
عـــوامل ما قبـل الزواج ٢٣٦

عـوامل ما بعـد الزواج ٢٣٧
تغير العـائلة فى المجتمع العربى ونتائجه ٢٣٧

الفصـــل التاسع

قواعد الضبط والامتثال فى المجتمع ٢٥١

تعريف الضبط الاجتمـاعى ٢٥٣
المدخل السوسيولوجى لفهـم الضبط الاجتماعى ٢٥٨
ميكانيزمات وقف التصدع والتوتر المؤدى الى الانحراف ٢٦٢
تطويع التصـدع أو التوتر وسياسته ٢٦٤
ميكانيزمات الحصـار والتعويق ٢٦٧
فاعلية الضبط الاجتمـاعى ٢٧١
المتضمنات الاجتماعية للضبط الاجتمـاعى ٢٧٣

الفصـــل العاشر

أسس التمايز والترتيب الطبقى فى المجتمع ... ٢٧٥

المدخل التاريخى لدراسة التمايز والتفاضل ٢٧٧
اساس التمايز فى المجتمـع ٢٨٤
المركـز الاجتماعى والترتيب الطبقى ٢٨٦
الطبقـات الاجتمـاعية ٢٨٩
نظرية كارل ماركس ٢٩٨
نظـرية سوروكين ٢٩٧
نظرية لويد وورنر ٣٠١
التنقل الاجتمـاعى ٣٠٧
اسباب التنقـل الاجتماعى ٣٠٩

الفصل الحادى عشر

التغـير الاجتماعى ٣١١

التغـير والتقـدم ٣١٣
افكار ضرورية لفهم التغير الاجتماعى ٣١٧
انواع التغـير الاجتماعى ٣٢١

العوامل العلية فى التغير ٣٢٣
التغير الاجتماعى والتغير الثقافى والتفاعل ٣٢٥
تفسير التغير الاجتماعى ٣٢٦
العوامل الاساسية ٣٢٦
مستويات التغير ٣٣٠
الطابع الدورى للتغير ٣٣٣
نسبية التغير ٣٣٦

الفصل الثانى عشر

التغير والتخطيط والحرية ٣٣٩

حتمية التغير ٣٤١
التخطيط نوع متميز من التفكير ٣٤١
الوسائل الفنية فى معالجة مسائل المجتمع ٣٤٣
مشكلة الحرية وتطور الوسائل الفنية والاجتماعية ٣٤٥
عوامل التاثير فى طبيعة التخطيط ومداه ٣٤٩
النظرية الحتمية والتخطيط ٣٥١
الحرية والتخطيط ٣٥٣
التخطيط الاجتماعى والعلوم الاجتماعية ٣٥٣
التخطيط الاجتماعى غاية كل تخطيط ٣٥٤

الفصل الأول

تمهيد

تمهيـــــــــد

تزداد مقدرة الانسان فى عـــالم اليوم ، على السيطرة على العالم الطبيعى ، ووصل فى هذا الصدد الى اكتشافات هامة جداً • لا نعرفه على وجه التحديد آثارها فى حيـاة البشر المستقبلة • فالزراعة أول اختراع جوهرى فى تاريخ المجتمع الانسانى ، وضعت حداً لتنقل الانسان الدائم وحيرته ونظمت لأول مرة حياته الاجتماعية ، وأتاحت له فرصة الاستقرار والفـراغ بعض الوقت ، الذى استغله فى التفكير ، فأنشأ الحضـــارات الاولى فى الوديان الخصبية ، التى انبعث منها التقـدم الانسانى ، فى كل ميادين الحياة • وكان لاختراع الكتابة الوسيلة الكبرى التى مكنت الانسان من حفظ تراثه الثقافى والاجتماعى ، وأتاحت لهذا التراث فرصة التجمع والتراكم على مر الاجيال ، مما مكن الانسان أن يزيد من سيطـرته على العــالم الطبيعى وينمى قــدرته على الكشف والاختراع •

وباكتشاف القوة المحركة المستقلة عن قوة الانسان والحيوان ، دخل المجتمع الانسانى مرحلة جديدة من تطوره ، ظلت تنمو وتغير من طابع الحياة الاجتماعية ، حتى اكتشفت الطاقة النووية التى حملت معها نذيرا وبشيرا فى وقت واحد لمجتمع الانسان • والجهود التى تبذل الان لمنع تحقق نذرها ، ينظر اليها غالبية البشر فى كل أنحاء العالم اليوم بأمل كبير لتجنب سحق تراث الانسان •

وقد أحس الناس فى كل مكان أن فهم البشر أنفسهم لم يحرز تقدما كالتقدم الذى تم فى مجال السيطرة على الطبيعة ، وهذا راجع الى أن محاولات الانسان فهم حياته بدأت متأخرة جدا • ومن أجل هذا يتزايد الاهتمام فى كل ركن من أركان العالم اليوم بعلوم المجتمع ، وقد أصبح هذا الاهتمام سياسة التعليم وأسلس الرعاية الاجتماعية ، عندما تأكد

العلماء وقادة المجتمعات أن الاصلاح الاجتماعى لن يحقق فاعليته الا اذا تم على أساس فهم علمى لبناء المجتمع ووظائفه وعـوامل تغيره ، وأن معالجة شئون الحياة الاجتماعية ، يجب أن تستنير بالعلم وتقوم على فهم عميق بنتائج أبحاثه .

وعلم الاجتماع حين يدرس المجتمع ، لا يقف بعيدا عن مشاكله ، لان كل مشكلة تمثل موضوعا من موضوعاته الاساسية . ولذلك فالذى يتخصص فى علم الاجتماع يتخصص فى فهم المجتمع ومشاكله بالضرورة. وعالم الاجتماع قد لا يشترك بشخصه فى تنفيذ خطة العلاج الاجتماعى، الا أن أبحاثه يجب أن تكون القاعدة التى ينبعث منها كل تفكير علاجى ، لانها تقوم على النظرة المتكاملة لحقائق الحياة الاجتماعية ، والتساند الضرورى بين أجزاء المجتمع فى واقع الامر .

ان عمر علم الاجتماع لا يتجاوز مائة عام على الرغم من التاريخ الطويل للانسان الذى انقضى قبل أن يظهر . وذكاؤنا ــ بقدر ما نعلم ــ لا يزيد على ذكاء أقراننا فى المجتمعات السابقة ، وليست هناك علامات أو دلائل تشير الى أن زماننا يتميز بظهور عبقريات مفاجئة تختلف عن عبقريات الازمان الماضية . وكل ما لدينا أكثر مما كان لدى المجتمعات القديمة ، أن ثقافتنا أوسع مدى لانها الان فى قمة تراكمها عن طريق العناصر التى أضافها البشر اليها منذ أن ظهر النوع الانسانى على هذه الارض[1] . وقد يكون من حسن الاجابة أن نغفل تساؤل البعض عن السبب الذى من أجله لم يظهر علم الاجتماع قبل ذلك ، لان مثل هذا التساؤل لا يخص علم الاجتماع وحده بقدر ما يخص كل العلوم التى توالى انفصالها فى تاريخ الفكر الانسانى عن الفلسفة كمعارف موضوعية محددة كالعلوم الطبيعية والبيولوجية وغيرها.فالظروف الثقافية المتطورة اتساعا واتساع نطاق العمران الانسانى على الارض فرض على الانسان منهجيا الانتقال من القياس الى الاستقراء ومن التعميم الى التخصيص

(1) Don Martindale; The Nature and Types of Sociological Theory, London, 1961, p. 2.

دون مساس بالعود الضرورى الى الكليات أو العموميات لضمان فهم أكمل للعالم الذى نعيش فيه . فالمعرفة الانسانية وحدة متكاملة ، وتجزيئها ضرورة ثقافية ملحة ، لكن الابقاء على التجزئة والامعان فى التمييز بعثرة للعقل الانسانى وخلقا لمشاكل سوء الفهم وقصر النظر الى جانب التحيز والضلالة ، الامر الذى يعانى منه المجتمع الانسانى اليوم. اذن فعلم الاجتماع — فى واقع الامر — ليس حادثا منعزلا فى تاريخ الفكر الانسانى ، كما أنه ليس اختراع فرد أو أكثر ، لانه يمثل نشاطا مستمرا ، وتراثا ثقافيا أصيلا .

اتجاهات التفكير الاجتماعى قبل قيام علم الاجتماع :

أولا : يجمع مؤرخو التفكير الاجتماعى على أن التفكير الصينى والفلسفة الاجتماعية عندهم تمثل أقدم تفكير منظم عن المجتمع قبل عصر سقراط . ويمكن أن نلخص خصائص التفكير فى الشرق القديم من وجهة النظر السوسيولوجية فيما يلى :

أ) لم يكن ذا طابع منظم ، وغير نابع عن دراسة مقصودة لذاتها ، وانما كان صدى للظروف الاجتماعية والحكمة السائدة . ولهذا يعبر عن الفرد أكثر مما يعبر عن الجماعة .

ب) كان فرديا فى طابعه يعكس التجربة الشخصية ، وان كان فى بعض الاحيان يعكس مشاعر أو سلوك طبقة بعينها . وخاصة تلك التى ينتمى اليها الكاتب .

جـ) أغلب أجزاء النظرية الاجتماعية تدور حول الاهداف النفعية العاجلة ، ولذلك زخر مثل هذا النوع من التفكير بالنصائح وبيان طرق النجاح فى الحياة ومعاملة الناس .

د) كان أسلوب الكتابة مليئا بالجمل الخطابية ، مشحونا بالعاطفة ، يميل الى التحيز وذلك من حيث الاتجاه والمضمون .

هـ) وقد انتظمت جميع الكتابات تقريبا النزعة المحافظة ، أو بمعنى آخر غابت عن المفكرين معانى التقدم الاجتماعى أو التغير ، كما أن

التفسير الاجتماعي كان يدور في حلقة مفرغة قاعدتها القوى التي لا سبيل الى السيطرة البشرية عليها ، أي أن العملية الاجتماعية كانت في جانب سبب واحد هو « القوة الخارقة » .

ثانيا : وقد انتقل تفكير الانسان في المجتمع نقلة أساسية بظهور الفلسفة اليونانية ولذلك يعتبر التفكير اليوناني في المجتمع أول تفكير منظم ، لانه كان جزءا من اطار المذاهب الفلسفية الكبرى التي أرست قواعد المعرفة الانسانية في كل نواحيها . وقد كان هذا التفكير غنيا وعميقا الى الدرجة التي رسم معها الخطوط وحدد المعالم التي لازال الفكر الاجتماعي — بصورة ما — يترسمها حتى اليوم . وقد انطوت كتابات اليونان عن أصالة وعمق ومنطق لم يسبقوا اليه.ولكننا لانستطيع أن ننسب أصالة الفكر الاجتماعي هذا الى البيئة الاجتماعية وحدها على الرغم من أن أثرها على اتجاهه وما اتخذه من صور لا يمكن انكاره . فلم تكن هناك دولة تجمع في نظامها السياسي الموحد جميع الشعوب المتنافرة التي كانت تعيش في اليونان وقتئذ ، الامر الذي أدى الى قيام النزعات القبلية والتي أثرت الى حد كبير في تفكير اليونان عن ظواهر الحياة الاجتماعية . ولما كان التنظيم الاجتماعي عند اليونان قائما على أساس وحدة المدينة ، فقد أدى ذلك الى تشابه أبناء المدينة الواحدة مما أفسح الطريق أمام النظريات اليوتوبية التي ميزت أعمال أفلاطون بوجه خاص .

ولعل أهم ما في أعمال أفلاطون بالنسبة لتاريخ علم الاجتماع هو القوانين Laws فقد سبق التطوريين في القرن التاسع عشر عندما تحدث عن طبيعة التطور الاجتماعي وعن الزمن الذي يستغرقه ليبلغ مداه . وعلى العكس من المفكرين الاجتماعيين الذين سبقوه ، حاول أفلاطون أن يفهم المجتمع وأن يحلله كوحدة أي أنه بالمفهوم الحديث لعلم الاجتماع كان ينظر الى المجتمع ككل تترابط أجزاؤه لتكون كلا متساندا .

أما أرسطو فقد كان أكثر مفكري اليونان أثرا في الفلسفة الاجتماعية ويرجع ذلك الى عمق تفكيره ونظرته النافذة الى ما يسمى الان بالعمليات

الاجتماعية الاطرادية • ونظرا لسيطرة تفكير أرسطو على أفكار العصور الوسطى فقد كان له قصب السبق على أفلاطون خصوصا فى بحثه عن أسس العلاقات السياسية والاجتماعية • ففى المحل الاول يعتبر كتابه « السياسة Politics » مدخلا الى حد ما لدراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق المنهج الاستقرائى Inductive method بينما كان أفلاطون معتمدا كلية فى تحليـــله الاجتماعى على المنهـــج القياسى Deductive method وأهم من هذا كله ما قرره أرســـطو فى كثير من كتاباته من أن الانسان حيوان اجتماعى أو كائن اجتماعى Social Being وقد استمد أرسطو من هذه القضية ضرورة وجود العلاقات الاجتماعية ليمكن للشخصية أن تنمو وأن تتخذ الطابع الانسانى كما أشار الى شذوذ الشخصية التى تتجه اتجاها غير اجتماعى •

وقد كان تفسير أرسطو للتطور الاجتماعى قائما على أساس الغريزة الاجتماعية التى تعتبر امتدادا للطبيعة الاجتماعية للانسان • وفى هذا الصدد يعتبر أرســـطو أكثر واقعية من أفـــلاطون الذى تبنى التفسير الاقتصادى النفعى الى الحد الذى دعاه الى رفض ما يسمى بالواقـــع الانســـانى • وعلى الرغم من أن تحليل أرســـطو للمجتمع كان محددا وواضحا الا أنه يضاهى أفلاطون فى تحليله المتقن للاساس الاقتصادى الذى يقوم عليه المجتمع •

ثالثا : كان الرومان منشغلين بالتفكير القانونى والعملى • ولذلك لم يكرسوا جهودهم للتفكير الفلسفى التجريدى • وكل ما فعـــلوه فى هذا الصدد تكييف الفلسفة اليونانية لتناسب ظروفهم أو لتخدمهم فى تطوير القانون والتنظيم السياسى • أو بمعنى آخر لم يكن لهم شأن فى خلق نظريات فلسفية جديدة عن الدولة أو المجتمع • ولعل انشغال الرومـــان بخلق امبراطورية واســـعة أتاح لهم الفرصة للاتصـــال بنظم تشريعية متعددة ومختلفة أو بالمعنى السوسيولوجى كان أمامهم فرصة للاتصال التثاقفى بثقافات متعددة الامر الذى جعلهم يستحدثون نظريات عن أصل القانون وطبيعته •

هذا وقد كانت نظريات الرومان الاجتماعية أساسا هاما فى الفلسفة الاجتمــاعية المسيحية التى يمثلهــا آباء الكنيسة التى يمكن تلخيصها كما يلى :[2]

أ) الجنس الانســانى اجتماعى بالطبيعــة • ولهذا كان المجتمع طبيعيا •

ب) النظم الاجتماعية الحالية ولو أنها تقدم خدمة عظمى للانسان، الا أنها لا تقارن بالنظم الموجودة فى المملكة الالهية •

جـ) الاصلاح الاجتماعى غــير مهم وخير للانســان أن يبحث عن صالحه الحقيقى فى الحياة الاخرة ، لان اصلاح الحياة الارضيةوالظروف المعيشية التى يعيشها الانسان الان ليست هدفا ينبغى أن يسعى اليه الفرد فى حياته القصيرة •

د) الفقير فى العالم الارضى جزء من العالم الالهى ، والفقــر هنا مرتبط بالصفاء والقرب من الله •

رابعا : ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) يعتبر ابن خلدون كما يقول هارى بارنس[3] أول كاتب يتعــرض لفكرة التقدم ووحــدة العمليات الاطرادية الاجتماعية • وأهم ما يميز هذا المفكر هو فصله بين ما سماه بالتاريخ القصصى المملوء بالخرافات والاوهام وبين التاريخ العلمى الذى يقوم على تحرى الحقائق ورفض المسائل التى تتنافى مع طبائع الاشياء وتسلسل الاحداث كما أنه وجد أن الحياة الاجتماعية لا تسير وفق أهواء المؤرخين وانما تسير على أساس قوانين ثابتة • ونادى لذلك بضرورة قيام علم لدراسة المجتمع سماه «علم العمران» •

والانسان فى رأى ابن خلدون اجتماعى بطبعه ، لان حاجاته متعددة ومتنوعة ولا يمكن أن تتوفر له الا بالجهود المشتركة التى يبذلها الافراد متعاونين • ولكن صراع الرغبات يؤدى الى المنازعات الامر الذى تصبح

(2) Barnes. H. E. An Introduction to the history of Sociology Chicago, 1948, p. 14.
(3) Ibid., p. 25.

معه الحكومة ضرورة ملحة لفرض الاستقرار والنظام • ويعتبر تحليل ابن خلدون للمجتمع البدوى والمجتمع الحضرى من أروع ما كتب فى هذا الموضوع حتى الان • كما أن تحليله لأثر البيئة الطبيعية على المجتمع لم يساويه فى ذلك الا بودان ومنتسكيو •

ويعتقد بارنس أن أهم تجديد لابن خلدون هو عرضه المتقن لوحدة واستمرار العمليات التاريخية كما أنه توصل الى فكرة المراحل التى تمر فيها المدينة وكشف فى وضوح أن الحضارة فى حالة تغير مستمر مثل حياة الفرد تماما • وأشار بوضوح الى اتحاد العوامل النفسية والبيئة فى عمليات التطور التاريخى ويقول بارنس أيضا ان ابن خلدون يعتبر بحق مؤسس فلسفة التاريخ لانه سبق «فيكو» الذى كان يمد الى عهد قريب مؤسس هذه الفلسفة بحوالى ثلاثة قرون من الزمان • ولكن كتاباته فى هذا الموضوع لم تكتشف وتترجم الى اللغات الاوربية الا منذ عهد قريب •

ويقول سوروكين[4] (وهو من أكبر علماء الاجتماع المعاصرين) ان ابن خلدون ناقش تقريبا جميع المسائل التى ترد دائما فى موضوعات علم الاجتماع وفروعه المختلفة فى ضوء اصطلاحاته عن الحياة البدوية والحياة الحضرية وتبدو كثير من آرائه حديثة اذا نظر اليها من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث • ويمكن وضع ابن خلدون جنبا الى جنب مع افلاطون وأرسطو وفيكو وأوجست كومت على أنه أحد مؤسسى علم الاجتماع • كما أنه فى مجال التاريخ العلمى • يعتبر مؤسس التاريخ العلمى •

خامسا: بودان : (١٥٣٠ — ١٥٩٦) كتب ست كتب فى «الجمهورية» بطريقة علمية تختلف عن طريقة مكيافللى العملية وطريقة مور الاخلاقية ويعتبر أول من استخدم نظرية الشروط الطبيعية والجغرافية فى الظواهر الاجتماعية وعالج مشكلة السلطة وقرر أن العالم فى زمانه يحتاج الى قوة ملكية ثابتة ، وتعرض فى كتابه الرابع الى الحكومات فى نشأتها

(4) Sorokin P. Society, Culture and personality, p. 10.

وتطورها وفنائها مع الاشارة الى الظروف التى تغير من مستقبل الدولة والسياسات الرشيدة والخاطئة التى تنتهجها بعض الحكومات ويغلب عليه فى بحوثه منهج الاستدلال وان كنا نظن أنه اتبع مايسمى بالاستدلال الاستقرائى عند معالجة تعميماته التى بناها بناءا تاما . ويوضع بودان فى تاريخ الفكر الاجتماعى فى أول حلقة من سلسلة المفكرين السياسيين التى نستطيع أن نضم اليها هوبز ولوك وفيكو ومنتسيكيو .

من كل هذا نتبين كيف سارت محاولات تفسير الحياة الاجتماعية الى النضج ، على الرغم من تأثر كل مفكر من المفكرين السابقين بظروف عصره وبالمذهب الفلسفى الذى يؤمن به ، الى جانب غلبة نوع معين من التفسير عليه . فبعضهم كان يتجه فى دراسته اتجاها قانونيا والبعض الاخر يتجه اتجاها جغرافيا أو سياسيا أو اقتصاديا . وعلى أى حال فقد أسهمت هذه الكتابات فى تقديم موعد ولادة علم الاجتماع .

ومن أبرز المحاولات التى ظهرت لتفسير الحياة الاجتماعية المحاولة التى عرفت فى تاريخ الفكر الاجتماعى ، بمدرسة العقد الاجتماعى والتى كان من أعلامها فولتير وروسو وهوبز ولوك،ولسوف أكتفى هنا بالاشارة الى هذه المدرسة دون عرض آرائها ، لانها فى الواقع تعتبر محاولة فلسفية يمكن أن نضمها الى محاولات فلسفة التاريخ .

فلسفة التاريخ :

تعد فلسفة التاريخ المحاولة الاخيرة لتفسير الحياة الاجتماعية ، السابقة مباشرة على قيام علم الاجتماع . فقد اتجه كتابها الى تفسير تطور المجتمع الانسانى عامة فى مراحل متعاقبة ينظمها قانون واحد شامل . ومع خروج هذه المحاولة على المنهج العلمى كما يظهر من أعمال فيكو وكوندرسيه وغيرهم حتى أوجيست كومت وتوينبى وشبنجلر وسوروكين — بطريقة ما ، الا أنها كشفت عن الحاجة الماسة الى علم لدراسة المجتمع ولنسمه الفيزياء الاجتماعية أو علم الاجتماع كما انتهى الى هذه التسمية أوجيست كومت .

وفلسفة التاريخ شأنها شأن أى معرفة أو كشف انسانى نتيجة لتطور أو لوقائع معينة أدت اليه نشير اليها فيما يلى :

أ) المحاولات التى قام بها آباء الكنيسة والكتاب المدرسيون وعلى الاخص القديس أوغسطين — فى تفسير التاريخ على أنه مظهر لفعل العناية الالهية وتدخلها فى الشئون الانسانية •

ويقول بعض النقاد — ان « مدينة الله » التى وضعها القديس أوغسطين كان لها أثر كبير فى فلسفة التاريخ وفى الخطوط الرئيسية التى سارت عليها اذا احتذاها الكتاب الذين كتبوا فيها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • والمعروف أن فكرة التدبير الالهى والقضاء والقدر كانت مسيطرة على كتابات المدرسيين جميعا • وكانوا يعتقدون أن الامور الانسانية تجرى لمستقر لها بتدبير حكيم أعظم •

ومما يسترعى النظر أن نفس الفكرة ولكن فى ثوب آخر غير دينى بالطبع — بقى مميزا لبعض فلسفات التاريخ الحديثة — التى يظن البعض أنه ليس هناك ثمة علاقة بينها وبين كتابات المدرسيين • ولكن ليس معنى عرض الفكرة عرضا جديدا فى ثوب جديد الظن بأنها هى الاخرى جديدة • فلو اعتقدنا ذلك لكنا متجنين على الحقيقة •

ب) التحول الاجتماعى : تميز العصر الحديث عن العصور السابقة بالتحول السريع الذى لحق جميع النواحى الفكرية والعلمية بل والطبيعية أيضا ، فلم تعد العقائد القديمة ولا التفسيرات البالية كافية لتفسير مثل هذا التحول • فكان لابد من قيام علم يبحث هذه المسائل فى ضوء جديد من جهة — ويبحث فى المجتمع الانسانى وتاريخه من جهة أخرى •

وهكذا تهيأت الفرصة المناسبة لفلسفة التاريخ أن تظهر وأن تعمق جذورها • واذا كان المفكرون الفرنسيون أمثال روسو وكونت قد قاموا بمحاولات من هذا القبيل فان أثرهم ليس كأثر المفكرين الالمان الذين كان لهم النصيب الاول فى هذا الميدان •

والواقع أن أهم دعامة قامت عليها فلسفة التاريخ أو بمعنى آخر أهم الاسباب التى أدت الى قيام هذا الضرب من المعرفة — وهو التحول الذى طرأ على العلاقات الاجتماعية والسياسية والدولة نتيجة التحول الصناعى وما صحبه من تطورات عميقة تردد صداها فى مختلف أنحاء

العالم . فرأى المفكرون نظما تنهار بأكملها أمام أعينهم مفسحة المجال لنظم وتقاليد أخرى جديدة جريئة ما كانوا يتوقعون أن تظهر يوما ما . بل كانت ستظل في نظرهم أحلاما تداعب الشعراء والفلاسفة . ولمسوا بأنفسهم الاثر العميق الذى أحدثه هذا التطور في عقلية الافراد والشعوب وأثر ذلك على معتقداتهم وأساليب حياتهم ونظريتهم العامة الى الحياة .

وطبيعى أن كل أزمة تواجه الانسانية أو كل تطور يقلب النظام رأسا على عقب يدعو الى التفكير والتدبير . ولذلك ينهض المفكرون وذوو الفطنة لمحاولة التفسير والتيقن أو بمعنى آخر لمحاولة التبرير واقامة أساس عقلى منطقى يطمئن اليه ــ ومن ثم كانت فلسفة التاريخ .

هذا وتحاول فلسفة التاريخ المعاصرة أن تقترب من علم الاجتماع وأن تعتمد في أكثر دراساتها على أحدث ما وصل اليه العلم في أبحاثه المختلفة. الا أنه بالرغم من ذلك فطالما أنها تحاول أن تخضع هذا الخضم الواسع من العلاقات المتشابكة المعقدة الى قانون عام شامل لا مدخل للظن ، أو الاحتمال عليه ــ فانها ستظل بعيدة عن العلم فاذا ما تخلت عن هذه الصفة فليس من مبرر لوجودها اذ أن علم الاجتماع يقوم بهذه المهمة وقد استقرت مناهجه وأصوله .

الا أنه بالرغم من ذلك فاننى أعتقد أن فلسفة التاريخ لازمة كأحد العناصر المكملة للحركة العقلية بصفة عامة التى تسود في مجتمع معين والتى تقنع كثيرا من الناس فهى بلقية ما بقيت الفلسفة . وسأعرض هنا لرأى كل من شبنجلر وسوروكين باعتبارهم يمثلون فلسفة التاريخ المعاصرة ــ وفي وصفنا سوروكين كفيلسوف تاريخ شيء من التجاوز ــ ولكنى أدخله هنا لرأى له في تطور الحضارة أو التاريخ بصفة عامة .

شبنجلر : أحدث كتابه «تدهور الغرب» ضجة كبرى في ميادين المعرفة جميعا وعلى الاخص في ميدان فلسفة التاريخ ــ بل لقد أحيا كتابه هذا فلسفة التاريخ بعد أن كان قد ظن أنها قد ماتت . وتتلخص أهم نظرياته في الامور الاتية :

أ) ارتضى الفصل بين الحقيقة التاريخية والحقيقة الطبيعية كما

قال بذلك وندلباند وديكارت الا أنه لم يخف تفضيله للمنهج التاريخى فى معالجة مسائل التاريخ • فاذا كان المنهج الطبيعى يصلح خاصة للعلم الطبيعى فانه يقصر عن تفسير التاريخ الانسانى ولذلك فالمنهج التاريخى هو الوحيد الذى يوقفنا على حقائق التاريخ الانسانى •

ب) وأهم شىء فى فلسفته نظريته فى الحضارة — فالتاريخ العالمى هو تاريخ بعض المدنيات الكبيرة • والمشاهد أن كل حضارة كبرى عبارة عن كائن عضوى ينمو ويتدهور ويموت • وكل حضارة كبرى لها خصائصها المميزة الا أنها جميعا تتفق فى تاريخها العام واتجاهها نحو الفناء •

جـ) والدرجة الاخيرة من تاريخ الحضارة هى المدينة — بأقصى ما يمكن أن يحمله اللفظ من معنى فنى — وهذه تتميز بوجود نوع من سيطرة المراكز العليا تعتبر رئيسية فى المدينة •

سوروكين : يرى سوروكين أن الثقافة تتطور فى اتجاه معين لمدة معينة على نحو مستقيم ثم يحدث أن يتغير الاتجاه وقد يكون التغير على نحو مستقيم أيضا أو ذبذبة أو مطابقا لمنحنى معين ولكن المهم أن كل تطور يبتدأ لا يلبث أن يصل الى نهايته ويبدأ تطور جديد وهكذا •

وقد تعود الثقافة فى مجرى هذه التغيرات غير التامة وغير المنتظمة الى بعض الحالات التى كانت عليها سابقا • وبذلك يقترب التطور الى ما يشبه الدائرة كما هو متوقع فى تاريخ المجتمع الانسانى •

ويمكن تفسير حركة التطور هذه — بالآثار التى يتركها أحد صغار الدجاج فى سيره على الرمال — فبالرغم من أنه يستمر فى الحركة الا أنه يغير اتجاهها باستمرار فى دوائر غير منتظمة — ولكن الشىء الثابت فى حركته أنه بالرغم من استمرار تقدمه الا أنه لا يتبع طريقه ولا يحافظ على اتجاهه فى دقة وتحديد ••• الخ •

ويرى على أساس الدراسات والابحاث المستفيضة التى ضمنها كتابه الكبير[5] أن الثقافة وان كانت لا تسير على نظام أو اتجاه معين أو تتبع

(5) Sorokin, P. A., Social and Cultural Dynamics (4 Vols.) New York, 1937-1941.

خطوطا دائرية فانها تتميز بخاصية دائمة وهذه الخاصية ترتد فى صميمها الى الروح العامة أو المظهر المميز العام — وتتلخص فى أن الثقافة تميل الى التذبذب فى فترات غير منتظمة بين ثلاث نماذج ثقافية كل له أصوله العامة وأسسه الروحية وما يصاحبه من بناء اجتماعى خاص •

١ — الاول هـو الثقافة الفكرية : وفيها تدرك الحقيقة على أنها شيء غير محسوس وغير مادى وهذا يؤدى الى قيام ضرب من الادب الروحى والموسيقى والى قيام حـكومة ثيوقراطية ونظـام عـقلى فى التنظيم الاجتماعى واتجاه رمزى تجريدى فى الفن •

٢ — الثانى هـو الثقافة المادية أو الحسية : وتتميز بأن الحقيقـة واقعية تجريبية — ومن ثم فالاتجاه الى الحكومة الاوليغراكية أو الى الادب الواقعى والفلسفة الابيقورية •

ويعتقد سوروكين أن الثقافة الغربية وصلت اليوم الى أقصى مراحل الثقافة الحسية أو المادية وهى بسبيلها اليوم الى التحول الى الثقافة الروحية أو المثالية •

٣ — الثقـافة الروحية أو المثالية : وتتميز بأن الحقيقة تتجـه نحو المثاليات والايديولوجيات سواء كانت أيديولوجيات سياسية أو اقتصادية أو دينية أو اجتماعية أى أن الاتجاه يكون الى الحكومات الديمقراطية والى الفلسفات المثالية الافلاطونية ويغلب التفكير الروحى على التفكير المادى • وتصبح المعرفة عقلية لا تجريبية •

هـذا ويختلف سوروكين عن فلاسفة التاريخ فى موقفه من تفسير التطور الاجتماعى التاريخى بوجه عام فهو :

أ) لم يقطع برأى محدد جازم فى الاتجاه الذى يتخذه هذا التطور بل وقف موقفا لا أدريا واكتفى بأن عـين الاحتمالات الممكنة فى هـذا السبيل •

ب) وهو بعد ذلك لم يبن تعميماته على أسس افتراضية أو على

مجرد تجريدات عقلية ، بل على أساس الابحاث العلمية الواقعية التى يقوم بها علم الاجتماع الذى يعد سوروكين من أعلامه فليس من عجب أن يكون كتابه السالف الذكر وما تبعه من كتب نقطة تحول عميقة فى الفكر الاجتماعى بصفة عامة وليس من مبالغة فى قول أحد اساتذة علم الاجتماع فى أمريكا «أن سوروكين أحد العقول الجبارة الخلاقة فى هذا العصر» .

فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع :

ومهما يكن من أمر الاتجاهات المختلفة فى فلسفة التاريخ فالغالب أن صفة واحدة تميزها جميعا وهى محاولة ارجاع الحوادث التاريخية جميعها الى عامل واحد أو الى قانون واحد ، يجمع فى كلماته القصيرة كل تاريخ الانسانية الحافل — مفسرا كل العلاقات الانسانية المتشابكة المعقدة ولاشك أن فى هذا غلوا كبيرا . ومع ذلك فقد كانت أبحاث علماء الاجتماع الاول تكاد تقترب من منهج فلاسفة التاريخ هؤلاء . فقد كانت هذه الابحاث تحاول جاهدة أن تجعل من ظاهرة معينة أو عاملا بعينه الاصل فى كل الظواهر ، وكانت تصدر فى صميمها عن اتجاهين .

١ — رغبة بعض علماء الاجتماع أن يصلوا الى تفسيرات عامة لها شكل التفسيرات الفلسفية . ولذلك فانه يصعب أحيانا أن نفصل دراساتهم عن مجال فلسفة التاريخ . ولكن فلسفة التاريخ طالما أنها لا تدخل فى تفسيرها العوامل المختلفة متمشية فى ذلك مع المنهج العلمى فلن تكون علم اجتماع . وانما الاصل أن تظل كما هى نوعا من أنواع المعرفة .

٢ — تأثر بعض علماء الاجتماع بالنزعة الميتافيزيقية فى البحث عن السبب الاول أو جوهر الاشياء ، ولهذا يعد من هذا القبيل كل الابحاث الاجتماعية التى تفسر التاريخ بالاضافة الى العامل العنصرى أو الجغرافى أو ما اليها . وان كانت قد أشارت الى أثر العوامل الاخرى فبطريقة عرضية لم تظفر منهم بعناية أو التفات جدير بها .

وهم فى هذا الاتجاه أيضا كانوا أقرب الى فلسفة التاريخ منهم الى

علم الاجتماع الصحيح اللهم الا فى بعدهم عن الاصطلاحات الفلسفية ودقة أبحاثهم وشمولها واحاطتها بموضوع البحث احاطة علمية نوعا ما٠

وأخيرا فان فلسفة التاريخ تعد الان مرحلة ما قبل علم الاجتماع ٠ أو الاصح أن نعتبرها المحاولة الاولى لاقامة علم الاجتماع ٠ ولكن بعد قيام علم الاجتماع كعلم مستقل له أصوله وطرائقه وموضوعه الخاص به فليس من مبرر اليوم لبعض من لايزال يفرق بين فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ٠ شأنهم فى ذلك شأن من لايزال يناقش انفصال العلوم عن الفلسفة محاولا أن يبين أن الفلسفة لاتزال تحتضن العلوم جميعا ٠

هذا وقد أصبح علم الاجتماع اليوم من أهم العلوم ــ وأصبحت العلوم الاجتماعية على الخصوص تتلقى نتائجه وأبحاثه فى عناية وتحاول على ضوئها أن تدعم من دراستها وتقيمها على أسس أكثر ثباتا ويقينا٠ فهو فى الحقيقة يسدى خدمة مزدوجة اليها ٠

١ ــ ففى الناحية الموضوعية : يزودها بالحقائق والمسلمات التى وصل اليها من استقصائه الشامل ، ويعرض عليها هذه الامور بما فيها من دقة فى الفهم والبحث ٠

٢ ــ وفى الناحية المنهجية : يزودها بالمناهج العامة التى تصلح لدراسة أو المناهج المناسبة لكل علم من هذه العلوم حتى تكون الدراسة أتم وأوفى ٠

ملاحظة عامة ان دراسة المجتمع عند فلاسفة اليونان لم يكن القصد منها الوصول الى معرفة علمية محققة عن ظواهر المجتمع ، وانما كانت تهدف أساسا الى المساعدة فى بناء مجتمع مثالى ، فأفلاطون مثلا حاول أن يقدم فى «الجمهورية» نموذجا لمجتمع مثالى يتولى حكمه الفلاسفة ، وشجع تلاميذه أن يقيموا مثل هذا النظام السياسى فى بعض جهات اليونان أو الجزر التابعة لها ٠ أما «السياسة» عند أرسطو ، فهى فى واقع الامر مرشد أو دليل لرجال الدولة ليدلهم على أفضل الطرق وأحكمها فى الحكم وبناء مجتمع فاضل ٠ ولا يمثل هذان المؤلفان الطابع

اليوتوبى للتفكير اليونانى الاجتماعى فحسب ، بل انهما لم يميزا فى الحقيقة بين دراسة المجتمع ونظمه وبين دراسة الحكومة والنظم السياسية .

ويتميز التفكير الاجتماعى القديم بخصائص ثلاث ضرورية لفهم تطور علم الاجتماع :

١ — لقد فشل هذا التفكير فى التمييز بين دراسة الانساق السياسية وبين دراسة البناءات الاجتماعية .

٢ — وأدى الاهتمام الاول والذى كان موجها لخلق مجتمع مثالى، الى تعويق الاتجاه الموضوعى لدراسة الظواهر الاجتماعية .

٣ — أدى الاهتمام بالبحث عن أصل النظم السياسية والاجتماعية وتحديد مجرى التاريخ الى تركيز الانتباه على الحوادث التاريخية ذات الطابع غير المتكرر ، الامر الذى أدى الى الابتعاد عن فحص الانماط الاجتماعية المتكررة فى الزمان والمكان .

ولا يعنى ذلك أن الفلسفة الاجتماعية القديمة لم يكن لها نظرات نافذة وخلاقة ازاء بعض مسائل الحياة الاجتماعية . ولا نستطيع أن ننكر أن التفكير الاجتماعى الذى أتى بعد ذلك ترسم الطريق الذى خططه وسار فيه كبار الفلاسفة القدماء ، ولكن الذى نعلمه أن نمو علم الاجتماع فى الوقت الحاضر يسير فى اتجاه معدل للمسائل الثلاث السابقة : دراسة البناء الاجتماعى ، والنظرة الموضوعية للظواهر الاجتماعية ، والتركيز على الانماط الاجتماعية ذات الطابع المتكرر[6].

ولعل أهم تجديد جاء بعد الفلسفة الاجتماعية التقليدية هو ما يعرف باسم نظريات العقد الاجتماعى . فلقد سادت فكرة العقد الاجتماعى منذ أن حددها بوضوح خلال القرن السادس عشر توماس هوكر Thomas Hooker ويعتبر كل من توماس هوبز وجون لوك أكبر من يمثل هذا

---

(6) Bau, P. M., Moore, G. W., Sociology, in Hoselit, B. E. A. Reader's guide to the Social Sciences Illinois, 1960.

الاتجاه فى التفكير السياسى والاجتماعى • فلقد زعم هوبز أن حالة الطبيعة هى حرب الانسان ضد أخيه الانسان ، ولقد دخل الناس فى عقد ليهربوا من هذه الحالة • ولهذا فان الحكومات مشروعة بسبب هذا العقد الاصلى ومن ثم فوجود الحكومة ليس مرتهنا بموافقة المحكومين أما لوك فانه يعارض رأى هوبز معارضة جوهرية ذلك لانه يرى أن الانسان بطبيعته اجتماعى ، وأن حالته الطبيعية هى حالة يسودها السلام • والناس يدخلون العقد الاجتماعى لحماية حقوقهم فى المحل الاول،ولهذا فان موافقة المحكومين شرط أساسى للحكومات الشرعية • واذا اعتدت الحكومة على العقد الاجتماعى فان الناس يجب أن يخلعوها لان خلعها يعتبر واجبا وأمرا أخلاقيا معا •

ونحن لا نرى فى أقوال هوبز أو لوك أو غيرهما ممن اتجه مثل هذا الاتجاه غير نوع من الجدل الذى لا يقوم على أساس علمى ، ذلك لان هدفهم الاصلى اقامة فلسفة سياسية ولم يكن تحليل المجتمع فى اعتبارهم ، وعلى هذا يمكن القول ، ان تأثير نظرية العقد الاجتماعى يقع فى المحل الاول فى ميادين الاخلاق والسياسة • ومما لاشك فيه أن خلط التفكير السياسى بالتفكير الاجتماعى فى العصر الذى ازدهرت فيه نظرية العقد الاجتماعى وما بعده أدى الى تعويق نمو التفكير الاجتماعى المستقل فى المجتمع• أو بمعنى آخر لم يتيسر للمجتمع كحقيقة موضوعية أن ينفصل فكريا وموضوعيا عن الدولة ليصبح محل دراسة • ويكاد أن يجمع مؤرخوا التفكير الاجتماعى على أن انفصال النظرية السياسية عن النظرية الاجتماعية كان أول علامة على قرب ميلاد علم الاجتماع •

ولا نستطيع فى هذا المقام أن نزعم أن عبد الرحمن بن خلدون كان مفكرا فى المجتمع بمعنى أنه درس بناءه أو ظواهره أو أنماطه المتكررة ، لانه كان مفكر دولة فى المحل الاول بنفس الطريقة التى فكر بها الفلاسفة الاجتماعيون فى عصور ما قبل عصر النهضة وما بعدها • ويحسن أن نلاحظ هنا أن مقدمته التى نادى فيها بضرورة انشاء علم للعمران انما كانت اتجاها منهجيا منه فى محاولته الاصيلة ليستعين به فى المحل الاول

لفهم التاريخ واعـادة كتابته على نحـو صحيح • ان اقتران مفاهيم التاريخ والدولة والمجتمع فى مقدمة ابن خلدون جعلته يحتل مكانا مرموقا من غير شك فى دراسات التاريخ والسياسة وعلم الاجتماع • ونحن حين نبرزه من بين مفكرى العرب فانما نفعل ذلك من أجل محاولته المنهجية وتحليله لنمطى المجتمع القديم الذى عاش فيه وهمـا النمط الحضرى والنمط البدوى • واذا كان لنا أن نضعـه فى مكان مميز بين المفكرين الكبار فاننا لا نتردد فى وضعه بين الفلاسفة الاجتماعيين • أما أن نحكم عليه فى مناسـبات مختلفة بأنه مؤسس التـاريخ ومؤسس الاقتصـاد ومؤسس السياسة ومؤسس علم الاجتماع ورائد المنهج العـلمى فلن يفيد ذلك شيئا فى فهم هذا الرجل أو فى تقدير أعماله •

هذا ويمكننا أن نقول ان القرن التاسع عشر حمل معه بالنسبة لعلم الاجتماع نقطة التقاء وافتراق معا بالنسبة للتفكير الاجتماعى العام • فمن حيث الالتقاء شارك العلوم الاجتماعية التى ظهرت قبله فى محاولتها فهم المجتمع ، ومن حيث الافتراق انفصل عن السياسة لوضوح الفرق بين دراسة الحكومة وبين دراسة المجتمع • ولقد اقترح سان سيمون فى القرن التاسع عشر اقامة علم جديد للدراسة المنظمة للتغيرات فى الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى تمخضت عنها الثورة الصناعية والتقـدم العلمى ، ولكنه تصور أن مثل هذا العلم الجديد سوف يكتشف القوانين العامة التى ترسم الحركة نحو السعادة الاجتماعية • وهو مثل لفلاطون ولكن بصورة أخرى حين نادى بضرورة وضـع مسئولية حكم المجتمع وقيادته فى يد العلماء الاجتماعيين • ولكن هذه الافكار أخذت اتجاهـا جديدا وثوبا آخر على يد أوجيست كومت تلميذ سان سيمون •

الفصل الثاني

ميدان علم الاجتماع

ميـدان عـــلم الاجتمــاع

أول من اسـتخدم كلمة علم الاجتماع Sociology هو أوجيست كونت في عام ١٨٣٩ • وكان يريد أن يسمى العلم الجديد «الفيزياء الاجتماعية» ولكنه عدل عن هذه التسمية بعد أن شرع العالم البلجيكى أدولف كتليه Adolphe Quételet ، فى اجراء دراسات احصــائية عن المجتمع ، وسمى محاولته هذه «الفيزياء الاجتماعية» • وجدير بالذكر أن كونت أدرك منذ عام ١٨٢٢ ؛ مع «سان سيمون» ضرورة هذا العلم الجديد ، فكتب فى «السياسة الوضعية» يقول «لدينا الان فيزياء فلكية ، وفيزياء أرضية ، آلية أو كيمائية ، ولدينا فيزياء نباتية وفيزياء حيوانية» ، ولكننا لانزال فى حاجة الى فيزياء أخــرى وأخيرة ، «الفيزياء الاجتماعية» لنستكمل نسق معرفتنا بالطبيعة • وأننى أعنى بالفيزياء الاجتماعية ، العلم الذى تكون دراسة الظواهر الاجتماعية فيه موضوعية ، على أن ينظر الى هذه الظواهر بنفس الروح التى ينظر بها الى الظواهر الفلكية أو الطبيعية أو الكيميائية أو الفسيولوجية • وبمعنى آخر تخضع الظواهر الاجتماعية لقوانين لاتتغير ، يكون اكتشافها هو الموضوع الأساسى للاستقصاء»[1]

أما كلمة علم الاجتماع باللغة الانجليزية فهى خليط من أصل لاتينى ويونانى • كما أن جزئيها المكونين لها يصفان ما يحاول العلم الجديد أن يشرحه • فكلمه Logy تشير الى أو تتضمن دراسة على مستوى عال ، بشرحه • فكلمة Socio الىَ المجتمع • وهكذا يعنى علم الاجتمــاع من النــاحية الاشتقاقية ، دراسة المجتمع على مستوى عــال من التجريد والتعميم •

(1) Reprinted in Positive Politics, Vol. IV, Appendix, pp. 149-150 (Timasheff, P. 19).

تعريف علم الاجتماع :

التعريف السابق لعلم الاجتماع ، يفترض أن الباحث أو القارىء يعلم ما هو المجتمع ، الذى هو الاخر فى حاجة الى تعريف . ومن أجل هذا ظهرت مشكلة تعريف علم الاجتماع منذ اليوم الاول لنشأته . ولم يكن التعريف سهلا أو أمرا يمكن الاتفاق عليه دون جدل ، ذلك لان تعريف علم الاجتماع مرتبط ارتباطا تاما بموضوعه ومنهجه بل وبعلاقاته بغيره من العلوم الاجتماعية وغير الاجتماعية . وقد ترتب على ذلك أن تعددت تعاريف علم الاجتماع بتعدد العلماء وبتعدد النظريات والمذاهب التى اتجهت وجهات متعارضة فى تحديد الحقيقة الاجتماعية وتفسيرها . وخير تعريف اذن لعلم الاجتماع انما نستنبطه من مجرى التاريخ ، لان علم الاجتماع جزء من التطور الفكرى الكبير الذى مر من الدين خلال الفلسفة الى العلم . وهذا يبدو بوضوح من أن هناك خصائص معينة فى علم الاجتماع الحديث ، لا يمكن فهمها ، الا بردها الى ظروف نشأته الاولى . والقول المأثور ، بأن العلم يبنى نفسه مبتعدا عن الفلسفة ، يأخذ العلوم الطبيعية مثلا على ذلك . وهى العلوم التى كانت طليعة التفكير العلمى المنفصل عن التفكير الفلسفى . وقد أصبح هذا القول حقيقة تركت آثارها على كل العلوم الاجتماعية بما فى ذلك علم الاجتماع . فاذا اكتشفنا العلاقات الاولية لعلم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية الاخرى ، واذا اكتشفنا ارتباطه بالحركات العقلية والايديولوجية التى انبثق منها تاريخيا ، أمكننا أن نقترب من رسم الحدود للمنطقة التى يطالب علم الاجتماع أن يختص بها . وبالتالى يمكن أن نصل الى تعريف دقيق له .

ومن [illegible] أن نستعرض عددا من تعريفات علم الاجتماع التى تنبع من اطارات مختلفة من المفاهيم العامة فى النظرية السوسيولوجية، والتى تصور فى نفس الوقت مدى التقارب الذى يتجه اليه علماء الاجتماع فى بعض المسائل الاولية كتعريف العلم :

— مال كثير من علماء الاجتماع منذ ظهور علم الاجتماع حتى

اليوم ، الى تعريف مختصر وهو أن علم الاجتماع «علم المجتمع» باعتبار أن المجتمع عبارة عن سلوك أى جماعة مكونة من أعضاء (كائنات) يحيون حياة متساندة ووسيلتهم الى ذلك التفاعل والعلاقات المتبادلة . وعلى ذلك يكون موضوع علم الاجتماع دراسة السلوك الاجتماعى الانسانى مع التأكيد على أهمية التفاعل الانسانى الذى يعبر عن سلوك الانسان فى علاقته بانسان آخر ، ولهذا يميل من يؤيد هذا التفسير الى تعريف علم الاجتماع بصورة أكثر تحديدا على أنه «المجموعة من التعميمات المترابطة تدور حول السلوك الاجتماعى الانسانى الذى نصل اليه عن طريق استخدام المناهج العلمية»[2] .

وحجة المؤيدين لهذا التعريف تقوم على أن العلوم جميعا تدرس السلوك وما يترتب عليه من نتائج أو تسجيلات (الثقافة) . وكل علم يأخذ اسمه الذى يعرف به من نمط السلوك الذى يهتم بدراسته . وغير صحيح تلك التفرقة التى يحاول البعض أن يقيمها بين العلوم التى تدرس السلوك (العلوم السلوكية) أو العلوم التى تدرس المادة ؛ وكل ما فى الامر أن العلماء الاجتماعيين يدرسون السلوك الماضى (القديم) الذى ينعكس فى الثقافة ، والسلوك المعاصر ، ويمثل النوعان من السلوك الموضوعات الاساسية فى الدراسة السوسيولوجية[2] .

وربما كان جورج لندبرج من أبرز من يأخذ بهذا التعريف. ويتضح من مناقشته ، أنه يزعم أن العلوم الاجتماعية ، وعلم الاجتماع بصفة خاصة لا تفترق عن العلم الطبيعى ، ومن أجل هذا كانت مناهج هذا العلم الاخير صالحة للتطبيق فى ميدان علم الاجتماع ، كما أنه من الممكن استعارة المصطلحات والمفاهيم العامة والاتجاه النظرى للعلوم الطبيعية واستخدامها ، مع جعلها ملائمة (لنمط السلوك) الذى يعالجه علم الاجتماع ، واذن فعلم الاجتماع فى نظر لندبرج والمؤيدين للاتجاه الوضعى عامة ، علم طبيعى مثل الطبيعة أو الكيمياء ومع ذلك يبرز تعريف لندبرج عدة عناصر هامة يهتم لها علم الاجتماع ــ بغض النظر

(2) Lundberg, Schrag, Larsen, Sociology, New York., 1958, pp. 6-7.

عن المنهج أو طريقة المعالجة — وهي الجماعة كوحدة أساسية في التحليل، والسلوك الذي يعبر عن تساند علاقات أعضاء الجماعة ، والتفاعل الذي هو شرط التعرف على السلوك المكون للظاهرة الاجتماعية .

٢ — ويعرف أجبرن Ogburn ونيمكوف Nimkoff علم الاجتماع من خلال مناقشتهما للتعريف الموجز له «بأنه الدراسة العلمية للحياة الاجتماعية» فيقولان ، أن الحياة الاجتماعية تقوم على التفاعل، والتفاعل يؤدي الى التنظيم الاجتماعي ، الذي يؤدي بدوره الى خلق أشياء كثيرة كالمباني والموسيقى والاخلاق والآلات — أي الى خلق الثقافة . ومادام علم الاجتماع يدرس هذا كله فانه صالح لان يكون علما عاما يعالج الخصائص المشتركة بين الجماعات والمجتمعات المختلفة[٣] .

وواضح أن اجبرن ونيمكوف يتفقان مع لندبرج في أهمية الجماعة والتفاعل ، ولكنهما يضيفان التنظيم الاجتماعي ، كما أنهما يتفقان معه أيضا في اعتبار الثقافة (نتيجة التفاعل المنتظم) جزءا لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية ، موضوع علم الاجتماع . ولذلك يمكن القول أن الفرق بين التعريفين السابقين فرق لا يكاد أن يذكر .

٣ — أما التعريف الذي يرتضيه سوروكين فيرى أن علم الاجتماع علم عام وخاص في نفس الوقت . فهو عام لانه يدرس الخصائص العامة للعالم الاجتماعي الثقافي ككل ، وهو خاص لان دراسة هذه الخصائص تقتضي تخصصا لا يقل عن تخصص علم الطبيعة أو علم الاقتصاد . ومن أجل طبيعة علم الاجتماع التعميمية فانه ينقسم الى علوم اجتماع خاصة ، يتناول كل منها نوعا معينا من الظواهر يركز على دراستها وفي الذهن دائما ترابط الظواهر وتساندها . ويرى سوروكين أن تعريف علم الاجتماع بالصورة التي ارتضاها هو التعريف المنطقي الواقعي ، وذلك

(3) Ogburn, Nimkoff, A. Handbook of Sociology, London, 1960, pp. 13-15.

فانه يعتقد أن التعريفات الاخرى كالقول بأن علم الاجتماع علم الثقافة أو المجتمع أو العلاقات الانسانية أو التفاعل الاجتماعي أو صور العلاقات الاجتماعية ، تعريفات غير دقيقة ، لانها لا تبرز الخصائص المميزة لعلم الاجتماع ، كما أنها لا تحدد مكانه بالدقة من العلوم الاجتماعية الاخرى[4] وفى موضع آخر يرى سوروكين أن الحقيقة الاجتماعية البنائية ذات أبعاد أو أجزاء متداخلة هى الشخصية والثقافة والمجتمع ، ومن ثم بنى تحليله لعلم الاجتماع على دراسة بناء هذه الاجزاء وتغيرها وعلاقتها كل بالاخر ومدى التأثيرات المتبادلة بينها .

من هذا نتبين أن سوروكين يرى أن العالم الاجتماعى الثقافى موضوع علم الاجتماع يتكون من هذه الحقيقة الثلاثية الاطراف ، وأن دراستها من الناحية البنائية والوظيفية والدينامية ، هى التى تميز علم الاجتماع كعلم عام وخاص فى نفس الوقت . واذن فسوروكين يرى أن تكون دراسة الثقافة جزء لا يتجزأ من علم الاجتماع .

٤ — ويعتبر موقف سوروكين من الثقافة مخالفا الى حد كبير لموقف روبرت ماكيفر R. Maciver الذى يرى أن علم الاجتماع دراسة للعلاقات الاجتماعية التى يتكون من نسيجها المجتمع . كما أنه يعتقد أن علم الاجتماع بدراسته للمجتمع على هذا النحو ، يحدد علاقته من العلوم الاخرى ، لانه لا يوجد علم آخر يجعل «المجتمع» موضوعه الاساسى فى الدراسة[5] . ومعنى هذا أن ماكيفر يرى أنه طالما كان موضوع علم الاجتماع دراسة المجتمع ، فانه لا يدرس الثقافة ، ولا يتعرض لها الا فى أضيق الحدود عندما تكون الاشارة الى المؤثرات الثقافية ضرورية فى فهم العلاقة الاجتماعية أو المجتمع ككل . ويحاول ماكيفر أن يبرر وجهة نظره فيقول ، اننا فى علم الاجتماع لا ندرس الدين كدين ولا الفن كفن ولا الاختراع كاختراع ، والا فسوف نواجه كل نشاط الانسان وكل

(4) Sorokin, P., Society, Culture and Personality, N. Y., 1947., p. 17.
(5) Maciver, Page, Society, London, 1953, pp. V-VI.

ما تعلمه خلال تاريخــه الطويل • وربما كان ماكيفر يعتقد أن دراسة الثقافة تفصيلا وبيان آثارها على الحياة الاجتماعية موضوع علم آخر هــو الانثروبولوجيا الثقــافية[6] • ولكن القــدر الذى يعطيه علماء الاجتماع اليوم للثقافة واهتمامهم بابرازها فى التحليل السوسيولوجى، يدل على أن علم الاجتماع وهو يحاول أن يتعمق الحقيقة الاجتماعية ، يجتهــد فى أن يبرز المؤثرات الهامة فى بنائها وتغــيرها • وربما كانت دراسات التغير الاجتماعى هى النقطة الحــاسمة فى الرد على ماكيفر ، لان أحدا فى ميدان علم الاجتماع لا يستطيع أن يدرس التغير دون أن يركز على أهم عوامله «الثقافة» •

٥ ــ وعلى الرغم من كثرة التعريفات التى قدمها علماء الاجتماع، الا أن جونسون وهو يمثل أحد المؤيدون لاتجاه الفعل الاجتماعى يميل الى التعريف الذى يتجه مباشرة الى الموضوع الرئيسى الذى يعــالجه علم الاجتماع والذى يميزه عن غيره من العلوم الاجتماعية ويبرز أهمية التفاعل الاجتماعى •

فعــلم الاجتماع هــو العلم الذى يتنــاول بالدراسة الجمــاعات الاجتماعية ، من حيث صور أو نماذج تنظيمها الداخلى • والعمليــات التى تميل الى استمرار أو تغير هذه الصور التنظيمية والعــلاقات بين الجماعات[7] وموضوع الجماعات الاجتماعية معقد للغاية بحيث يتطلب لمعــالجته معالجة علمية ، مفاهيما محدودة ، واصطلاحات فنية معرفة تعريفا جامعا • كما أن كلمة «الجماعات» وهى ذات استعمال شائع فى اللغة العادية ، تحتاج هى الاخرى ــ وفيما بعد ــ الى مراجعة تعريفها وتحديدها بدقة لتؤدى الغرض الذى تنشده من الدراسة العلمية لها •

ويقول ، لسنا فى حاجة الى تأكيد أهمية «علم الجماعات الاجتماعية» ذلك أن كلا منا ولد فى جمــاعة أسرية ، كما أن معظم أفعالنا من يوم الولادة حتى الان تمارس فى حدود طاقتنا كأعضاء فى جماعة أو أخرى•

---

(6) Ibid., p. 55.
(7) Johnson, H., Sociology, London, 1961, p. 2.

كذلك فإن كل المشاكل الاجتماعية مثل انحراف الاحداث أو التمييز العنصرى أو الاسكان غير الملائم أو التربية أو الحرب لها علاقة وثيقة بوظائف الجماعات أو بالعلاقات التى تربط أحدها بالاخـــر • كما أن السياسة الاجتماعية تستنير الى حد ما بالمعرفة الوثيقة بجماعات معينة• والمعرفة المحققة للعمليات التى تحافظ على تنظيم الجماعة أو تغييرها تكون أكبر عون فى حل المشاكل الاجتماعية ، كما أن أكثر مثلنا التصاقا بنا وأهدافنا ومعتقداتنا تأخذ صورتها متأثرة بالجمـــاعة التى نشارك فيها أو نود المشاركة فيها • وعلى ذلك يجب أن يسهم علم الاجتماع بشىء ما فى معرفة الانسان بذاته • وفضــلا عن هذه القيم العملية لعلم الاجتماع ؛ فان البحث فيه يمكن أن يكون شيئا فى حد ذاته مثل أى محاولة أخرى جادة لاكتشاف الحقائق وشرحها فى ضوء نظرية مكتملة متسقة •

وتظهر أهمية الجماعة عندما يتفاعل شخصان ، فان كلا منهما يدخل فى اعتباره الاخر ، ليس كموضـوع أو شىء فيزيائى ، ولكن كفـــرد له اتجاهات وتوقعات ، وقدرة على الحكم ، ولذلك فان تصرف ــ فعل ــ كل منهما يقـــوم الى حد ما على اتجاهاته نحـــو الاخر وعلى توقعاته لاستجابات الاخر المحتملة[٨] •

ويرى جونسون أن تحديد فكرة الجماعة كنسق اجتماعى أو كنسق للتفاعل الاجتماعى تبدأ بالتمييز بين الجمـــاعات والعلاقات الاجتماعية بصفة عامة • فيقول ان العلاقة الاجتماعية تقوم الى المدى الذى يتفاعل فيه فردان أو أكثر أو جماعتان أو أكثر أو أفراد وجماعات مع أى عدد منها • والعلاقات الاجتماعية تختلف عن التفاعلات المؤقتة مثل تبـــادل التحيات الى الانساق الدائمة للتفاعل مثل الاسرة أو الصداقة الوطيدة• وقد يكون بين طرفى العلاقة الاجتماعية وئام أو عداوة ، فقد يتعاونان كل مع الاخر أو قد يحاولان تدمير أحدهما الاخر • ولذلك تكون العلاقة بين جيشين متعارضين ، من هذه الزاوية ، علاقة اجتماعية •

---

(8) Ibid., p. 4.

وكل الجماعات عبارة عن علاقات اجتماعية ، ولكن ليست كل العلاقات الاجتماعية جماعات ، فالجماعة من حيث الاصطلاح تتضمن درجة من التعاون بين أعضائها للوصول الى أهداف مشتركة • ودرجة التعاون قد تكون سطحية وقد تكون اجبارية ، ولكن بدون درجة معينة من التعاون لاتكون هناك جماعة • ومع وجود التعاون بين أعضـــاء الجماعة ، فان هذا لا يمنع وجود نوع من العدوان أو التضامن بينهم • ومثال ذلك تلك الاسرة التى يكون هناك اختلاف فى الاتجاهات بين أعضائها ، ومع ذلك لابد أن تتعاون ككل للحفاظ على البيت وتحضير الطعـــام والدفاع عن هؤلاء الاعضاء ضد أى خطر يتهددهم من العالم الخارجى • ونظرا لما لاعضاء الجماعة من حقوق وواجبات فانها (أى الحقوق والواجبات) تعتبر قواعد سلوكية ونمطا معياريا يتجــه اليه الاعضاء فى علاقاتهم أحدهم بالاخر ، ومن ثم يفصل هذا النمط المعيارى الاعضاء من غـــير الاعضاء[9] •

ويتضح من ذلك أن جونسون يعرف علم الاجتماع فى ضوء «الفعل الاجتماعى» الهادف الذى يتحرك لبلوغ غايته داخل جماعة ، وما يترتب على الوجود الجماعى من تفاعل وعلاقات وصور متعددة للنشاط تشمل كل مطالب الانسان • ونظرا لان «الثقافة» تهيىء وتعدل وتغير عددا كبيرا من مطالب الانسان هذه ؛ فان جونسون يهتم بدراستها وخاصة لما لهـــا من تأثيرات جـــوهرية فى عمليات هـــامة فى المجتمع كالتنشئة الاجتماعية • ويعبر كنجسلى ديفز Kingsley Davis عن أهمية الثقـــافة فى عـــلم الاجتماع بقوله ، اذا كان هناك عـــامل يفسر الوضع الفريد للانسان فى هذا العالم ، فهو «الثقافة» التى جعلت من مجتمع الانسان نوعا مختلفا أشد الاختلاف عن أى مجتمع آخر لكائنات حية أخرى • ولهذا تتضمن دراسة المجتمع الانسانى دراسة الثقافة بالضرورة ، كما أن تحليل هذا المجتمع يجب أن يتم على مستوى ثقافى ، ولعل أهم مايميز علم الاجتماع فى نظره ، دراسته للثقافة من حيث طبيعتها وأهميتها[10] •

(9) Ibid., pp. 5-6.
(10) Davis. Kingsley : Human Society; N. Y., 1955, pp. 3-6.

مما سبق نتبين أن الاختلاف فى تعريف علم الاجتماع ، هو فى الواقع اختلاف يمكن حصره فى نقطتين :

الاولى : خلاف على طبيعة العلم وخصائصه بالتطبيق على دراسة «المجتمع» • وينحصر الخلاف هنا على نوع الحقائق التى تصلح للمعالجة العلمية وخصائص المنهج الصالح للتطبيق ، ومثال ذلك ما ذهب اليه لندبرج من أن علم الاجتماع يمكن أن يستخدم مناهج وأفكار العلوم الطبيعية ، لانه هو الاخر علم طبيعى ، وما ذهب اليه آخرون من أن الحقيقة الاجتماعية من طبيعة مختلفة عن الحقيقة الطبيعية ، ولذلك تتطلب معالجة مختلفة •

والثانية : خلاف على الوحدة الاجتماعية فى التحليل السوسيولوجى وأبعادها ، أو بمعنى آخر ، كان الخلاف ولا يزال يدور حول الاساس الذى يقوم عليه المجتمع ، هل هو الفعل أو العلاقة أو الجماعة ، وأى منهم يمكن اعتباره أصغر وحدة (خلية أو ذرة) تصلح كنقطة بدء فى الدراسة • ونحن لو تغاضينا مؤقتا عن هذه الاختلافات نستطيع أن ندرك أن الاختلاف على النقطة الثانية أدى الى ظهور نظريات علمية تحاول أن تعمق اتجاها أو آخر وتخلق منه مذهبا قائما بذاته ، ولكن الذى يبدو واضحا أن التفاعل الذى يخلق العلاقة ويتم فى جماعة أو أصغر ، ويتخذ أنماطا متعددة تعينها الثقافة ، ويدوم فيحدد صور البناء الاجتماعى ويتبلور فى بوتقة الثقافة فيحدد طابع الشخصية هو الذى يرسم بحدوده وشروطه ونتائجه المتعددة الصور الكاملة لتعريف علم الاجتماع •

موضوعات علم الاجتماع :

اولا : لازال تقسيم أوجيست كونت لعلم الاجتماع الى موضوعين أساسين الاستقرار الاجتماعى Social Statics والتطور الاجتماعى Social Dynamics محل موافقة كثيرين من علماء الاجتماع فى مختلف أنحاء العالم من حيث الشكل على الاقل • وان كانت تسمية كل موضوع قد تعدلت الى تسمية الاول « البناء الاجتماعى » Social Structure

والثانى التغير الاجتماعى Social Change كما أن مضامين كل منهما تختلف اختلافا كبيرا فى كل أتجاه من اتجاهات عـلم الاجتماع المعاصر • ومن المألوف فى كتب علم الاجتماع المدرسية أن نجد المؤلف يقسم كتابه الى قسمين أساسيين : البناء والتغير ، ويحاول أن يضمن كل قسم عناصره ومقوماته المختلفة ، الامر الذى أدى خصوصا فيما يتعلق بفكرة البناء الاجتماعى الى قيام مناقشات كثيرة حول مفهومها ، وما يجب أن يدرس الباحث من عناصرها وما لا يجب • وتزداد مناقشة هذه الفـكرة عند المدارس المختلفة فى علم الاجتماع ، التى تتخذ اتجـاها محددا ازاء العلاقة الاجتماعية أو الفعل الاجتماعى أو العملية الاجتماعية •

وقد اتسع نطاق مناقشة فكرة البناء الاجتماعى فى علم الاجتمـاع بظهور الاتجاه البنائى الوظيفى ، الذى يقـوم فى جوهره على تصور المجتمع كبناء مكون من أجزاء متعددة تقوم كل منها بوظيفة محـددة ، وتترابط الاجزاء والوظائف لتكون كلا متكاملا ، وفكرة البناء والوظيفة قديمة فى التفكير السوسيولوجى • والجديد فيها يدور حول المضامين التى تلحق بها ، والتى تمثل فى أساسها اختلافات تحليلية أو منهجية • وقد كان اميل دوركايم من أوائل من أدركوا أهمية النظر الى المجتمع من زاوية البناء والوظيفة حين قسم دراسته الى المورفولوجيا الاجتماعية Social Morphology والفسيولـوجيـا الاجتمـاعية Social Physiology فالاولى دراسة للبناء الاجتماعى بالمفهوم الشائع الان فى علم الاجتماع بصورة ما ، والثانية دراسة للوظائف التى يؤديها هذا البناء فى أجزائه وكليـاته •

ولكن المهم هنا ، أن دوركايم حين كان يضع أساسا علميا لتبرير قيام علم الاجتماع كعلم مستقل ، ويعطيه مكانا بين العلوم الاخرى ، حاول أن يحدد ميدانه ويبرز أهم موضوعاته،فجعل الظواهر الاجتماعية الموضوع الرئيسى لعلم الاجتماع ، ومن ثم اجتهد فى تحديد خواصها التى تميزها عن غيرها من ظواهر الطبيعة أو الحياة غير الانسانية •

ولما كانت الظواهر الاجتماعية لاتشكل موضوع علم الاجتماع وحده،

بل انها محور بحث العلوم الاجتماعية الاخرى ، فقد حاول دوركايم أن يحدد الفرق بين معالجة علم الاجتماع للظاهرة الاجتماعية ومعالجة أى علم اجتماعى آخر لها . فعلى الرغم من النظرة التساندية الذى ينظر بها عالم الاجتماع للظواهر الاجتماعية ، والتى لا تظهر عند العلماء فى العلوم الاجتماعية الاخرى الا أن علم الاجتماع يدرس من الظاهرة الاجتماعية الجوانب التى تتصل بنشاط الانسان ككائن اجتماعى ينتمى الى المجتمع ككل . لا الى ناحية واحدة فيه كالناحية الاقتصادية وحدها أو السياسية أو الدينية ... الخ . وعلى ذلك ينقسم علم الاجتماع الى فروع بعدد الظواهر الاجتماعية . الامر الذى أدى الى ظهور علوم الاجتماع الخاصة كعلم الاجتماع الاقتصادى والسياسى والدينى والقضائى . وتكون مهمة علم الاجتماع العام حينئذ ربط النتائج العامة التى تصل اليها هذه الفروع وسن القوانين أو التعميمات التى تفسر الحياة الاجتماعية تفسيرا شاملا .

ولازالت هذه النظرة الى أقسام علم الاجتماع حية حتى اليوم . ومن المألوف أن نعثر على مؤلفات تعالج ظاهرة من ظواهر المجتمع على أن معالجتها فرع من فروع الدراسة . ومن أبرز الذين يسايرون هذا الاتجاه «سوروكين» فى تقسيمه علم الاجتماع ، الى علم الاجتماع العام . وعلوم الاجتماع الخاصة . بل ان تعريفه لعلم الاجتماع يبرز أهمية الخصائص العامة لمجموعات الظواهر الاجتماعية التى تكون أساس الحياة العامة فى المجتمع[11] .

ومع الاعتراف بأن الظواهر الاجتماعية تشكل ميدان علم الاجتماع، الا أن ابراز كل ظاهرة ودراستها كفرع مستقل ، اتجاه انصرف عنه كثير من العلماء اليوم . ذلك أن كل موقف اجتماعى ينطوى على تداخل عدد من الظروف لايمكن ردها الى سيادة ظاهرة واحدة ، وهذا الى جانب الصعوبات التى تواجه الباحثين فى التفسير الترابطى للحقيقة الاجتماعية،

(11) Sorokin., Society, Culture and Personality, New York, 1947, pp. 3-10.

وقد ترتب على ذلك أن ازداد الاتجاه الى النظر الى المواقف الاجتماعية أو الفعل الاجتماعي أو النسق الاجتماعي أو الجماعة كوحدات أساسية متكاملة فى البحث السوسيولوجي،ولعل أهم اتجاهات بارسونز Parsons ولندبرج Lundberg وماكيفر Maciver وأجبرن Ogburn والسوسيومترين تعبر عن ذلك أدق تعبير .

وهناك اتجاه آخر له أنصار كثيرون فى علم الاجتماع ، يتناول أقسام المجتمع أو أنماطه المختلفة بالدراسة كوحدات متميزة بنوع خاص من الحياة الاجتماعية نظرا للعوامل والظروف المتمايزة التى تؤثر على كل منها . ولذلك يدور اهتمام علم الاجتماع حول موضوعات مثل : دراسة المجتمعات المحليةCommunities التى تتميز بطابع جغرافى معين وبخصائص فارقة للسكان ، تفوقهم عن غيرهم من سكان المجتمعات المحلية الاخرى. ودراسة المجتمع القروى ، وتتخذ القرية مقياسا فى تحديد الفــرق بين هذا المجتمع وغيره من أنواع المجتمعات الاخرى داخل المجتمع الكبير ، ولما كان المجتمع القروى يتكون من وحدات كثيرة متشابهة بطريقة معينة، وكانت القرية خاصة على مستوى معين من التجريد ، فان القرية كمجتمع صغير تعتبر وحدة الدراسة ، أو التجمعات الاخرى التى تقوم حياتها فى المحل الاول على الزراعة ويشكل العمل الزراعى والمعيشة فى القــرية نظرة السكان للحيــاة . وقد نما هــذا الاتجــاه فى أمريكا بظهور علم الاجتماع «الريفى» واتخاذه الحياة الريفية الامريكية أساسا فى تحديد موضوعات الدراسة ، كمــا أنه اتخذ طريقا آخــر عندما شرع روبرت ردفيلد R. Redfield فى تطبيق مناهج وطرق الانثروبولوجيا الاجتماعية وخبرتها فى دراسة المجتمعات البدائية على المجتمعات القروية فى أنحاء العالم . وقام بنفسه وتلاميذه بدراسة عدة قرى فى المكسيك والهند والصين ومنطقة جنوبى شرقى آسيا . وكان الخط الاساسى فى أبحاثهم محاولة اكتشاف عناصر البناء الاجتماعى القروى ، وبيان العوامل التى تؤدى الى تغييرهــا ، كل ذلك فى ضــوء نظرية ردفيلد ، أن المجتمعات الصغيرة تتغير من مرحلة الفولك « Folk » الى مرحلة المدنية ، أى أن التغير فى القــرية يؤدى الى اكتسابها الخصــائص الحضرية للمدينة

بالتدريج[١٢] •

وقد استحدث علماء الاجتماع فى أمريكا دراسة علم الاجتماع الحضرى الذى يهتم فى المحل الاول بدراسة المدينة باعتبارها مجتمعا متميزا ، وقد تطورت الدراسة فيه وتشعبت فروعها • ويزداد الاهتمام به بزيادة المدن عددا وحجما • ولكن البحث فى هذا العلم يواجه صعوبات متعددة أهمها عدم تحديد موضوعه تحديدا دقيقا ، الى جانب تعدد أنماط المدن تعددا استعصى معه تعريف المدينة تعريفا علميا محددا ، وهذا بالاضافة الى أن المدينة نفسها لا تمثل مجتمعا واحدا ، بل عدة مجتمعات لتنوع أنماط الحياة الاجتماعية فيها خصوصا فى المدن الكبرى، ولعل هذا هو الذى أدى الى قيام فروع أخرى فى علم الاجتماع لدراسة التطور الذى حدث فى الحياة الحضرية ، وخاصة عندما تطورت الصناعة واتسع نطاقها وأصبح التصنيع وتوطين الصناعة من أدم الموضوعات التى تواجه سياسات الدول المختلفة وأهم فرع فى هذا الميدان هو علم الاجتماع الصناعى Industrial Sociology الذى يعتبر المصنع مجتمعا يمكن دراسة العلاقات والعمليات الاجتماعية فيه دراسة تؤدى الى مزيد من الفهم للعلاقات الانسانية المترتبة على تطور علاقات العمل والعمال فى الصناعة الحديثة •

ولقد لخص سبروت Sprott من وجهة نظره — الموقف «الموضوعى» فى علم الاجتماع فى أن مصادر اهتمام الباحثين دارت حول نقطتين هامتين :

الاولى : دراسة السلوك الاجتماعى الانسانى من حيث موضوعات السلوك واتجاهاته ونتائجه وارتباطاته المختلفة ، وتبلور هذا السلوك فى أنماط أو أنساق محددة يمكن كشفها ودراستها • ومن هذه الزاوية يصبح

(١٢) راجع فى هذا الموضوع :
Redfield, R., Peasant Society and Culture, Chicago, 1950
وكذلك : Redfield, R., The Little Community, Chicago, 1956.

الفعل الاجتماعي Social Action نقطة الارتكاز التي ينبعث منها الباحث لتحديد ميدان علم الاجتماع •

والثانية : دراسة المجتمعات الانســانية ، مثل الجماعات والروابط وأنواع التجمعات الاخرى ، باعتبارها الانساق الاجتماعية التي تمثـل قوالب محددة لانواع متعددة من العلاقات الاجتماعية[13] وعن طريق هاتين النقطتين اذن يمكن فهم المجتمع الانساني الذي يعتبره سبروت الموضوع الواسع لعلم الاجتماع •

وخلاصة القول ، ان علم الاجتماع في أطواره الاولى ، حاول رواده أن يحــددوا ما ينبغي أن يكون عليه ، من حيث مناهجــه وموضوعاته واتصاله بالعلوم الاخرى وعلى الاخص العلوم الاجتماعية ، ولكن النظرة الى العلم قد تغيرت اليوم ، ويدور البحث عن حقيقة علم الاجتماع في واقع الامر ، بعد أن جاوز مشاكل النشأة الاولى • وقد تعينت للظواهر الاجتماعية خصائصها النوعية ، وأصبحت قابلة للدراسة الكمية بفضل تقدم طرائق البحث الاجتماعي ، واتساع نطاق النظرية السوسيولوجية• ويمكن القول ان الظاهرة الاجتماعية أصبحت من حيث الدراسة منفصلة تماما عن الظواهر غير الاجتماعية ، كالظواهر الطبيعية والسيكولوجية•

وقد سبق دوركايم بتحــديد خصــائص الظــاهرة الاجتماعية ، واهتم بخــاصتي الخــارجية والعمومية ، ومعنى هــذا أنه حــاول أن يفصــل ميدان الدراســة في عــلم الاجتمــاع عن ميدان عــلم النفس باعتبار أن الظــاهرة الاجتماعية خــارجة عن نطــاق الفرد ، لا تستمد كيانها من دوافعه أو نزعاته ، كما أنها عامة تتردد في الزمان والمكان ، بمعنى أن علم الاجتماع لا يهتم بالظواهر غير المتكررة أو ذات الصفة العرضية أو الطابع الاقليمي البحت • ولكن الجدير بالذكر هنا ، أن علماء الاجتماع يتجهون في ثبات الان ، الى اعتبار التفاعل الاجتماعي Social Interaction أو العــلاقة ذات المعنى والهــادفة ، المقيــاس الاول

(13) Sprott, W. J. Q., Sociology. London, 1956, pp. 7-29.

«للوجود الاجتماعي» فلا يكون الموقف أو الحقيقة «اجتماعية» الا اذا انطوت على تفاعل . والتفاعل الاجتماعي يتطلب وجود اثنين أو أكثر من الافراد أو الجماعات ، ذات الصلة المباشرة أو غير المباشرة ، كما يتطلب في نفس الوقت الاعتماد الواعي للفعل الانساني بعضه على البعض الاخر[14] ، واذن فالظاهرة الاجتماعية التي يبحثها علم الاجتماع ، هي الظاهرة التي تستمد بناءها ووظيفتها من عمليات ونتائج التفاعل الاجتماعي بالمعنى المشار اليه .

ولما كان التفاعل يتم في وسط اجتماعي معين ، وينطوي على عمليات معينة تجمع وتفرق بين الافراد ، ويهدف الى أغراض شعورية واضحة، ويؤدي الى أنماط سلوكية محددة ، ويخضع لقيم وضوابط مسلم بها ، وتتمخض عنه نتائج ملموسة ، ويتغير متأثرا بعوامل متعددة ، فاننا نستطيع أن نحدد طبقا لذلك الموضوعات الاساسية في علم الاجتماع على النحو الاتي :

١ ـ الجماعات «الاجتماعية» Social Groups ، وهي التي ينتمي اليها «الناس» بطرق مختلفة ، وتعتبر الجماعة «نسقا System » له بناء معين يتكون من أجزاء ، كل جزء يؤدي وظيفة معينة في ضوء الوظيفة الكلية له . وتعتبر دراسة الجماعة أحد المداخل المهمة الان لدراسة علم الاجتماع[15] .

٢ ـ العمليات الاجتماعية الاطرادية Social Processes: وهي الصور الاساسية للافعال الاجتماعية من حيث الاغراض التي تتجه اليها ، والموجهات التي تعين مسارها ، ويعتبر التعاون والتنافس والصراع أهم العمليات التي يعالجها علم الاجتماع . ومن الملاحظ أن «الناس» في المجتمع يتجمعون ويتفرقون في آن واحد . ولذلك كان بحث أسباب التجمع والتفرق نقطة أساسية في دراسة علم الاجتماع ، ذلك لان التأكد

(14) Timasheff, N.S., Sociological Theory, Garden City, N.Y., 1955, pp. 293-298.

(15) Johnson, H. M., Sociology, London, 1961, p. 2.

من هذه النقطة سينكشف فى وضوح عن عناصر البناء الاجتماعى وطريقة ترابطها ووظائف كل منها فى ضوء وظائف الكل •

٣ ـ الثقافة Culture : وهى مجموعة الطرق الثابتة نسبيا ، وذات الصفة العامة للتفكير ، التى تكون فعالة فى مجتمع معين[١٦] ، أو هى نتاج العقل الانسانى من تفكير وعلم وفن وأدب وتكنولوجيا • ولذلك تكون الثقافة محفلا هاما فى دراسات علم الاجتماع ، لاننا اذا قلنا ، أن المكونات الاساسية للحياة الاجتماعية واحدة غير متغيرة فى المجتمع الانسانى من حيث الوظائف الاساسية والضرورية التى تؤديها ؛ وأن التغير انما يلحق شكلها أو وظائفها غير المصاحبة : تكون الثقافة هى العنصر الفعال فى هذا التغير ، فهى التى تؤدى فى واقع الامر الى الاختلافات الواسعة النطاق بين «النظم الاجتماعية» التى نشاهدها فى المجتمعات المختلفة، ومن أجل هذا كانت دراسة الثقافة ، دراسة العوامل الدينامية فى حياة المجتمع الانسانى •

٤ ـ الشخصية : وهى التى تكون موضوع التفاعل • والتفاعل فى حد ذاته لا معنى له الا اذا درس فى ضوء المؤثرات الثقافية • ويهتم علم الاجتماع بدراسة الشخصية لان المجتمع ليس الا مجموعة من الشخصيات •

٥ ـ التغير Change : وهو القانون الدائم فى حياة المجتمعات : فالتغير بالنسبة لها كالتنفس بالنسبة للكائن الحى • وتعتبر دراسات التغير أهم موضوعات علم الاجتماع اليوم • ذلك أننا حين ندرس موقفا أو نسقا اجتماعيا ، فاننا ندرسه باعتبار أنه ثابت نسبيا ؛ ولكن الواقع أننا نفعل ذلك على مستوى معين من التجريد ، بينما نعلم أن تمام الدراسة لا يكون الا بادخال عامل التغير دائما فى حسابنا • ودراسة التغير فى الثقافة والمجتمع ، تفترض الاهتمام بعوامله وعملياته واتجاهاته ونتائجه ، كما تفترض أن نخرج من هذه الدراسة بقدرة معينة على

(16) Timasheff, Op. Cit., pp. 293-298.

التنبؤ ، التى بدونها لايمكن أن نخطط ، ولا أن نقيم السياسة الاجتماعية على أساس سليم • وقد أنضجت دراسات التغير محاولات الباحثين لفهم عوامل التفكك والانحراف فى المجتمع،وزودت المهتمين بذلك بمعدات التحليل والتقييم ، والتشخيص والعلاج •

ثانيا ـ أهمية التفاعل المنظم Organised Interaction

سبقت الاشارة الى أن التفاعل الهادف هو الذى يخلق الظاهرة الاجتماعية ، ومن ثم كان محل أهتمام الباحثين فى علم الاجتماع ، لان معرفة طبيعته وعملياته واتجاهاته ، ضرورى لفهم أسس العلاقات الاجتماعية ، وتحديد الفعل الاجتماعى •

وعلى ذلك يمكن أن نحدد خصائص التفاعل من وجهات نظر متعددة على النحو الاتى :.

١ ـ التفاعل لا يتم فى الفراغ ، وانما يتم بين أفراد وجماعات فى المجتمع ، ولهذا فان مكونات موضوعات التفاعل تنقسم طبقا لعدد العناصر الداخلة فيه ، فقد يكون التفاعل بين اثنين أو ثلاثة أو كثير ، أو بين واحد وكثير ، أو بين كثير وكثير ، أو بمعنى آخر يمكن أن ندخل فى باب التفاعل العلاقة بين صديقين ، والعلاقات بين أعضاء الاسرة الواحدة ، والعلاقات الواسعة المدى فى المجتمع الكبير ، بشرط أن تكون هذه العلاقات جميعا ذات معنى بالنسبة للاطراف الممثلة لها •

٢ ـ أساس التفاعل «العلية» أى أنه لا يقوم على مقدمات لاتعقبها نتائج ضرورية ، ولا تنقطع سلسلة الاسباب والنتائج دون هدف مفهوم• ولهذا تنقسم عمليات التفاعل بالاضافة الى المكونات «ذات المعنى» التى تنظمها ، الى مكونات دينية أو عائلية أو قانونية أو اقتصادية أو سياسية وهكذا • ومعنى ذلك أننا نستطيع أن نصنف مكونات التفاعل الى صور بالاضافة الى الغرض أو الهدف المحدد الذى يظهر فى كل منها •

٣ ـ التفاعل يستخدم وسائل توصله الى غايته ، ولذلك يتم عن طريق موصلات كاللون أو الضوء أو الكهرباء أو وسائل الاتصال الاخرى

التى تصطلح عليها الجماعة • وهنا تبرز أهمية هذه الوسائل فى توضيح الاهداف والاعانة على بلوغها •

ولذلك اذا أخذنا جملة خصائص متشابكة ، تبينا أن التفاعل يأخذ نماذج كثيرة • فقد يكون وجها لوجه ، أو غير مباشر ، أو طويل الامد ، أو قصير الامد ، أو شديد التركيز ، أو ضعيف التركيز ، أو ممتدا ، أو ضيقا • والتفاعل من ناحية أخرى قد يكون من جانب واحد اذا أثرت جماعة فى مظاهر سلوك جماعة أخرى دون أن تتأثر ، وقد يكون التأثير متبادلا اذا أثرت الجماعتان كل منهما فى الاخرى • واذن فتحديد طبيعة التفاعل على النحو السابق يحدد أنواع العلاقات الاجتماعية التى تربط الافراد والجماعات ، ويحدد فى نفس الوقت أيضا موضوع هذه العلاقات • ومن ثم يمكن أن نصنف النشاط الاجتماعى فى المجتمع الى أقسام متمايزة • وهذا هو الذى يعين الباحث على تحديد موضوع دراسته فى الجانب الاقتصادى أو الاسرى أو الدينى ••• الخ ، لان كل نوع من هذا النشاط ينطوى على تفاعل يمكن أن نلاحظه ونحدد نوعه ومضمونه •

ويتركز الاهتمام فى علم الاجتماع على العمليات التفاعلية التى تتميز بالدوام وبالتكرار والتأثير العميق والنضوج ، لان الاهتمام بالامور العرضية أو الوقتية أو غير ذات الجذور العميقة فى توجيه السلوك الاجتماعى لا يتفق مع طبيعة البحث العلمى • كما أن العملية التفاعلية التى لها الصفات السابقة تؤدى الى خلق «ابنية اجتماعية أو ثقافية» كالجماعات والانساق الثقافية ، والى خلق «شخصيات» اجتماعية • تتميز تماما عن الكائنات البيولوجية • ولهذا يهتم عالم الاجتماع عند دراسة النظم الاجتماعية بالعمليات التفاعلية التى لها صفات التحديد والتضامن والتكامل ويسقط من حسابه العمليات العدوانية أو غير المنظمة أو المفككة ، وخاصة عندما لا يكون لها دور فى النظام الاجتماعى أو لا تدخل كعنصر أساسى فى بنائه ، أو لا ترتبط بالوظائف التى يؤديها •

والمثل الاتى يوضح ماذا نقصد بالعمليات التفاعلية التى تخلق

الجماعات : «الفرقة موسيقية مكونة من مائة عازف فى قاعة كبيرة ، وكل منهم يعزف على آلته الموسيقية دون أن يتسق مع الاخرين ، ونتيجة هذا ضوضاء غير مفهومة ، ولا نصل مطلقا الى اللحن السيمفونى» ولكن اذا خضعت هذه الفرقة لقائد ، وعرف كل عضو فيها دوره ووظيفته على وجه التحديد ، وعمل فى تآزر مع الاخرين العارفين لادوارهم ووظائفهم، تكون نتيجة عملهم المشترك «السيمفونية» واذا حدث بعد ذلك أن عزف كل على حدة ، فان النتيجة تتلخص فى أن كل عازف انما يصدر ازعاجا من نوع معين • ولذلك يقال ان الاوركسترا (الفرقة الموسيقية) فى الحالة الاولى كانت غير منظمة ، وفى الحالة الثالثة «مفككة» ومثل هذا يمكن أن يطبق على الجماعات • فهناك الجماعات المنظمة وغير المنظمة والمفككة ، ولكن الجماعة لا تكون لها خاصية التفكك الا اذا كانت منظمة قبلا • ويلقى هذا المثال الضوء من ناحية أخرى على الفرق بين التنظيم والتفاعل ، فالتفاعل لا يعنى التنظيم كما هو واضح فى الحالة الاولى من المثال • لان جلوس الفرقة الموسيقية فى قاعة واحدة كان على مستوى معين من التفاعل ، ومع ذلك لم يكن هناك تنظيم ، ومعنى ذلك أن التفاعل فى حد ذاته لا يؤدى الى التنظيم • ومن أجل هذا لا نستطيع القول بأن الجماعة المتفاعلة جماعة منظمة • واذن فيلزم الان أن نتحدث عن خصائص التفاعل غير المنظم والمفكك[17] •

الجماعة «الاجتماعية» باعتبارها مجموعة من الافراد المتفاعلين ككل، تكون منظمة عندما تصبح سلسلة المعانى والقيم التى تعتبر قاعدة التفاعل فيها ، متدفقة ومتناسقة من الداخل • وتكون موجهة فى نفس الوقت على أساس مجموعة من القواعد القانونية التى تنظم أفعال الاعضاء واستجاباتهم داخل الجماعة وخارجها عند الدخول فى علاقات مع أعضاء آخرين من جماعة أخرى • ومعنى هذا :

— أن القواعد القانونية تحدد بالتفصيل واجبات كل عضو

---

(١٧) استخدم هذا المثال كل من سوروكين ولنبرج ، ولكن بطريقة مختلفة لبيان الانماط المتعددة التى تكون عليها الجماعات فى الواقع •

وحقوقه ، ومع من ، وكيف ، ومتى ، والى أى حد ، وتحت أى ظروف يكون مرغما على عمل شيء أو اغفاله ، أو أن يتسامح أو يتشدد ؛ كما أنها تعين الوظائف والادوار المرسومة التى يجب على كل عضو أن ينهض بها ، وأخيرا تحدد مركزه فى نسق التفاعل (الجماعة) كما هو واقع على أساس مجموع حقوقه وواجباته ووظائفه وأدواره .

٢ ــ أن القواعد القانونية تبرز القانون وسلطة الجماعة بما لها من وظائف تشريعية وتنفيذية وقضائية .

٣ ــ أن القواعد القانونية عن طريق تعريفها للحقوق والواجبات، تعين بوضوح العلاقات أو صور التفاعل التى يمكن أن تقبل بين الجماعات.ولهذا نتبين من الدراسة أن هناك أنواعا مختلفة من العلاقات. كتلك التى يغلب عليها طابع القهر أو الالزام ، وغير المصرح بها أو الممنوعة ، أو التى يسمح بالدخول فيها .

٤ ــ أن القواعد القانونية تعمل فى ضوء ما سبق ، على اقامة جماعة متمايزة ، «كل وظيفى» يقوم كل عضو فيها بعمل معين يؤدى به وظيفة من وظائف الجماعة الكلية ، ويشغل مرتبة معينة فى سلم السلطات والمسئوليات .

ولا يجب أن يغيب عن بالنا دائما أن الجماعة لا تستطيع أن تقوم بوظائفها أو أن تنهض بالتزاماتها ، الا اذا اعتمدت على مصادر اقتصادية واضحة ومحددة ، فبغير هذه المصادر لا يمكن لجماعة أن تستمر فى الوجود فى حالة منظمة ، وأخيرا نلاحظ أن كل جماعة تصطلح على اسم أو رمز تعرف به ويصبح علامة مميزة لها،ويستمد غالبا من ايديولوجيتها.

ثالثا ــ اهمية الثقافة :

لا يمكن لباحث فى المجتمع الانسانى أن يتغافل « الثقافة » والا أصبحت دراسته فارغة المضمون . فالثقافة تتخلل كل جزء من أجزاء حياة الانسان الاجتماعية وتزحف على كل نشاط يقوم به وكل تفكير يخطر له وكل سلوك يقوم به . من أجل هذا يذهب كثير من علماء

الاجتماع اليوم الى القول بأن دراسة المجتمع تتضمن دراسة الثقافة ، مهما كان الجانب الذى ندرسه من المجتمع • ومثال ذلك أننا اذا كنـا بصدد دراسة الاسرة ، فان التفسير البيولوجى الذى يستبعد التفسير الثقافى كعامل جوهرى لا يمكن أن يصلح فى تحليل عناصر الاسرة أو وظائفها أو تغيراتها • ومن المسلم به أن أنماط الاسرة هى أنماط ثقافية فى واقع الامر • واذا كانت الثقافة مهمة على هذا النحو عند دراسة الاسرة ، فانها بالتالى تكون أهم عند دراسة نواحى التنظيم الاقتصادى والسياسى والدينى • ولا يعنى ذلك أن علم الاجتماع يهتم بالثقافة فى مجموعها وتفاصيلها ، لان مضمون الثقافة مختلف ومتنوع أشد التنوع فوق ما يحتاجه علم الاجتماع فى واقع الامر ، وهذا يتضح اذا عرفنا أن الثقافة تشتمل على الفن والموسيقى والعمارة والادب والعلم والتكنولوجيا والفلسفة والدين وأشياء أخرى قد لا يمكن حصرها • ولذلك فان معالجة مثل هذه الموضوعات بالتفصيل يحتاج الى دائرة معارف ضخمة جـدا وجيش من المتخصصين[١٨] •

ان أغلب علوم الانسان ــ وعلى الاخص العلوم الانسانية ــ علوم لدراسة الثقافة ، تعـالج مختلف الفـروع التى ينقسم اليها التراث الثقافى • ولكن اهتمام العالم الاجتماعى بالثقافة ينحصر فى الجانب الذى تؤثر به على الحياة الاجتماعية ، أو بمعنى آخر ينظر عالم الاجتماع الى الثقافة من وجهة نظر خاصة ، فيختار النواحى التى تلقى الضوء على السلوك والتنظيم الاجتماعى ، وخصوصا بالطريقة التى تجعل الثقافة عاملا أساسيا فى تعقد المجتمع الانسانى واستمراره • ولهذا فان دراسة الاختراع وتتبع انتشاره وآثاره يعتمد فى المحل الاول على التعرف على التقدم الثقافى وعلى الظروف الثقافية التى جعلت من هذا الاختراع أو ذاك ممكنا ، كما أن عالم الاجتماع لا يمكن أن يدرس أنمـاط التفاعل الاجتماعى كالقوانين والعادات وغيرها ، والنظم التى تهيمن على السلوك

---

(18) Kinksley, Davis; Op. Cit., p. 4.

الا اذا تعرف على تلك النواحى من الثقــافة التى تحدد هذه الانماط أو النظم •

ويعتبر سوروكين من أوضح علماء الاجتمــاع وأكثرهم اقتناعا فى ابراز أهمية الجانب الثقافى فى الموضوعات التى يعالجها علم الاجتماع، ويعتقد أن الذين يحاولون استبعاد الثقافة كلية من ميدان علم الاجتماع هم فى الحقيقة غير موفقين فى ادراك أبعاد الحقيقة الاجتماعية ، ويقول ، ان المحاولات التى تبذل لحصر ميدان علم الاجتماع فى الجانب الاجتماعى من الظواهر الاجتماعية الثقافية ، واستبعاد عامل الثقافة والشخصية ، محاولات تقوم على أساس خاطىء ، ومن المألوف أن نقرأ عند بعض العلماء ، أن علم الاجتماع يهتم بما هــو «اجتماعى» ومعنى هذا أن أنساق المعرفة والدين واللغة والتكنولوجيا وما يماثلها لا يجب أن نهتم بها • ولكن سوروكين يرى أن مثل هذه النظرية لا يمكن الدفاع عنها للاسباب الآتية :(١٩)

١ ــ اذا استبعدنا القيم الثقــافية ستصبح التفاعلات الانسانية ظواهر بيولوجية وفيزيائية ولن تكون ظواهر اجتماعية • واذا سرنا مع هــذا الاستبعاد الى نهايته المنطقية ، فان مقــولات العالم الاجتماعى ستذوب فى الظواهر البيولوجية والفيزيائية ؛ ومن ثم يفقد علم الاجتماع الاســاس الجوهرى لوجوده •

٢ ــ اذا استبعدنا القيم الثقافية عند دراسة التفاعلات الاجتماعية، فلن يبقى الا أقل القليل للدراسة ، بل ان القليل الذى سيبقى سيكون عبارة عن بناءات فيزيائية وأنواع من الحركة : هى فى الواقع الموضوع الاساسى للبيولوجيا والفيزياء ، ذلك لاننــا لن نستطيع أن نشير الى خصائص العملية التفاعلية التى نعبر عنها باصطلاحات محــددة مثل العدوانية والانعزالية والثورية والدينية والخلقية والعلمية ، كمــا أن

(19) Sorokin, Op. Cit., pp. 64-65.

الدراسة على النحو السابق لن تؤدى الى انضاج أى معرفة عن طبيعة التفاعلات الانسانية ذات المعنى أو علاقاتها أو خصائصها .

٣ ـ اذا استبعدنا العنصر الثقافى ـ كالمعانى والقيم والمعايير ـ فاننا لن نستطيع دراسة المعايير التى تنظم تفاعل الافراد ، الذى يكون ـ من وجهة نظر المعارضين لدراسة الثقافة ـ جوهر أى نظام أو تنظيم اجتماعى،وبالتالى سنجرد علم الاجتماع من أى موضوع هام لدراسته.

٤ ـ ان النظام الثقافى الاجتماعى لا يمكن قسمته ؛ ولا يمكن أيضا أن نقيم علما لوجه واحد منه فقط ، كأن نفرد علما للجانب الاجتماعى ونهمل الجانب الثقافى أو الجانب المتعلق بالشخصية . ومثل هذا التصور لعلم الاجتماع لا يفترق عن تصورنا لعلم النبات ؛ اذ ركز دراسته على الجانب الايمن لأى نوع من النبات وأهمل الجانب الايسر . ان علم الاجتماع فى اتجاهه الصحيح يهتم بنفس الدرجة بالنواحى الثلاثة للظواهر الاجتماعية الثقافية ـ المجتمع والثقافة والشخصية ـ ولكن من وجهة نظره الخاصة كعلم تعميم ينظر الى النسق الاجتماعى الثقافى ككل.

وكل الذى يمكن أن نخلص به فى هذا الصدد ، أن التمييز الممكن والوحيد بين المجتمع والثقافة ، هو أن نفهم اصطلاح «اجتماعى» على أنه يشير الى تركيزنا على مجموعة البشر المتفاعلين وعلاقاتهم المتبادلة، ونفهم اصطلاح «ثقافى» على أنه يشير أو يتضمن التركيز على المعانى والقيم والمعايير ، بالاضافة الى حواملها المادية (الثقافة المادية). واذن فنحن فى علم الاجتماع لا ندرس الثقافة كنقطة بدء أو كأساس ، ولكننا ندرس الثقافة من حيث ما لها من أثر بالغ على التفاعل الاجتماعى ، وبالتالى على العلاقات الاجتماعية سواء كانت على صورة أدوار أو مراكز ، أو كانت على صورة قواعد ومستويات ومعايير وقيم ؛ أو بمعنى آخر ندرس الثقافة باعتبارها عنصرا أساسيا فى حياة الانسان .

علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية :

الانسان كائن اجتماعى ، لانه عادة يقضى معظم حياته مرتبطا مع أقرانه من الكائنات الانسانية ، وكعضو فى جماعات اجتماعية منظمة .

وفى بعض الحـــالات يكون ارتباطه مع الاخرين ــ كما هــو الامر فى الاسرة ــ دائما وشديدا • وفى حالات أخرى ــ كما هو الامر بالنسبة لجمهرة المواطنين فى القرية أو المدينة،يكون ارتباطه عرضيا ولاشخصيا• وهنا نلاحــظ أن ارتباطه بالاخــرين فى الجمــاعة التى ينتمى اليهــا ــ خصوصا اذا كانت كبيرة ــ لا يكون بطريقة مباشرة بالنسبة لمجموع الاعضاء • ومثال ذلك اننا اذا أخذنا المجتمع فى الجمهورية العــربية المتحــدة ككل ، فليس هنـــاك من يستطيع أن يزعم أن جميع السكان يعرفون بعضهم الاخر • ومع ذلك فهم جميعا أعضاء فى مجتمع واحد كبير تربطهم روابط من اللغة الواحدة ، والمصالح المتشابهة ، والنظرة المتطابقة تقريبا للحياة الى جانب ارتباطهم بمصادر ولاء وانتماء واحدة، واعتمادهم على حــكومة قومية مشتركة فى حمايتهم وفى توفــير سبل العيش لهم •

١ ــ والعلم الاجتماعى الذى يهتم بهذا كله ، انما يدرس فى حقيقة الامر الحيــاة الجمعية للانسان ، ولذلك يهتم عـــالم الاجتماع بجميع الاشكال التى تنصب فى قوالبها العلاقات الانسانية متخذة طابعا جماعيا منظما • فهــو اذن يدرس ويحاول أن يشــرح الاتجــاهات الجماعية ، والمعتقدات والعادات • ويتدرج من ذلك الى دراسة النظم الاجتماعية المعقدة والمتغيرة مثل الدولة والاسرة والنشاط الاقتصـــادى والدينى • ولا يقف عند هذا الحد بل يحاول أيضا أن يتنبأ بمستقبل الســـلوك الجماعى • وأن يقـــدم ويمهد لمن يحـــاول أن يسترشد بنتائج العلم الاجتماعى فى الاغراض العملية لرفاهية البشر • وحين نتكلم عن التنبؤ الذى هــو الغاية القصــوى من جميع العلوم ، ينبغى أن نشـــير الى الصعوبات البالغة التى تكتنف القدرة على التنبؤ فى العلوم الاجتماعية اذا قورنت بالعلوم الطبيعية ، والتى ترجع فى صميمها الى تعقد مادة الدراسة وتداخلها وخضوعها دائما لعوامل التغير الاجتماعى • ولهــذا ينصح كثير من العلماء أن يكون التنبؤ فى أضيق الحدود ولفترات قصيرة المدى • وألا نجازف بتعيين خطوط المستقبل الا اذا كانت لدينا الحقائق الكافية •

٢ ــ الانسان كائن فريد متميز بين جميع الكائنات الحية ، لان له ثلاث قدرات عظيمة نامية الى درجة كبيرة ، لا توجد فى بعض الحيوانات أو أنها موجودة فى بعضها الاخر بطريقة غير كاملة ٠

أ) فالانسان يستطيع أن يفكر وأن يتعقل الاشياء ، وقد دلت التجارب على أن الحيوان يستطيع أن يفكر الى درجة محدودة مثل أنواع من الشمبانزى التى يمكنها أن تحل نماذج من المشاكل البسيطة لتحصل على الطعام الذى يكون فى غير متناولها ، ولكن قدرة الانسان على التفكير وعلى حل المشاكل المعقدة أكبر بكثير من قدرة الشمبانزى ، حتى أنه من الممكن أن نقول بأن التفكير الانسانى من حيث النوع يختلف عن التفكير الحيوانى ٠

ب) والانسان يستطيع أن يتصل بالاخرين عن طريق اللغة ، كما أن قدرته على التفكير تتوقف بطريقة جزئية على قدرته فى استخدام اللغة ، واللغة فى حد ذاتها عبارة عن نسق من الرموز الصوتية ، مركبة بطرق خاصة للتوصل المعرفة والافكار ــ والرموز «الكلمات ــ وطرق ربطها ــ القواعد » تختلف من لغة الى أخرى ، ولكن البشر مهما اختلفت لغاتهم يتناقلون الافكار والمعانى عن طريق استخدام اللغة ، حقيقة أن الحيوانات تستخدم الاصوات لتتصل بعضها بالاخر ، ولكن ليس لدينا أى دليل على أن الحيوانات تستخدم كما يستخدم الانسان الكلمات ، ليعبر بها عن الافكار المجردة كالحق والخير والجمال ، وكالمنزل والرجل والشجرة، ولهذا نقول أن أصوات الحيوان غريزية ومحدودة المدى،ومع هذا تستطيع الحيوانات أن تتناقل التحذيرات ومشاعر الالفة والعداوة والخوف ٠

ونظرا لان البشر يستطيعون أن يتصل أحدهم بالاخر عن طريق اللغة ، فقد أمكن أن تنتقل معرفة الفرد الى فرد آخر ، وبهذه الطريقة أمكن أن تنتقل معارف جماعة الى جماعة ، وأن تنتقل معرفة جيل الى جيل، وبهذه الطريقة أيضا أمكن زيادة التراث الانسانى وأمكن حفظه وانمائه وتطويره ، وهكذا أمكن أن يكون للانسان ثقافة ومدنية ، هذا وقد

ازدادت قدرة المجتمعات الانسانية على تجميع المعرفة بسبب اختراع الكتابة والطباعة ، حتى أصبحت الكلمة المطبوعة أقدر فى توصيل المعرفة وربط الافكار من الكلمة المنطوقة • ويقول بعض العلمـاء ان اختراع الكتابة فالطباعة كانا أخطر اختراعين وأبعدهما أثرا فى تاريخ الانسان •

جـ) والقدرة الثالثة التى تميز الانسـان عن الحيـوان هى امكان استخدامه للآلات والادوات • فقدرة الانسان على استخدام هـذه الادوات تتوقف الى حد كبير على تركيب يديه التى عن طريقهما يمسك بالاشياء فى ثبات وضبط • كما أن هذه القدرة تتوقف أيضا على قـدرته على التفكـير والاختراع وعلى قـدرته فى نقل معـرفته عن الادوات واستخدامها من جيل الى آخر •

ولهذا أمكن للانسان أن يسيطر الى حد ما على البيئة الطبيعية وان يخضعها فى كثير من الاحيان لمشيئته ، حتى أنه يزيل جميع الكائنات التى تقف فى طريق تعميره للمكان الذى يقيم فيه •

٣ ــ القدرات الثلاث السابقة ، هى فى واقـع الامر استعدادات مزود بها الانسان بطبيعته • ولكنها تحتاج الى عوامل ملائمة تنمو فيها بحيث لو ترك الانسان وحده لتراجعت هـذه الاستعدادات وانطمست وصارت أقرب الى طبائع الحيوان منها الى طبيعة الانسان • ومن هنا كانت الحياة الاجتماعية ضرورية للفرد ليصبح كائنا اجتماعيا له هذه القدرات النامية • ولهذا يقال دائما ان البشر من خلق البيئة الاجتماعية، فطابع كل كائن انسانى وشخصيته انعكاس للمجتمع الذى يعيش فيه• فمن البيئة الاجتماعية يكتسب معرفته ومهاراته وعاداته ومثله ودينه وأخلاقه • فنحن هنا فى الجمهورية العربية المتحدة نحس ونفكر كمصريين أو كعرب • فلو كنا قد نشأنا منذ الولادة فى الاسكيمو لعشـنا مثلهم ولشعرنا بمشاعرهم ولكان شعور المصريين وأحاسيسهم غريبة علينا كلية•

ومع أن شخصية الفرد تتشكل بحسب المجتمع الذى توجد فيه ، فانه من الواضح أن المجتمع لا يمكن أن يكون له وجود حقيقى منفصـلا عن

الافراد الذين يكـونونه ، فالمجتمع اذن يتكـون من «الناس» وتتغير خصـائص المجتمع بالتدريج على مـر الاجيال بتأثير «النـاس» الذين ينتمون أليه • وقد يكون تأثير فرد واحد صغيرا جدا ، ولكن تأثير مجموع من الافراد فى المدى الزمنى الطويل قد يكون عظيما جدا •

أن مجموعة من الناس قد لا تكون بالضرورة مجتمعا ، لانهم قـد يلتقون بطريقة مؤقتة أو عرضية ، والاساس فى تكوين المجتمع أن تكون هناك جماعة ترتبط ببعضها البعض عن طريق علاقة منظمة• «فالمجتمع اذن مجموعة من الناس عاشوا معا لفترة كافية بحيث تنتظم ابانها علاقاتهم• ويفكرون فى أنفسهم على أنهم وحدة اجتماعية» وبطريقة أخرى يمكن أن نقول ، ان المجتمع مجموعة منظمة من الناس يتبعون « طريقة معينة فى الحياة » • وتكون ثقافة هذا المجتمع هى طريقة الحياة التى يسير عليها أعضاؤه •

ه ــ وهناك شبه اتفاق بين علماء الاجتماع على أن المجتمع عبارة عن العلاقات الاجتماعية فى زمن معين لجماعة من الناس ، وأن الثقافة هى ما تتمخض عنه هذه العلاقات من آثار مادية تبقى على مر الزمان أو تتعدل أو تختفى • وتبدو أهمية الثقافة فى الحياة الاجتماعية اذا عرفنا أن الثقافة نفسها لا تنمو الا من خلال العلاقات التى يكونها بنى الانسان بعضهم مع الاخر • وهذه العلاقات فى حد ذاتها تفترض وجود مجتمع • وعلى هذا يمكن القول أن الثقافة هى التى تجعل المجتمـع الانسانى ممكنا ، ذلك لان النـاس لا يستطيعون أن يؤدوا وظائفهم كجماعات منظمة ما لم تكن لهم ثقافة متعارف عليها • ففى وجود مثل هذه الثقافة يستطيع أن يعرف كل فرد ما يتوقعه من الاخرين ، ويعرف أيضا كيف يتصرف ليواجه مطالب الجماعة وهكذا • وخلاصة القول أن المجتمع يستطيع أن يعيش لان الطبيعة زودت الانسان بالمعدات العقلية التى يستطيع بها أن يصنع الثقافة وأن ينقلها الى الاجيـال المتعاقبة• كما أن الثقافة بدورها تخلق المجتمعات ، أى أن المجتمعات تعتمـد فى نموها وفى حياتها على الثقافات •

٦ ــ الميادين الاساسية للمعرفة الانسانية :

من المحتمل جدا أن الثقافة بدأت تتجمع عناصرها وتنتقل متجمعة خلال الاجيال منذ الوقت الذى استطاع الانسان أن يكتسب فيه الطابع الانسانى • ويمكن أن نحصر المعرفة الانسانية فى نوعين رئيسيين :

الاول : معرفة الانسان بنفسه ، وهذا يشمل الثقافة التى تخلقها وما يصنعها ليبقى على مر الزمان •

والثانى : معرفة الانسان ببيئته الطبيعية •

أ) ولكن معرفة الانسان ليست جميعا معرفة علمية بالمعنى المتواضع عليه الان • وان هذه المعرفة ــ فى واقع الامر ــ معرفة جمعت بطريقة منظمة وصنفت وربطت أجزاؤها ثم حللت وفسرت • ففى الايام القديمة نادرا ما كان الانسان يلجأ الى جمع المعرفة على النحو السابق ، ويمكننا أن نقول بأن معظم المعارف التى حصلها الانسان قبل أن يلجأ الى المنطق العلمى كانت غير ارادية أو غير مقصودة لذاتها • هذا الى أن الاقدمين قبلوا «عالمهم» كما هو عليه ، وان حاروا فى تعليل أمر ، أرجعوا أسبابه الى قوى فوق قوة البشر على أى نحو • ولهذا اعتقد بعض البدائيين أن كل مجرى مائى وكل شجرة وكل صخرة تحوى روحا تسيطر على أفعالها • ولكن اهتمامنا اليوم ينصب على محاولة كشف علة كل شىء كشفا مؤيدا بالحقائق العلمية المحسوسة أو المبرهن عليها لما قياسا أو استقراء • ونظرا لضخامة المعارف العلمية التى تجمعت على مر الزمان ولازالت وستظل تتجمع ، فقد قسمت الميادين العلمية وستظل تقسم الى عدة أجزاء ، ويمثل كل علم اليوم مجموعة من الحقائق التى تتصل بأحد هذه الميادين أو بأجزاء منها • حتى أن العلم الواحد ينقسم الى عدد من الفروع قد يصل الى عشر أو الى عشرين فرعا فى بعض الاحيان• وانقسام العلم الى فروع هو ما يطلق عليه اسم التخصص العلمى الضيق •

ب) وبصفة عامة نستطيع أن نصنف المعرفة العلمية الى ميادين

رئيسية ثلاث : العلم الاجتماعى ، والعلم الطبيعى والانسانيات وكل من هذه الميادين ينقسم الى عدد من العلوم المتخصصة وذلك بقصد تسهيل مزيد من الدراسات المركزة للوصول الى الحقائق المضبوطة ، فالعلم الاجتماعى هو ذلك الميدان من المعرفة الانسانية الذى يتناول جميع جوانب الحياة اليومية للانسان ، ويتناول العلم الطبيعى البيئة الطبيعية التى يعيش وسطها الانسان ، كما انه يشمل علوما مثل الطبيعة والكيمياء التى تعالج مسائل عديدة كقوانين المادة والحركة والمكان والكتلة والطاقة ، كما أنها تشمل أيضا العلوم الحيوية التى تدرس الكائنات الحية ، أما الانسانيات فانها أكثر الميادين ارتباطا بالعلم الاجتماعى لأن كليهما يدرس الانسان وثقافته ، ولكن العلم الاجتماعى يهتم بوجه خاص بالعناصر الأساسية للثقافة التى تحدد الانماط العامة للسلوك الانسانى ، وتعالج الانسانيات بعض وجوه خاصة من الثقافة الانسانية أو بمعنى أكثر وضوحا تحاول أن تحدد تفسيرا فى تقصى محاولات الانسان للتعبير عن قيمه الروحية والجمالية من خلال الأدب والفن وتهدف الى اكتشاف معنى الحياة من خلال الدين والفلسفة .

جـ) اننا لانستطيع أن نصل الى فهم سليم لحياة الانسان الاجتماعية بدراسة بعض نواحيها واهمال النواحى الاخرى ، نقول هذا لان تاريخ تطور علم الاجتماع زاخر بالنظريات التى كانت تفسر الحياة الاجتماعية من جانب واحد ، أو تغلب عاملا من العوامل المؤثرة فى نشاط الانسان وتجعل له الاهمية الاولى والاخيرة فى توجيه هذا النشاط ، ومثال ذلك أن فلاسفة التاريخ الذين مهدوا لقيام هذا العلم كانوا يحاولون تفسير تطور البشرية على أساس نظرى معين ، وأغلب نظرياتهم كانت تقوم على رسم خط مستقيم أو دائرى أو غير منتظم لتطور الحوادث ، ينظمونه فى حلقات ، لكل حلقة خصائص متميزة من الفكر والعمل .

د) ومع ذلك من المسائل التى تلفت اليها النظر أن جميع نواحى الثقافة الانسانية مرتبطة ومتساندة الا أن العلم الاجتماعى اليوم يعد

ميدانا معقدا وواسعا جدا حتى ليصعب على باحث أو عالم واحد أن يحيط به علما • ولذلك يكتفى الباحث أن يستفيد ما أمكنه من النظر الى المجتمع كحقيقة كلية ، أما أن يحصل على معرفة عميقة فعليه أن يركز دراسته على ناحية واحدة من نواحى الحياة الاجتماعية ، وهذا يوضح لماذا انقسم البحث فى المجتمع الى عدة أقسام يختص كل واحد من العلوم الاجتماعية بقسم واحد منها • وهذا التقسيم من وجهة النظر العلمية ليس الا تقسيما ضروريا للعمل اذا كان علينا أن نستمر فى انماء معلوماتنا عن المجتمع وعن القوانين أو المبادىء التى تحكمه •

هـ) ويقول كنجسلى ديفز Kingsley Davis ، ان الحدود الفاصلة بين العلوم الاجتماعية غير واضحة من حيث الواقع ومن حيث المبدأ أيضا ، ومثل هذا الموقف خلق خلافات كثيرة مثلما تخلق خلافات الحدود بين الامم من مجادلات ومشاكل كثيرة • ويرى أن النظر الى الموضوع من الناحية العلمية البحتة يدعونا الى الاهتمام بهذه الخلافات ، لان العلم لا يعرف حدا • وربما كان من أهم عوامل الخلاف بين العلوم الاجتماعية الصراع بين العلماء على مسائل لا تتصل بالمعرفة ذاتها[٢٠] وخير طريقة لفهم طبيعة العلوم الاجتماعية المتعددة أن نفحص ما يقوم به الباحثون، لا ما يقولونه • ولسوف يتضح من ذلك أن أساس التمايز لا يمثل اختلافا فى الموضوع ، لان جميع هذه العلوم تدرس نفس الظواهر «حقائق الحياة الاجتماعية» أو بمعنى آخر يمكننا أن نقول ، ان الاختلافات تنصب على مركز الاهتمام أو النظرة الخاصة لكل علم من العلوم الاجتماعية • ومع ذلك فمن المناسب أن نلقى نظرة سريعة على أهم هذه العلوم وأكثرها اتصالا بعلم الاجتماع ليتضح مدى الصلة التى تربطها به •

١ ــ الاقتصاد :

هناك تعريفات كثيرة للاقتصاد بقدر ما هناك من تحديدات لميدان

(20) Kingsley Davis, Op. Cit., pp. 6-7.

دراسته . وقد كان تعريف الاقتصاد قديما يعتمد على عدد من القضايا المنطقية والفلسفية كأن يقال ، ان الانسان وكل انسان هو خير حكم على ما هو فى صالحه . ولكن الامر تطور فى العصور الحديثة ، فأصبح من المألوف الاعتماد فى تعريف الاقتصاد وفى تحديد ميدانه على التعرف على العلاقات الواقعية باستخدام الاستقصاءات الاحصائية والتاريخية . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر حتى النصف الاول من القرن العشرين، بدأ الاقتصاد يتطور ويتخذ صورة علم اجتماعي ولقسم العالم . فقد عرف آدم سميث الاقتصاد بأنه علم الثروة ، وميدانه يقتصر على دراسة طبيعة ثروة الأمم وأسبابها ومظاهرها الخارجية . كما أن الفرد مارشال يعرف الاقتصاد بأنه «دراسة الناس فى حياتهم العملية العادية» . وقد ارتبط الاقتصاد دائما بالسياسة وربما كان هذا هو الاصل فى تسميته «الاقتصاد السياسى» ولذلك كانت كتابات الاقتصاد السياسى هى أعمال قصد بها مناقشة المسائل الاقتصادية ذات الابعاد السياسية المعينة . ومن المألوف أن يميز علماء الاقتصاد عند تعريفه وتحديد ميدان دراسته بين المسائل الاقتصادية ذات الطابع النظرى ، والمسائل الاقتصادية ذات الطابع التطبيقى . وعلى كل حال ، فاننا نجد أن مسألة اقتصادية معينة تكون محل الدراسة ، اذا تبين أن هناك هدفا اجتماعيا محددا ينبغى الوصول اليه بأقل نفقات ممكنة ، أو اذا كانت لدينا وسائل معينة ونريد أن نصل عن طريقها الى أقصى نتيجة ممكنة .

ومن أجل هذا فاننا لا نستطيع أن نفصل الاقتصاد عن الاهداف الاجتماعية فى المجتمع ، كذلك يمكن أن يقال ، ان الاقتصاد هو وسيلة المجتمع لبلوغ أهدافه بأقل قدر ممكن من النفقات أو المجهود ، ومن أجل هذا لا يمكن أن ندرس «القيمة» فى الاقتصاد دون معرفة اتجاهات الجماعات المختلفة فى المجتمع والذبذبات التى تحدث فى مفضلاتها أو مطالبها المتغيرة . وقد أبرز كثير من علماء الاجتماع الدافع القوى للانسان فى سبيل الحصول على مطالب المعيشة باعتباره أهم دافع فى حياة المجتمع ، يترتب عليه عدد كبير من الدوافع الفرعية ، ومن

أجل هذا فان الجانب المادى من المجتمع والثقافة يحظى بأهمية كبيرة فى التحليل السوسيولوجى .

٢ ـ علم النفس :

يتجه كثير من علما النفس الان الى القول بأن مركز اهتمام علم النفس يتركز حول الفرد فى تفاعله مع بيئته . وربما كان هذا القول يصور شيئا هاما ، وهو أن علم النفس من العلوم المتداخلة فى عدد آخر من العلوم ، ذلك لانه اذا اعتبرنا علم النفس من العلوم الاجتماعية ، فهو اذن علم سلوكى ، على الرغم من أنه فى بعض الاحيان قد يكون علما بيولوجيا أيضا ، ولكن اهتمامه الاول بالفرد جعله أكثر تحديدا من أى علم آخر . كما أن ميدانه لم يكن فى يوم من الايام متسعا . ان اهتمام علم النفس بموضوعات معينة كالاحساس والادراك والتفكير جعل بعض الناس يعزلونه خطأ عن دائرة العلوم الاجتماعية ، باعتبار أن هذه الموضوعات يمكن أن تدرس مستقلة دون ربطها بالبيئة التى يعيش فيها الفرد ، ذلك أن التكيف مع البيئة مستحيل من غير أن تكون لدينا معلومات عنها ، كما أن حدود نجاحنا فى حصولنا على هذه المعلومات مرتهن بقدرة الكائن الحى على التفاعل مع طاقة الاحساس من حوله .

وقد أدى اهتمام علماء الاجتماع فى السنين الاخيرة بدراسة التفاعل الاجتماعى بين شخصين أو أكثر ، ودراسة العلاقات المتبادلة بين الجماعات المتمايزة الى اقتراب وجهات النظر بين علم النفس الاجتماعى وبين علم اجتماع الوحدات الصغيرة . حتى أن موضوع ديناميات الجماعة يدرسه علماء اجتماع ونفس فى ذات الوقت ، كما أن اهتمام علماء الاجتماع بموضوع التنشئة الاجتماعية يكشف عن مدى أهمية دراسة الشخصية فى فهم المجتمع والثقافة . وربما كان أقوى اتجاه فى هذا الصدد ما يقوم به تولكوت بارسونز ومدرسته من التركيز على دراسة الفعل الاجتماعى لتحديد دوافعه وأبعاده ونتائجه فى حياة الشخص والجماعة والمجتمع .

٢ ــ علم السياسة :

السياسة كالادب تلبس ثيابا جديدة فى كل جيل ، وتتغير بتغير أسلوب الناس فى الحياة • وليس معنى ذلك أن السياسة لا تتبع منطقا معينا ، ذلك لان أساليب الناس المتغيرة هى فى واقع الامر أعراض وتوجيهات تتبع من الظروف الجديدة وتعبر عن الاستجابة المباشرة لها• وعلى الرغم من أن السياسة قديمة قدم الانسان نفسه ، الا أن علم السياسة كموضوع أكاديمى حديث نسبيا • ويختلف علماء السياسة فى تتبع أصل هذا العلم • فبعضهم يفضل أن يذهب بعيدا حتى أفلاطون وأرسطو • ويفضل أصحاب النزعة العملية رده الى مكيافيللى ، ويذهب آخرون الى القول بأن علم السياسة كعلم منظم بدأ عند انشاء الاقسام المستقلة لعلم السياسة فى الجامعات فى أواخر القرن التاسع عشر • وعلى كل حال فالامر يعود الى تذوق الباحث للموضوع •

وقد اختلف علماء السياسة كثيرا فى تعريف العلم وتحديد ميدانه ، ومثال ذلك : أن البعض يزعم أن الدراسة الحقة للسياسة هى دراسة للقيم المثالية، ولذلك يكون علم السياسة فنا • وربما كان محور تفكيرهم يدور حول ايجاد نظرية لتبرير وجود الدولة والدفاع عنها ، أو يكون ــ كما فعل هارولد لاسكى فى كتاب «قواعد السياسة» ــ محاولة للدفاع عن الفرد وروابطه ومنظماته ضد الدولة • وقد حاول ديفيد ايستون David Easton فى كتابه «النظام السياسى ١٩٥٣» أن يحلل علم السياسة متخذا نقطة انطلاقه من الحاجة الى اطار شامل يسمح بالتنظيم التلقائى المنسق للحقائق المتجمعة عن النظم الاجتماعية والسلوك السياسى• هذا الى أن عددا من الباحثين فى السياسة فى الوقت الحاضر يهتمون بمايسمى «السلوك السياسى أو السلوكية السياسية» فى محاولتهم فهم العلاقة المتبادلة بين النظم ذات الطابع السياسى والسلوك الفعلى للافراد فى المجتمع • ولكن هذه المحاولة أصبحت محل نقد من الكثيرين نظرا للاساس النفسى الذى تقوم عليه • وخير طريقة لفهم موضوع علم السياسة أن نذكر فى ايجاز المسائل الاساسية التى يهتم لها علماء السياسة فى واقع الامر وتتكرر فى كتاباتهم ، وهى على النحو الآتى :

أ) النظـــرية السياسية : من أهم الظـــواهر التى برزت فى عـــلم السياسة ، أنه انفصل ، فى أواخر القرن التاسع عشر عن صلته الزواجية بالفلسفة الخلقية والتاريخ والقانون العام ، وظهرت معـــالم النظرية والبحث الواقعى فيه • والنظرية السياسية الحديثة عبارة عن مزيج من التفكير الالمانى المجرد عن طبيعة الدولة وأفكار أوستن عن السيادة ، وهذا الى جانب النظريات التطورية عن الاجناس والامم • ويلاحظ أنه منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية تزايد الاهتمام بمسائل السياسة العامة•

ب) الحـكومة : تعتبر دراسة الحكومة عند كثير من علماء السياسة جوهر التحليل السياسى • فقد كان بروز النظرية السياسية كميدان شبه مستقل فى علم السياسة ، داعيا الى الاهتمام المتزايد بالدولة كوحدة أساسية فى التحليل • ففى خلال الاربعين سـنة الماضية استطاع علم السياسة أن يخرج دراسات متعددة تناولت التاريخ والدستور والنظم المتعلقة بالحكومة على مستويات متعددة محلية أو قومية أو عالمية • وهنا يظهر تأثير علم الاجتماع على تطور علم السياسة بتزايد الاعتماد على المدخـل السوسيولوجى فى دراسة المسائل المختلفة التى يعالجها العلم من وجهة نظر تعدد العوامل • ويعتبر ماكيفر Maciver من أبرز علماء الاجتماع الذين لهم تأثير بالغ على التحليل السياسى فى الوقت الحـــاضر •

جـ) السياسة العـامة والإدارة : من أهم فروع علم السياسة ، تلك الدراسة التى تهتم فى المحل الاول بالعلاقات الانسانية أو العـــلاقات العامة كمدخل لدراسة موضوعاتها متأثرة فى ذلك بعلم النفس • كمـــا تأثر علم السياسة فى هذه الناحية بعلم الاجتماع أيضا وخـــاصة فى معالجته للنظرية التنظيمية • ويلاحظ أن طلاب السياسة العامة يشاركون غالبا فى نشاط الحكومة ، الامر الذى يتيح لهم فرصة اختيار مبادئهم وأفكارهم العامة •

د) السياسة العـــالمية : ان اهتمام علم السياسة بالسياسة العـــالمية يتقدم باستمرار ليحل محـــل القانون والتـــاريخ • وقد زاد الاهتمام

بالسينما العالمية فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ووصل الى قمته فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولازال يتزايد حتى الان . وقد تغير مركز الثقل فى دراسة السياسة العالمية بتزايد الاهتمام بدوافع الامم وقادتها وظروفها النفسية والصناعية والجغرافية وخصائصها السكانية، التى تلقى ضوءا هاما على امكانيات كل أمة ومبلغ ما يمكن أن تسهم به فى المجتمع الدولى .

٤ ـ التـــــاريخ :

التاريخ هو دراسة التطور المـاضى للمجتمعات الانسانية . خاصة خلال المرحلة التى كانت فيها السجلات المكتوبة متيسرة . وهـو علم اجتماعى لانه يمثل المحاولة المنظمة لمعرفة وتحقيق الحوادث الماضية ، بربطها أحدها بالاخرى وبكشف أثرها فى تشكيل المدينة . هذا الى أننا لكى نفهم أى موقف اجتماعى فلابد أن نعرف الظروف التى أدت الى انبثاقه ــ أو كما يقـال لا نستطيع أن نفهم الحـاضر دون أن نعرف الماضى . ومع ذلك فالتاريخ لا يستطيع أن يقدم تفسيرا كاملا عن كيف ولماذا تطور الحاضر عن الماضى ، كما أنه لا يستطيع أن يعطينا القدرة للتنبؤ بالمستقبل . فليست هناك مبادىء أو قوانين عامة للتطور التاريخى تجعل مثل هذا التنبؤ ممكنا . اننا غالبا ما نقول بأن التاريخ يعيد نفسه، ولكن هذا غير صحيح ، فكل ما يعنيه مثل هذا القول أن حوادث فترة معينة يمكن أن تحوى بعض وجوه الشبه فى فترة أخرى سابقة . فلو أن التاريخ يعيد نفسه لما كان هناك تاريخ .

ومع أن التاريخ لا يساعدنا على التنبؤ بالمستقبل فانه يعيننا على اكتشاف اتجاهات معينة فى تطور المجتمعات الانسانية . ومثال ذلك هذا الاتجاه الذى ظل ينمو منذ حوالى مائتى عام وهو انتشار التصنيع . لانه اذا كان هذا الاتجاه ظل ينمو دون أدنى نكوص حتى اليوم فانه من المناسب لنا فى هذا المجال أن نتوقع استمراره لفترة من الزمـان فى المستقبل .

٥ ـ الانثروبولوجيا Anthropology

يذهب كثير من الانثروبولوجيين الى أن الانثروبولوجيا تهتم من حيث الموضوع بالانسان وأعماله فى كل زمان وفى كل مكان • وعلى الرغم من أن باحثا واحدا لا ينتظر منه أن يكون ملما بكل فروع الانثروبولوجيا ، الا أنه لابد أن يكون على صلة بالمسائل التى تعالجها الانثروبولوجيا الطبيعية واللغويات والاثار والاثنولوجيا • ولعل ادعاء الانثروبولوجيا أنها تهتم بكل جوانب الحياة الانسانية فى جميع الازمنة هو الذى جعل ميدانها نقطة التقاء عدد كبير من الباحثين من تخصصات مختلفة • ويلاحظ أن دراسات أنثروبولوجية كثيرة فى الماضى وحتى الان من عمل أشخاص ليسوا أنثروبولوجيين بالاحتراف ، وربما كان هذا هو السر فى تعدد مداخل الدراسة فيها الى جانب تعدد مناهج البحث أيضا •

ومن الناحية التاريخية اهتمت الانثروبولوجيا بمجتمعات وثقافات لم تهتم بها العلوم الموجودة فعلا ولهذا انصب بحثها على تلك المجتمعات التى توصف أحيانا بالبدائية أو المتوحشة أو البربرية • ولكن هذا لم يمنع الانثروبولوجيا من أن تنمى مناهجها ومداخلها لدراسة المجتمعات البسيطة نسبيا • وعلى الرغم من التغييرات الجوهرية التى حدثت فى التوجيه الموضوعى ومناهج البحث ، فان الانثروبولوجيا لاتزال تركز على دراسة المجتمعات البدائية • ولذلك عندما حول الانثروبولوجيون اهتمامهم ـ الى حد ما ـ الى دراسة المجتمع الغربى المعاصر ، فانهم يتلمسون السبيل اليه ـ ما أمكن ذلك ـ كما لو كانوا يدرسون مجتمعا بدائيا ، ومثال ذلك ما يقوم به الانثروبولوجيون الامريكيون فى دراسة التجمعات الفرعية والثقافات الفرعية فى المجتمع الامريكى •

ويلاحظ من يتتبع نمو الانثروبولوجيا ، أن الباحثين فيها لايزالون يفضلون دراسة الشعوب المعزولة أو التى تعيش على هامش المدينة الكبرى • ولعل أهم تطور حدث فى الانثروبولوجيا فى السنين الاخيرة ذلك الاتجاه الذى ينمو بسرعة ويتركز حول الاهتمام بدراسة تجمعات أكثر تعقيدا كالقرى والمجتمعات المحلية القروية • وقد تدرس هذه

القرى باعتبارها مناطق معزولة أو قد تدرس على أنها جزء من مركب حضارى معقد .

وهناك من يفضل اطلاق اسم «الانثروبولوجيا الثقافية» على فروع الانثروبولوجيا التى تقوم بدراسة موضوعات اجتماعية وثقافية . كما أن تقسيم الانثروبولوجيا الثقافية على أساس الموضوعات ذات الاهمية، أدى الى ظهور مجموعتين كبيرتين من الدراسات . الاول : تشير الى الميادين التى يغلب عليها الناحية الوصفية والتاريخية ؛ والثانى : تشير الى الميادين التى يغلب عليها التحليل الاجتماعى . وتشمل المجموعة الاولى ، الاثنولوجيا Ethnology وهى الدراسة النظرية والمقارنة للعادات الانسانية ، والاثنوجرافيا Ethnography وهى وصف الثقافات المفردة ، والاثار Archaeology وهى وصف بقايا الثقافات الماضية أو القديمة. أما المجموعة الثانية فتسمى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، التى تسمى فى بعض الاحيان علم الاجتماع المقارن . وهى تهتم فى المحل الاول بدراسة البناء الاجتماعى والتنظيم أكثر من اهتمامها بدراسة العادات . ومن خصائص الانثروبولوجيا المعاصرة أن الباحث قد يهتم فى نفس الوقت بهاتين المجموعتين من الميادين ، أى أنه يجمع الحقائق ويفسرها ، وقد تكون هذه الحقائق تاريخية أو غير تاريخية .

ويلاحظ أن كلا من المجموعتين على صلة وثيقة بالعلوم الاجتماعية ، الا أن صلة المجموعة الاولى بالتاريخ واضحة ، كما أن صلة المجموعة الثانية (الانثروبولوجيا الاجتماعية) أشد ما تكون بعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى . وأبلغ دليل على ذلك تأثر المدرسة الانجليزية فى الانثروبولوجيا بنظريات اميل دوركايم التىأكدها الفرد راد كليف براون وخاصة فى الافكار المتعلقة — بالتحليل البنائى الوظيفى .

(و) ان أهم فارق بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية ، هو أن كل علم اجتماعى يعالج جزءا من العالم الاجتماعى الثقافى ، بينما يعالج علم الاجتماع بطريقته هذا العالم ككل محاولا أن يصل الى خصائصه العامة : أو بمعنى آخر ينظر الى علم الاجتماع باعتبار أنه يعالج

موضوعا أوسع من الموضوعات التى تعالجها العلوم الاجتماعية ، كل على حدة ، ومثال ذلك أن الاقتصاد يدرس الصناعة ، وكذلك يفعل علم الاجتماع ، ولكن دراسة علم الاجتماع للصناعة أوسع من دراسة الاقتصاد ، من حيث أنه يدخل فى التفسير عوامل أعم ويحاول أن يتتبع تأثير الصناعة على المجتمع الى آفاق أوسع مدى من الاقتصاد • ويظهر اختلاف علم الاجتماع عن العلوم الاجتماعية ، اذا عرفنا اهتمامه الفريد بموضوعات مثل الاسرة والسلوك الاجتماعى والسكان والمشاكل الاجتماعية مثل الجريمة والانحراف والفقر والتمييز العنصرى(٢١) •

القيمة العملية لعلم الاجتماع :

كلما زاد تعقد المجتمع الذى نعيش فيه ، نتيجة لاتساع نطاق التخصص وزيادة السكان ، وكلما زادت المدن حجما ، كلما كانت الحاجة ماسة الى معرفة دقيقة بطبيعة الحياة الاجتماعية • ومن الملاحظ أن أهم ما يميز عصرنا ، ذلك التغير الاجتماعى والثقافى السريع الذى يواجه الانسان بتحد واضح لما تعوده وما نقله عن الاجيال السابقة • ان النتائج المذهلة للتكنولوجيا المعاصرة تفرض على الفرد كما تفرض على الجماعة • أن تراجع مناهجها التقليدية فى الحياة ونظرتها اليها • ولذلك اذا كان التفكير فى الفعل الاجتماعى والتفاعل المنظم والعلاقات الاجتماعية المتعددة والمعقدة ، أمرا مارسه فيما مضى الحكماء وكبار السن الذين كانوا يلخصون تجاربهم وآرائهم فى الحياة على صورة حكم يجرى مجرى الامثال ، فان التفكير الاجتماعى المنظم أصبح سمة العصر الذى نعيش فيه ، وأصبح علما له موضوعه ومناهجه ، وله أهميته البالغة فى فهم الانسان الحديث • ومن العوامل الهامة التى تكمن وراء تزايد الاهتمام بالعلم الاجتماعى فى كل أنحاء العالم ، أن دورة حياة الفرد لم تعد أمرا يمكن التنبؤ به فى دقة كما هو الحال منذ قرون مضت : فالفردية النامية وعلاقات المصلحة التى تحل تدريجيا محل علاقات الجوار والصداقة والدم والقرابة ، جعلت الفرد يحس تدريجيا بالعزلة

---

(21) Ogburn & Nimkoff; Sociology, London, 1969, pp. 14-15.

وبالحاجة الى أساس جديد للوجود الاجتماعى • هذا ويمكن أن نلخص القيمة العملية لعلم الاجتماع فيما يلى :

١ — يقدم علم الاجتماع معاونة جوهرية فى تحديد الاهداف التى يمكن الاتفاق عليها ، ويمكن أن يرسم الوسائل الناجحة لبلوغها • وهذا يظهر واضحا من أن السياسات الاجتماعية فى مجتمع يتغير باستمرار ، لا يمكن أن تقوم على الاساس من العادة أو العاطفة • اذ لا يتسنى لمشتغل بالسياسة الاجتماعية العامة أن ينجح فى مهمته ، الا اذا كان لديه قدر كاف من المعرفة عن المجتمـــع الذى يرسم له خطـــوط نموه الاجتماعى والاقتصادى ، وكلما ترامت أطراف المجتمع • وكلما تعقدت ظروفه الاجتماعية ، أصبحت المعرفة الاجتمـاعية أكثر الحاحا وأوسع مدى • كذلك يلاحظ أن السياسة الاجتماعية لمجتمع معين ، اذا كانت ذات طابع شامل ومحدد فى نفس الوقت ، أصبحت الحاجة ماسة الى المعرفة ذات الطابع السوسيولوجى أكثر من المعرفة ذات الطابع الاقتصـــادى أو السياسى • ومثـــال ذلك ، أننا اذا كنا بصدد رســـم سياسة لضبط النسل : فان الوسائل الناجحة لبلوغ هذا الهدف لا يمكن أن نعتمد فيها على الوسائل ذات الطابع السياسى أو الاقتصادى فقط • لاننا يجب أن ندخل فى الاعتبار مسائل هـــامة ، مثل التنظيم الاجتماعى ، والتنظيم العائلى وديناميات السكان وعادات الانجاب والقيم التقليدية • وكل هذه الموضـوعات لا يمكن أن نحسن تقديرها أو تحليلها الا اذا اعتمدنا على علم الاجتماع فى المحل الاول[٢٢] •

٢ — فى المجتمع الحديث المترامى الاطراف ، تقتصر خبرة الفرد على عدد قليل من الناس بل ان عددا كبيرا من الافراد قد ينغلقون داخل جماعة واحدة وينعزلون بذلك عن كل أعضاء المجتمع • والمجتمع الحديث بطبيعته ينقسم الى أقسام سكانية ومهنية متعددة ، قد يتاح للفرد أن يخبر بعضها عن قرب ، ولكنه لن يستطيع مدى حياته أن يخبر كل هذه الاقسام • ولذلك يظل الفرد فى المجتمع الحديث بعيدا عن أغلب أعضاء

---

(22) Kingsley Davis Op. Cit., p. 15.

المجتمع : لا يعرف دوافعهم ولا نظرتهم أو طريقتهم فى الحياةولا القيم التى تسيطر على سلوكهم الاجتماعى • ومهما كانت ايديولوجية المجتمع واحدة ، الا أنها تتعدل فى أقسام المجتمع الواحد وتلبس رداء كل جماعة بحسب اتجاهاتها وطابعها المميز فى الحياة •

فاذا أضفنا الى ذلك أن الثقافة هى الاخرى قد تكون عامة فى المجتمع من حيث خصائصها الاساسية ، الا أن هذا لا يمنع من وجود ثقافات فرعية فى المجتمع الواحد تتميز بخصائص مختلفة • ولهذا قد يصعب على أغلب الافراد فهم أقرانهم الذين ينتمون الى نفس الثقافة الكلية• من أجل هذا كان علم الاجتماع ضرورة ثقافية واجتماعية ملحة فى المجتمع الحديث • فهو وحده الذى يقدم صورة متكاملة لحياة المجتمع، ويعطى أهمية بالغة للمسائل المتعلقة بالاختلافات والتشابهات التى تظهر بين أقسام المجتمع ، ويحاول أن يتعمق اتجاهات الفعل الاجتماعى والصور المختلفة للعلاقات الاجتماعية التى تترتب على ذلك • كما أنه يهتم بالقيم والسلوك الناجم عنه ويحاول أن يمد بصره بعيدا ليدرك أبعاد السلوك الاجتماعى وأهدافه ووسائله ، وغير ذلك من الموضوعات التى تهم الانسان الحديث • فعن طريق علم الاجتماع يستطيع الفرد أن يكون على علم بما يجرى فى نطاق الحياة الاجتماعية لافراد آخرين أو فى جماعات أخرى قد لا يتيسر له طوال حياته أن ينتمى اليها أو أن تكون له بها صلات • واذن فعلم الاجتماع ينمى التكامل الاجتماعى ، وهو لذلك عنوان وحدة المجتمع •

٣ — ان علامة الانسان المثقف ، أن يكون لديه الادراك الكافى والتقدير المناسب للاشياء التى قد تفوت الرجل العادى • ولذلك فان علم الاجتماع بجانب أنه يسهم فى تقدم المجتمع اسهاما جوهريا ، فهو مفيد جدا من الناحية الشخصية ، لان الفرد عن طريقه يستطيع أن يحصل على فهم أفضل لنفسه وللآخرين ، ويتيح له هذا الفهم أن يكون أكثر مرونة ازاء المواقف الجديدة • دون الاتجاه الى الانماط المتحجرة الشائعة ، التى قد تكون قائمة على أسس خاطئة ، ومن ثم يستطيع أن

يوسع مدى الاحتمالات والنتائج التى يتصور فيها الفعل • كذلك يستطيع الشخص عن طريق نتائج الدراسة المقارنة للمجتمعات والجماعات التى تختلف عن مجتمعه أو جماعته الخاصة ، أن يرى أشياء ، ربما فاتته عند التفكير فى الوجود الاجتماعى له أو للاخرين ، ومن ثم تصبح حياته أكثر ثراء وأكثر امتلاء • وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله يتجه المسئولون عن الجامعات والتعليم العالى والثانوى فى أنحاء العالم الى جعل دراسة علم الاجتماع جزءا متكاملا من الدراسة فى كل الكليات والمعاهد والمدارس مهما اختلفت تخصصاتها[٢٣] •

٤ — ويجب أن ننبه هنا الى أن مهمة عالم الاجتماع أن يقدم المشورة وأن يعاون على تحديد السياسة الاجتماعية داخل اطار هيئة منظمة يناط بها مثل هذا التحديد ، أما من يعمل كموظف داخل هذه الهيئة ، فان فاعليته وأهمية مشورته يمكن أن تتعرض للطمس • ذلك لان القرار النهائى فى تحديد هذه السياسة يكون دائما فى يد رجال الادارة • وهذا يتأتى من أن مهمة رجل الاجتماع كعالم أن يحلل وأن يشرح وأن يزيد من كمية المعرفة ، ولذلك يجب ألا نخلط بين مهمته وبين مهمة رجال السياسة والاقتصاد الذين قد يكون فى أيديهم القدرة التنفيذية الصالحة لوضع أفكارهم موضع التطبيق العملى • ومن المألوف أن يسأل عالم الاجتماع أسئلة لايمكنه الاجابة عليها ، ولا يوجه مثلها الى العلماء الاخرين فى الميادين المختلفة • ولهذا فقد يتململ بعض الناس ويقولون: ما فائدة علم الاجتماع اذن ؟ وربما كان مرجع ذلك الى الفهم الخاطىء لرسالة عالم الاجتماع • فالجيولوجى مثلا لايسأل الا عن تحديد الاماكن التى يحتمل أن يكون فى باطن أرضها خام البترول ، ولا يخطر ببال أحد أن يطلب منه منع الاستغلال السيىء للمصادر الطبيعية ، ولم يطلب أحد كذلك من المؤرخ أن يحول مجرى التاريخ • ولكن علماء الاجتماع غالبا ما يطلب اليهم تغيير المجتمع • ان عالم الاجتماع شأنه فى ذلك شأن أى عالم آخر يستطيع أن ينمى المعرفة التى تعاون على حل

(23) Ibid., p. 16.

المشاكل التي تعترض المجتمعات ، ولكنه مثل أي عالم آخر أيضا لا يستطيع أن يسيطر على مجرى الحوادث[٢٤] .

وهنا يجب أن نفرق بين هدفين متمايزين لعلم الاجتماع ، الاول هو الدراسة المنظمة للعلاقات العلية التي تجرى على أيدي متخصصين ، والثاني نشر المعرفة التي يحصل عليها الباحثون وجعلها في متناول الجميع ، رغبة في تمكين السكان جميعا من مزيد من الفهم والوصول بالمجتمع الى وحدة متكاملة . ومعنى هذا أن علم الاجتماع يضع نفسه دائما في خدمة المجتمع الخاص والمجتمع العالمي في نفس الوقت،بعكس كثير من العلوم التي تغلق نفسها على العدد القليل من المتخصصين فيها ، ولا تبذل فيها محاولات حقيقية لجعل المعرفة التي تتوصل اليها في متناول الجميع .

(24) Green, A. W., Sociology, New York, 1960, pp. 8-9.

الفصل الثالث

علم الاجتماع والمنهج العــلمى

علم الاجتماع والمنهج العلمي

حظيت مناقشة «علمية» دراسة المجتمع (علم الاجتماع) بأكثر اهتمام الرواد الاول للعلم الجديد ، وظلوا يدافعون عن امكان تطبيق مناهج العلم الطبيعي أو الرياضي على ظواهر المجتمع ، ولازالت المناقشة حية حتى الآن ، وقد وصل اميل دوركايم بهذه المناقشة الى قمتها فى كتابه «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» عندما فصل نوعيا بين الظواهر الاجتماعية وغيرها من ظواهر الكون وعين لها خصائص ملازمة، واعتبرها «أشياء» فى الوقت عينه تخضع لقواعد الميتودولوجيا العامة، ومن ثم تسقط حجة المناهضين لعلم الاجتماع والمشككين فى امكان علمية البحث فى المجتمع، وقد انقسم علماء الاجتماع طوائف كثيرة فى ميدان المعركة،الامر الذى ظل علم الاجتماع يحمل آثارها حتى اليوم،والمتتبع للنظريات السوسيولوجية المعاصرة يستطيع أن يلحظ مظاهر التباين فى مسألتين :

الاولى : منهجية ، وتدور حول طبيعة المنهج الذى يطبق على دراسة ظواهر المجتمع الانسانى واصطلاحاته المختلفة ، ولهذا نجد المتشيعين لمناهج العلوم الحيوية والمشبهين للمجتمع بالكائن العضوى ، وما تفرع عن ذلك من شعب مختلفة فى النظرية السوسيووجية ، ونجد أيضا المتشيعين لمناهج العلوم الطبيعية والمشبهين لحقائق المجتمع بالمواد وما فيها من حركة داخلية وطاقة وتوازن وتجاذب وتنافر وغير ذلك ، كذلك نجد المتشيعين لمناهج العلوم الرياضية ، وجوهر إدعائهم أن كمال العلم فى امكان صياغة نتائجه فى صورة رياضية ولن يكون علم الاجتماع علما الا اذا استطاع الوصول الى هذه النتيجة ، الامر الذى أدى الى تقديس العدد وتجريد الحقيقة الاجتماعية من مضامينها الحقيقية ومن وشائجها الحيوية ، واننى أتصور المغالين فى أهمية الارقام والجداول

فى فهم الحقيقة الاجتماعية بمن يحصى من القتلى فى ميـدان المعركة، ويصنفهم بحسب رتبهم وسنهم ومواطنهم الاصلية ، متناسيا أن كل واحـد منهم انسان عاش حيـاة معينة تقمصت بمختلف الاتجـاهات والانتماءات ثم ينتهى من هذه الدراسة ببحث عن المقاتلين .

الثانية : موضوعية ، وهى لازمة ومترتبة على الاولى ، ذلك أن الميل المنهجى يؤدى فى أغلب الاحيان الى ضرورات موضوعية معينة. ويظهر التباين «الموضوعى» فى الموضوعات الاساسية التى تكون مادة البحث فى علم الاجتماع . وتصور تعريفات علم الاجتماع هذا التباين خير تمثيل . والموضوع الاساسى الذى التزمه كثير من الباحثين ، أن علم الاجتماع يدرس «الظواهر الاجتماعية» الامر الذى أدى الى متناقضات كثيرة خصوصا فى موقف علم الاجتماع من العلوم الاجتماعية . وثمة اتجاه آخر يميل الى تحديد «التفاعل الاجتماعى» كأهم موضوع لعلم الاجتماع . وهناك فريق آخر يدافع عن «الجماعة الاجتماعية» كموضوع جوهرى فى علم الاجتماع،وغيرهم يعتقد أن دراسة العمليات الاجتماعية الاضطرادية تمثل المركـز الذى يجب أن تدور عليه كل أبحـاث علم الاجتماع[1] .

ولعل فكرة العلم وحدوده المختلفة هى التى أثارت كل هذه الخلافات بين علماء الاجتماع وفى هذا الصدد يقول «كوهين» أن العلم فى أضيق معانيه يعنى الوصول الى القوانين العامة التى تقيم الصلة المنطقية بين الحقائق المختلفة ، كما أن المنهج العلمى بأوسع معانيه يساعد على تدعيم الفروض بتخليصها من الاخطاء ومن أشباه الحقائق[2] ومعنى هذا أن الغاية العظمى من البحث فى عـلم الاجتماع الوصول فى رأى «كوهين» الى قوانين وأن فاعلية المنهج العلمى تكون فى قدرته على مد الباحثين بالفروض المبدئية للدراسة ، وربما لا يكون هناك اختلاف كبير

---

(1) Timasheff N. S., Sociological Theory, Garden City, N. Y., 1955, pp. 293-299.

(2) Cohen. Y. R. Encyclopaedia of Social sciences.

بين علماء الاجتماع حول هذه النقطة ، وانما مرد الخلاف الى طبيعة المنهج العلمى الذى يجب أن يتبع كما أشرنا الى ذلك من قبل •

ويجمع علماء المناهج مثل «كارل بيرسون» و «دوهيم» و «بوانكريه» على أن الحقائق وحدها لا تصنع العـلم • أى أن العلم لا يعرف عن طريق موضوعه ، فهو وحدة تنضوى تحت لوائها جميع العلوم المختلفة • ويتميز كل علم عن الاخر باختلاف موضوعه وباختلاف وسائل الملاحظة العلمية فيه • ولهذا يكون العلم فى أى فـرع من فروع المعرفة وسيلة للحصول على المعرفة المضبوطة عن أى نوع من أنواع الظواهر التى تنظم الكون وتطبيق هذه المعرفة فى عمليات التنبؤ والضبط[3] ولهذا يمكن النظر الى الجدل الذى قام حول عملية علم الاجتماع خارجا عن نطاق بحثنا الان ، وكل الذى نود أن نشير اليه أنه يجب على دارس المجتمع ليكون علميا أن يتبع منهجا معينا لنتأكد أنه لا يسير طبقا لفكرة فلسفية أو متأثرا بمدرسة خاصة من مدارس التفكير ، لانه يجب أن يسير حسب ما يمليه عليه المنهج العلمى مهما كانت النتائج التى يصل اليها ، فالامانة العلمية تقضى أن نكون محايدين ؛ ولم يتقدم علم الاجتماع الا بعد أن طرح العلماء الافكار القبلية أو التأثرات الخاصة •

وهناك جانبان للعلم ولنشـاط العلماء • «الجانب الاول» يتمثل فى خلق أو بناء نظرية عامة لطبقة معينة من الظواهر ، والعالم الذى يهتم بمثل هذا العمل يجد أن أى حالة خاصة من الظاهرة محل البحث يجب أن تكون محل اهتمام فقط كجزء من المادة التى تستطيع استخدامها لتكوين فروضه أو اختبارها ، ومثل هذا النوع من النشاط العلمى يشار اليه غالبا على أنه علم خالص أو نظرى • «والجانب الثانى» تطبيق ما أمكن اقامته من معرفة علمية لشرح ظاهرة معينة أو فهمها ، ويقال لمثل هذا النشـاط «العلم التطبيقى» ولهذا يكون الطب تأسيسا على ذلك علمـا تطبيقيا يقوم على عـلوم نظرية مثل الفسيولوجيا والباثولوجيا[4] •

---

(3) Lundberg, Foundations of Sociology, New York, 1939, pp. 5-10.

(4) Radcliffe-Brown, Daryll Forde, African Systems of Kinship and marriage, Oxford, pp. 2-3.

والعلم الذى يشترك فى مثل هذا العمل لا يكون الهدف الاساسى فيه الاضافة الى النتائج النظرية العامة ، بل الوصـــول الى تفسير لحالة خاصة من الظواهر يكون للعلم مهتما بها • وهذان النوعان من النشاط العلمى متساندان تماما وقد يطبقان معا ، ولفهم علاقة كل منهما بالاخر لابد أن نميز بينهما منذ البداية ، ولذلك كان من المستحسن فى أى دراسة نقوم بها أن نعرف ما نحاول أن نفعله ، ومثال ذلك اذا كنا بصدد دراسة لنظام اجتماعى مثل «القرابة» فان الباحث الاجتماعى ينظر اليه على أنه نسق اجتماعى معين ويعتبره «موضوعا» يزوده بمجموعة من الحقائق الواقعية يمكن أن يستخدمها فى اقامة نظرية أو اختبارها ، ولكن من ناحية أخرى يمكن استخدام المعرفة النظرية لفهم مظاهر نسق اجتماعى معين• وفى ضـــوء المعرفة النظرية العـــامة التى تنتج عن الدراسة المقـــارنة للمجتمعات يستطيع العلم أن يقوم بتحليل لنسق خاص بحيث يمكن لأى مظهر معين فيه أن نراه فى علاقته بالمظاهر الاخرى لهذا النسق ومكانه من النسق ككل ، وقيمة أى دراسة كهذه وصدقها تعتمد فى المحل الاول على مدى دقة الافكار النظرية العامة التى توجهها •

وقد دارت مناقشات كثيرة حول ما يكون علما وما لا يكون فى علم الاجتماع وربما كان ذلك مرجعه أن العلم مسألة درجة ، وقـــد نجحت كثير من العلوم فى تنظيم مادتها وفى تعميق قدرتها على التنبؤ أكثر مما فعل علم الاجتماع ، ولكن علم الاجتماع مع هذا له ــ وعلى الرغم من ذلك ــ الخصائص التالية للعلم :

أ) الواقعيـة :أى أنه يقوم على الملاحظة والفحص وتحرى العلل ولا يقوم على علاقات غيبية ، كما أن نتائجه ليست تأملية • والعلوم فى مراحلها المبكرة الخلاقة تقوم على التأمل بالطبع ، ولكنها وبطريقة مثالية تخضع هذا التأمل للاختبار وفحص الوقائع قبل اعلانه على أنه كشف علمى •

ب) النظـرية : أى أنه يحاول أن يلخص الملاحظات المعقدة فى قضايا

مجردة ومرتبطة ارتباطا منطقيا بحيث يمكن شرح العلاقات العلمية التى تربط الحقائق بعضها بالاخر •

جـ) التراكميـة : أى أن النظريات السوسيولوجية تتبنى بعضها فوق بعض فالنظريات الجديدة تصحح وتوسع وتنقى النظريات القديمة •

د) الموضـوعية : أى أن النظريات السوسيولوجية ليس لها طـابع أخلاقى ، ولذلك لا يسأل علماء الاجتماع عما اذا كانت أفعال اجتماعية معينة حسنة أو رديئة ، وانما يحاولون شرحها وحسب •

ان علم الاجتماع لم يصل بعد فى كل هذه الخصائص الى درجـة الكمال ، ولكن التقدم ماض الى الامام باستمرار •

مفهومات ضرورية :

١ — ترجع أهمية العلم الى أهمية المعرفة خصوصا اذا ما قورنت بالمعتقدات أو الخرافات ، أو اذا وضعت جنبا الى جنب مع المفـاهيم غير الناضجة التى تنجم غالبا عن قلة المعلومات أو عدم دقتها ومثال ذلك أننا كنا نعتقد يوما ما كما زعم «ليفى برول» بأن العقلية البدائية تختلف نوعا عن العقلية المتحضرة ، وننسى أن اختلاف الثقافة ربما أدى الى اختلاف أنماط التفكير وننسى أيضا أن ظروف التنشئة الإجتماعية يمكن أن تجعل الطفل الذى ولد فى أكثر الثقافات تقدما بدائيا خالصا اذا نشأ وسط مجتمع بدائى ، ولكننا نعلم اليوم أن مثل هذا الزعم خاطىء لانه قام على أساس نظرى غير سليم ، فالمعرفة لا تزودنا باليقين أو بشىء مقارب له فحسب بل أنها تطارد الخوف والجزع الذى ينجم من عدم التثبت من طبائع الاشياء ولذلك فالتعريف الموجز للعلم أنه معرفة[٥] •

وفى هـذا الصدد يجب أن نعـلم أن المعرفة والافكار ليستا شيئا واحدا ، لان كل الافكار ليست جميعا معرفة ، فهناك مثلا فكرة فى أن

---

(5) Ogburn, Nimkoff. A Handbook Of Sociology, London, 1960. pp. 1-15.

وجود حكومة عالمية سيؤدى الى منع الحروب أو أن الشخص يتحدد مستقبل نموه العقلى الى الاختلال أو التكامل فى سن الخامسة ، وربما أمكن اثبات هذه الفكرة ومن ثم تصبح معرفة ، أو قد يؤدى البحث فى النهاية الى اثبات عدم صحتها . هذا الى أن كثيرا من الافكار لا تتردد لتصبح خاضعة للاثبات أو الدحض وانما تذيع لمجرد التسلية أو قد تكون من قبيل الاحلام أو التمنيات كما أن بعضها قد يستخدم للاثارة أو التخويف . ومع ذلك فاننا لا ننكر بأن الافكار تشكل مادة النشــاط الذهنى وتكون لامعة وجــذابة عندما لا تخضع للتحــديدات المنهجية وخاصة عندما تغلف باطار انفعالى . ولهذا فاننا نحب أن نناقش وجوه الحسن فى الحياة والهدف من وجــود العالم وطبيعة الحكمة وهكذا .

وعلى ذلك تكون الإفكار مادة مهمة بالنسبة للعالم الاجتماعى كمــا هى أيضا كذلك بالنسبة لغير العالم . فالعالم الاجتماعى يحتاج الى تصورات يمكن أن تؤدى الى مزيد من التبصر والفروض ، ولكنه يعالجها بغرض محدد وهو امكان تحويلها الى معرفة أو أن يكتشف فى نهاية الامر أنها من طبيعة تستعصى على التحديد العلمى .

٢ ــ فى بعض الاحيان تكون الافكار من الكثرة والتعقيد بحيث يلزم أن نقرر منذ البداية ما يمكن أن يدخل منها فى باب المعرفة وما لا يمكن ، ولذلك يواجه العالم الاجتماعى بسؤال هام عليه أن يجيب عليه بعناية تامة : ما الافكار التى تصلح معرفة وما لا تصلح ؟ ومثال ذلك أن هناك نظريات كثيرة عن عوامل انحراف الاحداث مثل نظرية الضعف العقــلى والنظرية العصابية ونظرية البيت المهجــور ونظرية التعــلم الارتباطى . والسؤال الان : كيف نثبت أن واحدة من هذه النظريات أو كلها يمكن أن يصلح معرفة ؟ الطريق العلمى أمامنا هو أن نجمــع الحقــائق المتصلة بكل نظرية ثم ننظر لنرى الى حــد يمكن أن تثبت الحقائق المجمعة هذه النظرية أو تلك . ولهذا يكون العمل العلمى معنيا بالمادة والافكار فى نفس الوقت ، ولكن المادة ليس من السهل جمعها فى كل الاحوال ، وتواجه عمليات الجمع صعوبات نسبية فى جميع العلوم، فمادة العلوم الطبيعية مثلا بسيطة يمكن أن نجمعها داخل معمل ولكن

فى علم الاجتماع لا نستطيع أن نحصل على مادته الا عن طريق العمل الحقلى ، وغالبا ما يستغرق جمع مثل هذه المادة وقتا طويلا الى جانب بهاظة التكاليف فى بعض الاحيان •

٣ ـ يعتبر التحيز الناجم عن العاطفة من أهـم معوقات البحث العلمى ، ويجد أرضا خصيبة اذا كانت المادة غير كاملة أو غير دالة ، الامر الذى يؤدى الى انحراف النتائج ، التى نصل اليها والتقليل من الدقة الواجبة ودرجة الاعتماد على هذه النتائج ، ويرجع التحيز الى أن علم الاجتماع يعالج موضوعات لكل منا ازاءها عاطفة معينة كمـا هو الحال بالنسبة لموضوعات الجنس والاسرة والجريمة والفقر • ويظهر تأثير التحيز بوجه خاص فى عملية التنبؤ التى ان لم تتم على أساس معلومات عالية الدقة ، فان ما يمكن تأسيسه عليها ينهار تماما فى مدى قصير ، وتظهر خطورة هذا الموقف اذا كنا بصدد تطبيق نتائج العـلم فى التخطيط •

٤ ـ العلم اذن ليس فنا من الفنون ، وهو يخالطه التفكير ، ومع ذلك فاننا نفكر كثيرا ولكن بطريقة غير علمية ، فهدف العلم أن يصل الى المعرفة وليس من شأنه أن يؤدى الى الحكمة[6] • والعلم كذلك يختلف عن الاخلاقيات ، الا أن المعرفة التى نحصـل عليها عن طريق العلم تكون ذات فائدة فى الاغراض العملية ، ومما لاشك فيه أن القيم السائدة فى المجتمع والاخلاقيات تعتبر موجهات السلوك الفـردية أو الجماعية ، فاذا كنا بصدد الاختيار بين الاقامة فى مدينة أو فى قرية ، فان مجموعة من العوامل الذاتية يمكن أن تتدخل فى الاختيار كمـا هو الحال بالنسبة لتفضيلنا لالوان معينة • لكن المعـرفة العلمية يمكن أن تؤثر خصوصا فى عصرنا هذا فى القيم التى توجه اختيارنا لأى أمر من أمور حياتنا المادية أو المعنوية ، ومع هذا فان موضوع العلم لا يتعلق بخلق القيم ، ويعبر العلماء عن هذه النقطة أحيانا بالتمييز بين الوسائل والغايات أو بمعنى آخر نقول ، ان وظيفة العلم تهيىء الوسائل التى

(6) Ibid., pp. 3-15.

نصل عن طريقها الى الاهداف المتعلقة بالقيم التى نؤمن بها ، وفى علم الاجتماع يختار الباحثون غالبا مسائل يهدفون من ورائها الى الكشف عن معرفة جديدة تفيد الجنس الانسانى ، ولهذا يحاول عالم الاجتماع أن يكتشف عوامل الجريمة التى قد تستخدم فى نواح متعددة ، من بينها زيادة الجريمة نفسها ، ولكن علماء الاجتماع يأملون أن تؤدى معرفة هذه العوامل الى الاقلال من نسب الجريمة • ومعنى هذا أن علم الاجتماع حين يبدأ من النظر وينتهى الى النظر فانه لا يغض الطرف مطلقا عن النواحى التطبيقية التى يمكن استخدام نتائجه فيها ، ذلك أن عالم الاجتماع لا يبحث فى الفراغ ، وانما يستمد انبعاثاته العلمية وفروضه الموجهة لدراساته من حياة المجتمع ومشاكله المتعددة ، ولذلك فتصنيف البحث فى علم الاجتماع الى بحث نظرى وبحث تطبيقى ، تصنيف غير متفق تماما مع علم الاجتماع ، ولسوف تبرز هذه الناحية عند مناقشتنا لفكرة التطبيق فى علم الاجتماع •

٥ — المعرفة العلمية تظل قابلة للتوضيح والاضافة والتعديل نتيجة لتقدم البحث العلمى واستمراره ، ومع هذا يجب أن تصبح محل ثقة ولها خاصية الدوام التى تبدو على وجه خاص فى نتائج العلوم الطبيعية والبيولوجية • ونظرا لعدم اتساع نطاق البحث فى علم الاجتماع ، فان بعض معارفه لا تصدق فى كل زمان ومكان • ولهذا لا يمكن أن تكون لها صفة العمومية • ومع ذلك فان كثيرا من المعارف السوسيولوجية يمكن تطبيقها على نطاق واسع بغض النظر عن الاختلافات الثقافية ؛ ومثال ذلك ، اذا أردنا أن نتحقق من القول بأن نسب المواليد فى المدن أقل منها فى المناطق الريفية ، وجدنا أنه يصدق فى الشرق كما يصدق فى العصور الوسطى • وعلى الرغم من أن ما يتوصل اليه علم الاجتماع محدد بالزمان والمكان نظرا لاختلاف العامل الثقافى وتغيره ، فانه مثل جميع العلوم يحاول أن يكتشف القوانين التى لها عمومية التطبيق بغض النظر عن اختلافات الثقافة •

المنهج العلمى : (٧)

ان الاهتمام بالمنهج العلمى يمثل فى علم الاجتماع نقطة جوهرية • وقد اهتم بالمنهج العلمى كل علماء الاجتماع تقريبا منذ ولادته الشكلية على يد أوجيست كونت • وقد تزايد الاهتمام به فى السنوات الاخيرة، حين نمت طرق البحث الاجتماعى المتعــددة باعتبارها أدوات الملاحظة العلمية ، الخطوة الاولى فى المنهج العلمى • ووضح لعلماء الاجتماع أن التثبت من المنهج العلمى أمر جوهرى فى كل مراحل ادراسة ، ومؤهل ضرورى للمبتدئين يمكنهم من اجراء بحوث أفضل • ولهذا كان التدريب على معالجة المنهج العلمى ضرورة موضوعية • ويحصل عالم الطبيعة على هذا التدريب بدراســة الرياضة وبتعلم العمليات المحــددة التى تتضمن التجريب • ويتلقى الباحث فى المسائل الانسانية هــذا التدريب من خلال الدراسة المركزة للغــات الكلاسيكية • ولكن التدريب الذى يناسب الباحث الطبيعى والانسانى لا يقابل الحاجات والمطــالب التى تواجــه العالم الاجتمــاعى الحديث • فعــلى الرغم من أن الصور الرياضية والدراسات التجريبية تزداد أهميتها كل يوم وتلعب دورا هاما فى استقصاء السلوك الانسانى ، الا أنها لن تصبح الوسائل الرئيسية فى المستقبل القريب • وعلى الرغم أيضا من أن الباحث الاجتماعى يمكن أن يستفيد من دراســة اللغتين اللاتينية واليــونانية ، الا أن اهتمامه الرئيسى بالمادة المعاصرة ، يحد من الفائدة التى تعود عليه من دراسة هذه اللغات الكلاسيكية • ولذلك كان عليه أن ينمى طرقا للتفكير بأسلوب آخر • أو بمعنى آخــر يمكن القــول ، ان نوع التحليــل المطلوب فى الدراسات المنهجية هو الذى يحدد التدريب المناسب •

ويزيد المنهج العلمى قدرة العالم الاجتماعى على مواجهة التطورات الجديدة أو غير المألوفة فى الميدان الذى يتخصص فيه • وخير مايوضح

---

(٧) سنعتمد فى عرض هذا الموضوع على الكتب الاتية :

(a) Lundberg; Social Research, 1942.

(b) Lundberg; and Others; Sociology; 1958.

(c) Lazarsfeld & Rosenberg; The Language of Social Research, N. Y., 1962.

هذه النقطة ، هو أن نميز تمييزا واضحا بين المنهج العلمى والوسائل الفنية (طرق البحث الاجتماعى) فالفرد الذى يتعلم كيف يصمم بعض الاجراءات أو الاختبارات ، أو ذلك الذى يتفوق فى تطبيق بعض الطرق الاحصائية ، يتمكن من المهارات التى تكون فى متناول اليد فى لحظة معينة • وقد يكون قادرا أيضا — فى المستقبل — أن يتعلم المهارات الجديدة ، كما أنه يستطيع أن يفاضل بين هذه المهارات جميعا من حيث صلاحية بعضها أو عدم صلاحية البعض الاخر • ولكن هل يستطيع أن يدرك المزاعم التى تكمن وراء هذه الوسائل الفنية ، وهل عنده من القواعد والمقاييس ما يمكنه أن يقدر على أساسها مناسبة اجراء معين لمسائل معينة ؟ والواقع ان القدرة على اصدار أحكام من هذا النوع لا يمكن أن نصل اليها من مجرد تعلم الوسائل الفنية التى تستخدم الان أو التى استخدمت فى الماضى•وماهو مطلوب اذن هو ذلك النوع من التمرين الذى يمكن الباحث من مقابلة ومعالجة المواقف البحثية المختلفة لعشر أو عشرين سنة • ذلك لان المتدرب تدريبا جيدا فى المنهج العلمى سوف يكون فى استطاعته لسنوات عديدة فيما بعد أن يواجه التطورات الجديدة فى العلم الذى يتخصص فيه ، وسوف يكون فى استطاعته أيضا أن يحكم على محاسنها ، وأن يربط الجديد بالقديم ، كما أنه فى هذه الحاله ، يتمكن من تخير ما يريد أن يضيفه ليصبح جزءا متكاملا من تفكيره •

ولعل أهم معاونة يقدمها المنهج العلمى للعلوم الاجتماعية ، هى توجيه الدراسات التى تهتم بالموضوعات المتداخلة بين هذه العلوم • والاهتمام بالدراسة الاجتماعية المتداخلة ينمو فى السنين الاخيرة ليحطم الحدود الفاصلة ، والحواجز التى تقيم الفواصل العميقة بين فروع العلم الاجتماعى • ويضع العلماء ثقتهم فى المنهج العلمى الذى يقع عليه وحده عبء ازالة هذه الفواصل ويكفى أن نفحص جيدا موضوع كثير من العلوم الاجتماعية ، فنجد أنها قد تدرس موضوعات واحدة ولكن اختلاف المصطلحات التى يستخدمها كل علم هو الذى يباعد من نقطة الالتقاء بينها • وهنا يجب أن نشير الى أن تأكيدنا لأهمية المنهج العلمى لا يجب أن يقودنا الى المبالغة فى دوره فى تقدم

العلم ، كما لا يجب أن يقودنا أيضا الى التقليل من أهمية البحث فى الواقع . وفى هذا الصدد يقال ، ان الدارس الخلاق هو الذى يقوم بالبحث ، أما الدارس العقيم فهو الذى يتكلم عن هذا البحث .

تطبيق المنهج العلمى علميا :

يفضل كثير من العلماء التفرقة بين المنهج العلمى باعتباره مجموعة من العمليات العقلية التى تقود أى دراسة علمية مهما كان موضوعها ، وبين أدوات البحث العلمى ، التى هى فى واقع الامر وسيلة كل علم لجمع الحقائق بطريقة خاصة ولهدف معين . ومن أجل هذا يقال أن المنهج العلمى واحد فى جميع العلوم بينما تختلف أدوات بحث كل علم بحسب طبيعة موضوعه . ويعبر وليام أجبرن Ogburn عن هذا الفصل بين المنهج العلمى وأدوات البحث بتطبيق فكرته فى التخلف الثقافى فيقول ، اذا نظرنا الى المنهج العلمى وأدوات البحث باعتبارها عناصر ثقافية ، فان المنهج العلمى يصنف ضمن الثقافة اللامادية ، وطبقا لنظريته يزداد تغير أدوات البحث بازدياد الاختراع والتجديد فيها ، بينما لا يحدث ذلك بالنسبة للمنهج العلمى ومن أجل هذا يحدث التخلف بين أدوات البحث وبين منهج العلم . ويشير أجبرن بذلك الى التقدم الكبير — فى رأيه — فى أدوات البحث الاجتماعى المتعددة ، بينما ثبت المنهج العلمى عند التحديدات التى وضعها ديكارت وبيكون ودوهيم وبوانكاريه وكارل بيرسون وغيرهم من علماء المناهج .

ان استخدام أدوات معينة فى جمع الحقائق فى ميدان علم الاجتماع، لابد أن يكون موجها على أساس الفهم العميق للمنهج العلمى ، لان مجرد جمع الحقائق مهما تشعبت وسائلها وبلغت مبلغا عظيما من الدقة، يصبح عبثا من غير تثبت واضح من خطوات المنهج العلمى من ناحية ، ومن الاطار النظرى الذى يحدد الافكار والمفاهيم تحديدا دقيقا من ناحية أخرى . واستخدام أى أداة من أدوات البحث الاجتماعى لابد أن يسبق اذن بتحديد واضح للمشكلة أو الموضوع محل الدراسة ، الى جانب الاحتياطات الاخرى لسلامة الاداة وفاعليتها فى جمع المعلومات ، مثل الدراسات الاستطلاعية وحسن اختيار العينة واستجلاء الصعوبات

وغير ذلك من المتطلبات الضرورية فى البحث العلمى • وقد استحدثت العلوم الاجتماعية عددا من أدوات البحث من أهمها : الاستخبار Questionnaire والمقابلة Interview ودراسة الحالة Case Study ، تعتمد جميعا على أنواع من الاسئلة تصمم وتبنى وتستخدم لاغراض متعددة، هذا الى جانب الاعتماد على البيانات والوثائق والسجلات الاحصائية(٨) •

ومن أحدث طرق البحث الطريقة المسماة «السوسيومترى Sociometry أو القياس الاجتماعى» التى يعتبرها صاحبها مورينو Moreno علما قائما بذاته يقف جنبا الى جنب مع علم الاجتماع والاشتراكية العلمية ، ويرفض أن تكون مجرد وسيلة من وسائل البحث الاجتماعى(٩) •

ويقول جورج لندبرج ، ان الهدف الاول للعلم الاجتماعى ، أن يقيم نسقا من المقررات المحققة أو القوانين العلمية ، التى تمكننا من فهم وضبط وجوه النشاط الانسانى والتنبؤ بها ، وخاصة تلك الوجوه التى تهمنا فى الدرجة الأولى • وقبل أن نقرر قانونا أو قضية لها صفة الصدق ، يجب أن نخضعها للاختبار الواقعى التجريبى • وهذا الاختبار فى حد ذاته عبارة عن عمل يقوم على الخبرة والتجربة التى تأيدت عن طريق عدد من الملاحظين المؤهلين للملاحظة المنظمة • ومثل هذا الاختبار أيضا لا يعتمد على مجرد تجميع أدلة تثبت صحة القانون،بل انه يشتمل على سلسلة من الملاحظات المضبوطة والمنظمة التى يمكن أن تدحض القانون أو تشكك فى صحته • وعلى الرغم من أن العلوم الاجتماعية لم

---

(٨) يمكن للطالب الذى يريد أن يقف على اساليب البحث الاجتماعى ان يرجع الى الكتب الاتية :

١ ــ الدكتور جمال زكى والسيد يس ، أسس البحث الاجتماعى ، ١٩٦٣ (ويتميز هذا الكتاب بالشمول والاحاطة بكل التطورات التى وصل اليها فن البحث) •

٢ ــ الدكتور ابراهيم ابو لغد والدكتور لويس مليكه : البحث الاجتماعى ، ١٩٤٩ •

٣ ــ الدكتور محمد طلعت عيسى : البحث الاجتماعى ، ١٩٦٠ •

(9) Moreno, L. (ed.), The Sociometry's Reader, Illinois, 1960.

نتوصل بعد الى «مخبار» مثالى ، فان هـذا لا يمنعنا من أن نضع فى الذهن دائما أن وظيفة البحث ، جعل ملاحظاتنا لها القدرة على اثبات فروضنا أو رفضها أو تعديلها •

ميادين نامية فى البحث :

تمر الموضـــوعات التى تحظى باهتمام الباحثين فى علم الاجتماع بتغيرات عميقة ، ونلاحظ أنه مع ثبات الاهتمام بالموضوعات التقليدية التى تتناول ظواهر أو علاقات لها صفة العموم النسبى سواء فى البناء الاجتماعى أو فى التغير الاجتماعى ، الا أن هناك ميلا يعمق جـــذوره وبسرعة للتركيز على وحدات ينظر اليها باعتبارها الخلايا الاساسية فى بناء المجتمع ، أو الخيــط الاساسى الذى يتكون منه نسيج العلاقات الاجتماعية مهما اتخذ من صور أو أنماط • وقد صاحب هـذا الاتجاه الجديد اعادة فحص أدوات البحث لتتناسب مع أهدافه ، ولذلك تراجع الان مدى كفاية الاستخبار والمسح والمقابلة للنهوض بهذه الاهداف ، وغالبا ما يدخل عليها تعديلات جـوهرية من حيث المبنى والوظيفة • وسوف نعطى لمحة سريعة لهذا كله فيما يلى :

١ ــ نمت الى جـانب الدراسات الديموجرافية (السـكانية) والايكولوجية (البيئة والانسان) ، دراسة الجماعات الصغيرة ، التى تتميز بقلة العـدد (الحجم الصغير) وبالتفـاعل المباشر بين الاعضاء ومن المعروف أن دراسة السلوك الجماعى ووصفه ، موضوع قديم فى علم الاجتماع • ولكن الجديد اليوم هو الاهتمام المتزايد بالدراسات التجريبية فى هذا الميدان • وفى نفس الوقت يهتم الباحثون بدراسة الجماعات فى ظروفها أو وضعها الطبيعى مثل دراسة جماعات الصناعة أو جماعات اللعب وغير ذلك • ولا يقتصر الاهتمام بدراسة الجماعات على اتجاه معين فى العلم الاجتماعى •

أ) فهناك اتجاه نفسى اجتماعى ابتدعه كورت ليفين Kurt Lewin لدراسة الجماعة ويعرف بطريقة غير محددة باسم مدخل «الدينـاميات الجماعة» •

ب) وهناك الاتجـاه السوسيولوجى الذى يقوم على رأسه بيلز Bales ، والذى يعالج الجماعة الصغيرة باعتبارها نسقا اجتماعيا .

جـ) وهناك أخيرا «السوسيومترى Sociometry » التى استحـدثها مورينـو ، والتى تدرس الجمـاعة عن طريق أسلوب خـاص فى قياس العلاقات داخلها .

٢ ــ وقد ظهر الاهتمام الكبير ببحـوث الجماعة الصغيرة بتدعيم طرق ملاحظة التفاعل الذى يتم بين أعضاء الجماعة الواحدة . ومن أجل هذا ظهرت عدة طرق للملاحظة المنظمة،ومن أهمها الطريقة التى ابتدعت نظاما تصنيفيا لتسجيل التفاعل. ولم تقتصر دراسات الجماعات الصغيرة على اكتشاف عدد من النتائج المتعلقة بنواحى التفاعل المختلفة ، مثل أنماط وسائل الاتصال وبناء السلطة ومصدر القوة فى الجماعة ، وفاعلية الجماعة وانتاجيتها وتماسكها وغـير ذلك ، بل انها قربت المسافة بين النظرية والبحث . ومن أبرز الامثلة على ذلك أن النتائج التى توصل اليها بيلز دعمت بعض نظريات تولكوت بارسونز ، التى أثارت بدورها اهتمامات أخرى فى مزيد من النتائج التجريبية . ويرى بعض الباحثين، أنه اذا استمر هذا الاتجاه فى النمو ، سوف تصبح دراسة الجماعات الصغيرة مصدر خصب للنظرية السوسيولوجية[١٠] .

٣ ــ أصبحت السوسيومترى عنـد مورينو والتى كان من أهـم أغراضها قياس أنماط التجـاذب والتنافر بين أعضاء الجماعة ، مدخلا يستخدم استخداما واسع النطاق فى دراسة الجماعة الصغيرة . وقد أصبحت بعض اصطلاحاتها مثل القيـام بالدور ، والعـلاج الجماعى والسوسيوجرام ، مألوفة فى لغة علم الاجتماع . ولكن هنـاك اتجاه سوسيومترى آخر ابتعد إلى حد ما عن اتجاه مورينو الأصلى ، الذى كان ينظر الى السوسيومترى كمنهج فى خفض حدة الصراع الذى يقوم بين الاشخاص ، ويبدو هذا فى الاهتمام «بتحليل العلاقة» عن طريق

---

(10) Tiryakian, E. A; Methodology and Research; in Roucek K. Contemporary Sociology, London, 1959, pp. 157-165.

سؤال الفرد أن يقرر عما اذا كان أعضاء الجماعة الأخرون يتقبلونه أو يبتعدون عنه ويرفضونه •

٤ ــ وهناك اتجاه آخر قريب لاتجاه دراسة الجماعات الصغيرة ، يبدو فى الاهتمام بنسق الترتيب الطبقى الذى يربط الافراد بعضهم بالآخر ، وتختار المجتمعات المحلية ميدانا لمثل هذه الدراسات • ومثال ذلك أن وليام وورنر William Warner نشر بالاشتراك مع زملائه ومعاونيه دليلا مفصلا للاجراءات التى يمكن استخدامها لدراسة المكانة الاجتماعية فى مجتمع محلى يسمى جونزفيل Jonesville ، وفى هذا الدليل يرى وورنر ، أن تعيين أو تحديد الافراد فى مكانتهم من الطبقة الاجتماعية موضع النظر ، يعتمد على طريقتين مختلفتين ، الاولى سماها « المشاركة المقومة Evaluated Participation » وتشتمل على ست وسائل فنية لقياس المعدلات ، عن طريقها يقوم المخبرون المشاركة الاجتماعية لاعضاء المجتمع المحلى • وينظر أغلب الباحثين الى هذه الطريقة على أنها طريقة ذاتية • والثانية سماها «دليل أو فهرست خصائص المركز Index Of Status Characteristics (I. S. C) وهى عبارة عن دليل لاربع عوامل اجتماعية اقتصادية هى ، المهنة ومصدر الدخل ، وطابع المنزل ومنطقة الاقامة • وينظر الى هذه الطريقة باعتبارها طريقة موضوعية تترجم المفاهيم المتعلقة بالطبقة الاجتماعية الى اصطلاحات أو معانى اقتصادية والعكس • وقد زعم وورنر أن هاتين الطريقتين وما تمخضت عنهما من نتائج يمكن أن تطبق على كل أنحاء الولايات المتحدة ، ولكن هذا الزعم قوبل بنقد شديد من عدد كبير من الباحثين فى علم الاجتماع لاعتبارات تتصل بالمنهج وبوحدة الدراسة المختارة[11] • ومن المحتمل، اذا كان هذا المدخل لدراسة الطبقة الاجتماعية لا يصلح فى ظل الثقافة الامريكية المتميزة ، الا يصلح أيضا للتطبيق فى مجتمعات أخرى ذات ثقافات مختلفة[12] • وقد حاول علماء الاجتماع أن يسدوا النقص الذى

---

(11) Ibid., p. 159.

(١٢) ولمزيد من الايضاح وبيان وجوه النقص فى طريقة وورنر يمكن الرجوع الى :

Bendix, R. & Lipset, S. Class, Status and Power, 1961, pp. 224-255.

ظهر فى دراسات الترتيب الطبقى للمجتمعات المحلية،بأن يبتدعوا الطرق التى يمكن معها دراسة هذا الموضوع فى النطاق القومى ، وذلك بوضع قائمة للادوار المهنية التى يسهل تصميمها عن طريق عينات ممثلة فى السكان •

ه ــ وقد نعل الاهتمام أيضا بأدوات البحث عن طريق ادخال تحسينات منهجية عليها • فالمسح الاجتماعى كطريقة يراجع الان ليؤدى وظيفته بطريقة أفضل وليخدم أهدافا منهجية عامة فى نفس الوقت ، ويحل الاستخبار الان محل المذكرات الشخصية والوثائق الخاصة بتاريخ الحياة ، ووجهت اليه عناية كبيرة فيما يتعلق ببناء الاسئلة وتنظيمها،كذلك زاد «بالمقابلة أو الاستخبار» كوسيلة فنية لجمع الحقائق وتعددت أنواعها لتؤدى أغراضا مختلفة • هذا وقد تزايد الاهتمام ــ بتأثير علم النفس الاجتماعى ــ بالوسائل الفنية للقياس التى تستخدم المعادلات الرياضية ، وخاصة فى قياس الاتجاهات • وقد كان هذا الاهتمام بطرق البحث وأدواته صدى لاحساس علماء الاجتماع أن تقدم المعرفة فى علم الاجتماع يتوقف على مدى نجاحهم فى الوصول الى أدوات لجمع الحقائق لها من الدقة ما يسمح بالاطمئنان الى صدق هذه الحقائق وثباتها •

ان الاتجاهات الجديدة فى دراسة الجماعات الصغيرة أو دراسات المجتمع المحلى وما صاحبها من اعادة النظر فى أدوات البحث والقياس، لم تلق ترحيب جميع علماء الاجتماع ، بل أنها تعرضت لنقد لاذع من عالم كبير من علماء الاجتماع المعاصرين « سوروكين » فى كتابه Fads and Foibles in Modern Sociology ومن أهم نقداته قوله ، اننا لاننكر أهمية الاحصاء والقياس فى دراسة مسائل العالم الاجتماعى والثقافى ، ولكن محاولة تقليد العلوم الطبيعية بالبحث عن معادلات رياضية اتجاه يخرب علم الاجتماع ويكشف عما سماه «هوس الاختبارات» ويزيد الامر سوءا جهل وادعاء الذين يعتبرون قادة فى هذا الميدان • ويهاجم سوروكين أيضا أولئك الذين ينتقلون من ميدان الى آخر فى علم الاجتماع وبيدهم علم لجيش من الخشب المسندة هو «الاستخبار أو غيره من

أدوات البحث» دون معرفة أو دراية صحيحة بالنظرية السوسيولوجية أو بتاريخ الفكر أو بالأرض التى أنبتت المذاهب الفكرية الرئيسية فى مجرى التاريخ ، وكأنهم يسمون فى كل مكان وينادون «أعندكم بحث» وما أيسر البحث اذا كانت عدته مجموعة من الاسئلة يزعمون أنها تقيس بطـريقة كمية مضبوطة ظواهـر المجتمع ، وينسون أن هـذه الطريقة لا تميزهم كعلماء لانها فى استطاعة أى انسان ، ويطلق سوروكين على هؤلاء اسم Omnibus-Researcher-Professor ويستطرد سوروكين فيقول ، ان حالة هؤلاء النفسية تكشف عن مرض وبائى خبيث أصاب الكثيرين ، يسميه «فصام الكم» ، ويظل يهاجم هذه الاتجاهات الحديثة فى علم الاجتماع وعلم النفس والانثروبولوجيا مفندا لها بقسوة وعنف بالغين، الى أن يتعـرض لاولئك الذين يبحثون عن أبسـط وحدة فى الظواهر الاجتماعية الثقافية ، تقليدا لعلماء الطبيعة الذين يعتبرون « الذرة » أبسط وحدة فى الظاهرة الطبيعية ، ولذلك سقطوا فى متاهات وسراديب أوصلتهم الى الضلال ، فبعضهم يرى أن الوحدة هى الفرد أو الزمالة وبعضهم يرى أن هذهالوحدة هى الدور أو الفعل أو العلاقة الاجتماعية، ويرى آخرون أنها الاسرة أو المجتمع البدائى أو الجماعة الصغيرة .

ويحاول سوروكين أن يهدم هذا كله ويبين فى تفصيل عدم فهم من يساند هذا الاتجاه أو ذاك لخصائص الوحدة البسيطة من حيث البناء والوظيفة . ويختتم كتابه بقوله ، أن العلم الاجتماعى النفسى قـدم خلال القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ معـرفة بالغة الاهمية عن الانسان وعالمه الاجتماعى النفسى ، فلا نكاد نجد جديدا فى أيامنا هذه . وكل الذى نجده عـلامات التعب والضيق التى بدت على باحثين اليوم ، المتسرعين والمتعجلين للنتائج ، ولهذا تتميز بحوث علوم المجتمع اليوم وخاصة علم الاجتماع وعلم النفس بالعصابية والعقم . ان الحـاجة اليوم ماسة الى علاج هذه الحالة بعد حسن تشخيصها ، ولن يتم ذلك الا بتوحيد جهود ثلاث مناهج وتعاونها على انتشال البحث عن الحقيقة الاجتماعية من الوهدة التى تردت فيها بفعل هوس الاختبارات وفصام الكم ، وهذه النتائج هى :

منهج الملاحظة الذى يقوم على الادراك الحسى •

ومنهج المنطق الرياضى الذى يقوم على استخدام العقل فى التفكير المجرد •

ومنهج الحدس الذى يعلو فوق الحس والعقل معا •

ويقول سوروكين ان امتزاج هذه المناهج الثلاثة كفيل بأن يكشف فى وضوح الابعاد الثلاثة للحقيقة الاجتماعية التى يقابل كل بعد منها المنهج الملائم من المناهج الثلاثة السابقة • الى أن يقول ، ان هذه المناهج الثلاثة كمل أحدهما الاخر ويراجع أحدهما الاخر أيضا ، الامر الذى يترتب عليه ضمان عدم الوقوع فى أخطاء التزام منهج واحد[١٣] •

خطوات المنهج العلمى :

مهما كانت طبيعة المادة التى نعالجها ، ومهما كانت طرق البحث التى نستخدمها فان هناك عدة خطوات ضرورية ، لابد أن نلتزمها فى كل عمل علمى •

١ ـ الفرض المناسب : وسيشير الى الفرض هنا ، على أنه نوع من التعميم ، يحتاج الى اختبار أو تعميم • والفرض فى مراحله المبدئية عبارة عن فكرة تصورية أو حدس أو ظن ، يمكن أن يكون قاعدة لدراسة منظمة • وننه فى سبيل الحصول على الفروض ، ننظر فى ميادين الادب والفلسفة والشعر ، وكل ما كتب فى علم الاجتماع والانثولوجيا وخصوصا النظريات التى ترد كثيرا فى كتابات العلماء •

ومن شروط الفرض المناسب أن يصاغ بصورة واضحة ومحددة كلما كان ذلك ممكنا ، لان كل فرض معد للبحث يحدد مقدما المصادر التى سنعتمد عليها والميادين التى سنرتادها وبالتالى يمنعنا من الجمع العشوائى للحقائق • وعلى ذلك ينبغى أن نتجنب منزلقا خطيرا فى هذا

---

(13) Sorokin, P., Fads and Foibles in Modern Sociology London, 1958, pp. 315-317.

الصدد مخافة أن نعتبر الفرض قضية علينا أن ندافع عنها وبالتـالى نختار الحقائق المؤيدة ونسقط الحقائق التى تبدو مضعفة لها ٠

٢ ـ ملاحظة الحقائق وتسجيلها : وتشمل هذه الخطوة كل ماتعلق بالعدد والقياس ، وهى تنطوى أيضا على اجراء ملاحظات مضبوطة عن طريق استخدام الحـواس الانسانية بمساعدة الآلات المناسبة ٠ ومن المسلم به أنه كلما زادت دقة الحقائق المجمعة كلما زاد الاعتماد عليها، وكلما كانت النتائج المترتبة عليها محل ثقة علمية ٠

٣ ـ تصنيف الحقائق وتنظيمها : وتبدو أهميـة هذه الخطوة عندما نعلم أن التشابه والاختلاف لا يظهران الا بعد التصنيف والتنظيم ٠ وكلما كان من الممكن أن نبرهن على الاطراد أو الاتفاق فى مجال الحقائق كلما أصبحت دراستنا ذات اطار علمى ٠

٤ ـ التعميم : وعندما تتم الخطوات الثـلاث السابقة يصبح من الممكن أن نصوغ الاوصاف التى تنطبق على اتجاه الحقائق فى شكل جملة قصيرة يمكن أن نجد لها تطبيقات فى عدة نواح أو نجد لها مشابهات فى ظواهر لها نفس الظروف ، ومثل هذه الجملة يقال لها « قـانون علمى » والشكل المثالى لمثل هذه التعميمات هو الصورة الرياضية ومع ذلك فلا ينبغى لنا أن نزعم أن هذه الصورة يمكن أن تكون مضبوطة تماما أو أن لها خصائص الاطلاق غير المقيد بالزمان والمكان ، حتى أنه فى الميادين التى سار فيها البحث العلمى شوطا بعيدا لا نستطيع أن نطمئن الى دقة ما يتوصل فيها من تعميمات،ذلك لانها تخضع دائما للتحسين والتصحيح على أساس مزيد من الملاحظات الدقيقة وجمع أوسع الحقائق ٠ ومثل هـذه التصحيحات تتم نتيجـة للاختبار التجريبى لما نصـل اليه من تعميمات، ولكن هذا القول لاينبغى أن نفقد معه الثقة فى قيمة التعميمات كأساس للتنبؤ العلمى ٠ ومع ذلك فلابد أن نحذر تطبيق التعميمات على نطاق واسع ، أى نطبقها على مواقف أو حـالات مختلفة عن الحالات الاصـلية ٠

الاختيار والوصف والتفسير :

بعض المعرفة السوسيولوجية عبارة عن وصف للظواهر كمـا هو الحال مثلا في مسح المجتمع المحلي • ولكن ليس من الممكن أن يلاحـظ جميع الناس بطريقة صحيحة • حتى أنه من الواجب أن يتدرب جامعو الاحصاء • وهذا التدريب بدوره ضروري للمؤرخين وعلماء الاجتماع•

١ ـ الاختيـار: والمشكلة الكبرى في الوصف هي ، ماذا نصف ؟ ذلك لانه عندما تكون الظاهرة المراد وصفها معقدة ومتغيرة ومتعددة ، فـان كل شيء لا يمكن أن يخضـع للوصف • ولذلك وجب الاختيار • فالاوصاف التي يجمعها أمريكي لروسيا غير التي يجمعها روسي لها ، فقد يكون وصف كليهما دقيقا ولكن كليهما في نفس الوقت مختلف عن الاخـر •

٢ ـ الاوصـاف التحقيقية : الملاحظات العلمية لابد أن تتم بشكل يمكن التحقق منها ، ولذلك فـان القول بأن السكان في الهند يزيدون بنسب تنبـذر بأوخم العواقب ، قـول لا يخضع للتحقيـق لانه ليس لدينا مقاييس عن «أوخم العواقب» ولهذا يكون مثل هذا القول مجرد رأي • وعلى العكس من ذلك يمكن التحقق من القول الاتي :

«في عام ١٩٤٠ زاد سكان الهند حوالي ٥ مليون نسمة ، أي أن عددا من السكان مساو للسكان في الولايات المتحدة عام ١٨٩٠ يمكن أن يضاف في مدى جيل واحد الى مجموع سكان الهند »•

٣ ـ وصف العينـة : يميل علماء الاجتماع الى وصف عينات أكثر من ميلهم الى وصف الكل ، لان البحث السوسيولوجي باهظ التكاليف• ومع ذلك لابد أن تكون العينة كبيرة نسبيا وممثلة ، ومثال ذلك أننا اذا أردنا أن نصف الرأي العام فان من الخطأ أن نعتمد على تتبـع أقوال الصحف في المدن الكبرى فقط ، بل لابد أن نعتمد في نفس الوقت على الصحف التي تصدر في كل مكان اذا كانت موجودة ، كما هو الحال في الولايات المتحـدة وبعض البـلاد الاوربية • كما أنه من الواجب أن

نفحص حالات كافية لنتأكد من أن العينة التى أخذناها صالحة ونموذجية. اذن فالوصف فى العلم يتطلب مهارة وتدريبا .

٤ ـ قياس العلاقات : اذا دققنا النظر فى العمل العلمى فى علم الاجتماع نجد أن نسبة كبيرة منه لا تتعلق بوصف الظواهر . فكثيرا من العمل السوسيولوجى يتعلق بالعلاقة الموجودة بين ظاهرتين أو أكثر ، ومثال ذلك عندما نبحث العلاقة بين ظروف العمل ونسبة الزواج . والمنهج المتبع فى هذه الحالة هو بحث المظاهرة . وحول السبب ومعناه جرت مناقشات متعددة ، حتى أن كثيرا من الكتاب يستخدمون كلمة « السبب Cause » فى معان مختلفة[١٤] .

المتغيرات Variables

١ ــ عندما نفحص العمل السوسيولوجى نجد أن كثيرا منه يتكون من محاولات للبحث عن أسباب الظواهر : مثل الحرب والجريمة والطلاق ... الخ . والظاهرة التى نريد غالبا البحث عن سببها هى تغير من حالة سابقة الى حالة لاحقة . فالحرب تغير من السلام ، والجريمة تغير من الامان وهكذا ... ففى الولايات المتحدة مثلا كان عدد حالات الطلاق واحد الى ثلاث زيجات ، وكان قبل الحرب فى عام ١٩٣٠ واحد الى ست زيجات . وفى كل هذه الحالات كان هناك تغير ، ولذلك نقول عنه انه انحراف ، ويقال للظاهرة متغيرا Variable . ولذلك فنحن نريد أن نبحث عن أسباب الانحراف من السلام الى الحرب ، وفى زيادة نسبة الطلاق ، أو فى انخفاض نسبة الجرائم .

والظاهرة التى نريد أن نشرحها يقال لها المتغير المعتمد Dependant Variable لان هذا المتغير معتمد على أو تسبب عن التغير فى المتغير الاخر أو المتغيرات الاخرى . وهكذا نجد أن بعض الزيادة فى حالات الطلاق بعد الحرب تسبب عن زيجات متسرعة وانفعالات ترتبت على ظروف الحرب ، كما أن الانتعاش الذى أعقب الحرب اسهم فى زيادة حالات

---

(14) Ogburn, Nimkoff, Op. Cit., pp. 5-10.

الطلاق أيضا ، ومن المعلوم ان الطلاق يزداد ابان الانتعاش ويقل ابان الكساد . ولهذا نقول أن سبب زيادة الطلاق بعد الحرب كان فى نفس الوقت تغيرا من السلام الى الحرب . فالتغير فى متغير واحد يمكن أن يفسر بالاضافة الى تغير فى متغير آخر واذن عندما ندرس أسباب ظاهرة معينة ، فاننا ندرس بذلك العلاقة بين متغيرين أو أكثر .

٢ ـ الدائم ليس سببا للتغير : اذا استطعنا أن نفسر انحرافا فى ضوء انحراف آخر ، فان النتيجة تكون فى أن انحرافا لا يمكن أن يفسر بالاضافة الى دائم . والدائم هو العامل الذى لا يتغير ، ومع أن الدائم لا يمكن أن يكون سببا فى تغير متغير ، فقد يكون مع ذلك عاملا فى التغير . ولذا لا تكون الغريزة (غريزة المقاتلة والعدوان) سببا فى الحرب ، لان هذا العامل البيولوجى دائم ، ولان الغريزة كانت موجودة فى السكان فى سنوات السلام ، بنفس الدرجة التى كانت موجودة بها أثناء الحرب ، ومع ذلك فان هذا العامل البيولوجى سبب فى الحرب ، لانه اذا لم يكن موجودا ، فربما لا تنشب الحروب . اذن فالظاهرة يكون لها عدد كبير من العوامل الدائمة وفى نفس الوقت يكون كل تغير فى الظاهرة نتيجة لعوامل علية أقل[15] .

٣ ـ الظواهر الاجتماعية ذات اسباب متعددة : المجتمع الحديث مجتمع معقد وملىء بالتغيرات . ولهذا فمن المنطق أن نقول أن للظاهرة الاجتماعية أسبابا عديدة . ولكن العقل الانسانى فى حبه للتبسيط يميل دائما للتفكير فى ضوء سبب واحد . ولا ينبغى أن يفهم من قولنا بتعدد العوامل والاسباب اننا نضعها جميعا فى مصاف واحد ، بل ان بعضها أهم من البعض الاخر . ومثال ذلك أن أسباب الهجرة كثيرة ، فقد تكون فرصا اقتصادية ، أو ضغطا سكانيا ، أو لاسباب دينية كالاضطهاد ، أو لسهولة وسائل المواصلات أو لاسباب تتعلق بدورة العمل وذبذباتها .

٤ ـ سلسلة الاسباب : عندما نبحث فى الاسباب لابد أن ندقق فى

---

(15) Ibid., p. 7.

العلاقات القائمة بين المتغيرات والخطوة الاولى ، ان نحدد عما اذا كانت هناك مصاحبة فى الانحراف أو حدوثا فى نفس الوقت بالنسبة للمتغيرات أو بينها . ومثال ذلك أننا اذا وجدنا نسب الجريمة فى مدن ذات حجم محدد مقاربة لنسبها فى مدن تنمو بسرعة ، ثم وجدناها أيضا مقـاربة لمدن يقل عدد سكانها أو تزداد فى بطىء ، فاننا ننتهى من ذلك الى القول بأن درجة النمو فى المدن ذات الحجم المعين والحدود المعينة ، ليست سببا محتملا لزيادة الجريمة . لان نسبة الجريمة دائمة وثابتة عندما تختلف درجات النمو بالنسبة لعدد كبير من المدن .

ومن ناحية أخرى اذا كانت نسبة الرجال الى النساء فى المدن مرتفعة مع ارتفاع فى نفس الوقت فى نسبة الجريمة ، ومنخفضة مع انخفـاض فى نسبة الجـريمة أيضا فقد يكون هناك تغـير نسبى أو مصاحب بين الظاهرتين ، ومن ثم لابد أن نبحث عما اذا كانت هذه المصاحبة تتضمن عليه أم لا . وينبغى أن ننبه هنا أنه فى دراسات علم الاجتماع لا يعنى التغير المصاحب ضرورة ارتباط المتغيرين عليا ، لان هذين المتغيرين قد يكونان مستقلين أحدهما عن الاخر ، ويرجع التغير المصاحب الى عوامل أخرى .

كيف نختار موضوع البحث :

من المسائل الهامة التى تعترض الباحثين فى علم الإجتماع وخاصة المبتدئين منهم : الموضوعات التى تصلح للدراسة ، لان البعض قـد لا يكون عنده ادراك سـليم للصعوبات المتعددة التى يتبينها الباحث المتمرن،ولذلك يوصى الاخصائيون فى وسائل البحث الاجتماعى بضرورة توفر عوامل وعناصر هامة هى :

أ ـ التخصص بمعنى أن الباحث يجب أن يكون متخصصـا فى الناحية التى يريد أن يبحثها ، ولذلك يمتنع هنا أن نسمح للهـواة أو للذين لم يتلقوا دراسة منظمة فى شئون المجتمع بمعالجة أى ناحية من نواحى البحث .

٢ ـ يجب قبل الشروع فى البحث أن يتلقى الباحثون معـلومات

منظمة عن ميدان الدراســة ، وعن صلته بالميادين الاخــرى عن طريق برنامج تدريب محدد ينظم لهذا الغرض •

٣ ــ يجب أن يمين للباحث مقررا للقراءات التى تنقصه لحسن فهم موضوع الدراسة ، وخاصة الابحاث التى أجريت عليه قبــل ذلك أو الابحاث المتصلة به •

٤ ــ يجب أن ينطــوى البحث على تحليل دقيق لجــزء محدد من ميدان المعرفة السوسيولوجية •

٥ ــ يجب أن يتعرف الباحث على الاجراءات المتبعة قبل الشروع فى البحث أو أثنائه أو بعده وما يترتب على ذلك من مطالب •

٦ ــ يجب أن يتكرر البحث مرة بعد أخرى على مستويات مختلفة حتى يتأكد الباحث من أنه قد وصل الى معلومات عالية الدقة تتوفر فيها خصائص الثبات والصدق •

وهناك مستويات رئيسية لابد من اتباعها فى اختيار المشــكلة التى تصلح للدراسة منها ، الاصالة والجدة ، على أن نتجنب الازدواج حتى لا يضيع جهد الباحثين عبثا ، فضلا عن أهمية الموضوع محل البحث ، لانه من غــير الملائم أن يهتم البــاحث بمسائل عرضية أو وقتية أو سطحية • كل هــذا يجب أن يتم على أساس من التثبت من المنهــج والامكانيات المتوفرة فى جمع المادة والتى يجب أن تكون فى متناول اليد مع تقدير عامل الزمن •

أما منطوق الموضوع محل البحث فلا بد أن يكون فى صورة سؤال أو جملة خبرية مباشرة وتشمل مراحل تعريف موضوع البحث ما يلى :

١ ــ تحليله الى عناصره المكونة الاساسية حتى يمكن ترتيب جمع المادة ترتيبا منطقيا •

٢ ــ معرفة واضحة بحدود البحث ومداه وصلته بغيره من الابحاث المتشابهة ومكانه من أبحاث علم الاجتماع عامة •

٣ ــ معرفة القراءات المتصــلة بالموضوع التى يمكن أن تكــون صالحة فى اعداد الاساس النظرى الذى يجب أن يضمه الباحث قبل أن يشرع فى الدراسة •

٤ ــ معرفة مصادر المعلومات وطرق البحث المناسبة وبيــان وجه الحاجة الى هذا البحث •

٥ ــ تحديد دقيق للاصطلاحات العلمية التى سترد فى التحــليل العلمى للمعلومات المجمعة والتزام هذه التعريفات بكل دقة فى كل نواحى التحليل كما أن الفروض الموجهة للدراسة يجب أن تكون واضحة ودقيقة جدا بحيث لا يختلط فى الاذهان بفروض مشابهة •

الفصل الرابع

المجتمع والحياة الاجتماعية

المجتمع والحياة الاجتماعية

اذا كانت الثقافة طريقة المجتمع وأسلوبه فى الحياة ، فالمجتمع هو الحياة بذاتها . والمجتمع حقيقة جوهرية فى حياة الافراد ، من غيره لا يستطيع الفرد بذاته أن يستمر فى الحياة ، فهو الذى يجعل الحياة الاجتماعية ممكنة ، وقد يقول قائل ان الفرد ليس عليه أن يعيش حياة اجتماعية بالضرورة ، وبالتالى يمكن ألا يكون المجتمع شرطا للبقاء . ولكن وجود الفرد ذاته متوقف على وجود المجتمع ، فهو من صنعه الى أبعد ما تحمله كلمة «الصناعة» من معانى . وقد استقرت أهمية المجتمع للفرد وجاوزت حدود الجدل حول هذه الحقيقة ، وخفت حدة الاختلاف حول العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع ، ودور كل منهما فى الحياة الاجتماعية للانسان ، منذ أن تخلى علم الاجتماع عن تتبع الفروض الخيالية عن أصل المجتمع وسر تطوره ، والاحتمالات الظنية التى تحمل الطابع القصصى للادوار التى مر عليها الانسان ، حتى أصبح المجتمع صانعه وصانع أفكاره وقيمه ومحدد أنماط سلوكه . ولا يتوقف وجود الفرد على وجود المجتمع فحسب ، بل ان الثقافة نفسها لم تكن لتنبثق وتعمق جذورها دون وجود المجتمع .

ويمثل «المجتمع» الموضوع الكبير الذى يكون ميدان الدراسة فى العلوم الانسانية والاجتماعية . ونظرا لضخامة هذا الميدان وتعدد أطرافه وتعقد مسالكه ، فقد تخصصت علوم كثيرة فى جزء أو آخر طلبا لمزيد من الدقة . وعلم الاجتماع حين يدرس المجتمع ــ بالمعنى الذى سبقت الاشارة اليه ــ يحاول أن يغوص وراء الحقيقة الاجتماعية التى تفسر امكانية المجتمع وشروط بقائه وتكشف الستار عن أسباب التجمع والتفرق والتنوع والتغير وما يترتب على هذا كله من نتائج على الافراد وما يظهر على سلوكهم بسبب تفاعلهم المستمر . وقد اختلف علماء

الاجتماع حول تعريف المجتمع فترة طويلة ، وظهر أثر هذا الاختلاف في اطارات المفاهيم والافكار المسلمة التي يقوم عليها التحليل السوسيولوجي . ولكن هذا الاختلاف تضيق شقته في السنين الاخيرة ، ورغبة في مزيد من الايضاح سنعرض عددا من وجهات النظر في تعريف المجتمع :

١ — يعرف توملس اليوت Thomas Eliot [1] ، المجتمع ، بأنه جماعة من الناس يتعاونون لقضاء عدد من مصالحهم الكبرى ، التي تشمل حفظ الذات ودوام النوع . وتشتمل فكرة المجتمع على الاستمرار والعلاقات الارتباطية المعقدة والتركيب الذي يتضمن ممثلين من الانماط الانسانية الاساسية وعلى الاخص من الرجال والنساء والاطفال. ومن الطبيعي أن يكون هناك عنصر الاقامة في اقليم محدد . والمجتمع فوق هذا جماعة وظيفية حتى يمكن أن نحدده من حين لاخر في ضوء العلاقات والعمليات الاطرادية . ويقول اليوت أيضا ، ان المجتمع هو أكبر جماعة انسانية . ولهذا يجب أن نميزه عن الجماعات غير الممثلة والتجمعات الاخرى كالجمهور والمسافرين على سفينة والمشاهدين لمباراة في كرة القدم أو المقيمين في معسكر من معسكرات الجيش . ويتضح من هذا التعريف أن اليوت يتصور المجتمع من الناحية البنائية الوظيفية على أنه مجموع متفاعل من الرجال والنساء والاطفال يقيمون على أرض محددة ، ويتعاونون «وظيفيا» على البقاء «الاقتصاد» وحفظ النوع « الزواج والتناسل» .

٢ — ويشير بيسانز Biesanz الى ضرورة التفرقة بين استعمال كلمة «مجتمع» في اللغة العادية وبين استعمالها في العلوم الاجتماعية فيقول ، «ان المجتمع هو تنظيم العلاقات الاجتماعية لجماعة من الناس يسهمون في ثقافة مشتركة ، ويتقاسمون الاحساس بالمشابهة». ويحتاج الامر الى تفسير هذا التعريف . فالمجتمع يبدأ بوجود مجموع من الناس ، ولكن وجود هؤلاء الناس على قرب مكاني أو فيزيائي لا يجعل

(1) Fairchild, H., (ed.). Dictionary of Sociology, N. Y., 1944, p. 300.

منهم جماعة اجتماعية ، لان الجماعة تقوم حين يكون اثنان أو أكثر من الناس على صلة واعية الواحد بالاخر • وهذا الاتصال قد يكون مباشرا أو غير مباشر ، ولكنه يشتمل على أى حـــال على «وسـائل اتصـال» فى مستوى رمزى ، اما عن طريق الاشارة أو اللغة ، كما أن هذا الاتصال يعنى أن سلوك فرد يتعدل أو يعدل سلوك الاخرين • أو بمعنى آخر يؤثر أعضاء الجماعة أحدهم فى الاخر ، كما أنهم يستجيبون بعضهم لبعض ، وهم جميعا يستجيبون لمؤثرات تاتيهم من خارج الجماعة ومثل هذا التأثير المتبادل والاستجابة المتبادلة التى تتم بين الافراد والجماعات يقال لهما «التفاعل الاجتماعى Social Interaction»[2] •

وعندما يتكرر التفاعل لفترة كافية يمكننا أن ندرك قيام نمط من السـلوك ، الذى نعبر عنـه بتسميته «العـلاقة الاجتماعية Social Relation» • ومثل هذه العلاقة تكون ذات طابع متبادل دائما ، لانها تتضمن على الاقل فردين ، ولهذا يستمد سلوك أى شخص معناه من علاقته بشخص أو بأشخاص آخرين • ومثال ذلك ، أن علاقة الابن بأبيه الموظف أو المدير ، والطـالب بالاستاذ ، والصديق بالصـديق ، والجندى بالعدو ، لا تكون ذات معنى الا اذا أخذت أو فهمت على أنها علاقة متبادلة •

وتنظم العـلاقات الاجتماعية على هيئة نمـط من المراكـز Status المتبادلة والادوار Role والمركز هو مجموع الحقوق والواجبات التى تناط بمكانة ما فى الجماعة • ويحدد السن والجنس والقرابة والزواج مراكز الافراد فى كل المجتمعات ، كما أنه فى أغلب المجتمعـات يتحدد المركز أيضـا عن طريق المرتبـة والمهنة والطبقـة وبعض الاعتبارات الاخرى • والمراكز التى يحتلها الفرد بالوراثة أو الولادة تسمى المراكز «النسبية» أما المراكز التى يحصل عليها الفرد نتيجة لجهوده وكفاحه فتسمى بالمراكز المكتسبة • ويسمى نمط السلوك الذى يصاحب مركزا ما «الدور الاجتماعى» ولذلك يشغل الفرد فى الواقع عددا من المراكز ،

---

(2) Biesanz & Biesanz; Modern Society; N. Y., 1954;; pp. 85-88.

ويلعب أدوارا مختلفة في مختلف فترات حياته وفي مختلف الجماعات التي ينتمي إليها ، ومثال ذلك ، قد يلعب الفرد في مدى يوم واحد ، دور الاب والابن والزوج والرئيس والجار والضيف والمضيف والصديق المخلص . ولكن سلوكه في أي دور من هذه الادوار تتوطه المسايير الثقافية ــ أي العادات والعرف والتقاليد والقانون السائد في المجتمع ــ التي تحدد الطرق الصحيحة والمقبولة لعمل الشيء أو الامتناع عنه . هذا ويرى أغلب علماء الاجتماع أن أنماط التوقعات الجماعية مع الجزاءات والسلطة التي تنفذها وتحافظ عليها تعتبر أساس التنظيم الاجتماعي ، كما أنها هي التي تمكن المجتمع من أداء وظائفه وتحقيق أهدافه الرئيسية التي تتمثل في حماية الفرد والابقاء على الجماعة ذاتها .

والمجتمع فوق هذا ، أكبر جماعة اجتماعية ، ويشتمل في الغالب على عدد كبير من الجماعات ترتبط بعضها بالآخر داخل المجتمع الواحد عن طريق نظم معينة ، مثل الحكومة أو النسق الاقتصادي وغير ذلك . كما أن المجتمع يشغل عادة ــ وليس ضروريا ــ أرضا محددة . ومن علامات المجتمع الاساسية أن أعضاءه يتفاعلون بعضهم مع بعض أكثر مما يتفاعلون مع أعضاء آخرين من مجتمع آخر . كما أنهم يشاركون في أكبر مجموعة من القيم . ولذلك كان هذا التساند والقيم المشتركة من أهم العوامل التي تساعد على وحدة المجتمع .

ومن هذا يتضح أن تعريف كل من اليوت وميريل واحد تقريبا ، فقد اتفقا في أن المجتمع جماعة من الناس تتفاعل للوصول الى أهداف محددة ، ويتخذ هذا التفاعل صورا مختلفة أبرزها ميريل وحاول أن يربط دورها مع ما تحققه من قيم في بناء الجماعة الكبرى (المجتمع) وفي تحقيقها لاهداف الفرد والجماعات الفرعية على السواء .

٣ ــ أما أرنولد جرين Arnold Green فيقول : إن المجتمع هو أكبر جماعة ينتمي اليها الفرد . ويتكون المجتمع من السكان والتنظيم والزمن والمكان والمصالح[3] . والحياة الاجتماعية تنظم في المحل الاول

(3) Green, A., Sociology, N. Y., 1960, pp. 31-32.

كتقسيم عمل فى اقليم مشترك وعلى مستوى أساس دائم فى الزمن • ويشترك جميع الافراد فى مصالح مشتركة ، وتتحدد كل المصالح العامة والخاصة بطريقة تجعل الحياة الاجتماعية مكتفية بذاتها بين الافراد •

هذا ويفرق جرين كما يفرق غيره من العلماء ، بين المجتمع الانسانى والمجتمع الحيوانى ، ويقول ، ان أساس التمييز بين المجتمعين يقوم على اعتبارات هامة ، منها ان المجتمعات الانسانية تقوم على المعتقدات المشتركة ، وأخصها أن أعضاء المجتمع يعتقدون فى المصير ، ويقوم بينهم نسق من القواعد الخلقية التى يلتزمونها فى توجيه السلوك العام• ومن الواضح أن تعريف جرين أيضا لا يختلف كثيرا عن التعريفين السابقين الا فى ادخال عنصر الزمن • ولو أن فكرة الزمن متضمنة بالضرورة فى أى تعريف آخر ، لان كل باحث فى علم الاجتماع لا يمكنه اهمال فكرة التغير الدائم فى المجتمع ، والتغير يتم دائما فى الزمان • ونلاحظ هنا أن كنجسلى ديفيز Davis وان كان يوافق جرين على الخصائص التى وردت فى تعريفه للمجتمع ، الا أنه يؤكد دائما أن المجتمع ، وعلى الاقل فى الوقت الحاضر ، لا يمكن أن ينفصل عن الثقافة ، ولذلك ليست هناك حقيقة اجتماعية خالصة • فالحقيقة المتعلقة بحياتنا الاجتماعية هى حقيقة اجتماعية ثقافية فى الدرجة الاولى[4] • وهذا أيضا هو ما يراه سوروكين ويساندة بأدلة ضخمة ، ويتضح هذا أكثر عندما نعرف أن تعريفه لعلم الاجتماع يضع فى اعتباره دائما الظواهر الاجتماعية الثقافية وليست الظواهر الاجتماعية وحدها •

٤ — ويعرف ماكيفر وبيج Maciver & Page المجتمع على النحو الاتى : «تعبر الكائنات الاجتماعية (الناس) عن طبيعتها بخلق ومعاودة خلق تنظيم ، يوجه ويهيمن على سلوكهم بطرق متعددة • ويحرر هذا التنظيم (المجتمع) ويضع الحدود لأوجه نشاط الناس ، كما أنه يضع المقاييس التى يسيرون عليها ويحافظون عليها • ومهما ظهر فى المجتمع الانسانى من تناقض أو طغيان فانه شرط ضرورى لتحقيق الحياة ؛

(4) Davis, Kingsley, Human Society, New York, 1956, p. 49.

والمجتمع اذن نسق من العادات والاجراءات والسلطة والمعونة المتبادلة، ومن تجمعات وأقسام عديدة، ومن ضوابط السلوك الانساني والحريات، ونحن نطلق على هذا النسق المعقد الدائم التغير اسم «المجتمع» وهو نسيج العلاقات الاجتماعية الذي يتغير باستمرار»[5] .

وواضح من هذا التعريف اختلاف ماكيفر وبيج ، الى حد ما — فى فهم المجتمع عمن يسبقانهما . فالمجتمع تنظيم أو نسق يتكون من العلاقات الاجتماعية المتغيرة ، ولكنهما أبرزا بصفة خاصة القواعد التى تصب سلوك الناس فى قوالب محددة ، وتخليا عن فكرة ارتباط الثقافة بالمجتمع ، لانهما يعتقدان أن موضوع علم الاجتماع دراسة المجتمع ، وليس دراسة الثقافة . فاذا حدث وكان لابد من التعرض للثقافة ، فان هذا التعرض يكون فى الحد الادنى اللازم لتوضيح الحقيقة الاجتماعية موضوع الدراسة . ومع هذا فقد أبرزا أيضا عددا من الشروط اللازمة لوجود المجتمع ، وهى الجماعات وضوابط السلوك وأكدا فكرة التغير المستمر فى العلاقات الاجتماعية ، ونلاحظ أيضا أنهما لم يشيرا الى المكان أو المصالح المشتركة بين الناس بصورة بارزة .

ويوضح ماكيفر وبيج بعض المفاهيم التى قام عليها تعريفهما للمجتمع على النحو الآتى :

أ) العلاقة الاجتماعية مشروطة من حيث الوجود بالوعى المتبادل بين الاطراف الداخلة فيها . فبدون هذا الوعى لا تكون هناك علاقة اجتماعية ولا يكون هناك مجتمع .

ب) كلما تعقد المجتمع كلما تنوعت وتعددت العلاقات الاجتماعية، ولذلك هناك علاقات اجتماعية اقتصادية وسياسية وشخصية وغير شخصية وودية وعدوانية وهكذا . ولكن تصنيفها كعلاقات اجتماعية يعتمد فى المحل الاول على توفر الشرط الاول وهو الوعى المتبادل .

ج) المجتمع ليس قاصرا على الانسان،لان هناك مجتمعات حيوانية

(5) Maciver & Page, Society, London, 1953, p. 5.

من مختلف الانواع • وقد لاحظ ذلك كثير من العلماء بين الحشرات والطيور والقردة ••• الخ •

د) المجتمع ينطوى على التشابه والاختلاف ، وتبدو أهمية التشابه حين نعلم أنه بدونه لا تتهيأ الفرصة للوعى المتبادل التى تقوم كأساس فى وجود المجتمع • كما تبدو أهمية الاختلاف أيضا فى أنه اذا كان أفراد المجتمع متشابهين فسوف تكون علاقاتهم الاجتماعية محدودة وبسيطة ، ومن ثم يعوقون نمو المجتمع • ويعتقد ماكيفر وبيج أن التشابه أسبق فى المجتمع وجودا من الاختلاف ، لان تقسيم العمل هو تعاون قبل أن يكون تقسيما • وتفسير ذلك أن حاجة الناس المتشابهة تجعلهم يرتبطون للقيام بوظائف مختلفة[6] •

ه ـ لعل أوضح تعريف للمجتمع هو الذى قدمه هارى جونسون Harry Johnson وحدد فيه الخصائص التى تميز المجتمع عن غيره من المصطلحات التى تستخدمها العلوم الاخرى كالامة والشعب • فالمجتمع جماعة تتميز بالخصائص الاتية[7] :

أ) الاقليم (الارض) المحدد :

المجتمع جماعة اقليمية ، وقد تتحرك بعض المجتمعات البدوية داخل اقليم مترامى الاطراف أوسع بكثير من الاقليم الذى يشغلونه فى وقت معين ، الا أن أعضاء هذه المجتمعات تنظر الى كل مكان يذهبون اليه باعتباره «بلادهم» وهناك بالطبع داخل كل مجتمع ، جماعات اقليمية مثل العشائر أو الوحدات السياسية والادارية مثل المحافظات والمدن والقرى وغير ذلك •

ب) التكاثر عن طريق الجنس :

يحصل المجتمع على أعضائه عن طريق التكاثر الجنسى داخل الجماعة ، وقد تحصل كثير من المجتمعات على أعضاء عن طريق التبنى

(6) Ibid., pp. 6-8.
(7) Johnson, H., Sociology, London, 1961, pp. 9-13.

أو الاسترقاق أو الغزو أو الهجرة الخارجية ، ولكن التكاثر الجنسى داخل الجماعة يظل المصدر الرئيسى فى المجتمع للحصول على أعضـــاء جــدد •

جـ) الثقافة الجامعة :

الثقافة كما عرفها تايلور Tylor ، هى ذلك الكل المعقد الذى يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والاخلاق والقانون والعادة وكل القدرات أو الامكانيات التى اكتسبها الانسان كعضو فى المجتمع • وشمول الثقافة بالنسبة للمجتمع معناه أن يكون المجتمع مكتفيا بذاته «ثقافيا» ، فلايكون المجتمع معتمدا ثقافيا على ثقافة أخرى لمجتمع آخر ، وخاصة فيما يتعلق بالانماط الثقافية التى تحدد وجوه النشاط المختلفة وقوالب الســـلوك الاساسية • كما أن وجود ثقافة جامعة للمجتمع لا يمنع من أن تكون هناك ثقافات فــرعية ، متصلة بالجماعات الفــرعية التى تندرج تحت الجماعة الكبرى (المجتمع) •

د) الاستقـــــلال :

والاستقلال معناه أن المجتمع لا يكون جماعة فرعية من جمـــاعة أخرى ولذلك اذا احتلت جماعة (مجتمع) جماعة أخرى ، فـــان هذه لا تفقد استقلالها بالمعنى السابق الا اذا ذابت فى الجماعة الاولى •

ويرى جونسون ، أن ادخال مقاييس أو خصائص أخرى ، فى تعريف المجتمع ، سوف يؤدى الى تعريف مثالى ليس مطابقا للواقع • ومثال ذلك ، اذا قلنا ، ان المجتمع هو الجماعة المتكاملة المكتفية بذاتها ذات الثقافة الشاملة والارض المحددة ، فان اضافة كلمة التكامل ستوقعنا فى مشاكل كثيرة من الناحية النظرية والتطبيقية ، فلاجل أن يكون المجتمع متكاملا ، لابد أن تكون هناك معايير عامة يلتزمها الافراد والجماعات على السواء ، ولما كانت بعض المعايير تستمد كثيرا من خصائصها من الدين ، فيلزم اذن أن يكون المجتمع المتكامل دين واحد وهذا ما ليس موجود بالفعل • ومن أجل هذا يجب أن نبتعد عن التعريفات المثالية ، ونحاول أن نقتصر على الخصائص الاربع ذات الطابع العام بالنسبة

لجميع المجتمعات . واذا كانت هناك استثناءات فعلينا أن نبرزها عن طريق اجراء بحوث خاصة .

المجتمع والفـــرد :

مناقشة علاقة الفرد بالمجتمع ، نشأت مع نشأة علم الاجتماع . وكان ابراز المجتمع كحقيقة موضوعية تعلو على الافراد ، وتسبقهم فى الوجود ، وتفرض عليهم التزاما معينا ، وتحدد أنماط سلوكهم ، موضع معارضة من عــدد من علماء الاجتمــاع وأخصهم جابريل تارد Tarde وأساس حجة المناصرين للفرد . أن تبعية الفرد للمجتمع بهذه الصورة طمس «للفرديته» ، وتقليل لدور الفرد فى الحياة الاجتماعية ، والغــاء للعقــل والعواطف التى تلعب دورا حــاسما فى رأيهم فى المجتمــع . ويستدلون على ذلك بقولهم ، كيف تفسر عمليات الخلق والابداع،ودور الزعامة والقيادة فى تغير المجتمع وفى تعديل النظم الاجتماعية وفى اعطاء صور متجددة للحياة الاجتماعية ؟ ان المبالغة — فى رأيهم — فى تصور المجتمع كصانع للفرد يوقع الباحث فى التحيز لعامل واحد فى تفسير الحياة الاجتماعية . وخير طريقة ، أن نتصور العلاقات المتبادلة بين الفرد والمجتمع . ومدى اسهام كل منهما فى بناء الاخر وتغيره دون أن نقع فى خطأ النظر الى الفرد والمجتمع ، كما ينظر عالم البيولوجيا الى الخلية والكائن ، نظرا للاختلاف الواضح فى الحالتين .

ان حاجة الفرد الى المجتمع ليعيش ، وحاجة المجتمع الى الفرد ليستمر فى الوجود ، حقيقة فى الدرجة الاولى من الاهمية ، ومن أجل هذا كانت الصلة بين الفرد والمجتمع ضرورية ، وعلى علم الاجتماع أن يوضح طبيعة الصلة وحدودها . واذن فالنظرية «الفردية» التى تحاول أن تجعل للفرد وجودا مستقلا خاطئة ، وكذلك النظرية الاجتماعية التى تحاول أن تتغاضى عن الفرد نهائيا باعتباره نتاجا للمجتمع . وعلى ذلك تكون النظرية التعاقدية لروسو وهــوبز وكذلك النظرية العضوية التى تتصور الفرد والمجتمع كما يتصور البيولوجى الجسم وخلاياه ، تقومان

على أساس خاطىء من الناحية النظرية[8] •

وتتلخص المزاعم الاساسية التى ساقها الباحثون فى العلاقة بين الفرد والمجتمع فيما يلى :

١ ــ يوجد «المجتمع» على كل اقليم مسكون • ويتكون من كل الاشخاص الذين يسكنونه •

٢ ــ ينقسم الجنس البشرى الى سلسلة من هذه المجتمعات ، كل منها يشغل اقليما خاصا • ولا يحدث أن يعيش مجتمعان فى اقليم واحد•

٣ ــ ينتمى كل فرد الى أحد هذه المجتمعات فقط •

٤ ــ عندما تتطابق مصالح الفرد الخاصة مع مصالح المجتمع،يكون هناك انسجام بين الفرد والمجتمع ، واذا تعارضت مصالحهما يكون هناك نوع من العداء بين الفرد والمجتمع •

٥ ــ ليست هناك جماعات توسطية بين الفرد والمجتمع •

ويلاحظ أن المشايعين للفرد والمشايعين للمجتمع يتشابهان فى وضع كل منهما ازاء الاخر كمتعارضين ، كما يزعم الفريقان أن الفرد يواجه المجتمع ككل وغالبا ما تتعارض مصالحه وقيمه مع مصالح المجتمع وقيمه • ويأسف المشايعون للفرد والفردية ، لان المجتمع يعتدى على الفرد ويصادر حريته ويدوس مصالحه ، أما المشايعون للمجتمع ، فانهم يتهمون الفرد ، لانه يحاول دائما أن يتحلل من رقابة المجتمع وأن يعتدى على قيمه ويخرج على تقاليده • ونلاحظ أن حجج كل من الفريقين تقوم على تحليل خاطىء لطبيعة العلاقة القائمة فى الواقع بين الفرد والمجتمع • ولهذا يجب أن نفصح عن علامات الخطأ وعن الوضع الصحيح للعلاقات المتبادلة بين الفرد أو الفردية ، وبين المجتمع والحياة الاجتماعية •

١ ــ اذا كنا نعنى باصطلاح «المجتمع» مجرد السكان الذين

---

(8) Maciver & Page; Op. Cit., pp. 42-44.

يكونون الجنس البشرى ، أو سكان اقليم معين ، فنحن نعلم جيدا ، أن مثل هؤلاء السكان ليسوا فى واقع الامر ، سوى «جمع لفظى» ، أى أنهم لا يكونون نسقا منظما للتفاعل • ولو نظرنا اليهم من ناحية أخرى باعتبارهم «تجمع» يتكون من عدد من الجماعات المختلفة التكوين ، فان هذا التجمع لن يكون مجتمعا كليا بل سيكون فى واقع الامر عـددا من المجتمعات •

٢ — ولو فهمنا المجتمع على أنه نسق تفاعل شامل أو جمـاعة ، فاننا سنجد فى أى اقليم مسكون مجتمعين أو أكثر ، يتكون كل منهما من جماعات مختلفة التكوين والهدف ، ولن يكون هناك مطلقا ، مجتمع له صفة الكلية وعلى أى نحو ، لن نجد فى أى حالة مجتمعا كليا بل عددا من المجتمعات متجمعـة ومتآزرة ومعتمدة كل منهـا على الاخر • ان الاعتقاد فى وجود «مجتمع كلى» نوع من الخرافة أو الاسطورة ومن الخرافة أيضا القول بأن هناك مجتمعا واحدا متكاملا يوجد على اقليم بعينه ، ، لان السكان يتمايزون ويتسلسلون طبقيا فى جماعات متعددة ويعيش على الاقليم الواحد جماعات متعددة ومختلفة أيضا •

٣ — ومن الخطأ أن نزعم أن الفرد ينتمى الى مجتمع واحد فقط • ذلك لان الفرد ينتمى فى الواقع الى جمـاعات متعددة مختلفة البناء والوظيفة تبعـا لسنه وجنسه ولغته ومهنته ودينه وطائفته أو طبقته الاجتماعية وأسرته • واذا انتزعنا كل هذه الجماعات من عـالم الفرد الاجتماعى ، فلن يبقى هناك مجتمع أو جماعة على الاطلاق •

٤ — ولما كان الفرد ينتمى فى الواقع الى عدد من الجماعات ، فان المقابلة التقليدية بين الفرد والمجتمع ، أو التعـارض المزعوم أمرا عديم المعنى ولا أساس له نظريا وتطبيقيا • واذا كان لنـا أن نقابل الفرد والمجتمع على مستوى التضاد ، فان هذا يعنى أن الفرد فى موضع بعيد عن المجتمع وعن التفاعل مع أعضائه • ويترتب على ذلك أن الفرد الذى لا يتفاعل مع المجتمع أو الجماعة لا يمكن أن يكون معاديا أو متساندا مع أى منهما • كذلك لا يمكن أن تقوم بين الفرد فى هذه الحالة أى علاقة

ذات معنى • واذن ، عندما يكون الفرد عضوا فى المجتمع ، ومتفاعلا مع أعضائه ، فاننا لا يجب أن نضعـــه فى موقف متعارض مع المجتمع كشيء كلى يوجد خارجه أو فى وضع أعلى منه • ولكننا نستطيع أن نقابله كعضو من خلال نسق التفاعل مع الاعضاء الاخرين •

وخلاصة القول ، ان التعارض بين الفرد والمجتمع موضوع أثير فى علم الاجتماع دون أساس فى الواقع ، وقام على خرافة لا مبرر لها • وربما كان عدم فهم المجتمع كفكرة ، والمجتمع فى الواقع ، هو الذى أدى الى صرف جهود الكثيرين عبثا فى التحيز لهذا الرأى أو ذاك • ان التعاون أو النزاع فى المجتمع لا يتخذ طرفى الفرد والمجتمع ، وانما يتم، كما يحدث فى الواقع الملاحظ ، بين الفـــرد والفـــرد ، أو بين الافراد والافراد ، أو بين الجماعات والجماعات • كما أن العمليات الاجتماعية الاساسية : التجمع والتفرق ، تتخذ صورا متعددة وتكشف عن طبيعة العلاقة بين الافراد والجماعات ، وليس بين الفرد والمجتمع •

* العمليات الاساسية فى الحياة الاجتماعية

الانسان كائن «اجتماعي ثقافى» يعيش فى مجتمع ، وهو لذلك يجد نفسه مرتبطا بعلاقات متعددة ومتشابكة مع الاخرين ، وانه يخـلق الثقافة التى تؤثر بدورها فى حياته فى المجتمع• فكيف اذن يصل الانسان الى هذا الوضع ، وكيف يحدث كل ذلك ؟

الرد على ذلك بسيط جدا ، ذلك أن التفاعل ، الذى يعتبر العملية الجماعية الاساسية ، هو الذى يشكل العامل المركزى فى كل حيـــاة الانسان الاجتماعية • وتظهر أهمية التفاعل حين ندرك أنه يكمن وراء كل تنظيم للانساق السلوكية من «الذات» الى المجتمـــع • واذا كان التفاعل الاجتماعى يتم عن طريق «وسائل الاتصال» المختلفة ، واذا كان الطفل الوليد يؤهل لحياة المجتمع عن طريق عملية التفاعل التى نطلق عليها اسم «التنشئة الاجتماعية» كان علينا أن نبحث صور هذا التفاعل المتكررة والعامة التى يسميها علماء الاجتماع «العمليـــات الاجتماعية الاضطرادية» وذلك اتفاقا مع وجهة النظر التى عبرنا عنها فى هذا الكتاب

أكثر من مرة ، وهى أن علـم الاجتماع يهتم فى المحل الاول بالتكرار والاضطراد فى العلاقات الاجتماعية •

وقبل أن نمضى فى تحليلنا لعمليات التكامل الاجتماعى ، نشير هنا الى أن العمليات الاجتماعية المحـددة ، كالتنافس والصراع والتوافق والتمثيل ، يجب أن ننظر اليها باعتبار أنها صور أو نماذج من التفاعل الاجتماعى • ولذلك كانت الثقافة والجماعة والشخصية الانسانية من هذه الزاوية نتاج بتفاعل اجتماعى • وربما كان هذا النتاج هـو الذى يميز التفاعل الاجتماعى الانسانى عن التفاعل البيولوجى والفيزيائى •

وقد صنفت العمليات الاجتماعية بطـرق متعددة ، فبعض هـذه التصنيفات يشتمـل على طبقتين من هـذه العمليات ، وهما التعاون والتعارض • كما أن بعضها الاخر مثل تصنيف فيزا L.Von Wiese يقسم العمليات الاجتماعية الاساسية الى نماذج فرعية متعددة ، ولكن منذ أن قسم بارك E. Park هـذه العمليات الى أربع — التنافس والصراع والتوافق والتمثيل — صار هذا التقسيم مقبولا من كثرة علماء الاجتماع وان أضافوا «التعاون» كنوع خامس لها[9] •

والعملية الاضطرادية من حيث التعريف ، هى سلسلة من الحوادث المترابطة التى تؤدى الى نتيجة محددة يمكن التنبؤ بها • وتتكون عملية التنفس من الشهيـق والزفير ، وهـذه السلسلة من الظـواهر تتكرر باستمرار مؤدية الى نتائج محددة فى كيمياء الجسم ، وقد يكون من المفهوم فى الفسيولوجيا أن نتحدث عن عملية التنفس على الرغم من حدوثها تحت مجموعة متنوعة من الظروف •

وبنفس الطريقة وجد علماء الاجتماع أنه من المناسب أن ينظروا الى التفـاعل فى المواقف الاجتماعية فى ضوء اصطـلاحات العمليات الاجتمـاعية الاضطرارية مثل التعـاون والتنافس والصراع والتوافق والتمثيل ، وفى ضوء اصطلاحات العمليات الايكولوجية الاضطرادية مثل

---

(9) Gittler, J. B., Social Dynamics, New York, 1952, p. 168.

التركيز والمركزية والتخلخل والفصل والعزل والتتابع • ومثل هذه المفهومات تصور الصور المتكررة والعامة للتفاعل الموجودة بدرجة معينة فى كل مجتمع خلال التاريخ الانسانى •

ما الذى نتوقع أن نجنيه من فهم لهذه الصور الاساسية من التفاعل ؟ الواقع أن هذه العمليات تصف ـ عامة ـ الطرق التى يرتبط بها الناس بعضهم مع الاخر للقيام بالوظائف الضرورية للحفاظ على أى نظام اجتماعى والعمل على نموه واتساع حجمه • والطاقة التفاعلية التى تترتب على اتصال الناس بعضهم بالاخر ، مؤدية الى قيام العمليات الاجتماعية التى تكون البناء الاجتماعى للجماعات ، وعندما يمكن أن ندرسها موضوعيا بتحديدها تحديدا دقيقا تصبح مادة يمكن قياسها وملاحظتها كما هو الشأن بالنسبة للعوامل الجغرافية والفيزيائية والايكولوجية للمجتمع[10] •

★ التعاون والتنافس والصراع :

السلوك الذى تشير اليه هذه الاصطلاحات يتداخل بعضه مع الاخر فى واقع الحياة • ولذلك يمثل كل اصطلاح ناحية معينة من نواحى السلوك الاجتماعى المتكامل أو بمعنى آخر ، يكون فى كل موقف اجتماعى قدر معين من هذه العمليات • ومثال ذلك اذا درسنا السلوك فى مباراة رياضية نجد أن تصوير الموقف من وجهة نظر المتفرج منحصر فى ادراك كل فريق متنافس على أنه وحدة متعاونة للوصول الى النصر ، بينما لو بحثنا الامر من وجهة نظر أحد أعضاء الفريق ، لوجدناه مهتما بالتنافس بين فريقه والفريق الاخر ، وربما حميت وسائل التنافس فتنقلب الى صراع ، بل ان أعضاء الفريق الواحد قد يظهرون أنواعا من السلوك المنافس تجاه أحدهما الاخر فى بعض المواقف المعينة أثناء المباراة أو بعدها • وهذا هو الذى يجعلنا نستخدم أحد الاصطلاحات السابقة لنصف به أحد وجوه الموقف الذى نريد أن نؤكده •

---

(10) Lundberg & Others, Sociology, New York, 1958, p. 244.

والصراع كما يستخدم عادة يشير الى نوع عنيف من التنافس ، وهو فى أقصى صورة عبارة عن العملية التى عن طريقها تحاول جماعة أن تدمر أو الاقل أن تقلل من مركز جماعة أخرى • وعندما يعمل الناس معا للوصول الى أهداف مشتركة نصف سلوكهم فى هذه الحالة بأنه «تعاون» وعندما يمارضون بعضهم الاخر نقول أن سلوكهم «صراع» • ولذلك كان التعاون والصراع عمليتين أساسيتين فى حياة الناس الجماعية • ولكن المبادىء التى تحكم هذه العمليات ليست متشابهة بالنسبة لكل منها • ومثال ذلك أن تكامل الجماعة يصبح محل تهديد خطير اذا نشب الصراع داخل الجماعة أكثر من نشوبه بين جماعة وأخرى • كما أن الصراع قد يكون موجودا بين أمتين أو جيشين دون أى مظهر من مظاهر العداوة فى أى جماعة أو فريق على حدة اذا نظرنا اليها من وجهة نظر سلوك الاعضاء المكونين لها • ولهذا يجب أن نميز بين الصراع الداخلى فى الجماعة الواحدة والصراع الخارجى بينها وبين جماعة أخرى ، وما يترتب على ذلك من عمليات داخلها أثناء كل حالة • ففى الحالة الاولى قد تتعرض الجماعة الى التفكك ، ولكنها تميل فى الحالة الثانية الى التكامل •

التوافق Accommodation :

التنافس والصراع من أى نوع مهما تعددت أنماطهما أو اختلفت درجة شدتهما ينظر اليهما على أنهما أمور طبيعية فى كل الجماعات • وتبعا لذلك تستخدم كلمة «التوافق» لتشير الى الحلول السلمية أو الاتفاقات التى يجأ الناس اليها ليتخلصوا من الارهاق والتوتر الذى نجم عن التنافس والصراع • والصور السلوكية التى يلجأ اليها الناس ليتوافقوا مع ظروف الحياة هى : المهادنة Truce أو التوفيق Compromise والتحكيم Arbitration والتسامح Toleration •

١ — فالمهادنة هى ببساطة اتفاق للكف عن الصراع الدائر على الرغم من عدم حل المشاكل موضع الخلاف •

٢ — والتوفيق عبارة عن ترتيب معين يتنازل فيه أحد الطرفين عن

بعض مطالبه فى مقابل موافقة الطرف الاخـر على التنازل عن بعض مطالبه أيضا ، وفى نفس الوقت يحدث تسليم بمطالب الطرفين نتيجة لهذا التوفيق • ولعل هذا النمط من التوافق من أهم الوسائل التى تلجأ اليها الجماعة للابقاء على تكاملها ازاء المواقف المتعددة التى تعرض لها، وقد تكون مثار خلاف فى الرأى بين الاعضاء •

٣ — والتحكيم نوع من التوفيق ، ولكن ربما كان له طابع رسمى، لذلك كان التحكيم عبارة عن قبول الطرفين المتنازعين حكم طرف ثالث فى موضوع الصراع • وقد يكون التحـكيم وديا أو تلقائيا ، وقد يكون «نظاميا» أى يخضع لاجراءات معينة تقوم به هيئة منظمة ، أو قد يكون ذا طابع اجبارى •

٤- أما التسـامح فهو نوع من التوافق حيث تقرر الاطراف المتنازعة أن يكفوا عن الاستمرار فى النزاع دون محاولة من أى طرف للتغلب أو تعديل أو قبول أى نمط من أنماط سلوك الجماعات الاخرى التى بدأت بالعدوان أول الأمر • هذا وقد ينطوى التسامح فى نفس الوقت على قبول أمور صعبة أو غير ملائمة ، لان قبول عكسها ربما كلف الجماعة مشقة كبرى • ولذلك تفضل أن تقبل الامر على علاته مهما كان فيه من مسائل منغصة •

ونلاحظ أن المجتمعات المختلفة ذات الطوابع الثقافية العامة المتمايزة تختلف من حيث أخذها بأنماط التوافق ، فبعضها يميل الى السـير فى النزاع حتى آخر حدوده ، وبعضها الاخـر يميل الى الوقوف موقف الوسط ، كما أن هناك مجتمعات أخرى تميل الى التسامح والسـلام • ولا يقتصر الاختـلاف فى التوافق على المجتمعـات ، بل انه يمتد الى المجتمع الواحد ذى الطوابع الثقـافية المتعددة • فالتوافق فى المجتمع الحضرى يختلف عن التوافق فى المجتمع الريفى ، كما أن التوافق عند بعض أقسام السكان يختلف عن التوافق عند أقسام أخرى • وفى هذا الصدد تظهر الاختـلافات الثقافية والاقتصـادية والمهنية والعقائدية والايديولوجية العامة • ومع ذلك يمكننا أن نقول بأن التوافق يميل الى

أن يصبح أمرا منظما له اجراءات معروفة وتختص به هيئات محدودة كلما تغير المجتمع من البساطة الى التعقيد •

التمثيـــل Assimilation

تستخدم اصطلاح « التمثيل » ليشير الى عملية التكيف المتبادل ، التى من خلالها تقل الجماعات المختلفة تدريجيا وبالتدريج ، اختلافاتها الى الحد الذى لا تصبح معه هذه الاختلافات ذات أهمية اجتماعية أو ملحوظة • والتمثيل بهذه المثابة مسألة درجـة : فمن ناحية معينة قد تمتزج جماعة كل ثقافة جماعة أخرى دون أى تعديل ملحوظ فى ثقـافة الجماعة الاخيرة • ومن ناحية أخرى قد تتبادل جماعتان التأثر بثقافة كل منهما الآخر ، مما يترتب عليه ظهور نمط ثالث من الثقافة يختلف تماما عن نمط الثقافة فى كل من الجماعتين المتفاعلتين • وبنفس الطريقة قد يحدث مثل هذا التفاعل بين أكثر من جماعتين وتكون النتيجة ظهور ثقافة مختلفة تماما عن ثقافات الجماعات المتفاعلة جميعا •

وبين هذين الطرفين اللذين أشرنا اليهما فى التمثيل تكمن كل درجاته المختلفة ، ويظهر ذلك عندما لا يكون التمثيل كاملا ، مما يترتب عليه ظهور كل العمليات السابقة بصورة أو بأخرى ، وبصفة عامة ، تكون الجماعة ذات الثقافة العالية التكيف مع الظروف الموجودة فى الزمان والمكان محل الاهتمام ، أكثر مقدرة على الفوز بالمركز الممتاز • فى عمليات التفاعل ، وتكون ثقافتها أقدر على طبع نتاج التمثيل بطابعها ــ وما لم تكن ثقافة الاقلية ذات أصالة ملحوظة ومركز ممتاز ، فان ثقافة الاغلبية تفرض نفسها عليها وتخضعها لطابعها • ومعنى ذلك أن ثقافة الاقلية غالبا ما تنتهى الى ثقافة الاغلبية التى قد تستعير وقد لا تستعير عنصرا أو سمة من الثقافة الاولى •

وتصور كلمات «الكثرة أو الغالبية ، والتكامل ، والتمثيل ، درجات ثلاث من التماسك الاجتمـاعى • وأكثر الكلمات السابقة غموضا هى الغالبية ، وربما كان لهذه الكلمة معنى محدد فى علم السياسة كنوع من الاشتراكية النقـابية ، ولكنها استخدمت أخيرا فى مناقشة مشاكل

الاقليات لتشير الى أعلى درجة من الاستقلال أو الاكتفاء الذاتى ، وبطريقة عكسية لتشير الى أقل درجات التكامل أو التمثيل • أما كلمة التكامل فانها تصبح عديمة المعنى اذا لم تخصص الى درجة معينة ، وهى تستخدم للاشارة الى درجة من العلاقات مقابلة للمصالح الكبرى فى المجتمع • والتمثيل مثل التكامل مسألة درجة ، أى أننا لا نستطيع أن نجد تمثيلا كاملا ولا تكاملا كاملا • وهذه حقيقة تستند الى التغير المستمر فى علاقات الناس الاجتماعية ، واستمرار اتصالهم بغيرهم فى الزمان والمكان • ولهذا يجب أن نضع نصب أعيننا دائما عند دراسة موضوع التمثيل ، أنه مرتبط بمراحل متعددة ومتصل اتصالا مباشرا بالتكامل والتماسك الاجتماعى ، وله صلة وثيقة بما يقبله الناس وما لا يقبلون • وهذا هو الذى أتاح للسوسيومتريين أن يجروا عددا من التجارب لقياس التكامل داخل جماعات معينة على أساس تسجيل ما يفضله المنتمون لأى موقف اجتماعى منظم •

* عوامل التأثير فى التعاون والتنافس :

هناك ثلاثة ظروف يظن أن لها أهمية فى تحديد طابع التفاعل الاجتماعى ، من وجهة نظر التعاون والتنافس •

١ ـ اذا كانت القيمة التى يتنافس الناس من أجل الحصول عليها نادرة فان السلوك التنافسى هو الذى يحتمل أن يظهر • وهناك بالطبع استثناءات من هذه القاعدة ترجع الى نمط العلاقات القائم بين الافراد أو الجماعات المتنافسة • ومثال ذلك أن الأم ترفض أن تنافس مطلقا فى سبيل الحصول على الطعام الذى تحتاجه ، وخاصة اذا كان هذا التنافس سيؤدى الى حرمان أطفالها من طعامهم •

٢ ـ اذا كانت علاقات الصداقة أو القرابة أو العاطفة هى السائدة فى جماعة ، فان أعضاءها يحتمل جدا أن يظهروا سلوك التعاون ، والعكس فانهم يتنافسون اذا كانت قاعدة علاقاتهم تقوم على الحقد والحسد والغيرة • ولذلك يتعاون المشتركون فى عمل ما اذا كانوا أصدقاء خارج نطاق العمل والعكس اذا كان المشتركون فى عمل يحسون أن هناك

تفاوتا فى الاجور بينهم • أو أن مدة العمل نفسها لن تستغرق الا يوما أو بعض يوم ، ان هؤلاء العمال لا يمكن أن يتنافسوا • وباختصار نقول ان سهولة وسائل الاتصال وما يترتب عليها من اتجاهات شخصية تعتبر مسائل أساسية فى تحديد نمط العملية الاجتماعية الاضطرادية التى تترتب على ذلك •

٣ ــ كما أن المساواة فى الحصول على نتاج العمل أو النشاط ، تؤدى فى أغلب الاحيان الى ظهور الاتجاهات التعاونية أكثر من الاتجاهات التنافسية •

المبادىء العامة فى العمليات الاجتماعية :

على الرغم من أن العمليات الاجتماعية أصبحت الان موضع اهتمام أكثر علماء الاجتماع ، الا أن المعلومات الموثوق بها حولها لاتزال قليلة، وهناك مجموعة من التجارب لازالت تجرى بصورة أو بأخرى عن هذه العمليات فى علم النفس والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع • ومع ذلك فان استشارة المصادر واستقراء ما كتب عن هذا الموضوع الهام يجعلنا نقف عند نقطة هامة ، وهى أنه برغم اختلاف الباحثين فى بعض المسائل المتصلة بفهم العمليات الاجتماعية ، الا أن هناك شبه اتفاق حول عدد من المبادىء أو القضايا العامة نفضل أن نضعها هنا لتكون محل النظر والدراسة :

١ ــ الناس فى كل مكان يناضلون من أجل الوصول الى أهدافهم والحصول على مطالبهم الاساسية • والاشتراك فى النضال مع الاخرين (التعاون) أو النضال ضدهم (التنافس) يعتبر أحد الصور المكتسبة للسلوك •

٢ ــ تظهر رواسب التنافس والتعاون عند الاطفال خلال السنة الاولى من حياتهم ، ولكن التعاون والتنافس لا يبدو جليا الا حول السنة الثالثة ، وينمو هذا الاتجاه عند الاطفال ويمر على تغيرات سريعة حتى سن السادسة • وعند هذا السن يظهر التنافس والتعاون عند جميع الاطفال •

٣ — الاصلاح الاجتماعى للسلوك ، أو قيام الفـرد أو الافراد بأدوارهم ، يتأثر عندما يتغير موقف اجتماعى معين من التعـاون الى التنافس أو العكس •

٤ — التنافس بين الجمـاعات يشجع التعـاون داخل الجمـاعة الواحدة •

٥ — صور التنافس والتعاون فى ثقافة معينة ، تعتبر وظيفة لتكامل عدد من العوامل التاريخية والاقتصادية والاجتماعية المعقدة •

٦ — الاهداف الاولية التى يتنافس من أجلها الافراد أو يتعاونون، أو يقفون منها موقفا سلبيا ، تعتبر أحد وظائف ثقافتهم الخاصة •

٧ — اذا كانت الاهداف أو القيم نادرة فى أى ثقافة ، يصبح طابع السلوك (غالبا) تنافسيا واذا كانت وفيرة يصبح طابع السلوك (غالبا) تعـاونيا •

٨ — يكشف تاريخ حياة أى فرد ، الدور الفريد والهام لاسرته ، فى نقل القيم الاساسية للثقافة ، وعلى الاخص تلك الاتجاهات التعاونية والتنافسية المقررة فى هذه الثقافة •

٩ — يتنافس الناس أو يتعاونون للحصول على المزايا المادية ، كما أنهم يفعلون ذلك للحصول على مزايا لا مادية مثل النفوذ أو القـوة أو السلطان •

١٠ — لا نستطيع أن نجد مجتمعا يكشف فى ثقافته عن « تنافس كامل» أو « تعاون كامل » • ذلك أن كل مجتمع يشتمل على درجـات متغـيرة منهما • وهـذا هو الشأن أيضـا بالنسبة للصراع والتوافق والتمثيل •

١١ — الصراع ليست له صفة الاستمرار ، فهو متقطع ، بينمـا يكون التنافس مستمرا •

١٢ — الصراع بين الجماعات يؤدى الى التضامن داخل الجماعة الواحدة •

١٣ـ التنافس يشجع تقسيم العمل فى المجتمع .

١٤ ـ عندما يحدث صراع داخل الجماعة الواحدة ويحدث فى نفس الوقت بين الجماعات ، يقع الافراد الذين لهم ولاء للاطراف المتنازعة فى وقت واحد ، فريسة للصراع الشخصى واضطراب الشخصية .

١٥ ـ عندما يحدث صراع بين الجماعات ، تتكامل شخصية الفرد اذا حدد جهة ولائه الى جماعة واحدة .

١٦ ـ التوافق المتساوى يكون نتيجة الصراع أو التنافس بين متنافسين متعادلين فى القوة .

١٧ ـ التوافق غير المتعادل أو غير المتساوى من ناحية أحد الطرفين ، يكون نتيجة للصراع أو التنافس بين متنافسين غير متعادلى القوة .

١٨ ـ التوافق يمهد الطريق للتمثيل .

١٩ ـ المتشابهات فى الثقافة توصل الى التمثيل .

٢٠ ـ يتوقف التغير من الصراع الى التعاون على التغلب على الانماط المتحجرة والصور الخاطئة التى يحملها البعض للاخرين .

٢١ ـ ليس هناك علاقة بين المناطق الثقافية وصور التفاعل الاجتماعى ، ذلك لان كل أنماط التفاعل يمكن أن توجد فى منطقة واحدة كبيرة .

مكونات التكامل :

التكامل فى الجماعة أو المجتمع ، هو الروابط التى تربط الناس بعضهم مع الاخر ، وهذه الروابط تختلف من جماعه الى آخرى ، ولهذا نجد جماعات تامة التكامل وأخرى غير تامة . وليس معنى هذا أن هناك طرفين للتكامل ، ولكن فى الواقع نجد درجات متعددة منه . ومثال ذلك أن الاسرة تكون عالية التكامل من حيث الانتاج الاقتصادى ضعيفة التكامل من حيث الروابط العاطفية . فما هى اذن المكونات التى تسهم فى عملية التكامل ؟

١ ـ التكامل الآلي والعضوي :

يقال ان التساند الذي يترتب على تقسيم العمل يعتبر عاملا تكامليا، وخير ما نفهم به هذا الموضوع أن نبرز العوامل أو الاسباب التي تجعل الافراد يبقون في الجمـاعة أو ينصرفون عنها . وتعطينا الاسرة خير مثال على ذلك . ما الذي يقرر أن الرجال والنساء المتزوجـين سيبقون متزوجين ؟ أحد العوامل هو كفاية تقسيم العمل بين الزوج والزوجة ، لان الزواج وان كان علاقة جنسية ، الا أنه علاقة اقتصادية مهمة أيضا. ولذلك كان الزواج تنظيما فعالا لاشباع الحاجات اللازمة للبقـاء . ومعنى ذلك أن تقسيم العمل في الاسرة وبالتالي في الجماعة أو المجتمع يؤدي الى التساند . فاعضاء الجماعة الواحدة يحتاج أحدهما للاخر ، والحاجة المتبادلة تربط الجماعة معا . وقد أشـار دوركايم الى هذا النمط من التكامل الجماعي المترتب على تقسيم العمل يعتبر «تكاملا آليا Mechanical » وهناك نمط من التكامل يحدث عندما يعمل الافراد في عمل متشابه ، فيسمى التكامل حينئذ تكاملا عضويا Organic [١١] والعمل المتشابه هنا هو العمل الذي تعمله جماعة معينة في مقابل عمل الجماعة الاخرى المختلف . ولذلك فالآلية والعضوية هنا مقتصرة على الجماعة لا على المجتمع . لان دوركايم يقصد عكس ذلك بالنسبة للمجتمع ككل .

٢ ـ التكامل المعياري :

الانسان هو الكائن الوحيد الذي له ثقافة ، ولذلك قد تكون الثقافة في حد ذاتها عاملا تكامليا في الحياة الجماعية.وقد تبدو هنا أهمية المعايير الجماعية التي تنظم السلوك عن طريق وضع مجموعة من التوقعـات لانواع السلوك للذي نفترض أن يشخص اليها الافراد . ومعنى هذا أن الاتفاق حول الاراء أو القيم في الجماعة يؤدي الى مايمكن أن نسميه «الرضا العام أو الاجماع» ولذلك كان الرضا العام مقياسا من مقاييس التكامل . ولكن لما كان الرضا العام مسألة درجة على كل حال ، فاننا

---

(11) Ogburn & Nimkoff, Handbook of Sociology, London, 1960 pp. 86-37.

نستطيع أن نقيم مقاييسا لقياس درجة اتفاق أعضاء الجمـاعة حول موضوع معين •

وهناك ميل عام الى اعتبار الاصدقاء أخير الناس ، وأبناء الثقافة التى ننتمى اليها أفضـل البشر ، والمجتمـع الذى نعيش فيه أفضل المجتمعات • ولكننا نلاحظ أن اشتداد هذا الميل أو ظهوره فى اتجاهات السلوك يميز المجتمعات المنعزلة •

ولذلك كان الاتصال الثقافى بثقافات أخرى ، من شأنه أن يعدل من هذه الميول ، لان الفرد سيطلع بنفسه على أنماط أخرى من الحياة قد تكون أفضل من نمطه هو عند المقارنة • وعند ذلك قد يؤمن الفـرد بالنسبية الثقافية حين تقدر كل ثقافة فى ضوء ظروفها الخاصة وقيمتها•

ومن البديهى أن الرضا العام القوى ازاء بعض المعايير يؤدى الى تكامل الجماعة أكثر مما يؤدى الرضا العام الضعيف ، ولكن السؤال الهام هنا:هل هناك معايير أقدر على «تكامل الجماعة»من معايير أخرى ؟ والاجابة على هـذا السؤال تقتضى أن نتأكد من الاهـداف التى تسعى الجماعة للوصول اليها والى الاختلافات الثقافية بين الجماعات • ولذلك فقد تعتبر جماعة بعض المعايير هامة وقد تعتبرها جماعة أخرى قليلة الاهمية • ولكن كلما كانت المعايير متساندة ومتداخلة كلما مالت الجماعة الى التكامل الشديد ، لان عدم تساند المعايير يجعـل أعضاء الجماعة الواحدة يعملون للوصول الى أهداف متعارضة • وأخيرا نجد أن اعطاء أكبر قدر ممكن من الاهتمام والتقدير «للنظام والضبط» يجعل الجماعة قادرة على الوقوف أمام الهزات التى تتعرض لها ويتحقق لها أكبر قدر من التكامل فى نفس الوقت • والجماعة المنظمة هى الجماعة القـادرة على البقاء فى وجود أعنف أنواع النضال •

٣ ـ التكامل الاجتماعى النفسى :

ذكرنا من قبل أن التكامل قد يشتمل على أتفاق أو رضا عام حول معايير الجماعة • والرضا العام هو فى الواقع ظاهرة اجتماعية نفسية • ولكن هناك أكثر من الرضا العام تشتمل عليه التكامل ، هو ذلك الشعور

بالاشباع والراحة الذى نسميه «الروح المعنوية» فالزوج مثلا يرتبط بزوجته عن طريق اعتمادهما الاقتصادى أحدهما على الاخر • وعن طريق تعاليم الثقافة ازاء السلوك الزواجى ، كما أن الايديولوجيات المتعلقة بطبيعة الزواج تصبح ذات أهمية فى هذا الميدان •

فاذا كانت الجماعة تعتقد أن الزواج رابطة لا ينبغى أن تنفصم ، أصبح الطلاق نادرا ، ولكن هذه الندرة لا تنطبق على حالات الانفصال• ولذلك فان امكانية «الطلاق العاطفى» برغم وجود الروابط الزواجية الرسمية ، يصور وجود العوامل الاجتماعية النفسية فى التكامل• واذن فالتماسك الجماعى يقوم الى حد ما على «الروح المعنوية» وهى شعور يبنى أساسا حول الاشباع أو عدم الاشباع •

العوامل المؤثرة فى التكامل :

نعنى بالعوامل المؤثرة فى التكامل تلك التى ترتبط بزيادة التكامل أو قلته ، ونلخصها على النحو الاتى :

١ ـ حجم الجماعة : يقال دائما ان الجماعة ذات الحجم الصغير أكثر تكاملا من الجماعة ذات الحجم الكبير ، وهذا راجع الى كثافة العلاقات فى الجماعة الاخيرة واتساع مداها • وقد أشار تشارلس كولى Charles Horton Cooley عالم الاجتماع الامريكى الى أن الجماعة الاولية Primary Group تتميز بالعلاقات الودية المباشرة بين أعضائها • أما العلاقات التى تتميز بالعرضية أو الرسمية فتسمى العلاقات الثانوية Secondary relations وليس معنى هذا أن العلاقات الاولية والعلاقات الثانوية هما الطرفان المحتملان للعلاقات ، بل ان العلاقات فى واقع الامر تتدرج بين هذين الطرفين بدرجات متفاوتة • ويلاحظ أنه كلما صغرت الجماعة كلما تميزت بالعلاقات الاولية التى تنم عن التكامل الشديد ، وكلما كبرت كلما تميزت بالعلاقات الثانوية وباحتمال قلة التكامل النسبى • ولذلك يميل بعض الباحثين فى علم الاجتماع الى النظر الى تغير المجتمع من وجهة نظر تغير العلاقات من الاولية الى الثانوية أو من تكامل قائم على المودة والمعرفة المباشرة ويتميز بالشدة ، الى تكامل قائم على التعاقد ويتميز بالعرضية والسطحية •

٢ ـ التجانس : يرتبط حجم الجماعة بتضامن الجماعة على أساس كم التفاعل بطريقة مباشرة وعلى أساس فرص الاتفاق أو الرضا العام بطريقة غير مباشرة ومن السهل أن نحصل على اتفاق فى جماعة صغيرة ومن الصعب أن نحصل عليه فى جماعة كبيرة ٠ وهذا هو الذى يجعلنا ندخل التجانس كعامل من عوامل التكامل فى الجماعة ٠ فالتجانس أكثر ظهورا فى الجماعة الصغيرة منه فى الجماعة الكبيرة ومعنى هذا أن المجتمعات البدائية والقبلية والقروية أكثر تجانسا وبالتالى أكثر تكاملا من المجتمعات المتحضرة والصناعية ، ولكن هذه القاعدة لا تنطبق على كل حالة ، فبعض القرى فى الهند قد تكون أكثر تجانسا من مجتمع بأسره ، كما أن قبرص أكثر تجانسا من السويد وهكذا ٠

والتجانس ينبع من التشابه ، وخصوصا التشابه فى المهنة أو الاهداف أو التنظيم الاسرى ، وينبع اللاتجانس من الاختلاف فى هذه المسائل ٠ ولذلك كان الاصطدام الذى يترتب على اختلاف أو تعارض المصالح من أهم المعوقات أمام تكامل الجماعة ٠

٣ ـ التنقل الفيزيائى Physical Mobility : ليس من الصعب أن ندرك كيف يعمل التنقل ضد التكامل ، لان التكامل يفترض البقاء فى الجماعة أو الرغبة فى البقاء ، ولما كان التنقل عملا يفرق الفرد أو الافراد ويبعدهم عن الجماعة ، فانه يصبح بهذه المثابة عاملا من عوامل انعدام التكامل ٠ واذا كان التحرك يتجه الى ترك ثقافة والانتماء الى ثقافة أخرى ، فان مشكلة التكيف للقيم الجديدة تصبح أهم موضوع يواجه الفرد ٠ واذا كان التحرك يتم داخل النمط الثقافى الواحد مع تغيير منطقة الاقامة ، فان على الفرد أن يواجه مشكلة الحصول على الاصدقاء واكتساب المعارف الجدد ، ولذلك تؤدى الهجرة الى ظروف ومشاكل على الفرد أن يواجهها فى منطقة الاقامة الجديدة ، وربما كانت تجربة الهجرة أصعب ما تكون وخاصة بالنسبة للاطفال ٠

وفى الهجرة يجب أن نميز بين نمطين ، الاول عندما تهاجر جماعة بأسرها والثانى عندما يهاجر عضو واحد أو أعضاء متفرقون منها ٠ ففى

الحالة الاولى خصوصا فى الجماعات «المتخلفة» نسبيا لا تفقد الجماعة تكاملها فى الغالب ، وكذلك الامر بالنسبة للاسرة فانها لا تفقد تكاملها أيضا • وتكون المشكلة هنا مشكلة التكامل فى منطقة الاقامة الجديدة • وهناك من الادلة على أن انحراف الاحداث ــ دليل انخفاض التكامل فى المجتمع ــ مرتبط ارتباطا قويا بالتنقل الفيزيائى أو أن نسبة منخفضة من انحراف الاحداث تظهر فى المجتمعات المستقرة على الرغم من فقرها وسوء الاحوال السكنية فيها أو ازدحامها الشديد • وفى الحالة الثانية حين يكون المهاجر عضوا واحــدا فى الاسرة ، تصبح حياة مثل هــذا الشخص معرضة للاضطراب ، كما أن حياة أسرته تتعرض أيضا لعدم الاستقرار • وتفسير ذلك أن انهيار الزوابط الاسرية بالهجرة أو طول الغياب ، بالاضافة الى عدم وجود ضغط من مكونات الضبط الاجتماعى فى الوطن الجديد اذا قورنت بما كان يرزح تحت موطنه الاصلى ، ربما تدخلت فى تغيير بعض اتجاهاته السلوكية ، مثل لجوئه الى طلاق زوجته والزواج من جديد ••• وهكذا •

الجماعات والتنظيم الاجتماعى

التفاعل الإجتماعى المنظم ، فى صــوره المعنوية والمادية ، يخضع لقواعد ويسير نحو أهداف تحقق مطالب الجماعة • وهو لذلك يتعــدد ويتنوع بتنوع مطالب الجماعة ذاتها لتحقيق الوجود الاجتماعى • وعلم الاجتماع يهتم بالتفاعل ذى الصفة التكرارية ؛ لان التكرار يجعله قاعدة السلوك الاجتماعى • وينقسم التفاعل لاغراض تصنيفية الى أنمــاط متعددة ، كل نمط يتضمن العلاقات الاجتماعية (نتيجة التفاعل) التى تتجــه الى مقابلة مطلب أساسى ، أو فــرع منه ، من مطالب الجماعة الاساسية • ولذلك يكون المجتمع مكونا من مجموع هذه العلاقات • أى أن البناء الاجتماعى يتكون من الانمــاط المتعددة التى تحقق مطالب الجماعة ككل لكن علماء الاجتماع يفضلون تصنيف هذه العــلاقات الى أقسام (أجزاء) وينيطون بكل جزء وظيفة معينة ، تقوم على أساس الاغراض التى تنهض بها ، والارتباط الذى يكون بينها وبين الوظــائف الاخــرى لبقية الاجزاء ، والوظــائف الكلية للبناء بأسره ، وكان هذا

التصنيف محل خلاف كبير ، لا يمتد الى الاختلاف الاصطلاحى فحسب، بل الى اختلافعلى فهم طبيعـة كل قسـم ، وما يترتب على ذلك من مفارقات كثيرة وتترك آثارها على النظرية السوسيولوجية .

ومثال ذلك أن مكيفر وبيج Maciver & Page فى الفصل الذى عقداه عن المفهومات الاولية فى علم الاجتماع ، يعتقدان أن كل شىء «المقـرر اجتماعا» يعتبر «نظاما» Institution [12] ويشيران الى أن تعريف بارنس Barnes ، ان النظم الاجتماعية هى البناء الاجتماعى والاداة التى عن طريقها ينظم المجتمع الانسانى ويوجد وينفذ نواحى النشاط المتشعبة اللازمة لاشباع الحاجات الانسانية[13] . وطبقا لذلك التعريف تعتبر الاسرة والدولة والزواج والحكومة نظما ، ولكن ماكيفر وبيج فرقا فى هذا المقام بين المنظمات associations والنظم Institutions ، ذلك أن الاولى هى الجماعات المنظمة لمتابعة مصلحة أو عدة مصالح مشتركة ، والثانية هى الصور المقررة والمميزة لنشاط هذه الجماعات ، ولذلك فنحن ننتمى الى منظمات ولاننتمى الى نظم ، فالاسرة التى ننتمى لها منظمة لها نظم تضمن وصول العمل المشترك أهدافه وتنظم علاقة الفرد بالاخر ، مثل الزواج ، والعلاقة الزواجية والمنزل . ولذلك يتكون البناء الاجتماعى من المنظمات والنظم معا[14] .

وماكيفر وبيج يريدان أن يفرقا بين المنظمة كجماعة تتكون من أعضاء لهم أدوار وعلاقات محددة ، وبين النظام الذى هو فى صميمه عبارة عن مجموعة القواعد المعترف بها لتنظيم هذه الادوار والعلاقات التى يجب أن تكون موصلة للاغـراض أو المصالح التى تتولاهـا المنظمة . لكن «جونسـون» يرى من ناحية أخرى أن البناء يتكون من العلاقات الثابتة نسبيا بين أجزائه ، لان كلمة «جـزء» فى ذاتها تعنى درجة معينة من الثبات ، والنسق System تكون من الافعال المترابطة للناس ، ولذلك

---

(12) Maciver Page; Society, London, 1953, p. 15.
(13) Barnes; Social Institutions, New York. 1942, p. 12.
(14) Op. Cit., p. 15.

يكون بناء النسق عبارة عن «الانتظام والتكرار فى هذه الافعال • ويمكن فهم هذا عن طريق الدور Role فالــدور أدوم وأثبت من شــاغله ، فالدور اذن بناء وشاغله نسق على هذا الاساس[15] • ولذلك فالبنــاء الاجتماعى يتكون من الادوار التى لها صفة الانتظام والتكرار بغض النظر عن شاغليها لانهم مؤقتون •

ومعنى هذا أن «جونسون» يرى أن البنــاء مجموعة من الانساق لا تختلف فى مفهومها كثيرا عن النظم عند ماكيفر وبيج وخاصة فى قيامها على الادوار ، أما لندبرج Lundberg الذى يهتم بدراســة الســلوك الاجتماعى ، فانه يرى أن البناء الاجتماعى ليس الا النظم الاجتماعية، والتى هى فى نفس الوقت الانماط السلوكية الرسمية ، العامة والموحدة، تلك التى تعبر عن بقائها من خلال الجماعات الاجتماعية ممتدة من جيل الى جيل ، وتنشأ هذه الانماط من تكرار تجمعــات الاشخاص الذين يتفاعلون بعضهم مع الاخر عند استجاباتهم لظروف الحياة المعقدة ، والتى يجب أن يحددوا موقفهم منها • والنظم ــ على ذلك تقدم للافراد الطرق الموحدة الكفيلة بمقابلة المطــالب المتكررة والمتجددة كالتناسل والطعام والمأوى والحماية المتبادلة ••• الخ كما أن هذه النظم تنطوى على عادات دائمة نسبيا واتجاهات وتسهيلات مادية منظمة داخل أنساق معقدة للغاية[16] •ويقرر لندبرج أنه لدراسة الجوانب البنائية والوظيفية للنظم الاجتمــاعية الرئيسية كالاسرة والاقتصــاد والسياسة والدين والجمال وغيرها ، يجب أن تؤدى هذه الدراسة الى تحــديد الوظائف الاســاسية لكل نظــام والادوار الرئيســية فيه وسماته الفــيزيائية والرمزية[17] ووأضح أن لندبرج لا يختلف كثيرا عن جونسون الا فى ادخاله أو اخراجه لبعض الوظائف الملازمة أو غير الملازمة للنظــام أو النسق ، وفى الاختلاف حول مفهوم الفعل Action والسلوك Behaviour

---

(15) Johnson H. M., Sociology, London. 1961, p. 58.
(16) Ludberg & Others, Sociology, New York, 1958, pp. 524-525.
(17) Ibid., p. 525.

ومضامينوماءوخاصة أن جونسون يسير فى الإتجاه الذى رسمه بارسونز Parsons عند تعريف النسق الاجتماعى «أنه يتكون من مجموعة الافراد الذين يقومون بأدوار معينة ، ويتفاعلون بعضهم مع الاخر ، فى موقف له جانب طبيعى أو بئوى على الاقل ، ويحركهم ميل يتسم بالتفـاؤل للوصول الى اشباع أو ارضاء ، وتتحدد علاقاتهم بمواقفهم التى تشمل بعضهم الاخر متخذة موقفا وسطا فى ضـوء نسق من الرموز الثقافية المشتركة[18] .

ومن الجلى أن هناك اتفاقا بين هؤلاء المؤلفين على ابراز فكرة الدور وعامل الانتظام والتكرار فى النظام أو النسق على الرغم من اختلافهم حول ربط «الفرد» بالدور أو عزله باعتباره لا يمثل الانتظام والدوام . كما أن هناك اختلافا آخر حول مفهوم النظام والنسق وهـو اختلاف يعكس فيما أرى مستويات معينة من التجريد .

لكن هذا الخلاف بين علماء الاجتماع لا يجب أن يغرقنا فى مناقشات طويلة وسوف لا أحصر نفسى فى طريق مسدود . وأبادر فأقول بأن الوحدة الاساسية للبناء الاجتماعى عند تأدية وظيفته هى «الفعل» act ولهذا نتحدث عن الفعـل الاجتماعى والتفاعل الاجتماعى والانتظام فى المجتمع كما يبدو من تجمعات الاشخاص وترتيب سلوكهم أو تنظيمهم . وعندما يترابط مجموع من الاشـخاص فى جماعة فانهم يكونون بنـاء Structure ، وما تفعله الجماعة هو الوظيفة Function أما أن البناء يحدد الوظيفة أو العكس ، فذلك أمـر لا يجب الوقوف عنده طويلا ، لاننا نهتم ، فى نفس الوقت بالتشريح ووظائف الاعضاء[19] أى اننا نهتم بالبناء والوظيفة معا .

والواقع أن كل ما تحدثنا عنه من منظمات أو نظم أو أنساق ، هى

---

(18) Parsons, T., The Social System. Ill, The Free Press, 1951, pp. 5-6.

(19) Ozburn, Nimkoff, Handbook of Sociology, London, 1960, pp. 339-340.

فى الواقع أنماط مختلفة للتنظيم الاجتماعى Social Organisation وغالبا ما يفهم هذا التنظيم على أنه البناء الاجتماعى الذى نعنى به تنظيم الاجزاء والاشخاص • ولذلك تعتبر الاسرة والنقابة والقوة البشرية فى المصنع ، وأعضاء نادى رياضى ، والمجتمع المحلى ، وهيئة الامم المتحدة تنظيمات اجتماعية[20] تتمايز فى الحجم من حيث الاتساع والضيق ، وتختلف من حيث تعدد الوظائف أو اقتصارها على وظيفة واحدة بحسب الغرض الذى تسعى اليه •

واذن فالتنظيم الاجتماعى للمجتمعات مسألة حجم • فكلما زاد السكان اتسع التنظيم وتعدد ، وكلما زاد تراكم الثقافة كلما تنوعت وظائف التنظيم وهذا ينطبق أيضا فى حالات زيادة تقسيم العمل كما أن التنظيم الاجتماعى حين يزداد عددا تزداد التنظيمات ذات الغرض الواحد ، وعندما يحدث تغير اجتماعى ، يفقد التنظيم المتعدد الوظائف بعض وظائفه وتستقل بها تنظيمات اجتماعية أخرى، فتغير الاسرة مثلا جعل بعض وظائفها تنتقل الى أجهزة الدولة أو المؤسسات الاخرى •

ومن التنظيمات الاجتماعية ما عاش مئات السنين ، دون أن يفقد وظائفه المتعددة وخاصة ما كان لها صفة العمومية فى ثقافات متعددة ، وهذه التنظيمات نطلق عليها اسم «النظم الاجتماعية الكبرى»[21] مثل الاسرة والدين والحكومة • وكل نظام منها له فى الغالب عدة وظائف ، فالاسرة مثلا لها وظائف الانجاب والتربية والانتاج «أما المنظمات» فهى تنظيمات اجتماعية ذات تاريخ أقصر ، ولها فى الغالب وظيفة واحدة مثل المنظمات الخاصة ، كما أن للنظم والمنظمات فروعا ، أى تنظيمات اجتماعية أصغر ، تكون أقصر عمرا وأقل انتشارا أو أكثر تخصصا مثل الجمعيات والنوادى •

وعلى الرغم من تعدد أنماط التنظيم الاجتماعى بحسب الزمن والوظائف الا أن كل تنظيم مهما تدرج من النظام ذى الوظائف الثابتة

---

(20) Ibid., p. 341.
(21) Ibid., p. 337.

نسبيًا الى المنظمة ذات الاغراض المحددة والاقل ثباتا ، لابد أن ينطوى على مجموعة من المكونات الضرورية تعتبر فى واقع الامر مظاهر ملازمة للتنظيم الاجتماعى ، ويتضح ذلك بما يلى :

١ ـ الانسان مفروض عليه فى كل مكان أن يعيش حياة اجتماعية، وهذه الحقيقة تجعله متضامنا دائما فى علاقات اجتماعية متبادلة .

٢ ـ والانغماس الحتمى فى الوجود الاجتماعى يتطلب مجموعة منظمة من الاجراءات التى لابد من اتباعها والتى يمكن أن نطلق عليها اسم «التنظيم الاجتماعى للمجتمع» .

٣ ـ وهذه العلاقة المنظمة لابد أن تدرك ادراكا واضحا من كل عضو من أعضاء المجتمع .

٤ ـ وادراك هذا النظام يوصل الى كل فرد أثناء نموه عن طريق المشاركة ، وعادة عن طريق عملية التربية ذاتها .

٥ ـ وفى أثناء عملية النمو خلال النسق ، يترجم الفرد أهدافه الشخصية الى أشكال اجتماعية من السلوك المقبول ، ويخضع أغراض سلوكه الشخصى الى متطلبات المجتمع بالقدر الذى يتوافق فيه مع الصراع الذى يكون بين هذه المتطلبات فى واقع الامر .

٦ ـ ويقبل الفرد هذه الاهداف الاجتماعية من خلال نسق العقاب والثواب الذى يعمل فى المحل الاول فى ضوء حاجة الفرد الى أثر ايجابى.

٧ ـ ولهذا فان التنظيم الاجتماعى عبارة عن نمط متحرك من العلاقات الاجتماعية المتبادلة مستمر خلال الزمن . ويمكن أن نفكر فيه على أنه جزء من الثقافة ، أو على أنه جزء من الخبرة المشتركة للسكان التى أمكن تعلمها (مع تعديلها) ونقلها خلال الاجيال .

٨ ـ وهذا التنظيم الاجتماعى المنبثق من الثقافة ليس نتاجا ناميا حرا للتغير التاريخى . ولكنه خاضع للتحديدات التى تفرض عليه،وهذا يتضح عندما ننظر اليه على أنه وسيلة لحفظ النظام .

٩ ــ ومن أجل ذلك كان لابد أن ننظر الى التنظيم الاجتماعى من حيث تحقيقه الذاتى لنظام المجتمع ، أكثر من تحقيقه للاشباع الفردى، ومع ذلك لابد أن يحدث للفرد من خلال هذا التنظيم أدنى حــد من الاشباع لرغباته على الاقل ، حتى يمكن الوصول الى « حالة الدوام فى التنظيم» التى بدونها لا يمكن أن يكون هناك تنظيم بالمعنى المعروف٠

١٠ ــ وقــاعدة الدوام فى التنظيم هى ما يمكن أن نطــلق عليه «بالسياسة الذاتية» لان الفشــل أو الاخفــاق سوف يؤدى الى هدم المجتمع أو الى تغيير التنظيم الاجتماعى ذاته ٠

١١ ــ وعلى ذلك تكون المكونات الضرورية للتنظيم الاجتماعى هى ما نطلق عليه «الضرورات الاجتماعية Social Imperatives »(٢٢)٠

مكونات التنظيم الاجتماعى :

ما هى اذن الضرورات الاجتماعية أو الملزمات ؟ أول ما يجب أن ننبه اليه أن هذه الملزمات لها صفــة الضرورة والعمومية بالنسبة لجميــع الانساق الاجتمــاعية بغض النظر عمــا اذا كانت بدائية أو قروية أو متحضرة ، وهى : الجمــاعات والقــيم والمركــز والدور والســلطة والايديولوجية ٠

ونعنى بالجماعات Groups تكوين الاجسام الاجتماعية التى يسود كل منها شعور بالمشابهة أو الانتماء بين أعضائها ، بالاضافة الى تمييز شعور به بين الاعضاء وبين أعضاء آخرين غير متشابهين أو غير منتمين، الى جانب البناء الداخلى ٠

ونعنى بالقــيم Values الصفات المعترف بهــا التى يجب أن يحصل عليها الاشخاص فى المجتمع والتعبيرات أو التصورات الرمزية التى عن طريقها تنقلب هذه الصفات المرغوبة الى تعبير مرئى ملموس ٠

(22) Goldschmidt W. understanding human Society, London, 1959, p. 62.

اما المركز Status فانه يشير الى وضع الاشخاص أو الجماعات داخل الصيغة الكلية للمجتمع • أى وضع الاشخاص بالنسبة لاشخاص آخرين ، أو الجماعات بالنسبة لجماعات أخرى •

والدور Role يشمل الاتجاه والسلوك والمشاعر المناسبة لمراكز محددة ، على أن تكون مقبولة من الاشخاص الذين هم فى هذه المراكز•

والسلطة Authority هى العلاقة المعترف بها ، والتى تتضمن القوة الشرعية لإصدار القرارات على مناطق معينة من السلوك ووجوه النشاط التى تصدر عن أعضاء آخرين فى المجتمع •

والايديولوجية Ideology هى نسق المعتقدات الذى يهيىء الاساس لفهم أو استيعاب النظام الاجتماعى القائم أو بمعنى آخر ، هى التمثل الذهنى والروحى للوضع الاجتماعى الراهن •

ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه المكونات العديدة مرتبطة ارتباطا متبادلا فى أثناء عملها فى أى نسق اجتماعى • ولذلك فلن يكون هناك بعد عن الصواب أن ننظر الى كل منها على أنها وجه من وجوه الفكرة العامة «التنظيم الاجتماعى» وسنعرض فيما يلى لكل من هذه المكونات فى شىء من التفصيل •

الجماعات :

الجماعات موجودة فى كل مكان من العالم ، وهذه حقيقة مسلم بها، ومن أجل هذا كانت أحد الدعائم الهامة وجزءا أساسيا من مكونات أى نسق اجتماعى • ومع ذلك فمن الضرورى أن نقدر معنى الجماعات فى تسيير المسائل الانسانية وأن نفحص طبيعتها وتنوعها •

كل الكائنات الانسانية تدخل الجماعة الاولى ـ الاسرة ـ منذ لحظة الولادة وفى أثنـاء حياتها تصبح جزءا فى عـدد كبير من الجماعات الاجتماعية ، وحجم هذه الجماعات يمكن أن يتنوع من العلاقة الثنائية لاسرة بغير أولاد الى النسق الاجتماعى ذى الطبيعة التجمهرية المفككة كالحزب السياسى ، ومن أجل هذا يمكن النظر الى المجتمع ـ على نحو معين ـ على أنه أكبر جماعة تحوى داخلها الجماعات الاخرى •

خصائص الجمـــاعية :

١ ــ يشعر أعضاء الجماعة بوحدتهم ومشابهتهم ، ويتميزهم عن أعضاء جماعة أخرى •

٢ ــ كل جماعة لابد أن يكون لديها مركز اهتمام خاص ويختلف هذا الاهتمام باختلاف طبيعة الجماعة ، فقد تكون الجماعة مهتمة بجمع طوابع البريد وقد تكون مهتمة بفرض سيطرتها على منطقة واسعة من النشاط الاجتماعي فى المجتمع ، والناس لا يكونون جماعة لمجــرد أنهم يعيشون مع بعضهم الاخــر ، بل انهم يشتركون فى الاهتمام والقيام بنوع معين من النشاط • ذلك أن طبيعة وسائل الاتصال الحديثة أصبحت لا تفرض على الجماعة أن يكون أعضاؤها متجاورين فيزيائيا •

٣ ــ الجماعات لابد أن تكون منظمة • فهناك بناء داخــلى يحدد المراكز والادوار ووسائل الاتصال ومواضع السلطات •

أشكال الجمـــاعات :

وعندما نفحص عــدة جماعات من انساق اجتمــاعية متعددة فاننا نتعرف على ثلاث أسس عامة للتكوين الجماعى •

١ ــ الشكل الاسرى Familistic حيث تعتمد الوحدة المركزية وقاعدة العضوية على روابط القرابة • أما أى الروابط تعتبر هامة ، والى أى حد تكون كبيرة أو صغيرة وما الوظائف التى تقوم بها ، فانها تختلف من مجتمع لاخر ، ولكن جميع الانساق الاجتماعية بها جماعات أسرية •

٢ ــ الشكل المكانى Spatial ويقــوم على أســاس أن عــددا من الاشخاص لهم محل اقامة مشترك أو يعيشون فى منطقة واحدة ، ومن هذه الزاوية تعتبر القرى والمدن والمناطق الاقليمية جماعات اقليمية ، وعضوية الناس فيها تقوم أساسا على الاقامة على الرغم من أنه يمكن ادخال اعتبارات أخرى •

٣ ــ الشكل الخاص Special ويقوم على أساس الاهتمام بتــوع

معين من النشاط بغض النظر عن المكان أو القرابة[٢٣] .

عضوية الجماعة :

وتعتبر الطريقة التى يتوصل بها الى العضوية أحد الصفات الهامة للجماعات ، ويفرق علماء الاجتماع غالبا بين العضوية التى يجد الفرد نفسه حاصلا عليها دون ترتيب سابق ودون أن تكون له سيطرة على توجيهها ، وبين العضوية التى يكون الفرد حرا فى قبولها أو رفضها .

وتسمى الجماعات التى ينتمى اليها الفرد فى الحالة الاولى «الجماعات ذات الاصل المشترك Common Origin » وتسمى الجماعات التى ينتمى اليها الفرد فى الحالة الثانية «الجماعات ذات المصلحة المشتركة Common Interest » ولكن هذه التفرقة لاتعطينا التمييز الكافى بين هذين النوعين من الجماعات ، لان كل الجماعات فى واقع الامر لهما مصلحة مشتركة ، ومن أجل هذا نطلق على الجماعة الاولى اسم « الجماعة الشكلية الرسمية» والثانية اسم «الجماعة الغرضية» ولما كان الفرد لا يستطيع أن يختار والديه مقدماكانت الاسرة التى يولد فيها «جماعة شكلية رسمية» وفى العالم الحديث تعتبر «القومية» من هذا النوع من الجماعات ، وفى المجتمعات البدائية نجد اختلافا كبيرا بينها من حيث وجود مثل هذه الجماعات أو انعدامها . ولكن المرجح أن تطور المجتمع من البساطة الى التعقيد يتضمن انحرافا من حيث الاهتمام من الجماعات الشكلية الرسمية الى الجماعات الغرضية .

ومع ذلك فان اختيار العضوية فى الجماعة الغرضية ليس حرا تماما ، ذلك لاننا نلاحظ أن عضوية الفرد فى جماعة ما قد ترفض أو قد يجد نفسه واقعا تحت ضغط شديد للانضمام . وتعتبر النوادى من النوع الاول ، بينما تعتبر الروابط المهنية كنقابة المحامين والاطباء والمدرسين من النوع الثانى ، لان القانون فى بعض الاحيان يجعل الانضمام الى الجماعة شرطا لممارسة المهنة ، أو أن الجماعة تقدم من التسهيلات

---

(23) Ibid., p. 67.

والامكانيات ما لا يستغنى عنها الفرد • ويظهر الاختلاف بين الجماعات من زاوية التضـامن والوحدة ، فالجمـاعة الشكلية الرسمية تفـرض مسئوليات ومطالب لا يمكن للفرد أن يتحلل منها ، أى أن تأثيرها يعتبر من الناحية الواقعية أوتوقراطيا ، بينما الامر على عكس ذلك فى الجماعة الغرضية ، لان الفرد يشعر دائما أنه من الممكن التحلل من المسئوليات اذا أراد •

وظائف الجمـاعات :

والجماعات من ناحية أخرى تقوم بعدة وظائف فى المجتمع • وكل جمـاعة لها وظيفة ظاهـرة مميزة • ومثال ذلك أن وظيفة الاسرة هى الانجاب وضمان الاشباع الاقتصادى لاعضائها المكونين لها • ووظيفة النقابة أو الاتحاد حماية المصلحة المتبادلة وتعميقها ، والنادى وظيفته أن يهيىء وسائل الترفيه لاعضائه ، وغالبا ما تقوم الجماعات بعـدة وظائف ثانوية مرتبطة بحاجات الاعضاء •

١ ــ تؤدى الجماعة وظائفها ككل ، من خلالها توصل الاتجاهات الثقافية والمطالب الاجتماعية الخاصة للافراد • وكذلك التوقعات التى تتطلبها المواقف الاجتماعية المختلفة ، ولذلك فان الطفل يكتسب الثقافة أولا من الاسرة •

٢ ــ تعطى الجماعة القوة للفرد فهى تسنده فى سلوكه وتؤكد له ملكية أفعاله واتجاهاته •

٣ ــ تهيىء الجماعة وسطا اجتمـاعيا يشبع فيه الفرد حـاجاته ويمارس تأثيره الايجـابى • وفى هـذا الوسط الاجتمـاعى يستجيب الاشخاص الاستجابات الشخصية التى تعبر عن العاطفة أو التفوق أو المركز ، أى أن الفرد يشبع رغباته فى هذا المضمون الاجتماعى للجماعة•

العـلاقات الجمـاعية :

من المسائل الهامة التى يؤكد عليها علم الاجتمـاع .أن المجتمعات الانسانية مكونة فى كل مكان من جماعات عديدة ، ولهذا كان من المهم هنا أن نعطى بعض الاهمية الى العلاقات التى يمكن أن تنشأ بينها فى

النسق الإجتماعى • ولذلك يمكن أن نضع تمييزا آخر للجماعات،فنميز بين الجماعات المستغرقة والجماعات الاختيارية • ففى حالة الجماعات الاولى تكون العضوية فيها من النوع الذى لا يسمح للفرد بالعضوية فى جماعة أخرى ، وذلك مثل الطوائف فى الهند ، فالذى ينتمى الى طائفة بعينها لا يمكن أن ينتمى الى طائفة أخرى فى نفس الوقت• والجماعات التى من هذا النوع تكون فى الغالب متماثلة فى القوة والنفوذ ، أو تكون من الجماعات ذات الانساب المتمايزة • ومن هذه الزاوية تعتبر العشائر والطوائف جماعات مستغرقة •

أما الجمــاعات الاختيارية فاننا نعنى بهــا الجمــاعات التى تكون العضوية فى أحــدها شاملة أو يمكن أن تشمل عضويات من جمــاعات أخرى ، ويمكن أن نقسم هذا النوع بالتالى الى نوعين :

الاولى حين يكون الاعضاء فى جماعة واحدة متضمنين فى الجماعة الكبرى ، ولذلك نطلق على هذه الرابطة اسم «الاستغراق» ومثال ذلك أنه فى الدولة التى تنقسم الى ولايات يكون الاعضاء فى ولاية أعضاء فى مجتمعها وأعضاء فى نفس الوقت فى المجتمع الكبير أى مجتمع الدولة • والبدنات فى المجتمع البدائى يكون اعضاؤها أعضاء فى نفس الوقت فى جماعة أكبر هى العشيرة التى تتكون من عدة بدنات ، والنوع الثانى يمكن أن نطلق عليه اسم «اللااستغراقى» وفيه تكون العضوية فى جماعة لا تؤهل ولا تمنع فى نفس الوقت العضوية فى جماعة أخرى • ولهذا عندما نفحص العضوية فى أحد هذه الجماعات ، فان بعض أعضائها يمكن أن نجد لهم عضويات أخرى فى جماعات غير جماعاتهم هذه ، بينما لانجد للبعض الاخر مثل هذه العضويات • ونظام الروابط والنوادى خير مثال على ذلك •

أما فيما يتعلق بالولاء ، ففى كثــير من الانساق الاجتماعية مثل المجتمع العشائرى المنظم ، نجد أن الاخلاص والولاء للجماعات الخاصة يعلو على الولاء للمجتمع ذاته ، وربما يتوقف بقاء النسق الاجتماعى على توازن القوى بين الجماعات المتساوية والتى تقف فى موقف يعارض كل منها الاخرى •

وفى المجتمع الذى يقوم على «مبدأ التدرج الاجتماعى بين الجماعات» يكون النفوذ أمرا شديد الاتصال بالانتماء الجماعى ، والقـوة عادة ما تميل ناحية النفوذ ، وفى المجتمعات التى تكون جماعاتها من النوع الاختيارى الاستغراقى تصبح عواطف الوحدات الاكبر غير متعارضة مع عواطف الوحدات الاصغر ، بل على العكس ، تمتص العواطف الاولى الروابط المباشرة الثانية ولكن حين تكون الجماعات من النوع الاختيارى اللااستغراقى ، حيث ينتمى بعض أعضاء الجماعة الى جمـاعة أخرى والبعض الاخـر لا ينتمى اليها ، تكون الفرصـة مهيئة للصراع على الـولاء . وفى المجتمع الحـديث حيث تكون روابط القـرابة والدين والجمـاعات المهنية والصداقة ذات طـابع فردى ، تختلف العواطف المنبعثة عن كل رابطة ، ويؤدى الولاء الى الجماعات الى تفريق الافراد لا الى تجميعهم وتوثيق عرى مشاعرهم المشتركة .

القـــيم :

كل مجتمع له طابع خاص فى النظر الى الصفات والخصائص ، ولذلك تختلف المجتمعات من حيث طبيعة الصفة ومدى الاهتمام بها والدعامة التى تستند بها . ولكن خلال كل نسق اجتماعى هناك اتفاق عام بصدد الفكرة التى تجعل الانسان صالحا وصادقا ومحترما[٢٤] .

١ ـ لقـد كان لليونان اصطلاح Areté يستخدمونه ليشـير الى الخصائص الصحيحة أو الواجبة «للانسان الفـاضل» ولكل الثقافات صيغتها الخاصة بالـ Areté حتى ولـو لم يكن هناك اصطـلاح معروف لذلك . وفى المجتمعات البدائية نجد أن هناك اتفاقا عاما فى كل منها حول الصفات التى يجب أن تتوفر فى القادة والزعماء ، والصفات التى تجعل من الانسان انسانا صـالحا أو سيئا أو محترما أو قليل الاهمية .

٢ ـ والقيم اذن يمكن أن تعرف بطريقة مبدئية أنها « الصفات الشخصية التى يفضلها أو يرغب فيها الناس فى ثقافة معينة » فالشجاعة

(24) Ibid., p. 72.

والقوة والاحتمال والايثار والمهارة الفنية وضبط النفس يمكن أعتبارها، كل على حدة أو فى مجموعها ، الصفات المرغوبة فى كل ثقافة • ولكن القيم من ناحية أخرى ليست صفات مجردة فحسب ، بل انها فى الواقع أنماط السلوك التى تعبر عن هذه القيم •

٣ ــ ومن المقرر الان أن التقاليد تضع القيم فى أى مجتمع ، فهى اذن محافظة بطبيعتها • ولهذا كانت القيم ثقافة الاصل والاتجاه • وكلما كانت القيم ذات عمق واضح كلما تم اكتسابها دون وعى وتصبح من موجهات السلوك دون احساس مشعور به ، ومهما اختلفت القيم باختلاف الجنس أو الطبقة فى النسق الاجتماعى ، فان قيما معينة تظل ذات عمومية لجميع الاعضاء على الرغم من أن الكثيرين قد يفشلون فى تحقيقها فى سلوكهم الفردى أو الاجتماعى • كذلك يعكس طابع النسق القيمى حاجات أساسية معينة للنسق الاجتماعى الذى يتأثر بالبيئة التى يوجد فيها وبالعناصر والتكنولوجية به •

٤ ــ هــذا ونزعم أن وجــود القيم يعتبر «ملزما اجتماعيا» لان الشكل الذى يأخــذه يرتبط وظيفيا مع النواحى الاخــرى فى الموقف الاجتماعى الذى يتناقل مع التعديل خلال الزمن • والشىء الذى يجب أن نؤكد عليه أن كل ثقافة لديها مجموعة أو عدة مجموعات من القيم ، ولكن كل فرد (لسبب أو لاخر) يحصل عليها بدرجات متفاوتة • ومن الناحية الاجتماعية تعطى القيم الوحدة للمجتمع والثقافة ، لانها تعمل على اقامة نقط التقاء تتجه اليها الافعال ، وعندما قلنا أن القيم يمكن النظر اليها على أنها «محافظة» كنا نعنى بالطبيعة الطبيعة الاجتماعية، لان النسق الاجتماعى عدة قوى تميل الى المحافظة على النمط القيمى القائم وعلى الاخص فى نواحيه الرمزية التى تعتبر أحيانا حــوافزا «للسلوك» ، وأحيانا أخرى أهدافا له • ولا يعنى ذلك أن الاعضاء فى أى ثقافة لهم نفس الحوافز والاهداف من وجهة النظر القيمية ، بل أنهم يتمايزون فى ذلك تمايزا كبيرا • ولذلك كان من يركزون على القيم يحصلون على مركز مرموق فى مجتمعهم ، لان هذا هو طبيعة النسق القيمى ، والاشخاص ذوى النفوذ يميلون الى الحصول على القوة التى

تمكنهم من التاثير على سلوك الاخرين ، اما مباشرة عن طريق الضغط ، أو غير مباشرة عن طريق معالجة القرارات التى يأخذ بها المجتمع أو عن طريق اعتبارهم نماذج يحتذيها الشباب •

٥ ـــ ومن الطبيعى أن نتوقع أن مثل هؤلاء الاشخاص لايحاولون تدبير النسق القيمى الذى يستمدون منه نفوذهم ، بل انهم يحاولون شاعرين أو غير شاعرين أن يحافظوا على الواقع الانسانى الذى يقوم على هذه القيم أو على التصـــورات الرمزية لها • ولا يعنى ذلك أن امكانية التغير بالنسبة للنسق القيمى قليلة الاحتمال ، بل أنه يتغير تحت ضغط عوامل متعددة مثل اندفاعات النمو لتكنولوجيات جـــديدة ، أو الانتشار من حيث السكان على أرض أوسع ، أو ظهور أعداء لم يكونوا فى الحسبان وهكذا • أو بمعنى آخر تأتى فرص تغير النسق القيمى من الخارج ، أكثر مما تأتى من الداخل ، اذا ظل الداخل محتفظا بتوازنه التكنولـــوجى ، أو السكانى • ومثـــال ذلك ، أن الثورة الصـــناعية فى أوربا كانت لها آثار واضحة على الحياة الاوربية ، فالطريقة الجديدة فى الانتاج والتى وجدت فى التجارة والحرب فرصا كثيرة للانتشـار خارج أوربا ، هيأت الارض لمصدر جديد من الثروة والقوة ، والذى انحصر فيما مضى فى ملكية الارض والزعامة الحربية • ونتيجة لذلك نشـــأت طبقة جديدة لم تكن موجودة من قبل وهى الطبقة المختارة أو الممتازة Elite ، ومن ثم بدأت قيم جديدة فى الظهور ، ولم تختف القيم القديمة تماما بل ظلت فارغة من غير مضـمون •

المركز والـــدور :

١ ـــ العلاقات التى تقوم بين الاشخاص تخضع لنظام معين،ومعنى هذا أن كل شخص يرتبط بالاخر بطرق لها مستويات محددة تعتمد فى تحديدها على أوضاعهم النسبية، وفكرة الموضع التى نستخدمها بصورة منتظمة فى حديثنا عن الناس فى المجتمع ، ولهذا يمكن أن نعرف المركز بأنه الاوضاع التى يتخـــذها الاشخاص فى المجتمع كل ازاء الاخر • والنسق الاجتماعى من هذه الزاوية يمكن اعتباره مجموعة متسلسلة من الاوضاع المحددة التى تربط جميع أعضاء المجتمع •

٢ ــ وللمركز ناحية خاصة وناحية عامة أيضــا • فيظهر العنصر الخاص فى المركز فى العلاقات المباشرة التى تقوم بين الاشـخاص مثل علاقة الابن بالاب ، أو الرئيس بمرؤوسيه وهكذا ، أما المراكز العامة فانها تشير الى الفكرة التى تقع وراء العلاقات فى النسق الاجتمــاعى ككل مثل العمال والموظفين والمتدينين ••• الخ • ويرتبط بهــذا النوع الاخير ما يمكن أن نقول عنه ، الواجبات والحقوق والامتيازات التى تعتبر فى نفس الوقت المكــونات الاساسية لهــذه المراكز التى تطبع الاشخاص الحاصلين عليها بطابع خاص ، هذه الواجبات والحقــوق تسمى «أدوارا Roles » من ناحية أخرى • والكلمة أخذت من المسرح حيث يفهم الدور على أنه سلوك الممثل الخاص فى مضمون معين،والممثل عليه أن يحفظ ويفسر دوره ، كما أن عليه أن يتصرف خلال الحدود التى عينت له مستخدما كل امكانياته، ومثل هذا القول يمكن أن يقال بالنسبة للدور الاجتماعى • ومثال ذلك أن الاب فى المجتمع الحديث ينتظر منه أن ينصح ابنه ويعنفه ، كما يتوقع منه أن يعطيه الحماية ويهيىء له الراحة وأن يرتب له مستقبلا معينا • ويتوقف كل هذا على مقدرة الاب على اختيار المناسبات الصالحة ولذلك اذا أساء الاب تفسير دوره ربما تدخل المجتمع على صورة النقــد الذى يمكن أن توجهه له الاسرة أو الاصدقاء أو الجيران •

٣ ــ وفى كل مجتمع نجد «أدوارا أو مراكزا» • ولكن أســاس تكوينها وضيغها يختلفان من ثقافة الى أخرى ، كما أن مركزا واحدا يمكن أن يكون عدة أدوار مختلفة • وفى كل مركز اجتماعى هناك علامات تؤدى الى قيام السلوك العادى ومعنى هذا أن الدور ليس مجرد فعل ولكنه فى واقع الامر توقعــات للفعل • ذلك لانه عندما نشترك فى أى موقف اجتماعى طبيعى ، فاننا نتوقع مقدما السلوك الذى سوف يصدر عن الاخرين ، فاذا أخذنا مريضا الى طبيب فاننا نتوقع قبل أن نذهب أنه سيشخص المرض ويصف الدواء ، ومن أجل هذا فاننا نقول أن لكل شخص مجموعة من الادوار والمراكز يقوم بها أو يوجد فيها • ويتوقف هذا كله على المضمون الاجتماعى الذى يندمج فيه ، فالفرد يمكن أن

يكون أبا وابنا فى نفس الوقت ، طبيبا وعضوا فى ناد فى نفس الوقت أيضا،كما أن من الممكن أن يكون منتجا ومستهلكا فى وقت واحد وهكذا. وفى المجتمع الحديث حين يكون الفرد عضوا فى عدة جماعات مختلفة المقاصد ، تكون الفرصة سانحة لصراع الادوار . وكثيرا ما يوجد الفرد فى مواقف تثير انفعاله أو تحــرجه لانه قد يوجــد فى وقت واحد مع مجموعة من الاشخاص المختلفين كل يتوقع منه سلوكا مختلفا .

٤ ــ ويجب أن نلاحظ هنا أن المركز يتضمن مجموعة مختلفة من مناطق النظم الاجتماعية ، وربما كانت القرابة أحد الاسس الهامة فى تحديد المركز وربما كان هذا أيضا هــو الذى قاد الانثروبولوجيا الى الدراسة المركزة لاصطلاحات ونظم القرابة البدائية وما ترتب على هذا الاهتمام من التعرف على أن هذه الانماط أو التصنيفات القــرابية فى المجتمعات البدائية . مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنواحى النظامية الاخرى فى المجتمع . وعلينا أن نقرر هنا أن أنساق القرابة ليست فى واقع الامر الا أنماط من المراكــز والادوار ، وأن استخــدام اصطلاح قرابى فى العلاقات يؤدى الى تعيين الاتجاه أو الى تحديد نوع التوقع . ومثال ذلك أن عملية الاقدام والاحجام فى مواقف الحب تتغير تغيرا تاما حين ترفض فتاة تقدمت شــاب مناسب بقــولها «لا يمكن أن أكــون الا أختا لك» .

٥ ــ وثمة اعتبار هام فى علاقة «الدور» ينجم عن الجنس والسن. لان هذه العناصر الاساسية فى الوجــود الانسانى لها طابع الثبــات والتحديد القــاطع فى كل مجتمع باعتبارها نواح متميزة فى العلاقات الاجتماعية . ولهذا كانت توقعات الرجل غير توقعات المرأة ، وتوقعات الشاب غــير توقعــات المسن . ولا يعنى ذلك أن نعترف بالفــروق البيولوجية التى تتصل بالقدرات أو الموروثات،بل اننا نعنى أن المجتمع يعطى هذه الاختلافات معنى ثقافيا محددا . والمجتمع الحديث وان كان يسير فى اتجاه تقليل نسب هذه المعانى الثقافية ، الا أن الامر لم يكن كذلك فى المجتمعات البدائية . ولعل ظهور اصطلاحات مثل الابوية والامية كان فى جوهره عبارة عن محاولة لتعميم أدوار الجنس من زاوية

سلطة الاسرة من ناحية ولبيان مدى التوقعات واتجاهها التى تقوم على هذا الاختلاف من ناحية أخرى .

٦ ـ هذا وتدخل اعتبارات أخرى فى تحديد المراكز فى المجتمع قد تختلف من مجتمع لآخر مثل ، التراث والظروف المباشرة عند الولادة ، والصفات الفيزيائية ، والاقامة والمواهب الخاصة ، والملكات، كذلك يمكن أن تصلح المهنة ، كأساس فى تمييز المراكز فى أى مجتمع .

٧ ـ وفى الانساق المعقدة تختلف القيم على أساس تسلسلى ، ولذلك يكون من الممكن أن نقسم المجتمع الى درج من السلالم الاجتماعية،كل عضو فى واحدة يشترك مع الاخرين فيها فى نفس المركز التسلسلى ، ويعطى درجة معينة بالاضافة الى النسق القيمى السائد فى المجتمع . هذه السلالم الاجتماعية يطلق عليها اسم الطبقات أو الطوائف الاجتماعية والطوائف وهى الطبقات المتحجرة التى لا تسمح لأى شخص أن يخرج على الجماعة التى ولد فيها ، ومن مظاهر التحجر أن الشخص لا يستطيع أن يتزوج من خارج هذه الجماعة . أما الطبقات فتتميز بمرونة نسبية ، ولكن اذا لم يكن هناك وحدة بين أعضائها . الى الحد الذى يمكن أن تكون معه جماعة اجتماعية ، فانه لا يمكن فنيا أن نطلق عليهم اسم طبقة . وعلى هذا نستطيع أن نقول أن المراكز النسبية للافراد فى المجتمعات ذات عمومية واضحة بعكس الطبقة التى لا يمكن أن تلحق بها هذه الخاصية ، فوجودها غير متردد فى الزمان والمكان ، ومعنى هذا أنها تظهر فقط فى الانساق المعقدة التى قامت على الزراعة النامية . ومع ذلك فقد وجدت الطبقات فى المجتمعات التى يمكن أن نطلق عليها اسم مجتمعات الدول البدائية مثل مملكة أوغندا التى تعرف الان باسم أوغندا وروانـدا أورندى المجاورة للكونغو الان .

٨ ـ وعندما كنا نتحدث عن القيم ميزنا بين القيم الرسمية والقيم المكتسبة ، ويمكن أن نميز تمييزا مشابها بالاضافة الى المركز . فالمراكز الرسمية هى التى يحصل عليها الفرد من خلال الظروف التى ليست له سيطرة عليها مثل جنسه وسنه أو انتسابه لاسرة معينة أو طبقة خاصة.

٩ — والمراكز المكتسبة هى التى يحصل عليها الفرد من خلال أعمال يقوم بها بنفسه ، ونلاحظ أن بعض المجتمعات تكون أهم المراكز ذات طبيعة رسمية لان كل شخص يولد فى عشيرة أو طبقة ، وليس هناك من شىء يمكن أن يغير من ذلك .

١٠ — وعندما نقول أنه من الممكن للشخص عن طريق أفعاله الخاصة أن يحدد مركزه فى السلم الإجتماعى ، نصف المجتمع الذى تظهر فيه هذه الظاهرة بأنه مجتمع يتضمن درجة عالية من التنقل الاجتماعى Social Mobility ولكن اذا كان المجتمع صارما فى تحديد مراكز الافراد كان التنقل فى درجاته الدنيا . ومع ذلك فليس هناك مجتمع على مرونة تامة أو على صرامة تامة . ومن الأمثلة على ذلك أن الدراسات التى أجريت على النسق الطائفى فى الهند كشفت أن هناك قدرا معينا من التنقل الاجتماعى على الرغم من بناء الطائفة المتحجر .

وخلاصة القول أن الرغبة فى الحصول على المركز وما يتبعه من نفوذ والبحث عن القيم وتعزيزها ، ان هما الا امتداد للرغبة الاساسية فى الحصول على تأثير أو بمعنى آخر هما استجابة لدافع أساسى يجد تعبيرا له فى عالم الثقافة الرمزى .

جـ ـ السلطة :

ولا تسير المجتمعات مهما كانت بسيطة أو معقدة كيفما اتفق ، ذلك لان نواحى النشاط التى تكون الحياة اليومية للناس تتطلب التوجيه ، كذلك لا تستمر الثقافات فى سيرها على أساس عشوائى لان الاتجاهات والمعتقدات تتطلب حماية وتعزيزا دائما اذن لابد أن تكون هناك جهة موجودة لاصدار القرارات يناط بها بعض الافراد فى كل مجتمع . ووضع القرارات والقوانين وما يتصل بها من اجراءات يمكن أن يطلق عليه اسم «السلطة» أما ممارسة هذه السلطة فيطلق عليها اسم «الضبط» ومن أجل هذا كانت السلطة هى الحق المقرر لجماعة من الناس فى وضع قرارات ملزمة فيما يتصل ببعض نواحى الحياة أو

أوجه النشاط الخاصة بالاخرين • وعلى هذا يكون من حق الاب أو الام المعترف به أن يضع الطفل فى سريره ومن حق واضع الضرائب أن يفرض ضريبة معينة ومن حق القاضى أن يحكم على الجريمة والانحراف ومن حق الامام أن يقيم الصلاة • ونحن نقول فى علم الاجتماع أن أنساق السلطة متضمنة فى كل نسق اجتماعى ، ولكن موضع السلطة واختيار البيئة وامتداد الفعل يختلف من مجتمع الى آخر • أما الضبط فينظر اليه على أنه وجه واحد من الدور الاجتماعى أى أنه وجه من وجوه السلوك التى نتوقعها من أناس معينين فى أماكن معينة وأزمان معينة أيضا • ولما كانت السلطة تلعب دورا هاما فى الطابع الذى يأخذه التنظيم الاجتماعى كان علينا أن نعطيها اهتماما خاصا[٢٥] •

٢ ــ ومن المناسب هنا أن نميز بين نوعين من السلطة ، السلطة الشرعية والسلطة المغتصبة والسلطة الاخيرة هى ممارسة الضبط على الاخرين بطريقة ليست مقررة فى الثقافة ، ولذلك كانت الثورة فى حد ذاتها عبارة عن اغتصاب القوة • والامثلة على ذلك كثيرة فى المجتمع الحديث • ولكن قلما نجد مثيلها لها فى المجتمعات البدائية التى تسير على أساس السلطة الاولى أى السلطة الشرعية ، ولكن هناك حالات استثنائية كما يحدث فى جزر الاندمان حين يقوم شاب له صفات معينة ويغتصب سلطة لنفسه لا تناسب سنه ، ذلك لان القاعدة هناك أن تكون السلطة الشرعية فى يد كبار السن •

٣ ــ الا أن هناك تقسيما آخر للسلطة يقوم على ثلاثة أنواع : الاول هو السلطة التنفيذية ، والثانى هو السلطة الادارية والثالث هو السلطة القضائية ، فالسلطة الاولى هى التى تفرض التشابه والامتثال الى قواعد مقبولة من السلوك ، مثل الضبط الابوى للاطفال والمحاكم التى تعاقب المجرمين ، والوظيفة الاساسية لهذه السلطة هى المحافظة على استمرار القواعد الاجتماعية والقانونية فى أداء عملها الامر الذى

---

(25) Ibid., p. 91.

يمنع الانحراف والعدوان على الاتجـاهات الثقافية العـامة والنظام الاجتماعى ككل • أما السـلطة الثانية فانها تسهم فى توجيه الافعال داخل الوحدة الاجتماعية ، وبدونها لا يمكن لأى جماعة مهما كان نوعها أن تنوض بالوظائف التى تحقق أهدافها ، وتقـوم اللوائح الاساسية للمنظمات المختلفة داخل المجتمع بفرض مثل هذه السلطة أما السلطة الاخيرة فهى التى يناط بها حل الخـلافات التى تنشأ بين الافراد فى المجتمع مهما كان نوع هذا الاختلاف •

٤ ـــ وعندما نفحص المجتمعات نجد أن مظاهر السلطة ومراكزها وأجهزتها المختلفة تتطور بتطور النظام الاجتماعى فهى تميل الى التطور من البساطة الى التعقيد كلما تغير المجتمع من حالة البدائية الى القروية الى الحضرية الى الصناعية • وتبـلغ السلطة أعلى مراحل التعقيد فى الانساق الاجتماعية التى تدخل تحت اطار الدولة • ومن هذا نجد أن هذه الانساق بما لها من سلطات تترتب على أساس نظام تسلسلى ، لكل درجة فيه مركز من مراكز القوة ، بل ان النسق الاجتماعى الواحد تتدرج فيه السلطات على نحو يرتب مراكز الناس وأدوارهم بالنسبة للنسق الاجتمـاعى وبالنسبة لمجموع المجتمـع • ويطلق على أنساق السلطة المتدرجة على هذا النحو «البيروقراطية» وتتميز البيروقراطية بأنها تقـوم على أساس تسلسل السلطات داخلهـا بحيث لا تستطيع المراكز العليا فيها أن تشرف اشرافا مباشرا على كل شىء داخل النسق الاجتماعى • ولهـذا يحدث دائما أن تفقـد السلطات العليا اتصالها بالقواعد العريضة للنسق الاجتماعى ، وتكون الفرصة سانحة لاضطراب السلطة أو للتعقيد الذى قد يعطل تنفيذ القرارات أو انجاز المشاريع • ومن أجل هذا تواجه التنظيم البيروقراطى فى الحكومات الحديثة عدة مشاكل بل ان الامر لا يقتصر على الحكومات وحدها بل تظهر نفس هذه المشـاكل فى المؤسسات الكبرى التى لا يمكن الاستغناء عنهـا فى الحياة الحديثة ، ومن أجل هذا كان اصلاح الجهاز الحكومى أمرا صعبا للغـاية ، يقتضى دراسة مراكز السلطة والضبط فى كل فـروع هذا الجهـاز بحيث يمكن للسلطات العليا أن تكون على صلة مباشرة بكل

السلطات الاقل منها وأن يحدد دور ووظيفة ومركز كل سلطة داخل الجهاز ، أو بمعنى آخر لابد من تحديد واضح لحدود العمل وحدود السلطة المخولة للمشرفين على تنفيذه •

الايديولوجية :

١ — يكتشف الانسان فى كل مكان بيئته التى يعيش فيها من خلال التصورات التى تزوده بها ثقافته ، وأغلب ما يتعلمه الانسان لفظى بحت ولذلك تخلق اللغة والتفكير صورة للحقيقة يعمل من خلالها الفرد فمن خلال اللغة يفرض نوع معين من التعقل على العالم المعروف،وبذلك يصل الانسان الى حالة لا يعطى فيها الوحدة والمعنى للطبيعة بل لسلوك الناس أيضا • وهذا التعقل الذهنى والروحى للاوضاع على ما هى عليه هو الذى نطلق عليه كلمة الايديولوجية[٢٦] • ولذلك تقوم الايديولوجية على المزاعم الميتافيزيقية التى تربط الظواهر الملاحظة والتى يمكن ملاحظتها للبيئة الطبيعية والانسانية وتضمها فى نوع من الوحدة،أو بمعنى آخر تعمل الايديولوجية على اقامة نسق من التعقلات والتبريرات للظروف الراهنة الموجودة فعلا : ولهذا يقال دائما أن الايديولوجية عبارة عن نسق من الافكار توجه الافعال ويقاس على أساسها السلوك الفردى أو الاجتماعى • ومن أجل هذا أيضا كان لكل مجتمع نسقه الخاص الذى يتفق مع تاريخه وظروفه الخاصة وثقافته المميزة • وليس غريبا أن نجد فى كل مجتمع مجموعة من التبريرات أو الافكار تقوم بوظيفة هامة ، تتلخص فى اظهار التنظيم الاجتماعى بالمظهر الطبيعى الذى يتفق وطبائع الاشياء ، ويكفى أن نثير عدة أسئلة تتعلق بالقيم أو بمراكز الناس فى المجتمع أو بأدوارهم فنتلقى اجابات تحمل طابعا تقريريا كأنها أمور مسلم بها من قبل ، بينما الواقع أن هذه الامور جميعا لا تثبت على حال بل أنها تتغير دائما ، ولكنها عندما تتغير يتغير معها النسق الايديولوجى الذى يعطيها الاطار العقلى الذى يبررها • ومن أجل هذا نجد أن كثيرا من العادات الاجتماعية تكون

---

(26) Ibid., p. 100.

بمثابة القوانين كالاجراءات الخاصة بالزواج أو علاقات المودة والاحترام المتبادل أو واجبات القرابة بغض النظر عما اذا كانت داخلة ضمن تشريع مكتوب ، لانها فى أثرها تكون أحيانا أقوى من القوانين المكتوبة •

ويقول بعض علماء الاجتماع ان كثيرا من القوانين التى تأخذ بها المجتمعات تكون ذات أسس أيديولوجى ويبدو هذا واضحا اذا عقدنا مقارنات بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتحضرة •

٢ ــ نظرا لاهمية هذا الموضوع فاننا نزيده ايضاحا : الاعضاء فى كل مجتمع هم بالضرورة علماء اجتماع هواه ، أى أن عندهم أفكارا حول بناء مجتمعهم وعملياته الاجتماعية ومكانه من العالم ، لانه اذا لم تكن لديهم أفكار حول هذه المسائل ربما كانت حياتهم الاجتماعية غير ذات معنى بالنسبة لهم وهم بهذا يكونون غير حاصلين على الاطار الذى يتحركون خلاله مع غيرهم من أفراد المجتمع • ومن أجل ذلك فان كل واحد من الافراد فى المجتمع تكون لديه فكرة عن التمايز الداخلى للمجتمع ، كأن تكون لديه فكرة عن الطبقات الاجتماعية وكيف تختلف كل منها عن الاخرى • وكل فرد أيضا لديه صورة عن زعماء المجتمع، لماذا هم كذلك ولماذا يشبهون ، وكيف وصلوا الى مراكزهم • وبالنسبة للموقف العالمى يكون عند الفرد مجموعة من الافكار حول اتجاهات السياسة العالمية ومن الدول التى تعتبر صديقة أو معادية وهكذا • والناس لا تكون عندهم أفكار عن هذه المسائل فحسب بل تكون لديهم أيضا مشاعر تجاهها تجعلهم يصدرون الاحكام المختلفة عليها،وباختصار تكون عند الناس أفكار حول طبيعة الاشياء وحول اتجاهها وما ينبغى أن تكون عليه ، ومثال ذلك أن كلا منا يعرف أن الامور ليست على درجة كبيرة من الكمال ، وهذا الحكم فى حد ذاته يتضمن على الاقل تصورا غير متكامل عن المجتمع المثالى الذى ينبغى أن يكون •

٣ ــ ومن أجل هذا نستطيع أن نقول ان ايديولوجية أى مجتمع تتكون مما يلى :

١ ــ الافكار العامة المقبولة عن بنــاء المجتمع وعملياته الداخلية ومركزه العالمى •

٢ ــ الافكار العامة المقبولة عن تاريخ هذا المجتمع •

٣ ــ الاحكام العامة عن الحقائق التى يعتنقها الناس دون مناقشة•

٤ ــ قيم مقررة ومقبولة وأهداف محددة للمجتمع • وهذا لايعنى أن هذه الخصائص الاربعة الايديولوجية ينبغى أن تكون عامة فى جميع أقسام المجتمع بلا استثناء اذ ربما تكون للجماعة الواحدة داخل المجتمع الواحد ايديولوجية خاصة تتفق والهدف الذى تسعى اليه •

الفصل الخامس

المجتمعات المحلية

المجتمعـــات المحـــلية

ان اتساع نطاق المجتمع الحديث خلق ظروفا لم تخبرها المجتمعات القديمة أو البدائية ، كما أن اتساع نطاق العمران فى مختلف بلاد العالم غير من التنظيم الاجتماعى التقليدى الذى كان يقوم على وحدات صغيرة نسبيا • ومن الحقائق التى وصل اليها علم الاجتماع مؤخرا ، أنه كلما زاد المجتمع تعقدا،كلما زاد اتساع التنظيم الاجتماعى وتعددت أقسامه وأنواعه ، كذلك ترتب على زيادة السكان وتقسيم العمل والتخصص والتغير المستمر فى طبيعة الانتاج ، وجود اختلافات كثيرة بين القـــوة البشرية المكونة لكل مجتمع ، ويضاف الى ذلك أن المجتمعات أصبحت تشغل مناطق جغرافية محددة ذات ظروف طبيعية متمايزة ، الامر الذى أدى الى زيادة الضغط على مصـــادر الثروة الطبيعية ، وخلق ظروف ومواقف تعتبر جديدة على تجربة الانسان الماضية •

ان علم الاجتماع عندما يدرس المجتمع دراسة واقعية ، يركز على التجمعات القائمة فعلا والتى من مجموعها يتكون هذا المجتمع• أو بمعنى آخر ، أن المجتمع عند كثير من علماء الاجتماع يعتبر فكرة أو تصورا ، أما ما هو موجود فى الواقع والذى يخضع للملاحظة العـلمية ويمكن معه استخدام أدوات البحث المختلفة فهو الجماعات ومركبات الجماعات• ولهذا يهتم علم الاجتماع الحديث بموضـــوع الجماعة ويجعله نقطة الارتكاز فى البحث والتحليل •

وهذه الجماعات كما أنها تعيش واقعا اجتماعيا محددا،تمارس نشاطها فى منطقة جغرافية محددة تضيق أو تتسع حسب الظروف،وعندما يتجمع عدد من الجماعات فى منطقة جغرافية معينة لتمارس أنواعا متشابهة من النشاط الاجتماعى والاقتصادى والسياسى،وتتميز اختلافا عن جماعات أخرى تعيش على منطقة جغرافية مختلفة،تبرز عندنا فكرة تنميط المجتمع الى أنماط رئيسية تقوم على ما لدينا من معرفة بالاختلافات بين هذه

الانماط كل عن الاخر ، فاذا ضيقنا دائرة التشابه ، وأبرزنا دائرة الاختلاف يمكن أن تنحصر هذه الانماط فى نمطين كبيرين يوجدان تقريبا فى كل مجتمـع انسانى ، ويكاد علمـاء الاجتماع أن يجمعـوا على أن هذين النمطين هما : الريف والحضر • وطالما أنهما ينتميان الى منطقة جغرافية واحدة ويخضعان لسلطة واحدة أيضا ويضمهما مجتمع واحـد وثقافة واحدة ، فقد اصطلح علماء الاجتماع على اطلاق اسم المجتمع المحلى على كل منهما ، وهكذا نتبين أن الباحثين فى المجتمع الانسانى يلتقون حول نقطة هامة ، وهى ضرورة وجود أساس اقليمى أو جغرافى للمجتمع المحلى ، وقـد يختلفون فى الخصائص التى تنسب الى هـذا المجتمع المحلى ، ولكنهم فى نهاية الامر يسلمون بأن المجتمعات المحلية حقيقة واقعية أدق تصورا وأكثر تحديدا من المجتمع ذاته •

ومن أجل هذا وجدنا من المناسب أن نعرض فى بداية هذا الموضوع لمجموعة من التعريفات التى تناولت المجتمع المحـلى وخصائصه لنتبين موقف علم الاجتماع اليوم من هذا الموضوع الذى يحمل طابع الاهمية فى دراساته المتعددة •

١ ــ يقول أجبرن ونيمكوف[1] Ogburn & Nimkoff ان هناك أنواعا كثيرة من المجتمعات المحلية يمكن أن نختار من بينها للعرض والدراسة • فهناك مثلا المجتمعات المحلية الريفية والمدن المزدحمة ، وهناك القرى والمدن الصغيرة • ولا تختلف هذه المجتمعات فى الحجم فقط بل أنها تختلف أيضـا فى خصائصها العـامة • ذلك أننا نلاحظ أن بعض هذه المجتمعات المحلية ذات طابع صناعى تقوم حول المصانع • كما أن بعضها يحمل الطابع الزراعى ويقع وسط الارض الخصبة التى تروى بانتظام • ويقولان اننا لن نستطيع أن نتعرض بطريقة واضحة لتغـير المجتمعات المحلية أو لانواعها المتعددة ما لم نعرف مقدما «ما المجتمع المحلى ؟» ولهذا يعرفان المجتمع المحلى بأنه جماعة أو مجموعة من الجماعات التى

---

(1) Ogburn & Nimkoff : A Handbook of Sociology, London, 1960, p. 965.

تعيش على اقليم معين ، ويعتبران أن رابط الاقامة فى منطقة محددة أحد الخصائص التى تميز المجتمع المحلى عن غيره من المجتمعات، ولكن الاقامة فى منطقة واحدة وارتباط الناس برابط الاقامة الواحد لا يجعل منهم فى الواقع مجتمعا محليا ، فقد يعيش الناس فى منطقة واحدة وعن قرب أيضا دون أن تنشأ بينهم صـلات اجتماعية يمكن أن ترقى الى مرتبة العـلاقة الاجتماعية المنظمـة التى تشمل كل نواحى النشـاط الانسانى ، ولهذا يضيف أجبرن ونيمكوف الى شرط الاقامة شرطا آخر، وهـو التنظيم الكلى للحياة الاجتمـاعية فى المنطقة التى يوجد عليها المجتمع المحلى ، وعلى هذا الاساس تكون جمعية البحوث الاجتماعية جماعة وتكون قرية القيطون مجتمعا محليا .

ويرجع أصل كلمة «المجتمع المحـلى» الى الوقت الذى كانت فيه المناطق المسكونة صغيرة ، تتكون من عدد قليل جدا من الاسر ، ولذلك كانت جماعة الاسر التى تعيش فى مكان معين هى التى تكون المجتمع المحلى هناك . وقد ظل هذا اللفظ يطبق على مثل هذه الاماكن عندما تزداد اتساعا أو تزداد حجما من الناحية السكانية مثل المدن الصغرى والمدن الكبرى التى تحتوى كل منها على جماعات مختلفة قد لا تربطها روابط القرابة أو الدم . ويلاحظ أن اصطلاح المجتمع المحلى قد يطبق على مناطق متسعة جدا ، فيقال مثلا المجتمع الدولى أو المجتمع العالمى.

٢ — ويرى أرنولد جرين Arnold Green أن المجتمع المحلى تجمع من الناس يعيشون فى منطقة صغيرة دائمة ، ويتقاسمون طريقة مشتركة فى الحياة ، ولذلك فان المجتمع المحلى يعتبر جماعة اقليمية محلية . وفى المجتمعات البدائية يكون المجتمع المحلى والمجتمع شيئا واحدا ، أما فى المجتمعات المتحضرة فان المجتمع يتكون من مجتمعـات محلية منفصلة تتقاسم كل منها بطريقة أو بغيرها حياة اجتماعية مشتركة ، وفى نفس الوقت تكون هذه المجتمعات المحلية شبه مستقلة يمكن أن تتميز الواحدة الاخرى فى الزى أو الخلق أو العادات أو القواعد الاجتماعية .

ويختلف جـرين قليلا عن أجبرن ونيمكوف ، لانه يعتقـد أنه فى

المجتمع الحديث لا تكون الجماعات الاقليمية المحلية سرة التنظيم الاجتماعى الكلى لان التنظيم السياسى فى المجتمع الكبير لا يفرق بين القرية وبين المدينة ، ومعنى ذلك أن التنظيم الاجتماعى الكلى فى المجتمع الحديث ينفذ الى كل اجزائه المحلية ويفرض نوعا من التشابه فى هذا المجال ويدلل جرين على رأيه هذا بقوله أن جزءا من مدينة كبيرة «كمنطقة البلد أو الرمل فى الاسكندرية» لا تكون مجتمعا محليا ، على الرغم من أنها تجمع من ناس يشغلون منطقة جغرافية محددة ، كما أن ظروف المدينة الحديثة تجعل الناس يسكنون فى مكان ويعملون فى مكان آخر ويتبضعون فى مكان ثالث . ولهذا تكون الحركة الاجتماعية فى المدينة الكبيرة من شأنها أن تقلل من انطباق اصطلاح المجتمع المحلى على مثل هذا النوع من التجمعات الانسانية .

وواضح أن جرين يحاول أن يبين أن اصطلاح المجتمع المحلى لا ينطبق الا على المجتمعات المعزولة نسبيا ذات الطابع الاجتماعى والثقافى المحدد ، أما تطبيقه على المدينة ، والمدينة الكبرى بالذات فانه يحمل بين طياته عدم ادراك الخصائص الحضرية والتنقل الاجتماعى وحركة السكان الدائمة بين أقسام المدينة الواحدة . ولكن جرين ينسى أن من يطبقون اصطلاح المجتمع المحلى على المدينة أيا كان حجمها لا يقسمونها الى مجتمعات محلية فرعية ، وانما ينظرون اليها ككل . ومن غير شك أن خضوع المدينة لادارة واحدة ولتنظيم اقتصادى وسياسى واحد أيضا واشتراك سكانها فى عدد كبير من الصفات المشتركة ، يجعل سكان المدينة يعيشون حياة اجتماعية كلية ويخضعون لتنظيم اجتماعى متكامل يواجه كل أنواع نشاطهم .

٣ — من الدراسات المبكرة فى علم الاجتماع عن المجتمع المحلى تلك الدراسة التى كتبها روبرت ماكيفر Robert Maciver عام ١٩١٧ . وقد لخص هذه الدراسة مع تعديلات متعددة فى كتابه عن « المجتمع » الذى كتبه بالاشتراك مع تشارلس بيج Charles Page ، وفيه يعرفان المجتمع المحلى بقولهما : اننا نطلق كلمة المجتمع المحلى على أعضاء أى جماعة صغيرة أو كبيرة يعيشون معا بطريقة يترتب عليها أن يشاركوا

فى الظروف الاساسية للحياة المشتركة ، ولا يشتركون بالذات فى مصلحة دون غيرها . وعلامة المجتمع المحلى أن الفرد يستطيع أن يقضى حياته كلها داخله . فالفرد لا يستطيع أن يقضى حياته فى أحد المنظمات أو المؤسسات ، ولكنه يستطيع أن يعيش هذه الحياة داخل قبيلة أو قرية أو مدينة . واذن فالمقياس الأساسى فى المجتمع المحلى هو أن نجد كل علاقات الفرد الاجتماعية موجودة فيه . ويرى ملكيفر أن المجتمع المحلى يقوم على أساسين هامين هما ، الاقليم الذى يشغله والشعور المشترك الذى يربط أعضاء هـذا المجتمع المحلى معا ، ويعطيهم طـابعا خاصا ويؤدى فى نفس الوقت الى تماسكهم الاجتماعى .

٤ ــ ويتناول هنط Hunt [3] المجتمع المحلى بقوله ، انه يتكون من النـــاس الذين يعيشون فى منطقة محـلية ، والذين تكون لهم نتيجة للمعيشة المشتركة مصالح معينة ومشاكل مشتركة . ونظرا لقرب أعضاء المجتمع المحلى أحدهم من الاخر ، فانهم يتعاونون وينتظمون ويتعين عليهم نتيجة لذلك أن يبحثوا عن طرق توفير الخدمات والسلع من جميع الانواع واقامة كل التنظيمات الاخرى التى يتميز بها المجتمع ككل ، ويقول هنط أيضا أن المجتمعات المحلية تختلف فيما بينها من حيث الطابع والحجم ، فالمجتمعات الريفية أو القروية المحلية يبدو عليها الوحـدة والتجانس أكثر من المجتمعات الحضرية الكبيرة التى تتميز بالعلاقات غير المباشرة بين أعضائها . ويجب أن نميز هنا ، طالما أننا جعلنا القرب المكانى شرطا فى وجود المجتمع المحلى ، بينه وبين الجوار ، ذلك لان الجوار أصغر وأقل تنظيما من الناحية الرسمية .

٥ ــ أما لندبرج[٣] Lundberg فيقول ان تأثير الجغرافيا على حياة الانســان مشروط دائما ومعقـد فى نفس الوقت عن طـريق العوامل الثقافية . ولهذا فان المجتمع المحلى الانسانى ليس مجرد تجمع من بنى الانسان يعيشون معـا تحت ظروف فرضها المناخ ومصـادر الثروة

(2) Maciver & Page; Society; London, 1953, pp. 8-11.
(3) Hunt, Social Science, N. Y., 1955, pp. 198-200.

الطبيعية ، وكل النواحى الفيزيائية للاقليم المحلى • فالمجتمع المحلى له تقاليد وعادات وعرف ينظم العلاقات بين الانسان وبين الطبيعة ، كما تنظمها فى نفس الوقت بين الانسان والانسان • اذن ، المجتمع المحلى ظاهرة ثقافية تحل بمكان معين أو هو بصورة أكثر تحديدا ، السكان الذين يعيشون داخل منطقة جغرافية محددة ويعيشون حياة مستقلة مشتركة ، وليس معنى معيشة الانسان فى منطقة جغرافية أنه يصبح خاضعا لها ، بل أن الانسان فى واقع الامر قد استطاع خلال تاريخه الطويل وعن طريق التكنولوجيا التى يطورها باستمرار ، أن يروض الطبيعة وأن يخضع البيئة الجغرافية لمشيئته • ولذلك فان العلاقة بين الانسان وبيئه الطبيعية ليست علاقة سلبية من جانب الانسان ; وايجابية من جانب البيئة ، بل ان العكس هو الصحيح ، ويزداد الامر وضوحا كلما تقدم علم الانسان وزادت خبراته وتجاربه •

من هذا نرى أن كل التعريفات السابقة تجمع على أمرين يعدان من الخصائص الرئيسية للمجتمع المحلى ، وهما المعيشة الاجتماعية الكلية والاقليم المحدد الدائم ، وليس معنى هذا أن حركة الانسان فى المجتمع مقيدة بالمجتمع المحلى ، فالتنقل الاجتماعى والهجرة الداخلية ، وخاصة فى المجتمعات التى تتميز بالتسلسل الطبقى المفتوح ، تجعل الحدود الفاصلة بين المجتمعات المحلية داخلها مرنة الى حد كبير • ومن الحقائق المعروفة أن الناس يغيرون مناطق اقامتهم ويغيرون مهنهم ، فيغيرون بذلك فى مدى حياتهم ، المجتمعات المحلية التى ينتمون اليها ، ومن أجل هذا كان المجتمع المحلى القروى والمجتمع المحلى الحضرى من أكثر المجتمعات المحلية وضوحا فى وقتنا الحاضر •

اهمية البيئة الجغرافية فى المجتمع المحلى :

يهتم عالم الاجتماع بالمجتمعات المحلية من وجهات نظر متعددة يمكن أن نلخصها فى جملة واحدة ، وهى التنظيمات الاجتماعية التى تجعل الحياة الكلية ممكنة فى كل نوع من أنواعها • ولذلك يعالج الباحث كل الموضوعات التى ترد دائما فى مؤلفات علم الاجتماع عند محاولته التعرف على المجتمع المحلى كالثقافة والشخصية والضبط الاجتماعى

والاسرة والنظام الاقتصادى والتغير الاجتماعى • ولما كانت المجتمعات المحلية كما وضح من العرض السابق مشروطة من حيث التعرف عليها بوجود اقليم محدد تعيش عليه ، فان التعرف على ما فى هذا الاقليم من ثروات طبيعية أمر شـديد الاهمية لفهم المجتمع المحـلى ، فنحن لغرض استكمال الدراسة نبحث عن مكونات البيئة الطبيعية من تربة ونبات ، وحيوان ومعادن ، ومصادر المياه الى جانب المناخ الذى يعطينا درجات الحرارة المختلفة التى يتعرض لها المجتمع المحلى فى أوقـات السنة • ويسمى هذا الاهتمام بالبيئة الطبيعية والمناخ فى علم الاجتماع «المدخل الايكولوجى» لدراسة المجتمع الانسانى ، والايكولوجيا كما هو معلوم فـرع من البيولوجيا • تعنى فى المحـل الاول بمعـرفة موطن الحيوانات والنباتات • وقد استفاد منها عـدد من الباحثين فى علوم مختلفة لمعرفة الطرق التى تسير عليها بعض هذه الكائنات فى بناء مأواها وفى تنظيمها الاجتماعى • وعندما طبق هذا الاتجاه على الانسان سمى «الايكولوجيا الانسانية» ، على الرغـم من أننا نعلم أن تاثير البيئة الطبيعية محدود جدا ، ولا يمكن أن نعول عليه فى تفسير مقنع لنشاط الانسان فى المجتمع • ومع ذلك فاننا نحتاج فى بعض الاحيان لمعرفة أثر البيئة الطبيعية فى تحديد العمران الانسانى ، أو فى تحديد مصادر غذائه ، أو فى طابع العمل •

المجتمع المحلى الحضرى والقروى :

الحياة فى العصر الحديث تتركز الان تدريجيا فى المدن ، ويظهر هذا التركز فى الدول الكبرى • وتدل الاحصاءات على تزايد عدد السكان الذين يقيمون فى المناطق الحضرية ، كما أن الظاهرة الواضحة الان أن المناطق التى لاتزال تعتبر (ريفا) أخذت تتأثر بخصائص المدينـة ، وروبرت ريدفيلد فى هذه الناحية على حق عندما قال بأن « القروية » ظاهرة فى سبيلها الى الزوال ، ودعا الى أن الحاجة ماسة الى دراسة المناطق الريفية فى بعض الدول قبل أن تنطمس معالم الحياة المميزة لها . بزيادة الخصائص الحضرية • وقد ساعد على ذلك فى هذه الدول الاخذ بنظام الزراعة الالية ، مما أدى الى تناقص الايدى العاملة فى الزراعة

باستمرار وهجرتها الى المدن والمناطق الصناعية • وهذا الى جانب أن المدن فى عصرنا الحالى أخذت تتمتع بخاصية جذب قوية لم تكن لها من قبل ، الامر الذى يزيد من اتساع نطاق العمران الحضرى وتناقص العمران الريفى •

والدول النامية الان والتى لا تزال تحمل فى أساسها الطابع الريفى الريفى أخذت فى السنوات الاخيرة تخطو نحو «الحضرية» بسرعة وتزداد مدنها زيادة مذهلة فى بعض الاحيان نتيجة لتركز الحركة الاقتصادية فى مناطقها الحضرية وأخذها بسياسة التصنيع • وقد دلت نتائج التعداد الاولية الذى أجرى فى الجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٦٠ ، على أن ما يقرب من عشرة ملايين نسمة يعيشون فى مدن وهذا معناه زيادة عدد السكان النسبية التى تقيم فى المدن بالمقارنة بتعداد عام ١٩٤٧ ، وينتظر أن تزداد هذه النسبة زيادة مطردة فى السنين القادمة • من أجل هذا تصبح دراسة الحياة الحضرية حاجة ملحة لمواجهة المشاكل التى يمكن أن تترتب على اتساع المدن من حيث الاسكان والمواصلات والخدمات العامة والصحة والوقاية من الجريمة والانحراف وغير ذلك من المشاكل التى تحمل طابع المدينة •

والحضرية كطريقة فى الحياة ليست مقصورة على المدن ، على الرغم من أنها تنبثق من المراكز المتروبوليتية الكبرى • ولما كانت الحضرية كما سنعرضها هنا هى طريقة فى السلوك ، فمعنى هذا أن الفرد يمكن أن يكون حضريا خالصا فى تفكيره وسلوكه ، وعلى الرغم من أنه قد يكون مقيما فى قرية ، ومن ناحية أخرى قد يعيش انسان بعيدا كل البعد عن التحضر فى أكثر أجزاء المدينة تحضرا •

* خصائص الحضرية :

حددت الحضرية داخل اطار المدينة ، كما أنها قد تحدد بطريقة أكثر دقة فى بعض أجزاء المدينة دون غيرها • والانسان الحضرى لا يقلقه كثرة الناس الذين يتصل بهم ولا ذهابهم عنه ، على الرغم من أنه يعمل باستمرار على اكتساب معارف جدد ، ومعنى هذا أن الفرد الذى يعيش فى مدينة لا يستطيع أن يعرف كل الناس ، ولا تتيسر له الفرص

للاتصال بهم ، ومن أجل هذا يصف علماء الاجتماع الحضرى جماعات المدينة بصفة عامة ؛ أنها جماعات غير مباشرة ؛ بمعنى أن العلاقات التى تقوم بين سكان المجتمع الحضرى ليست من النوع المباشر الذى يظهر فى الجماعات الاولية مثل العائلة ، ومن الملاحظات القيمة التى لوحظت عند دراسة عينات مختلفة فى مدن كثيرة فى أنحاء العالم ، أن العلاقات التى تتصف بالقرب بين الاشخاص اذا دخلوا فى معاملات من أى نوع، تكون ذات طابع سطحى فى أغلب الاحوال ، كما أن الانسان الحضرى لا يزعجه أن يسير بين الناس فى الشارع أو أن يجلس معهم فى أى مكان عام دون أن يعرفهم ، لانه فى الواقع لا يهتم بهم .

وقد حاول كثير من الكتاب أن يناقشوا عبارة «لويس ورث»[4] والتى تصف سكان المدينة من خلال خصائصها المميزة «العلاقات العابرة والسطحية والفردية المجهولة» ومثال ذلك ما حاولته « مونا صدقى» التى كانت عميدة للمعهد العالى للخدمة الاجتماعية بالاسكندرية فى مقال لها نشر عن الجماعات فى مدينة الاسكندرية فى «مجلة البحث الاجتماعى مجلد ٢٢ رقم ٤ سنة ١٩٥٥» لتحديد طابع الحضرية فى المدينة : فادعت أن سكان الاسكندرية لازالوا يعيشون حياتهم العائلية فى أسرة كبيرة كما هو الحال فى الريف ، وأنهم لازالوا يسيرون على التقاليد القديمة . ثم زعمت أنها من خلال بحثها فى مدينة الاسكندرية لم تعثر على دليل يؤكد ظهور الفردية التى تميز سكان المدن فى أغلب بلاد العالم . وقد حاول «نلز أندرسون» أن يؤيد رأى «مونا صدقى» فزعم أيضا أن الاسكندرية أكثر عزلة من القاهرة ، ولهذا فهى أقل منها حضرية ، ودلل على ذلك بأن الاسكندرية ينقصها لتبلغ مرتبة الحضرية الكاملة ، أن تشتد فيها حركة الدخول والخروج منها . وغنى عن البيان أن مزاعم «مونا صدقى» التى وردت فى مقالها تنم عن تسرع فى الحكم وعدم دقة فى البحث ، ولست أدرى كيف درست الجماعات فى الاسكندرية ومن أين اختارت عيناتها ، لانها لو كانت قد تحرت الدقة

---

(٤) راجع كتاب Anderson. Urban Community

العلمية لوجدت أن الاسكندرية تنقسم الى قسمين كبيرين من حيث البناء الاجتماعى والطابع العام للحياة ، أحدهما لا يمكن أن يلتبس الامر فيه على الباحث ، فيدعى أن الاسرة التى يعيشها الناس هناك كبيرة تماثل الاسرة الريفية ، بل ان القسم الاخر الاقل حضرية فى الاسكندرية لا يمكن أيضا أن تنطبق عليه المزاعم • و «تلز أندرسون» عندما سلير «مونا صدقى» مؤيدا مزاعمها ومرتبا نتائج مقارنة عليها بالنسبة لبغداد وطهران قد جانبه الصواب أيضا •

ولكن الحضرية ليست مجرد طريقة فى التفكير أو السلوك،فالانسان الحضرى أينما كان ، يتوافق باستمرار مع الجديد والتغير ، ولهذا فهو لا يتصف بالتنقل الاجتماعى فحسب ، بل أنه أيضا لا يقف موقفا جامدا ازاء التقاليد التى تسد طريق حريته فى الحركة فى نطاق المجتمع الحضرى • ومن ناحية أخرى قد يظل على ولاء لعائلته المباشرة،ولكنه يميل فى نفس الوقت الى أن يفقد علاقاته أو صلاته بأقاربه الاخرين • ويضيف بعض الباحثين فى المجتمع الحضرى خاصية أخرى للحضرية : وهى أنها تبعث بتأثيرات موحدة لمختلف المناطق التى تحيط بها ، بحيث يمكن لمن تؤثر فيه أن يعلم بطريقة أو بغيرها الصفات التى يجب أن تتوافر فيه ليصبح انسانا حضريا •

ولنفهم الحضرية كطريقة فى الحياة فى العصر الذى نعيشه والذى يتميز بالتغير السريع سواء من حيث الحركة السكانية أو من حيث التغير فى النظم الاجتماعية والاقتصادية أو التغير فى القيم والعادات والتقاليد والنظرة الى الحياة ، يجب أن نشير فى ايجاز الى النقاط الاتية :

١ — ان الحضرية مسألة درجية ، ومعنى ذلك اننا نتوقع من دراستنا للمدن فى جميع أنحاء العالم أو فى المجتمع الواحد ، أن تكون خصائص الحضرية واضحة فى كل منها وضوحا تاما • فكقاعدة يمكن القول أنه كلما زادت المدينة سكانا وكلما اتسعت الخدمات فيها بحيث تصبح مركز جذب لمناطق واسعة حولها ، كلما زادت الحضرية فيها وضوحا، والعكس كلما كانت المدينة معتمدة على غيرها من المدن الاكبر•

ومثال ذلك أننا نستطيع أن نرتب مدن جمهورية مصر العربية من حيث وضوح الخصائص الحضرية تنازليا كالاتى : القاهرة — الاسكندرية — بور سعيد — السويس — الاسماعيلية — طنطا — المنصورة — الزقازيق — أسيوط ثم عواصم المحافظات الاخرى فالبنادر «عواصم المراكز» •

٢ — التأثر بالحياة الحضرية عند المقيمين الجدد فى المدينة لايبلغ مداه الا بعد المرور على مراحل متعددة ، والدخول فى علاقات مختلفة مع سكان المدينة وأجهزتها المتعددة • ويمكن القول أن الجيل الذى يهاجر الى المدينة بنفسه قد يظل محتفظا بالرواسب الريفية الى حد ما، وتقل هذه الرواسب فى الاجيال الاخرى حتى تختفى فى الجيل الثالث وما بعده •

٣ — الحضرية مسألة عدد بمعنى أننا لا نطلق على مكان يكثر فيه السكان اسم حضر ، ومكان آخر يقل فيه السكان اسم ريف ، لان الامر فى كلتا الحالتين يتوقف على نوع العلاقات التى تقوم بين الناس ونوع العمل الذى يقومون به ، والتخصص وتقسيم العمل ومدى اتساع نطاقه ، ومن أجل هذا قد نجد مكانا يزيد سكانه على عشرين ألف نسمة ونصنفه علميا على أنه قرية ، ومكانا آخر يقل سكانه على عشرة آلاف نسمة ونصنفه على أنه مدينة • ولهذا لا يمكن فى هذا الصدد أن نأخذ بالتعاريف الامريكية للحضر والريف ، لانها تستمد غالبا من طبيعة الاوضاع فى المجتمع الامريكى •

٤ — يلاحظ فى أغلب دول العالم الان : أن توجيه السياسة الاجتماعية وتوجيه التنمية الاقتصادية والاجتماعية أيضا يميل الى النهوض بالمجتمعات المحلية الريفية الى المستوى الحضرى ، وذلك بادخال بعض معدات الحياة فى المدينة الى المناطق الريفية • كرصف الطرق ومد القرى بالمياه الجارية وبالنور الكهربائى واعادة تخطيط المساكن وادخال الراديو والتليفزيون • كما أن السكان أنفسهم يميلون الى تقليد سكان المدينة فى ملابسهم وفى طريقتهم فى الحياة وفى نظرتهم اليها •

٥ — الحضرية مختلفة عن التصنيع ، اذ لا يلزم أن تكون المناطق الحضرية متأثرة بطريقة مباشرة بالصناعة ، وربما كان الفصل بين الحضرية والتصنيع يصدق على المدن القديمة أكثر مما يصدق على المدن الحديثة ، لان انتشار الصناعة الان فى أغلب المجتمعات يميل الى خلق مراكز صناعية مستقلة تصبح مدنا بعد حين ، أو الى توطين الصناعة فى مدن بعينها ، ولهذا تختلط الحياة الحضرية الخالصة بالحياة الاجتماعية المتأثرة بالتصنيع ويصعب التمييز بينهما . ولهذا فان المحاولات التى تبذل حتى الان للتمييز بينهما غير مرضية تماما من الناحية العلمية .

٦ — المعيشة فى الحضر والمسئولية : فى المجتمع الريفى تكون مسئولية الفرد مسئولية جمعية فى أغلب الاحيان سواء فى الميادين الاجتماعية أو الاقتصادية ؛ وهذا راجع الى طبيعة البناء الاجتماعى القروى . أما فى المدينة فان المسئولية الفردية تصبح أكثر وضوحا ، لان الفرد يتحمل مباشرة نتيجة أخطائه ، ويجنى وحده ثمرات نجاحه، فالمدينة لا تحمى الكسول المتراخى وتشجع دائما العمل الخلاق وتتيح الفرصة أمام العاملين أن يتنقلوا تنقلا اجتماعيا بين طبقاتها المختلفة.

٧ — المدينة تخصص العمل والمكان : ومعنى ذلك أن المدينة تحدد الاعمال التى يمكن أن يقوم بها الافراد على اختلاف استعداداتهم تحديدا دقيقا الى حد ما ؛ بحيث أن الفرد قد يعرف فى بعض الاحيان عن طريق العمل الذى يمارسه . ولهذا يكون التقسيم المهنى فى المدينة أمرا شديد الصلة بالتقسيم الطبقى ، الذى يقوم على أساس من المركزين الاجتماعى والاقتصادى والشعور الطبقى ، ومن ناحية أخرى قد نجد بعض المدن متخصصة بأجمعها الى حد ما فى نوع واحد من الاعمال وما يتصل به من عمليات مساعدة . أما من حيث المكان ، فان من يدرس أيكولوجية المدينة يلاحظ بسهولة انقسامها الى مناطق متميزة من حيث سيادة مهن معينة أو خدمات فى مناطق بعينها ، وهذا ينطبق أيضا على المناطق السكنية .

٨ — الحضرية تشجع الفردية : يتفق الباحثون فى نقطة هامة ،

وهى أن الفرد يتمتع بحرية أكبر فى الحياة الحضرية أكثر من الحياة الريفية : وهذا مرجعه أن مجال الاختيار فى ظل الحضرية أوسع منه فى ظل الريفية ، ومثال ذلك أن الفرد فى المدينة ينتمى فى نفس الوقت الى جماعات قد تكون مختلفة الاهداف بينما لا يتيسر له ذلك فى المجتمع الريفى ، كما أنه يستطيع أن يغير مكان اقامته من منطقة الى أخرى ، وبالتالى يغير مجال علاقاته ويحدل فيها كيف شاء ، بينما لا يجد الرجل الريفى مثل هذه الفرص ، ويظل طوال حياته يدور خلال الاطار الضيق الذى يتحدد مقدما بعائلته أولا وبمجتمع قريته ثانيا •

٩ ـ التكيف السريع للتغير شرط أساسى للمعيشة الحضرية الناجحة • ذلك أن عوامل التغير الاجتماعى تبدو شديدة الوضوح فى المجتمع الحضرى أكثر منها فى أى نوع آخر من المجتمعات ، كما أن آثارها تظهر بسرعة وتفرض على سكان المدينة أن يتوافقوا معها وعلى الاقل من الناحية النفسية ، ولذلك فان المترددين أو الجامدين سرعان ما يتخلفون وليس أمامهم الا أحد أمرين ، اما الانزواء أو المرض النفسى •

١٠ ـ دينامية الحياة الحضرية : من الواضح أن المجتمع الريفى يحافظ على قيمه وتقاليده ويقاوم بقدر الامكان كل تغير فيها ، ولهذا لا تظهر الطبقات فيه ظهورا واضحا كما هو الحال فى المدينة ، ولكن طبقات المدينة طبقات مفتوحة ، بمعنى أن الدخول والخروج منها غير محدد باجراءات أو متأثر بنتائج معينة ، ولهذا فان الحياة الحضرية تتميز بالتنقل الاجتماعى الواضح ، الامر الذى يجعل علاقات الناس فيه تتميز بالمرونة وبالقابلية للتغير والتكيف للمواقف المختلفة التى قد تكون نتيجة لتغير المراكز والادوار التى يقوم بها كل منهم •

من هذا نتبين أن دراسة الحياة الحضرية أو الحضرية كطريقة للحياة انما تعتمد فى المحل الاول على المقارنة بحياة أخرى وبطريقة أخرى، فى الحياة هى الحياة الريفية والطريقة الريفية فى الحياة • ومن أجل هذا فان علم الاجتماع الحضرى يكون شديد الصلة بعلم الاجتماع

الريفى من هذه الزاوية ويظهر هذا فى كل المؤلفات التى تعالج المجتمع الحضرى ٠

الدراسة العلمية للمجتمع الحضرى :

يعالج علم الاجتماع الحضرى وطأة حياة المدينة على الافعال الاجتماعية ، والعلاقات الاجتماعية والنظم الاجتماعية الى جانب أنماط المدنيات التى تمخضت عنه وبنيت على الصور الحضرية للحياة،ولسوف نرى فيما بعد أنه بدون هذه الوطأة كان من المحتمل أن يظل العالم فى المستوى البدائى ٠ ومن هذه الزاوية يكون علم الاجتماع الحضرى عبارة عن دراسة خاصة لتاثير البيئة على الانسان ، ويجب أن نوضح منذ البداية أنه فى معالجتنا لاثر البيئة لا نتحيز للحتمية الاجتماعية أو النزعة البيئوية التى تزعم أن الظواهر الاجتماعية نتاج لقوى ليس للانسان سيطرة عليها ٠ ومرد ذلك يرجع الى اعتقادنا بأن الاختلافات والتمايزات الكثيرة بين أنواع الحياة الحضرية فى الزمان والمكان دليل قاطع على أن أنماط المدن تعتمد على حتميات متعددة ٠ فالانسان لا يصنع نفسه فحسب بل انه أيضا يصنع المدن(٥) ٠

ومن ناحية أخرى ليس هناك دليل على أن الطبيعة الانسانية قد تغيرت ، كما أن القول بأن انسانا جديدا قد ظهر عندما أنشئت المدن قول يفتقر الى الدليل العلمى ٠ فالانسان زود بمجموعة معينة من السمات ولا توجد بيئة تستطيع أن تضيف الى الانسان خصائص أخرى ٠ أو تستطيع أن تمهد لاختفاء سمات موجودة فعلا ٠

ولكن السمات الانسانية على الرغم من أنها تبقى كما هى ، الا أنها تظهر قدرا كبيرا من التوافق والتكيف لمواقف مختلفة ٠ وهذا هو الذى يجعل السمات تبدو مختلفة حين يظهر جزء منها على السطح ٠ وكل ما تستطيع البيئة أن تفعله أن تنمى بعض السمات الموجودة فعلا الى الدرجة التى تظهر فيها كل امكانياتها ، بينما تبقى بعض السمات

---

(٥) راجع كتاب Bergel, Urban Sociology ٠

الاخرى فى حـالة كمون • والبيئة من ناحية أخـرى تحكم الافعـال الانسانية تحت ظروف معينة ، بطريقة تهييء فيها أسهل أنواع الاشباع الذى يكون مستحيلا أو شديد الصعوبة فى أحوال أخرى •

من هذا نتبين أن المدينة مثل أى بيئة أخرى تعتبر عاملا شارطا أكثر من كونها عاملا حتما ، فالمكان يبدو أثره الواضح فى مناطق كثيرة ليس من بينها الحيـاة الانسانية ، وقبل أن يهتم علمـاء الاجتماع بموضوع «الايكولوجيا» كان علماء النبات يهتمون بدراسة أثر البيئة الطبيعية على حياة النباتات ، وقد استعار علماء الاجتماع الاصطلاح من علماء النبات ، واستخدمه لاول مـرة «بارك» الذى كان أول من تحدث فى موضوع الايكولوجيا الانسانية•ويجب هنا أن نحذر من المقارنة المتطـابقة بين الايكولوجيا الانســانية وايكولوجيا النبات ، ذلك لان الاختلافات الاساسية بين الميدانين تغطى المتشابهات السطحية بينهما• فالانسان يعيش على التربة • أما النبات فانه يعيش فى التربة ، وهذا وحده يجعل من المقارنة أمرا مستحيلا ، لان الحركة والتنقل من أهم مظاهر الانسان الملحوظة • فالنبات ليس له اختيار بالنسبة للبيئة • أما الانسان فانه لايغير المكان الذى يعيش فيه وفق معيشته فحسب ، بل انه يستطيع أن يغير ويعدل من المكان الذى يعيش فيه فعلا •

ولذلك نقول ان البيئة الانسانية عمل من أعمال الانسان ، أو بمعنى آخر يكون مدخل الايكولوجيا النباتية للموضوع بيولوجيا ، أما مدخل الايكولوجيا الانسانية ، فهو بالضرورة سوسيولوجيا • وهناك اختلاف بين العلماء حول موضوع الايكولوجيا الانسانية ، «فهولى» مثلا يعتقد أن الايكولوجيا الانسانية كعلم ، تعالج موضوع نمو المجتمع المحلى وتنظيمه ، بينما يرى جيست وهالبرت ، أنها دراسة التوزيع المكانى للاشخـاص والنظم فى المـدينة والعمـليات المتضمنة فى تكون أنماط التوزيع • ويكفى هنا أن نشير الى أننا سنفهم الايكولوجيا على أنها نظرية العلاقات المتبادلة بين مكان الاقامة والانسان •

تعـريف المدينـة :

عندما نحاول تعريف المدينة فاننا نواجه صعوبة متعارف عليها بين

علماء الاجتماع ، وليست هذه الصعوبات خاصة باصطلاح المدينة وحده لان ، هناك عـددا قليلا جـدا من المصطلحات السوسيولوجية تحظى باتفاق خبراء التعاريف • ومن الملاحظ أن الكثيرين يدركون ماذا نعنى بكلمة المدينة ، ولكن أحدا لم يقدم تعريفا مرضيا •

والمدينة من الناحية السوسيولوجية الفنية البحتة عبارة عن «فكرة مجردة» ، ولكن العنـاصر التى تتكون منها ، مثل الاقـامة والبناءات الداخلية ، ووسائل المواصلات ••• الخ • عبارة عن موجودات مشخصة لها طبائع مختلفة • ولذلك فان ما يجعل المدينة شيئا محددا هـو ذلك التكامل الوظيفى لعناصرها المختلفة على هيئة وحدة كلية • ومع ذلك لا يكون للمدينة وظيفة واحدة ، بل ان البحث أثبت أن لها عدة وظائف، وليس معنى هذا أن كل وظائف المدينة توجد فى كل المدن بلا استثناء •

ولنوضح فكرة اختلاف الوظائف فى المدينة ، نقول ، أن الوظائف الاساسية تختلف باختلاف الزمان والمكان • ومثال ذلك أن وظائف مدينة سنة ٥٠٠ تختلف عن وظائفها نفسها سنة ١٩٦٠ على الرغم من احتفاظها بالمكان الذى تقوم عليه وبنفس البناءات الداخلية التى كانت تحتوى عليها • ولذلك يكون من الصعب أن نجد العامل الذى يميز جميع المدن ويجعل منها تجمعا انسانيا قائما بذاته خلال تاريخها الطويل الذى يمتد الى ستة آلاف عام • وربما كان من المناسب أن ننظر الى تعريف المدينة من الناحية السلبية ، على الرغم من أنه يمثل جانبا ضعيفا فى الدراسة، الا أنه يمكن أن يقدم بديلا ممتازا يمكن الاعتماد عليه ، ولتوضيح هذا الموقف سنحـاول أن نلخص فى اختصار بعض المحـاولات التى بذلت للوصول الى تعريف مرض فى هذا السبيل •

١ ـــ عرفت المدينة أحيانا فى ضوء اصطلاحات قانونية ، ذلك أن مكانا ما قد يطلق عليه اسم مدينة عن طريق اعلان أو وثيقة رسمية تصدر عن سلطة عليا • ومع أن هذا التعريف واضح جدا الا أنه غير مرض ، لان المكان لا يكون مدينة بمجرد الاعلان ، لان هذا لا ينطبق على كثير من المدن الموجودة فى كثير من بلاد العـالم التى نشأت وتطورت دون اعلان رسمى أو دون صدور وثيقة بذلك من الجهات المختصة •

وتعرف المدينة أحيانا بطرق احصائية ، وذلك مثل ما هو متبع فى الولايات المتحدة الامريكية ، حين يعتبرون كل مكان به ٢٥٠٠ نسمة فأكثر مدينة ، وربما كان هذا التحديد العددى ملائما للاغراض الاحصائية : الا أنه غير مفيد تماما من الناحية السوسيولوجية ، ومع ذلك فليس هناك اتفاق على هذا العدد فى كثير من بلاد العالم . فمصر مثلا تعتبر أن أقل عدد ينبغى أن يكون موجودا فى المكان الذى يعتبر مدينة هو ١١ ألف نسمة ، ويترتب على ذلك أن التعريفات التى تبنى على أساس النظر الى كثافة السكان ينبغى أن تكون مرفوضة ، لان كثيرا من القرى ربما يكون لها نفس كثافة المدن بل تزيد عنها فى كثير من الاحيان .

وقد حاول البعض أن يعرف المدينة على أنها المكان الذى أصبح من الكبر بحيث لم يعد الناس يعرفون بعضهم بعضا ، ولكننا لا نعتقد فى صحة هذا التعريف لان كثيرا من المدن الصغيرة يعرف سكانها بعضهم بعضا .

نخلص من ذلك الى أن التعريفات التى تحاول أن تضع مقياسا واحدا لتحديد المدينة أو لتعريفها لم تقابل بنجاح ، الامر الذى دعى كل من «سوروكين وزمرمان ومونيه وسمبارت» الى القول بأن التعريف الصحيح للمدينة لابد أن يأخذ فى الاعتبار تعدد العوامل وارتباطها . وليس معنى هذا أن اتجاههم فى التعريف مقبول دون مناقشة . ومثال ذلك أن مونيه يعرف المدينة بأنها مجتمع كامل أساسه الجغرافى محدد بحجم سكانه ، أو أن المكان الذى تشغله ضيق نسبيا اذا قورن بعدد السكان الذين يشغلونه . ويعود مونيه بهذا التعريف الى التعريف الذى سبق رفضه ، والذى يجعل من كثافة السكان عنصرا أساسيا فى تمييز المدينة عن غيرها من التجمعات الانسانية . وأساس الخطأ فى هذا التعريف أنه يعجز عن ابراز درجة الكثافة ، التى عندها يتحول المكان من محل للاقامة الريفية الى محل للاقامة الحضرية ، ويعتبر سوروكين وزمرمان من أكثر من حاولوا تعريف المدينة وضوحا ، لانهم جمعوا ثمانية خصائص يختلف بها العالم الحضرى عن العالم الريفى وهى :

١ ـ المهنة ٢ ـ البيئة ٣ ـ حجم المجتمع المحلى ٤ ـ كثافة السكان ٥ ـ تجانس أو لا تجانس السكان ٦ ـ التمايز والتشريح الاجتماعيان ٧ ـ التنقل والحركة ٨ ـ نسق التفاعل « عدد وأنماط الاتصالات »٠

وربما كان التمايز والتشريح الاجتماعيان أبرز ما يميز الطابع الحضرى ، نظرا لما تتصف به المدينة من اختلافات شديدة من حيث المهن والمراكز الاجتماعية والاقتصادية ، الامر الذى يجعلنا نقول أن المدينة هى أى مكان يعمل أغلب سكانه فى مهن غير الزراعة وما يتصل بها من شئون ٠

وعندما ينظر كثير من العلماء الان الى الحضرية على أنها طريقة فى الحياة ، تواجههم صعوبة تحديد ما يكون هذا النوع من المعيشة ، وفى هذا الصدد يحدد «ورث» عددا من الخصائص التى تميز المدينة مثل «اللاتجانس واعتماد السكان الكبير بعضهم على الاخر ، والطابع الجزئى للعلاقات الاجتماعية ، والاتجاه الى استخدام العقل والتبرير المنطقى عند السكان» ولعل اعتماد السكان فى المدينة بعضهم على الاخر هو أهم طابع يميز المدينة الحديثة الى جانب عدم احساس السكان الشديد باعتمادهم على الطبيعة ، والذى جعل علماء الاجتماع الحضرى يلتفتون الى هذا الموضوع هو محاولتهم التفرقة بين طابع الحياة الريفية وطابع الحياة الحضرية باعتبارهما يمثلان نظريتين مختلفتين للحياة ٠ فالريفى يعيش فى بيئة طبيعية يخضع لتقلباتها المختلفة ويكون معها علاقات دائمة ، وتقوم حياته الاجتماعية على أساس الانتماء الى وحدات صغيرة تعطيه كثيرا من مقومات حياته ، كما أن الطبيعة من ناحية أخرى تخرج الريفيين اخراجا واحدا ، ولذلك فهم يتشابهون فى كثير من خصائصهم النفسية والاجتماعية ، ومن أجل هذا يكون التجانس والاعتماد على الطبيعة من أهم مميزاتهم ، ويكون طابع حياتهم هو الطابع القروى ٠ أما الحضرى فانه يعيش وسط بيئة صنعها الانسان ، وبالتالى يقل جدا احساسه بالطبيعة ، وفى مجال علاقاته الاجتماعية ينتمى الى أكثر من وحدة ، ولا يشعر بالإنتماء الشديد أو الولاء لاى منها ، ولذلك فسكان

الحضر غير متجانسين يعتمدون على الانسان أكثر من اعتمادهم على الطبيعة ، الامر الذى يجعلهم غير متشابهين وفى حاجة دائمة الى عمل بعضهم الاخر ، دون أن تكون هناك صلة مباشرة بينهم كأفراد • ولذلك فطابع الحياة عندهم يختلف من حيث الاساس عن الطابع الريفى •

المقارنة بين الحياتين الريفية والحضرية :

من المسائل الهامة فى علم الاجتماع عامة الاختلافات التى تظهر عن طريق الدراسة بين الحياة الاجتماعية فى القرية والمدينة • والواقع أن الاختلاف يرجع أساسا الى اختلاف البيئة الاجتماعية فى كل منهما • وقد أدى ذلك الى سهولة الفصل بين نموذجين كبيرين من التنظيم الاجتماعى • فالمدينة بيئة خلقها المجتمع خلقا ولاجل ذلك تغيرت معالم البيئة الطبيعية التى تقوم عليها ، وهنا يظهر أول اختلاف أساسى بين المدينة والقرية خصوصا اذا وضعنا أمام أعيننا الاتجاهات الاجتماعية والظروف التى تساعد على قيام حياة اجتماعية من نوع معين •

١ — وتتبع هذه الاختلافات يجعلنا نبحث فى مسألة من المسائل التى شغلت علماء الاجتماع زمنا طويلا ولازالت تشغلهم حتى اليوم • وهى أثر البيئة على الانسان أو بمعنى آخر مدى ما للبيئة من آثار على التنظيم الاجتماعى فى منطقة معينة ، وما من شك أن البيئة مهما تقدمت وسائل الانسان العلمية لاخضاعها ، لاتزال تؤثر فى حياة الناس بوجه بوجه عام وان لم تؤثر بطريقة مباشرة ، فانها تؤثر بطرق غير مباشرة حيث ينتقل التأثير عن طريق الانتشار من منطقة لاخرى •

ويمكن القول أنه عند المقارنة بين الحياة الحضرية والحياة الريفية، نجد أن دور البيئة فى التأثير على سكان القرى أكثر من تأثيرها على سكان المدينة ، ومع ذلك فالمسألة ليست نهائية بل مسألة درجة على كل حال ، لانه لو تتبعنا المدن فى مراحل نموها ، لوجدنا اختلافا فى مدى التأثر النسبى للبيئة فى كل مرحلة من هذه المراحل ، وكقاعدة يمكن القول أن تأثير البيئة فى مراحل نمو المدينة الاولى أكثر من تأثيرها فى المراحل المتأخرة •

وينبغى أن ننبه الى خطأ يقــع فيه الكثيرون عند المقارنة • فهم يقارنون بين أشياء ليس بينها عــوامل مشتركة ، ولهذا تكون المقارنة خاطئة من أساسها ، ولهذا يجب أن نسير فى حذر عند مقارنة المدينة بالقرية ، لان نتائج المقارنة لا تنطبق فى كل الاحوال على جميع المدن والقرى بغض النظــر عن الزمان والمكان • ذلك لان لكل حالة تاريخا ويجب أن نتثبت أولا وقبل كل شىء من العوامل التاريخية التى تسببت فى الاوضاع الراهنة حتى يمكن أن تسير المقارنة على ضوء الحقائق دون غيرها ، ومثال ذلك أن هناك مدنا تطورت عن قرى ، وهناك مدنا أخرى نشأت بطريقة ارادية لاغراض معينة• ولسوف نجد حين الدراسة اختلافا من حيث الخصائص بين كلا النوعين وذلك لوجــود الرواسب التاريخية التى ربما يكون لها بعض الاثر حتى الان •

٢ — ولهذا فان عملية مقارنة الحياة الحضرية بالحياة الريفية • تواجه صعوبات كثيرة • وعلى ذلك ينبغى أن نأخذ أقوال المنتمين الى المدرسة الاقليمية Regional School بحذر شديد • فالمدينة والقرية ظلتا لمدة قرون الشكلين الاساسيين اللذين يتركز فيهما نشاط الانسان • وليست هناك خطوط واضحة بين الاثنين بحيث يمكن أن نعين فى دقة أين تنتهى القرية وأين تبدأ المدينة • فقد كانت الحياة الحضرية والحياة الريفية مسألة جغرافية •

ولو جعلنا عدد السكان مقياسا للفصل بين المدينة والقرية لواجهتنا صعوبات عديدة نظرا لاختلاف التقدير فى الدول المختلفة من ناحية ، وللفوارق العظيمة التى قد نجدها بين المدن ذاتها ، خصوصا اذا كنــا نبحث مدينة تعدادها ١٠٫٠٠٠ نسمة ومدينة أخرى يصل تعدادها الى عدة ملايين نسمة • ولهذا فخير طريقة للمقارنة أن نعين حدا أعلى للقرية وحدا أعلى للمدينة من حيث عدد السكان على أن تتدرج درجة التحضر بين الحدين •

نمــــو المدينــة :

لقد كانت الهجرة من الريف عاملا من أهم العوامل فى نمو المدن •

وقد لوحظ ذلك فى كل المدنيات الكبرى عبر التاريخ • وفى الحقيقة أن كلمة التحضر تعنى التمدن ، ففى المدنيات الاولى كمدنية مصر والرومان واليونان كان ازدهار المدن علامة القوة ، وكان تدهورها يدل على الضعف والانحلال • والذى يعنينا الآن هو البحث عن الاسباب التى تؤدى الى نمو المدينة •

١ ــ تنمو المدن حين تستطيع جماعة من مجتمع ما أو المجتمع كله ــ وضع اليد على مصادر الثروة أكثر مما هو ضرورى لحفظ الحياة • ففى المدنيات القديمة كانت هــذه المصادر تكتسب عن طريق سيطرة الانسان على أخيه الانسان ، ولهذا فان نمو المدينة كان يقوم أساسا على الرق والعمل الاجبارى (السخــرة) وجباية الضرائب عن طريق الطبقة الحاكمة أو المنتصرة • ومع ذلك فانه فى الازمان الحديثة ظلت سيطرة الانسان عــاملا أساسيا من عوامل نمــو المدينة ولكنها الآن سيطرة من نوع آخر •• سيطرة الانسان على الطبيعة • وقد امتدت هذه السيطرة خصوصا فى المجتمعات الغربية خلال القرنين الماضيين حتى أصبحت المدن فيها تزداد حجما يوما بعد يوم ، الامر الذى أدى الى سيادة الخصائص الحضرية فى النهاية فى هذه المجتمعات •

وقد كان لاستخدام الآلات الحديثة فى الزراعة آثار بعيدة المدى على نمو المدينة ، فقد استطاع الانسان أن يستخدم أقل مجهود يدوى ممكن فى انتاج الحاصلات المختلفة ، مما أدى الى وجود أعداد ضخمة من العمال الزراعيين بلا عمل ، وهؤلاء تحولوا بالضرورة الى المدينة • وكان تحولهم من ناحية أخرى مسألة حيوية بالنسبة للصناعة المتزايدة التى اتخــذت المدن مراكز أساسية لها • ولهذا كلما استخدمت الآلات الحديثة فى الزراعة فى بلد ما كلما زادت نسبة التحضر وكلما زاد نمو المدن زيادة ملحوظة •

٢ ــ ولم تكن الثورة الزراعية وحدها هى العامل الاساسى فى نمو المدينة ، بل هى فى الحقيقة لاحقة للثورة الصناعية • فمنذ أن اكتشف البخار فى البلاد الغربية واستخدمت قوته فى الصناعة والمدن تزداد نموا يوما بعــد يوم • ولما أخذت حــركة التصنيع تنتشر فى أوربا صاحبها

بالضرورة نموا فى حجم المدن ، والتصنيع يتضمن زيادة ملحوظة فى النشاط التجارى بوجه عام وهذا بدوره يؤدى الى الاسراع فى النمو والتطور ، وثمة وسائل مكملة للثورتين الصناعية والزراعية تظهر آثارها فى نمو المدن بوجه عام ، وهى تقدم طرق المواصلات وازدياد الضغط على المدن الساحلية التى تستخدم كموانى أو كمراكز للمواصلات للداخل أو الخارج على حد سواء •

٣ ـ وقد أدى هذا التقدم الآنف الذكر فى هذه الميادين الى زيادة عامة فى عدد السكان والى ارتفاع مستويات المعيشة ، ولذلك أصبحت المدينة منطقة جذب اقتصادية ، الامر الذى ساعد بدوره على نمو المدينة•وقد اقتضت ضرورات الحياة فى المدينة زيادة فى الكماليات لم يقتصر استعمالها على سكان المدن بل انتشرت فى كل مكان • ولهذا يشتد الطلب على منتجات المدينة سواء من الضروريات أو الكماليات ، بعكس الحال بالنسبة للطلب على منتجات المجتمعات الريفية ، وهذا بدوره يؤدى الى الاقلال من شأن منتجات القرية فى صالح منتجات المدينة • وينعكس ذلك فى نهاية الامر وفى الامد البعيد على تطور المدينة• ولهذا يقال أن نسبة سكان الريف الى الحضر ليست مسألة اختيار•وانما هى فى واقع الامر مسألة تحتمها الظروف الاقتصادية • فالهجرة ـ اذا غفلنا الجوانب السياسية أو العنصرية ـ تتجه دائما حيث تكون الظروف الاقتصادية حسنة وحيث تكون الفرصة ملائمة للكسب ورفع مستوى المعيشة بوجه عام • ولهذا ينبغى ألا تكون المدينة والقرية من هذه الزاوية موضع مقارنة ، لان المسألة فى النهاية مسألة ظروف تمليها الضرورة الاقتصادية •

الفوارق الاساسية بين الحضر والريف :

الباحث فى الولايات المتحدة الامريكية قد يميل الى القول بأن خصائص الحياة الريفية فى سبيلها الى الزوال ، أو أنها لا تكون جزءا مهما فى المجتمع الامريكى ، وذلك لغلبة الخصائص الحضرية على السكان • ولكن هذا القول اذا انطبق على المجتمعات التى بلغت شأوا عظيما من التقدم خصوصا فى ميادين الصناعة فانه لا ينطبق على أجزاء

كبيرة من العالم خصوصا فى آسيا وافريقيا ، حيث لا تزال الزراعة هى المهنة الرئيسية للسكان الذين يشتغلون فى مجموعات تسكن القرى ، وتكون المجتمعات الريفية . ولهذا كان البحث عن خصائص هذه المجتمعات من الاهمية بمكان لا فى علم الاجتماع الريفى فحسب بل فى الاجتماع الحضرى بنفس الدرجة أيضا . ذلك لان المقارنة بين نوعى الحياة الحضرية والريفية يكشف عن مدى التغير والتطور ، ومدى بعد هذين النوعين من الحياة أحدهما عن الاخر ، وما يكمن وراء هذا الاختلاف من ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية وجغرافية تصلح أساسا مناسبا لاختيار أثر هذه العوامل فى النظم الاجتماعية بوجه عام.

١ — وأهم ظاهرة ندركها فور دراستنا لهذه الخصائص ، العزلة النسبية لحياة الريف وهى عزلة لا تتصل بالفرد وانما تنصب أساسا على الجماعة الى حد كبير وعلى الاخص عزلة العائلة . ولهذا فالعائلة فى القرية عليها أن تشبع الى درجة ما الحاجات الاقتصادية والاجتماعية لاعضائها وتكون داخل القرية وحدة مستقلة وتصبح روابطها أشد ما تكون كلما زادت درجة الاشباع ووصلت الى حد الاكتفاء الذاتى. ومفهوم العائلة الذى نستخدمه هنا أوسع مما هو مألوف فى علم الاجتماع ، ذلك لاننا نقصد بها العائلة الكبيرة التى تشكل داخل القرية وحدة مستقلة . هذه العائلة تنقسم الى أسر كبيرة تسمى الاسر الابوية ، أى التى يعيش فى داخلها عدة أجيال يخضعون لرياسة أكبر أفرادها سنا سواء كان ذكرا أم أنثى . وتتميز هذه الاسر بالعمل الجماعى والانتاج الجمعى . ومن أهم الخصائص التى تميز الفرد أنه قد يعيش حياته كلها ولا يتصل بأفراد القرية الا قليلا وفى المناسبات العامة . ويقوم كبار السن عنه بجميع المعاملات ويدخلون فى مختلف العلاقات مع الغير ، كذلك تكون للعادات والتقاليد سيطرة كبرى على تصرفات الافراد وسلوكهم العام والخاص على حد سواء .

وعلى هذا الاساس يكون الفرد أشبه بجزء متكامل من أداة كبيرة تؤدى عملها ككل . وقد أدى هذا الوضع بالاضافة الى أهمية روابط الدم والقرابة الى سيادة القانون العرفى وظهور المسئولية الجمعية .

فالجريمة مثلا لا يحاسب مرتكبها وانما تحاسب العائلة أو الجماعة التى ينتمى اليها الفرد • ولذلك قد ينصب القصاص أو الاخذ بالثأر على أى فرد دون مرتكب الخطأ نفسه الذى يظل مدى حياته بمنأى عن العقاب•

كذلك نجد أن العلاقات السائدة فى القرية هى من طبقة العلاقات المباشرة ، فالتعــاون أو الصراع يحــدث بين أطراف متفاعلة يعرفون بعضهم بعضا ، ولا تكون هناك حاجة الى واسطة بين الطرفين فى أى ناحية من نواحى التعامل • ولهذا يقال ان الخاصة التى تميز جمــاعة القرية أنها جماعة أولية •

٢ ــ وليس هناك فى المجتمع الريفى مجال للتخصص،فمهنة الزراعة مثلا هى السائدة ، وهى تشكل جميع نواحى النشاط فى القرية فعلى كل فرد فيها أن يتقن جميع العمليات الزراعية فى جميع مراحلها • وقيمة العمل الزراعى هى القيمة العليا ، بحيث أن أى مهنة أخرى ينظر اليها على أنها أقل درجة • وتؤثر هذه النظرة فى علاقات الجماعات المختلفة داخل القرية ، وقد تؤدى فى النهاية الى وجود طبقات على أساس نوع العمل • وعادة يرفض الفــلاح مثلا أن يزوج ابنته لرجل لا يشتغل بالزراعة ؛ لانه يعتبر مثل هذا الزواج زواجا غير متكافىء •

٣ ــ العمل الزراعى بطبيعته غير متخصص ، ولهذا فــان الفلاح عكس ساكن المدينة عليه أن يجيد أشياء كثيرة • عليه أن يعمل فى كل نواحى الانتاج الزراعى وعليه أيضا أن يجيد بعض الاشياء المكملة للعمل الزراعى كقطع الاخشاب أو اصلاح الجسور وأدوات الزراعة وما الى ذلك • ومع ذلك يقوم الفلاح بعمله فى هذه النواحى بصورة مضطردة تشبه الروتين ولايجد غرابة فى أى أمر من الامور التى تلقى على كاهله•

وقد ترتب على ذلك أن كان دوره فى الحياة الاجتماعية ثابتا،وكذلك الامر بالنسبة لافكاره وآماله • فطموحه يتصل بالزراعة وآلامه أيضا متصلة بها كذلك • وقد أدى عــدم التخصص الى وجــود نظام معين لتقسيم العمل ، فالرجال مثلا يقومون جميعــا بنفس العمل مهما كان عددهم فى الاسرة الواحدة وكذلك الامر بالنسبة للنساء •

واذا كان هناك نظام حقيقى لتقسيم العمل فانه يقوم على أساس الجنس والسن . فالاطفال من السابعة حتى العاشرة ومن العشرة حتى الخامسة عشر لهم أعمال يؤدونها وأدوار محددة فى العمل الزراعى يقومون بها . وكذلك النساء ، فبجانب الاعمال المنزلية : لهن دور معين فى العمل الزراعى أيضا ، ويظهر عمل المرأة فى الزراعة بوجه خاص حين يستقل الرجل المتزوج عن أسرته الابوية ويتخذ لنفسه مسكنا مستقلا ويختص بقطعة معينة من الارض يقوم على رعايتها . عند ذلك تقوم المرأة ببعض الاعمال التى يقوم بها الرجال عادة .

٤ — بساطة الحياة من المسائل الهامة التى يلحظها الباحث فى الريف ، وتظهر فى بعد الفلاح عن مظاهر التعقيد الموجودة فى المدينة . وهذا يرجع الى بساطة الاعمال التى يقوم بها ، والتى اتخذت شكل الروتين على مر السنين ، الى جانب بساطة الأهداف التى يسعى الى تحقيقها . فالفلاح ليس كساكن المدينة يشعر شعورا مؤرقا بالمنافسة ، لان المنافسة عنده تأخذ طابعا مختلفا جدا قد ينحصر فى ادخار مزيد من المال أو محاولة التفوق على الجار بزيادة فى المحصول ، أما رغبته فى الظهور أو التميز على أقــرانه من الناحية الاجتمــاعية فهذه أمور لا يعيرها اهتماما كبيرا ، ولا تكون جزءا من سيكولوجيته أو حــوافزه على العمل بطريقة أو بغيرها . ومن مظاهــر بساطة الحياة فى الريف أن الفلاح لا يعلق أهمية بالغة على الكماليات التى تصبح فى المدينة فى مرتبة الضروريات ، فطلبه للكماليات نادر جدا ، ويستطيع فى ظروف كثيرة أن يستغنى عنها . ولا تصبح هذه الكماليات من المســائل التى تشغل الفلاح الا اذا ازداد أثر المدينة زيادة كبيرة . ودفعته اليها عوامل التقليد والمفاخرة .

أما فى المدينة فان الباحث يجــد اختلافا بينا فى الظاهرة . فبدل العزلة يجد التجمع فى جماعات ومنظمات مختلفة تقوم مقام الجوار فى القرية أو روابط العــائلة الكبيرة ، وسيادة أنواع «الجماعات الثانوية Secondary Groups » واتصـــالات على مدى ونطــاق واسع مع الافراد ومع المواد الثقافية ، أكثر من الاتصال بالطبيعة ، وتمايز فى الطبقات

الاقتصادية ، وتخصص فى النشاط الاقتصادى ، وعمل محدد ومركز واضح فى نفس الوقت ، وذلك بالاضافة الى الفرص التى لا حد لها لجمع الثروة أو الصعود من طبقة الى طبقة أعلى .

اثر التخصص على البناء الاجتماعى :

اتضح الآن أمامنا الفرق بين التنظيم الاجتماعى الريفى من ناحية والحضرى من ناحية أخـرى . ونستخلص من ذلك أن أهم فارق هو الذى يتصل بطبيعة البناء الاجتماعى ، وعلى الاخص فيما يتصل بأنواع النشاط الذى يميز كل طائفة من سكان المدينة . وهذا يؤدى بدوره الى اثارة مسألة التخصص الذى يعتبر من أهم مميزات المدينة الحديثة .

١ — حجم السوق يعتبر عاملا من أهم العوامل الذى يترتب عليه وجود أنواع متعددة من النشاط الصناعى أو التجارى . ولهذا طالما كان حجم سوق القرية صغيرا ، فان القروى يعمل كل شىء ، فلا نجد فى القرية مظاهر التخصص المعروفة ، أما فى المدينة فنظرا لكبر حجـم السوق فيها ، فان فيها طوائف مختلفة من العاملين ، كالعمال غير المهرة، المتخصصين فى المهن والحرف المختلفة والفنيين والموظفين وأصحاب المهن الحرة ورجال الادارة والسياسيين والاقتصاديين والفنانين وغيرهم . وتبعا لوجـود هؤلاء وتنوع مشاربهم نجـد أيضا أنواعـا متشابكة متخصصة من الاعمال أيضـا ، والعمل فى المدينة يستوعب جميع الانواع، حتى أن العامل غير المتخصص يجـد له تخصصا . ولما كانت الاعمال التى تتطلب مهارة عالية فى المدينة قليلة نسبيا ، فان الطلب يزداد على العامل نصف الماهر . وتبعا لذلك فالعمال شبه الماهرين يزداد طلبهم باتساع نطاق الصناعة وتنوع أغراضها وازدياد العمليات المتصلة بها ، خصوصا ما تعلق منها بالادارة أو التخليص أو الاستيراد أو التصدير والنقل وغير ذلك .

هذا التمايز الاقتصادى يؤدى بدوره الى وجود جماعات اجتماعية مختلفة بنوعيها الرأسى الذى يتصل بأنواع المهن وأقسامها المختلفة ، والافقى الذى يتصل بالمركز الاجتماعى والوضع الطبقى ، ولكن هذه

الاقسام على تعددها وتنوعها لا ينبغي أن تختلط في الاذهان بالاقسام المتحجرة التي لا تتغير الا نادرا والمميزة للحياة في المجتمعات الريفية، ذلك لان المنافسة هي الخاصة الاساسية للمدينة الحديثة • وهذه المنافسة تؤدي بدورها الى خلق نوع من المرونة بين مختلف أقسام الحياة الاجتماعية ، الامر الذي يجعل الصعود أو الهبوط من طبقة أو طائفة لاخرى أمرا ميسورا • ولذلك فالتنقل الاجتماعي Social Mobility من أهم مميزات البناء الاجتماعي الحضري •

والمنافسة من ناحية أخرى مصاحبة للتخصص ، وذلك تبعا لاتساع نطاق الفرص المتاحة أمام الجميع للترقي أو الانتقال من وظيفة لاخرى• وتلعب الامكانيات الفردية دورا كبيرا في مستقبل الفرد ، بعكس الحال في المجتمع الريفي الذي يتحدد فيه مستقبله بولادته ، ولذلك كانت علاقة الفرد بالمنظمات الصناعية والتجارية علاقة غير شخصية ، والعامل الاساسي فيها مبلغ الحاجة اليه ، ومدى ما يمكن الاستفادة منه • وهكذا لا تدخل القرابة أو الدين أو العادات والتقاليد طرفا ثالثا في تحديد نوع العلاقات في المدينة أو اتجاهاتها المختلفة • فالمدينة لاتحمي الكسول المتراخي اعتمادا على نسب أو قرابة من أي نوع • فصعود السلم أو هبوطه أمر موكول للفرد نفسه ، ولا تتدخل في هذه الحركة عوامل خارجة عن نطاق العملية الاجتماعية المباشرة التي يكون الفرد طرفا فيها •

٢ — ولما كان التخصص والمنافسة من العوامل المميزة لحياة المدينة فان عامل التصميم والتخطيط يعتبر نتيجة طبيعية لهما • وكلما زادت الحركة الاجتماعية وكثرت النقلة من هذا المكان الى ذاك ، كلما زادت نسبة القلق خصوصا فيما يتصل بالمستقبل ، فليس هناك فرد في المدينة يستطيع أن يتأكد أن طريقه في الحياة ، خصوصا في عمله ، مضمون تماما لانه يخضع لتذبذبات كثيرة بعكس الحال في القرية • فالقروي يعلم لحاضره ومستقبله أنه على الاقل سيظل فلاحا زارعا للارض مهما تغيرت الاحوال ، ويستطيع أن يبني حياته على هذا الاساس • ويظهر القلق من المستقبل على الاخص في الدول الرأسمالية التي تقوم على

أساس المشروعات الخاصة فى نشاطها الاقتصادى • فقد يلتحق الفرد بعمل فى مؤسسة لا تستمر طويلا فقد تفلس بعد مرور فترة وجيزة من الزمن •• وهكذا •

٣ — ولا يكون التخصص فى المدينة قاصرا على نوع العمل ، بل يمتد أيضا الى مناطق العمل نفسها فكل منطقة فى المدينة لها خصائصها الثقافية والاجتماعية المميزة تبعا لنوع النشاط الغالب عليها • وكلما زاد حجم المدينة كلما صار التخصص من حيث المناطق أكثر وضوحا وظهورا • وهذا يجعل المدينة كما يقول علماء الايكولوجيا Ecologists «نموذجا معقدا من المناطق المتخصصة داخل بناء ايكولوجى أكثر عموما فى المجتمع الحضرى» ويتغير البناء على هذا النحو من مدينة لاخرى بحسب اختلاف الحجم والموقع الجغرافى والنمو التاريخى والوظائف الرئيسية التى تقوم بها • ولكن الغالب فى المدن جميعا ، أن تكون هناك مساحة معينة تتركز فيها مظاهر النشاط التجارى ، ومساحات أخرى ينزل فيها أفراد الطبقة المتوسطة والعمال وهكذا • وطبيعى أن تختلف طبيعة الحياة الاجتماعية فى هذه المناطق ، وعلى الاخص بالنسبة لتنوع مستويات المعيشة • الامر الذى يخلق تمايزا فى المراكز الاجتماعية لساكنى كل من هذه المناطق • وهذه خاصة أخرى من الخواص التى تميز البناء الاجتماعى للمجتمع الحضرى •

٤ — وثمة ناحية هامة من نواحى البناء الاجتماعى الحضرى تأثرت الى حد كبير بالتصنيع والتخصص وغلبة الطابع التجارى — وهى العلاقة بين الجنسين • ومن المسائل المسلم بها الان ، أن المدن أصبحت مكانا ملائما للنساء بوجه عام فقد وجدت أمامهن فرص كثيرة خصوصا لغير المتزوجات ، لان يمارسن أنواعا متعددة من النشاط ، وأن يكون لهن استقلال اقتصادى ومركز اجتماعى متميز عن مركز الرجل ، وليس هذا غريبا ، فهناك نسبة كبيرة تتزايد فى المدن من الرجال والنساء غير المتزوجين • وهذا يتضح من أنواع النشاط المختلفة التى نلاحظها فى أغلب المدن والتى تتجه الى خدمة غير المتزوجين ، بحيث يستطيع الرجل أو المرأة أن يجد المأوى والمأكل فى سهولة ويسر من غير حاجة الى

الوجود فى منزل خاص • وقد أدى مثل هذا الوضع الى نتائج بعيدة المدى على سيكولوجية سكان المدينة بوجه عام ، وما يظهر عليهم من مظاهر القلق والاحساس بالفقدان ونظرا لانعدام جـو الود والمحبة والعطف ، الذى توفره الجماعات الاولية كالاسرة مثلا •

وقد لوحـظ مدى تأثير البيئة الحضرية على الحيـاة الاجتماعية والاتجاهات الخاصة بالنسـاء الى درجة معينة • فقد كان تغير وظيفة العـائلة التى تسببت فيها المدينـة من الاهمية بمكان بالنسبة للنساء خصوصا فى دورها كأم وكزوجة أو كمنتجة أى مكتسبة للثروة • ولذلك فان واجباتها أصبحت محدودة وتحررت الى حد كبير من روابط المنزل، ولكن الى أى حد يمكن أن يتطور مركز المرأة ، والى أى درجة ستذهب اليها فى استقلالها ؟ هل ستكون النتائج النهائية فى صالح المرأة وبالتالى فى صالح الحياة العائلية ؟

وفى هذا المقام نلحظ اختلافا كبيرا بين المدن فى المدنيات القـديمة والمدن فى أيامنا هـذه ، لانه من الخطأ أن نقول ان طبيعة الحياة فى المدينة عامة هى التى تؤدى الى ذلك بالنسبة لمركز المرأة • لان التطور الذى حدث كان فى المدينة التى تأثرت بالتصنيع • ففى المـدن القديمة فى الشرق أو الغرب لم تكن للنساء الحرية التى نشاهدها اليوم اللهم الا حفنة منهن ينتمين الى الطبقة العليا •

وبناء على المادة التى تحت أيدينا اليوم ، فاننا نستطيع أن نتنبأ أن التغير فى حياة النساء الاجتماعية مندفع بخطوات سريعة ، وسوف يؤدى فى المدى الطويل الى تغيرات عامة فى البناء الاجتماعى بأسره • ذلك لان فكرة سيادة الرجل وتبعية المرأة أخذت فى الانكماش ان لم تكن قد زالت فى بعض المدن ، وأصبحت للمرأة الحقوق الاقتصادية والمدنية المساوية للرجـل تماما • ولا نعنى بها الحقـوق المنطوقة المدونة بل الحقوق كما تمارس فعلا وفى واقع الامـر • أما كيف سيكون البنـاء الاجتماعى فى مجتمـع تختفى فيه رواسب المـاضى بالنسبة للنساء ، ويصبحن على تواز تام مع الرجال فى الرغبات والميول والسلوك العملى، فذلك أمر يصعب التنبؤ به وقد لا يتم فى جيلنا الحاضر •

* النسق الطبقى الحضرى : [٦]

يمكن تعريف الطبقات بأنها جماعات ذات وحدات عائلية لها ترتيب خاص فى المجتمع،وتتميز بمراكز محددة تعكس اللا مساواة الاجتماعية، أو بمعنى آخر يمكن القول بأن الطبقات صور من التشريح الاجتماعى الرأسى أو الافقى للمجتمع • ومن ناحية أخرى تشير الى جماعات أكثر من اشارتها الى أفراد العائلة بأسرها تنتمى الى نفس الطبقة •

والاطفال كقاعدة يرثون مركزهم الطبقى عن طريق والديهم ، وفى المجتمع الذى يتميز بالحركة الاجتماعية الحرة يمكن الانتقال من طبقة الى أخرى ، ومع امكان هذا فى حالات التنقل الاجتماعى فى المجتمع ذى الانساق الديناميـة الا أن هذه التغيرات فى المراكز الطبقية لا تحدث بالكثرة التى يتخيلها البعض •

والحديث ، عن الطبقات فى المجتمع يقودنا الى مناقشات متعددة تمتد فتشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والخلافات الايديولوجية فى التاريخ الحديث ، ولكن بالرغم من الموقف المحدد من الناحية النظرية البحتة ازاء موضوع الطبقات فاننا بطريقة ما لا نستطيع أن نجد مجتمعا بدون نوع من أنواع التشريح الاجتماعى ، ولا أن نجد مجتمعا لا تترتب فيه طبقات الناس على أساس من مواضعهم أو من نفوذهم أو امتيازاتهم التى تظهر فى دوائر قد تضيق أو تتسع • كذلك فاننا اذا نظرنا الى الموضوع من الناحية التاريخية فاننا نتأكد من أنه توجد اختلافات كثيرة وأنساق متعددة لموضوع التشريح الاجتماعى •

وهناك ناحيتان للبناء الطبقى يجب أن نميز بينهما تمييزا واضحا :

الاولى — وجود النسق الطبقى ، وفى هذا الصدد نلاحظ أن أولئك الذين يريدون القضاء تماما على الطبقات يعترفون بطريقة ضمنية لا بوجود الطبقات ذاتها بل أيضا بوضعهم الطبقى نفسه •

---

(٦) اعتمدنا فى هذا الموضوع على ما اقتبسناه من الفصل الذى كتبه «برجل» عن النسق الطبقى فى المجتمع الحضرى فى كتابه «علم الاجتماع الحضرى» •

والثانية ـ ضرورة معرفة المواضع الطبقية على أساس النظر الى السكان ككل ، لانه يحدث فى بعض الاحيان أن ينتمى أحد الناس الى طبقة معينة ، ويصنف من الناحية الاجتماعية على هذا الاساس ، بينما قد يعتبر بعض الناس الاخرين أنفسهم منتمين الى طبقات ذات مراكز معينة ، ولكن المجتمع لا يقرهم على ذلك .

والطبقات اذن جماعات تتميز بالمستوى الاجتماعى غير المتساوى أو غير المتجانس ، ولعل أكثر النواحى أهمية فى ظاهرة الطبقة مايترتب من نتائج على اختلاف المراكز ، والمراكز فى معظم الحالات موروث أى أن الفرد يحصـــل عليه بالتبعية التى تترتب على التوجيه الاول الذى يأخذه عن عائلته ، وفى الحياة الاجتماعية الدينامية يأخذ الناس مراكزا بطريقة أخرى عن طريق انتمائهم الى عائلات غير عائلاتهم الاصلية عن طريق الزواج ، ومع ذلك قد يتغير المركز الى أسوأ أو الى أحسن ، وغالبا ما يكون فقدان المركز ناجما عن سلوك غـــير سليم لا يتفق مع الاوضاع الطبقية ، كما أن صعود السلم الطبقى وتغير المركز بالتالى يمكن أن يتم عن طريق اعمالمحددة . وفى المجتمع الحديث تسنح كثير من الفرص لمثل هذا التغير عن طريق التعليم أو عن طريق التجارة . واذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين القرية والمدينة فى هذا الصدد نجد أن نسبة الفرص المتاحة أمام الافراد لصعود السلم الاجتماعى فى المدينة أكثر منها فى القرية .

والمركز الاجتماعى الذى يترتب على الانتماء الى طبقة معينة يلحق به بعض التحـــديدات التى تتعلق بالموضع والنفوذ ، واذا حاولنا أن ندرس موضوع الطبقات فى المدينة ، واثر الطبقات بصفة عــامة على البناء الاجتماعى فيها فاننا نصل الى هذه النقط الهامة .

١ ـــ كلما زادت المدينة حجما كلما اتسعت الفرصة أمام الافراد لتغيير الطبقة ، بل ان سرعة التغير فى هذه الحالة تزداد ، ويزعم بعض الباحثين أن اثر التغيرات التكنولوجية فى المدينة الكبيرة يكون أوضح منه فى المدينة الصغيرة ، الامر الذى يترتب عليه زيادة طردية فى عمليـــات التنقل الاجتماعى ، وفى نفس الوقت يؤدى الى خلق نوع من المرونة فى

النسق الطبقي ، ومن ناحية أخرى يؤدى الى تداخل الفواصل الطبقية مما يتعذر معه في بعض الاحيان أن نحدد المراكز الاجتماعية للافراد وما يتبعها من مواضع ونفوذ . كما أن درجة التضامن الطبقي تقل، وتكون الفرصة مهيأة أمام الانقسامات الطبقية ، فتتفرع الطبقةالواحدة الى عدة طبقات أصغر ، ومعنى هذا أنه كلما انتقلنا من المدينة الكبيرة الى المدينة الصغيرة فالقرية نجد تحديدا أكبر للاوضاع الطبقية .

٢ ــ في المدينة الكبيرة التى تنقسم الى جماعات متمايزة نجد اختلافات كثيرة في الانماط الثقافية ، ويميل بعض العلماء الى القول بأن تمايز الجماعات في المدينة يؤدى الى تحديد الاوضاع الطبقية ، وفي هذه الحالة يمكن نتيجة لتشابه المراكز الاجتماعية والمستويات الاقتصادية والثقافية العامة أن نجد تمايزا واضحا في اتجاهاتهم الثقافية العامة ، الامر الذى يؤدى الى ظهور أنماط اجتماعية واضحة .

٣ ــ التماسك الطبقي في المجتمع الحضرى ليس له صفة الدوام،أى أن الطبقة لا تنعزل انعزالا كليا عن الطبقات الاخرى أو عن مجتمع المدينة بأسره ، وهذا راجع الى تداخل العمليات المختلفة في الحياة الحضرية من ناحية ، والى شدة التنقل الاجتماعي من أخرى ، ولذلك يلاحظ دائما في المجتمع الحضرى أن الناس يغيرون وبسرعة أماكن سكنهم وأصدقائهم وأعمالهم بنفس السهولة التى يغيرون بها ملابسهم في بعض الاحيان ، وهناك حالات لا تتردد كثيرا في المدن عامة ، وهى أن بعض المدن قد تكون ذات بناء اجتماعي متميز نظرا لاختلاف السكان من الناحية العنصرية أو الدينية أو نظرا لاختلاف اللون ، الامر الذى يخلق نوعا من التفاعل الإجتماعي الخاص الذى يؤدى الى قسمة المدينة الى طوائف قد لا تتعاون بعضها مع الاخر ، وتكون من نتيجته انشاء مجتمعات محلية لها طابع الانعزال داخل المدينة الواحدة .

من أجل هذا لا نستطيع أن نتحدث عن الطبقات أو عن النسق الطبقي باعتباره أمرا ضروريا أو طبيعيا ، لان معنى هذا أن نعترف أن كل شخص يحصل المركز والموضع الذى يستحقه ، ومن ناحية أخرى

لا نستطيع أن نتحدث عن النسق الطبقى باعتباره اطارا حديديا يمتص نشاط الافراد داخله ولا يسمح لهم بالتطلع خارجه •

ونلاحظ أن الباحثين فى موضوع النسق الطبقى يغالون فى أهمية المركز ، ونقطة الضعف فى هذا ، أن الذين يحصلون على مراكز عالية وبالتالى يصبحون موضع التقدير الاجتماعى قد لا تكون لديهم القدرات أو الامكانيات الكافية التى قد ترفعهم الى أعلى من هذه المراكز ، أو حتى المحافظة على مراكزهم الحالية • كما أن المجتمع الذى يتميز بالمنافسة يهيىء الفرصة لزحزحة هؤلاء واحلال آخرين محلهم • وإذن فالمركز الاجتماعى ليس وحده نتيجة أولى للنسق الطبقى ، أو هو علامة رئيسية لوجود الطبقة أو ظهورها متميزة فى البناء الاجتماعى ، وهنا لابد أن نتحدث عن المقاييس التى لابد من وجودها ليمكن على أساسها تعيين الطبقة تعيينا واضحا • ومن استقراء الابحاث المختلفة التى أجريت حول هذا الموضوع نستطيع أن نقدم ثلاث مقاييس اذا توافرت فى جماعة معينة أمكن أن نطلق عليها اسم الطبقة وهى :

١ ـ المركز الاقتصادى : ومعناه أن دخول الافراد فى أعمال معينة يقومون بها تحدد مستويات اقتصادية تتشابه بالنسبة لمجموعة من الافراد وتختلف بالنسبة لمجموعة غيرهم ، ولذلك كان المركز الاقتصادى وما يترتب عليه من مستوى خاص للمعيشة عاملا أول فى تحديد أول درجات التشابه فى الانتماء للطبقى •

٢ ـ المركز الاجتماعى : الذى يحدد أبعاد الناس فى المجتمع وطريقتهم فى الحياة ، ويقوم على المركز الاول بالاضافة الى عوامل أخرى مثل التعليم والعائلة والمكان الذى نشأ فيه الفرد ، وبهذا يكون المركز الاجتماعى درجة ثانية فى تحديد التشابه والاختلاف بين السكان الذين يعيشون فى مكان واحد أو ينتمون الى مجتمع بعينه •

٣ ـ الشعور الطبقى : لا يكفى وجود المركزين الاقتصادى والاجتماعى لوجود الطبقة وجودا متميزا فى الحياة الاجتماعية ، بل يجب أن يترتب على التشابه نوع من الشعور بالانتماء والاحساس

بالاهداف المشتركة وبالمشاكل والامال • أى أن الشعور الطبقى هـو الاطار الذى يجمع الافراد على مستوى الانتماء الحقيقى الذى يمكن أن يؤدى الى الوعى الطبقى •

مستقبل الحياة الحضرية : (٧)

ظل الانسان لقرون طويلة يعيش فى المدينة دون أن يفكر كثيرا فى المستقبل ، واذا حدث أن فكر فى التغيير ، فقد كان فكره محصورا فى النمو والتقدم الفنى والمزيد من الجمال ، أو بمعنى آخر لم تكن عند الانسان فى هذا الوقت الرغبة ولا التصور أن هناك أفضل من طريقة الحياة الحضرية • ولكن القرن الحالى واجه البشر بحيرة ازاء حياته فى المدينة • فقد بدأ الانسان يفكر فى الفرص المتاحة له فى الحياة والتى من أجلها بدأ يدبر الخطط التى تؤدى الى احداث تغيرات جذرية فى الظروف الطبيعية وفى البناء الاجتماعى لطريقة الاقامة الحضرية •

لقد تشائم الكثيرون فى مجرى التاريخ من مستقل الحياة الحضرية لما لها من آثار سيئة على حياة البشر وما تؤدى اليه من تدمير للقـيم الانسانية واهدار لمبادىء الحياة الكريمة وانحطاط للنفس الانسانية ، فشبنجلر أكبر مفكر يتهم الحياة الحضرية ، يرى أن المدينة ذاتها عبارة عن شر يدمر كل شىء ، وفى النهاية تغرق المدينة موتا فى آثامها ، ويقول أن مولد المدينة يحمل فى نفس الوقت علامة موتها ، ولعل تشاؤم شبنجلر جاءه مباشرة من هيجل وماركس ، حينما زعما أن طبقة البورجوازية تحفر بنفسها قبورها • ويحاول كثير من المفكرين أن يردوا على هذا التشاؤم بقـولهم ، انهم لم يعثروا على مدينة كانت فريسـة للتدمير الذاتى ، كما أن المدن فى العصر الحديث مستمرة فى النمو حجما وعدداء ويمثل لويس ممفرد هذا الاتجاه التشاؤمى فى علم الاجتماع الحضرى على الرغم من أن آراءه أقل خيالية ، وهجومه على الحياة الحضرية أكثر اعتدالا وتشخيصاته ليس لها الطابع المميت • وينصب نقده على

---

(٧) انظر كل من اندرسون «المجتمع المحلى الحضرى» ، برجل ، علم الاجتماع الحضرى •

ضخامة قــوة بعض أنماط المــدن وبعض مراحلها بالذات التى يسميها المتروبوليس والميجــابوليس والنكروبوليس ، فهذه المراحل من نمــو المدينة كما يقول «ممفرد» تدمر المدينة وتسبب الحروب وتدمر العلوم والفنــون •

لكننا لا نستطيع أن نسلم معه أو مع غــيره بهذه الاتهامات دون دليل قاطع ذلك أن المدينة أو الحضرية كطــريقة فى الحياة لا يمكن أن تكون مسئولة عن مثل هذه الكوارث لافتقارهــا الى الدليل العلمى • حقيقة أن المدينة قد تسببت فى ظهور أنواع جديدة من الجرائم،وزيادة فى انحراف الاحداث ، وزيادة كبيرة فى تصدع الاسر واحتمالات كثيرة للمرض النفسى والانهيار العصبى ، وقيام فرص كثيرة لظهور التفكك والقلق والاضطراب فى المجال الفردى والجمعى ، الا أن جذور هــذه المشاكل جميعا كانت موجودة قبــلا فى الحياة الريفية ، وتضخمت أو ظهرت واضحة فى المدينة تبعا لزيادة حجمها وازدحام السكان فيها • وعلى العكس مما يقوله المتشائمون فان الحضرية كطريقة فى الحياة تنمو باستمرار وتفرض نفسها على كل طريقة أخرى فى المجتمع •

نحن نعيش الان مرحلة انتقال وفى عصر يتميز بالدينامية الشديدة يتغير فيه كل شىء ، والمدينة من هذه الزاوية تمر أيضا بهذه الفترة ، وقد تنبه العلماء الى ضرورة توجيه القوى المفيدة لتحقيق مصــالح الجماعة ، ولذلك أصبح التخطيط عنصرا أساسيا الان فى بناء مستقبل المدن ، والقائمون على تخطيط المدن يفكرون فى أفضل الاهــداف التى يحاولون بخططهم أن يصلوا اليها ، ولذلك فان تحليل الاهداف العليا للتخطيط يعطينا عمقا فى توجيه المجتمع المعاصر ، كما أن اختيار هذه الاهداف العليا يمكن أن يوضح المتضمنات السوسيولوجية لاتجــاهات الحضرية •

والمسألة الاساسية هنا الا ننظر الى نمو المدينة على أسس مادية بحتة لانه ربما نفلح فى ترتيب كل شىء فى الحياة الحضرية من الناحية المادية ، ومع ذلك تظــل الحياة الحضرية مثقلة بالهمــوم ومكانا قاتما

للفرد . ومن أجل هذا تبرز أهمية الناحية الثانية فى التخطيط الحضرى، الذى لابد أن يواجه مسائل العلاقات والقيم التى يجب أن تهدف الى مزيد من العلاقات المباشرة بين الناس ، واعادة بناء القيم على أساس يقلل فرص الانحراف ويضمن ايجاد مستوى موحد تقريبا فى النظرة الى الحياة .

فالمدينة ليست مجرد أبنية أو شوارع أو ميادين أو معدات للحياة اليومية توفر الوقت والمجهود ، بل أنها نوع متميز من الحياة جـديد على البشرية يجب أن نهيىء له الاساس المعنوى وما يتضمنه من تنظيم اجتماعى لابد أن يصل الى مرتبة التضامن والتماسك الذى كان للمجتمع القديم . ولعل زيادة مشاكل المجتمع الحضرى ترجع فى المحل الاول لا الى نقص الجانب المادى فى الحياة بقدر ما ترجع الى ســوء التنظيم الاجتماعى وما ترتب عليه من تفكك ، جعل هذه المشاكل تبرز للمفكرين جميعا وتدعوهم الى هذا التشاؤم الذى أشرنا اليه من قبل .

الفصل السادس

النظـم الاجتـماعية

النظــم الاجتــماعية

تعتبر دراسة النظم الاجتماعية من أهم الموضوعات التى يعنى بها علماء الاجتماع . ولا نكاد نعثر على كتاب فى علم الاجتماع ، الا تعرض لها . ذلك أن النظم وهى أحد أنماط التنظيم الاجتماعى للمجتمع ، تعتبر الانساق الكبرى المنظمة للتفاعل ، الذى هو قاعدة العلاقات الاجتماعية. ومع اتفاق العلماء على دراسة النظم الاجتماعية من حيث الموضوع ، الا أنهم اختلفوا فى النظر اليها من حيث المنهج ، ومرد الخلاف الى أن هناك اتجـاهات متعددة تنظر الى النظــام الاجتماعى من حيث هــو اصطلاح ، أو من حيث هو محدد لوجوه متعددة من النشاط الانسانى نظرات متباينة. وقد أشرت الى ذلك اشارات موجزة فى الفصل الثانى.

وفى الواقع ، أننا لا نجد فى المجتمع نظما لها هذا التحديد الذى نلحقه بكل منها ، وانمــا نصطلح على تسمية أنواع التفاعل الموجهة لغرض معين من الاغراض ، التى تواجــه حاجات الانسان الاساسية وما يتفرع عنها ، بأسماء محددة تكشف عن طبيعة النشاط الاجتماعى وحدوده ، ومعنى هذا أننا نصنف العلاقات الاجتماعية على مستوى معين من التجريد بقصد الدراسة وحسن الفهم ، لاننا لو فحصنا هذه النظم لوجدنا أنها متداخلة تداخــلا شديدا ، ويؤثر أحدها فى الاخر تأثيرات متعددة . ولذلك كان على دارس النظم الاجتماعية أن يبرز على وجه الخصوص علاقاتها المتبادلة وخصائصها العامة . فالاسرة مثــلا كنظام ، لا يمكن أن تدرس بمعزل عن النظم الاخرى التى تؤثر فيها، وقد تحدد مستقبل نموها وتغيرها . فنحــن عند دراسة بناء الاسرة ووظائفها ، لا يمكن أن نتغافل نظم الاقتصاد والسياسة والدين والتربية فى المجتمع الذى توجد فيه . ذلك لان هــذه النظم تؤثر فى الاسرة كنظام ، واذن فادراك العلاقات المتبادلة لجميع النظم أمر جوهرى لفهم الحياة الاجتماعية .

وعندما ندرس النظم الاجتماعية ، نحاول أن نفهم أحد الميكانيزمات الاساسية التى عن طريقها ، يتوصل الانسان الى «التناسق» فى السلوك الاجتماعى . وتبدو أهمية هذا التناسق فى مجتمعات تتطور وتنمو وتتغير باستمرار ، فبدونه تصبح الحياة الاجتماعية نفسها مستحيلة . ونفهم التناسق هذا على أنه نوع من الاضطراد والوحدة الذى ينمو على مر الزمن ويميل فى نفس الوقت الى «الدوام» . والتناسق والاضطراد والدوام هم الذين يخلقون الانساق والنظم الاجتماعية[1] .

ولولا هذه العناصر الاساسية لما استطاع علم الاجتماع أن يدخل ميدان العلم . وهنا نتذكر أن أحد الحجج الهامة التى كان المتشككون فى امكان قيام علم لدراسة المجتمع يؤكدونها ، كانت تقوم على أن دراسة المجتمع دراسة علمية مسألة غير ممكنة طالما أن قانون المجتمعات الدائم هو «التغير» ، ولكن التغير — كما سنرى فيما بعد — لا يغير من البناء بقدر ما يغير من الوظيفة ، الامر الذى لا يخل بقاعدة الدوام والاضطراد والتناسق التى تقوم عليها الدراسة فى علم الاجتماع ، شأنه فى ذلك شأن أى علم آخر يهتم بالاضطراد فى أى طبقة من الظواهر .

البناء والوظيفة : Structure and Function

من يتصدى لدراسة النظم الاجتماعية ، لابد أن يهتم بها من حيث البناء والوظيفة . ومعنى هذا أن يهتم بما يلى :

١ — ترتيب الاجزاء وعلاقاتها أحدها بالاخر ، ذلك لان الاجزاء هى التى عن طريقها يتم «السلوك النظامى» الذى يسير فى الحدود التى رسمها النظام ، ويتطابق مع القالب المعين .

٢ — العمليات الاضطرادية المرتبطة بهذه الترتيبات أو التنظيمات، مثل مدى اتصال أو اسهام أجزاء المجتمع فى الكل ، وذلك اتفاقا مع

---

(1) Loomis, Ch. P., Social Systems, Essays On Their Persistence and change, New York, 1960, pp. 3-5.

الفكرة القائلة ، بأن حسن فهم الجزء لابد أن يكون فى ضوء الكل ، وحسن فهم الكل لابد أن يكون فى ضوء الأجزاء المكونة له[2].

لكن فكرة البناء والوظيفة أثارت جدلا كثيرا بين الباحثين ، ذلك أن الفكرة ذاتها مستعارة من العلوم الاخرى وعلى الاخص العلوم البيولوجية . فالجسم «كل» مكون من حيث «البناء» من «أجزاء» كل جزء يؤدى «وظيفة» لا يمكن فهمها الا اذا أدركنا وظيفة الكل . وبالمثل يكون النظام الاجتماعى «كلا» مكونا من أجزاء . كل جزء يؤدى وظيفة معينة يسهم بها فى الوظيفة الكلية للنظام . ولكن الامر يختلف بغض النظر عن هذه المماثلة ، فى الحياة الاجتماعية . فمع أنه من المفيد فى أغلب الاحيان أن نفصل بين البناء والوظيفة : الا أنه يلزم أن نشير هنا الى أنهما يمثلان وحدة من الافكار المكمل بعضها للاخر[2].

ولنعطى صورة واضحة للاختلاف المشار اليه بصدد فكرة البناء والوظيفة ، نجد أن جونسون Johnson يرى أن البناء يتكون من العلاقات الثابتة نسبيا بين أجزائه ، لان كلمة «الجزء» تتضمن درجة معينة من الثبات ، «والنسق الاجتماعى»يتكون من الافعال المترابطة للناس . وبناء النسق (أو النظام) عبارة عن الانتظام والتكرار فى هذه الافعال[3]. الا أن «اجبرن ونيمكوف» يريان أن مجموعة من الاشخاص تكون «البناء» وأفعال هؤلاء الاشخاص تكون «الوظيفة» . ولما كانت الوحدة الاساسية للبناء الاجتماعى عند تأدية وظيفته هى «الفعل act » فاننا نهتم بتكرار هذا الفعل الذى يصبح قاعدة النظام فى السلوك الاجتماعى[4]. وواضح هنا أن الاختلاف يرجع فى صميمه الى أن جونسون يهتم بالعلاقات الثابتة بين الاجزاء ، بينما يهتم اجبرن ونيمكوف بالاجزاء نفسها ، ولكنهم يتفقون على أن الفعل المتكرر هو أساس البناء .

وقد حظيت فكرة البناء والوظيفة باهتمام الباحثين فى الانثروبولوجيا

---

(2) Lundberg and Others, Sociology, New York, 1958, p. .26.

(3) John on : Sociology, London, 1961, p. 58.

(4) Ogburon & Nimkoff; Handbook of Sociology, London 1960, pp. 339-347.

الاجتماعية ، فـراد كليف Radcliff-Brown يقبل تعـريف دوركايم لوظيفة النظام الاجتماعى على أنها الصلة التى تكون بينه وبين حاجات الكائن الاجتماعى ، ولكنه يستبدل كلمة حاجات « بالظروف الضرورية للمعيشة » ويرى أن تطبيق هـذا التعريف مع تعـديله على العـلوم الاجتماعية ، يتضمن القول بأن هناك ظروفا ضرورية للوجود الانسانى، كما أن هناك مثلها للوجود الحيوانى ، ويستخدم فى تأييد هـذه الفكرة المقارنة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية[5] . فالكائن الحيوانى عبارة عن مجموع منظم من الخلايا والسوائل ، ليس كمجرد تجمع ولكن ككل حى متكامل .

ونظام العلاقات التى ترتبط على أساسه هذه الوحدات هو مايسمى «البناء العضوى» ولهذا يعرف البناء بأنه مجمـوعة من العلاقات بين وحدات كل لها كيان ، وخلال فترة من الزمن لا تبقى الخلايا كما كانت، ولكن التنظـيم البنـائى يبقى متشابها . والعمـلية التى تعمـل على «الاستمرار» البنائى للكائن الحى تسمى «الحياة» .

واذن نستطيع أن نطبق هذا التحليل على الحياة الاجتماعية ، ذلك أننا اذا لاحظنا « مجتمعا صغيرا » نلحظ وجود بناء اجتماعى ، فالافراد «الوحـدات الاساسية» فيه يرتبطون عن طريق مجمـوعة معينة من العـلاقات الاجتماعية ، و « استمرار » البناء الاجتماعى مثل البنـاء العضوى ، لا يتحطم بالتغييرات التى تحدث للوحدات ، لان استمرار البناء يبقى عن طريق عملية الحياة ، والحياة الاجتماعية للمجتمع هنا تعرف على أنهـا «وظيفة» البناء الاجتماعى . وهـكذا نتبين أن فكرة الوظيفة تتضمن فكرة البناء ، لانهما مرتبطان ، وانما يتم فصلها لغرض التحليل العلمى . وهنا يقترب راد كليف براون من كثير ممن تعرضوا لفكرة البناء والوظيفة وخاصة فى تركيزه على أهمية «العلاقات المتكررة» بغض النظر عن الوحدات «الافراد» الزائلين . ويظهر ذلك من قوله ،

---

(5) Radcliffe-Brown, A. R., Structure and Function in Primitive Society, London, 1956, pp. 178-181.

بأن هناك اختلافا بين التمثيل العضوى والاجتماعى ، ويرجع ذلك الى أنه من الممكن أن نلاحظ البناء العضوى فى صورة مجردة أى مستقلا عن تأديته لوظيفته . ولكن البناء الاجتماعى ككل لا يمكن أن يلاحظ الا فى ضوء تأديته لوظائفه . ولهذا لا يمكن أن نقيم مورفولوجيا اجتماعية منفصلة عن السيولوجيا الاجتماعية . وبنـــاء على ذلك تكون وظيفة «الوحدة الاجتماعية» هى ما تسهم به فى الحياة الكلية للمجتمع ، التى هى فى الواقع وظيفة النظام الاجتماعى الكلى ، والنظام الاجتماعى اذن له «وحدة وظيفية» عبارة عن الحالة التى تعمـل فيها أجزاء النظـــام الاجتماعى جميعا معا ، بدرجة كافية من الانسجام الداخلى[6] ويكاد راد كليف براون أن يقترب فى تحليله للبناء والوظيفة من المدرسة البنائية الوظيفية المحدثة ، وهذا مع العلم أنه يصنف ضمن المدرسة الوظيفية فى الانثروبولوجيا الاجتماعية وان استنكر ذلك باعتباره ينتمى الى علم لا الى مدرسة .

أما ايفانز بريتشارد Evans-Prictchard فانه يقترب من فكرة أجبرن ونيمكوف ويستخدم البنـــاء الاجتماعى على أنه الجمـــاعات الاجتماعية الدائمة مثل الامم والقبائل والعشائر التى تحتفظ باستمرارها وهويتها كجماعات بالرغم من التغيرات فى العضوية (عضوية هذه الجماعات) ، فالجمـــاعة من حيث هى مجموعة من العـــلاقات ، قائمة بينما يتغـــير أعضاؤها . واعتقد أن صفات الجماعة أو النظم المكونة لبنائه والتى يجمع كثير من الباحثين على أنها تتمثل فى التكرار والدوام البعيد عن الواقـــع الفردى . انمـــا استمدت من خصائص التلقـــائية والجبرية والعمومية والخارجية التى حددها دوركايم كخصائص فارقة للظاهرة الاجتماعية . والخلاف بين ايفانز بريتشـارد وراد كليف براون يقع فى أن الاول يستبعد العلاقات الفردية المؤقتة من البناء ويهتم بالعلاقات ذات الطابع الدائم ، بينما يدخل الثانى العلاقات التى تقوم بين شـخص وآخر ضمن مكونات البناء ، كما أن التمايز بين الافراد والطبقات على

---

(6) Ibid., p. 181.

أساس دوركهم الاجتماعي يدخل تحت البناء الاجتماعي[7] . ويمكن أن نرد هذا الاختلاف الى تعارض نظريتهما بالنسبة لمستوى التجريد الذى يجب أن يدرس على أساسه البناء الاجتماعي . ومن أجل هذا يميز راد كليف براون بين الصور البنائية التى لا تتغير الا قليلا ، وبين البنـاء الاجتماعي الفعلى الذى يتغير باستمرار عن طريق المـواليد والوفيات والعلاقات المتغيرة بين أعضاء المجتمع الواحد .

ولكن فورتس Fortes يرى أن هذا التمييز مشكوك فى صحته ، لان عامل الزمن فى البناء الاجتماعي واحد من حيث الشكل فى حـدوثه أو اتجاهه[8] أو بمعنى آخر ، اذا كان عامل الزمن يعتبر فى مرتبة العوامل الدائمة . فانه لا يمكن أن نضعه كفيصل فى التمييز بين الصورة البنائية والبناء الاجتماعي . ولذلك كانت فكرة راد كليف براون امعان لا مبرر له فى التصنيف .

وخلاصة القول ، أن الميل الى الخـلط بين وظيفة الشيء (نتائجه) وبين سبب هذا الشيء (الحوادث السابقة) التى يكون نتيجة لها أقوى فى علم الا جتماع منه فى أى علم آخر . ومثل هذا الخلط يؤدى ــ اذا لم نكن على حرص كاف ــ الى الفكرة القائلة بأن كل «نمط نظامى» يوجد فى وقت معين «يؤدى وظيفة» تخدم حاجة المجتمع الذى يوجد فيه . والخط المتضمن فى هذا التفكير ، أنه اذا كان لكل نمط نظـامى سبب ، وكانت «أسباب» الانماط النظامية هى الوظائف التى تقوم بها، فانه يجب أن يقوم كل نمط نظامى موجود بوظيفة معينة . والخطـأ المنطقى هنا أن كل «أمر اجتماعى» لا يؤدى وظيفة بالضرورة ، لان مثل هذا الامر قد يكون لا وظيفة له عند أقسام من السكان ، أو قد يكون غير ذى موضـوع على الاطلاق . ولعل هذه الصعاب هى التى قادت كل من تشابن Chapin وميرتن Merton الى التمييز بين الوظـائف الظاهرة

---

(7) Ibid., pp. 191-192.

(8) Fortes, N., Time and Social Structure in : Social Structure; Studies Presented to A. Radcliffe-Brown, ed, by Fortes, Oxford, 1949, pp. 54-55.

والوظائف الكامنة . فالوظائف الظاهرة للنظم فى رأيهما هى النتائج المقصودة والمعترف بها للنمط السلوكى ، أما الوظائف الكامنة فهى النتائج غير المقصودة[9] .

وواقع الامر أن البناء والوظيفة كلمتان تعبران عن وجهين لشىء واحد . فالبناء يستخدم لوصف «الثابت نسبيا» فى النظام ، أما الوجه الدينامى فهو الذى يسمى «الوظيفة» وبعبارة أخرى ، البناء هو الوظيفة الثابتة ، والوظيفة عبارة عن سلسلة من البناءات المتغيرة بسرعة، وعند تعريفنا للنظام الاجتماعى يجب أن نؤكد علاقة الاجزاء بعضها بالاخر، وأن النظام فى التفاعل أو وحدته يمكن الاجزاء أن تعمل ككل بالنظر الى العالم حولها ، ومعنى هذا أننا حين ندرس النظم ، فان هذا يعنى أننا ندرس أنماط السلوك الاجتماعى ، وحين ندرس البناء والوظيفة أحدهما بمعزل عن الاخر فليس هذا الا لاغراض تحليلية . وربما كان ظهور اصطلاح مثل «البنائى الوظيفى Structural Functional فى علم الاجتماع انما قصد به تأكيد هذه الحقيقة ، واذا كان الامر كذلك ، فلابد أن يكون واضحا أن أى دراسة علمية هى دراسة بنائية وظيفية بالضرورة .

الجانب الوظيفى فى النظم :

للنظم وجوه متعددة ، وهى لذلك يمكن أن تناقش من وجهات نظر متعددة . فبعض هذه النظم أصبح موضوع دراسة واسعة ومركزة ، الامر الذى تبدو معه على أنها علوم منفصلة . ومثال ذلك أن النظم الاقتصادية أصبحت اليوم موضوع علم الاقتصاد ، والنظم السياسية موضوع علم السياسة وهناك نظم أخرى تنال الان اهتماما كبيرا وتجرى بصددها دراسات مستفيضة مثل الاسرة والدين ، ولكنهما لايزالان من فروع علم الاجتماع والانثروبولوجيا .

ويجب أن نشير هنا . أنه عند دراسة النظم الاجتماعية الكبرى — الاقتصادية والسياسية والاسرية والدينية — فاننا نهتم بجوانبها

---

(9) Lundberg, and Others, Sociology, New York, 1958, p. 528.

السوسيولوجية ، ولا نهتم بجوانبها الخلقية أو القانونية والاصلاحية . وتشمل الجوانب السوسيولوجية المسائل التى تكون موضـوعا للبحث العلمى . وخاصة عندما تستخدم لاغراض المقارنة ، وبيان مدى تحقيقها للاشباع أو الاهداف التى قامت هذه النظم من أجلها ، كما أن عـلم الاجتماع لا يهتم فى الحقيقة بنظم خاصة فى مجتمع معين ، بل يهتم بالجوانب العامة نسبيا فى النظم الاجتماعية أينما وجدت[١٠] .

ومن أجـل النهوض بمثل هذه الدراسة ، نجد أنه من المناسب أن نهتم بالوظائف التى يحققها أى نظام فى أغلب المجتمعات أو كلها ، ولهذا يدرس علماء الاجتماع بطريقة موضوعية ، الدرجة التى يصل اليهـا النظام فى تحقيق وظيفته المعروفة طبقا لنسق القيم الموجود فى كل ثقافة ، أو طبقا لاى مقياس نريد أن نطبقه . ومثال ذلك ، أن ندرس الدرجة التى وصلت اليها الاسرة فى تحقيق وظائف الانجاب والتنشئة الاجتماعية للاطفال ، وهذا الى جانب الوظائف الاخرى التى نتوقع أن تحققها فى مجتمع معين بغرض مقارنتها بصور أخرى للاسرة فى ثقافات أخرى .

وبعض هذه المقاييس قد تكون موضوعية وواحدة لكل مجتمع،ومثال ذلك اذا كان تزويد المجتمع بالسكان وظيفة من وظائف الاسرة ، تكون «نسبة مواليد كافية للحيلولة دون انهيار فى عدد السكان» مقياسا يمكن تطبيقه فى كل المجتمعات . واذا أخذنا «السعادة الشخصية أو الاشباع» كمقياس آخر ، فان الدرجة التى تشبع بها الاسرة هذه الحاجة أو تقوم بها بهذه الوظيفة فى مجتمع معين ، يجب أن تحدد بدراسة اتجاهات الناس فى هذه الثقافة بالنسبة لنمطهم فى الاسرة . وقد نهتم من ناحية أخرى بالتساؤل عما اذا كانت وحدانية الزواج فى مجتمع تؤدى الى اشباع أكثر من تعدد الزوجات فى مجتمع آخر . ولغرض التحليل العلمى نأخذ هذا المقياس دون محاولة تقييمه ، كذلك يمكننا أن ندرس النظم الاقتصادية والسياسية والدينية بهذه الطريقة .

---

(10) Ibid., p. 530.

وفى ضوء الاصطلاحات المختلفة للانساق القيمية ، يمكن أن يكون نموذج من نظام معين أحسن أو أردأ من نموذج آخر • ولهذا قد نقول ان وحـدانية الزواج أحسن من التعـدد والعكس بالعكس • وبنفس الطريقة يمكن أن نقول ان نموذجا من النسق الاقتصادى أو الدينى أو السياسى أحسن من نموذج آخر •

ويجب أن نشير هنا الى أن هذه المقاييس نفسها تعتبر موضوعات للدراسة العلمية • أى أننا نستطيع أن ندرس ، كيف تظهر وتنمو أنساق خلقية وجمالية ، وتؤثر بالتالى فى الحياة الاجتماعية للمجتمعات•ويمكن أن نتنبأ تبعا لذلك بالانساق القيمية التى يحتمل أن توجد وأن تنمو فى مجتمع معين على أساس ما نعلمه عن ترابط الخلقية بغيرها من النظم •

ويمكن بناء على ذلك أن نرتب عدة نتائج نلخصها فيما يلى :

١ ــ عند مناقشة العلاقات النظامية ، تكون اللغة لغة البناء،ومثال ذلك ، حين نفكر فى العلاقة بين الاسرة والدين ، فان ما يأتى فى الذهن أولا ، أن الاسرة عبارة عن جماعة مكونة من الزوج والزوجة والاطفال، يذهبون جميعا الى بيت الله ، وهو مكان يجتمع الناس فيه للعبادة • فالاسرة وبيت الله عبارة عن بنائين ، ولكن العلاقة الهامة بين بيت الله والاسرة بالرغم من ذلك ، ليست علاقة بنائية ، ولكن العلاقة علاقة بين نشاطين يقوم البناءان بهما ، وهما ما نسميهما بالوظائف •

٢ ــ الارتباط المتبادل بين النظم يمكن أن ندركه ادراكا واضحا عن طريق الوظيفة أكثر من البناء ، وذلك لان الارتباط بين الاجزاء المختلفة للثقافة هو فى الواقع ارتباط وظيفى •

٣ ــ نفس النظم قد يكون لكل منها أنماط مختلفة من العلاقات بالنظر الى ظروف مختلفة • وهذا يبدو بوضوح عندما ننظر فى تطورات المجتمعات •

٤ ــ الوظيفة تتغير أكثر من البناء ، فالتعـديل الذى يحدث فى

وظيفة أى نظام ، يكون بناؤه ثابتا نسبيا ، يعتبر وجها من الوجــوه الهامة للتطور الثقافى ، فالبناء لا يتغير غالبا كما تتغير الوظيفة . وهذا يشير الى الصعوبة التى تكمن فى صعوبة خلق بناء أجتماعى جديد . كما أن تغيرات البناء تكون أقل حدوثا،لان هناك حاجة قليلة لهذا التغير،طالما أن البناء نفسه قد يخدم أغراضا متعددة،ولكن دوام البناء فى الوقت الذى تتغير فيه الوظائف ، يؤدى الى توجيه الباحثين توجيها خاطئا ، لانهم يرون البناءات الدائمة مباشرة أكثر من رؤيتهم للوظائف ، وبغض النظر عن التغيرات التى تحدث للبناء أو الوظيفة ، فان دوام النظم الاجتماعية الكبرى فى كل الثقافات وفى كل الازمنة حقيقة يجب أن نبرزها .

ه ـ النظم الاجتماعية الكبرى ـ الاسرية والاقتصادية والسياسية والدينية ـ تدوم لانها فى الواقع تؤدى وظائف كثيرة .

ومن أجل حسن دراسة النظم الاجتماعية وابراز جوانبها الهــامة وخصوصا الجوانب البنائية والوظيفية ، اقترح جورج لندبرج Lundberg أن تكون الدراسة طبقا للجدول الموجود بالصفحة التالية[11] .

العلاقات المتبادلة بين النظم :

لابد أن تكيف النظم نفسها تبعا لوجود النظم الاخرى . وتترابط النظم بعضها مع البعض الاخر فى هذا النمط المعقد الذى يكون الحياة الاجتماعية ككل فى أى مجتمع . وهنا نلاحظ الاختلاف الواضح بين الثقافات المختلفة فيما يتصل بالدرجة التى تنفصل على أساسها النظم بعضها عن الاخر ، ويمكن أن ندرك أنه فى المجتمعات البدائية أو غير المتطورة ، توجد نظم متميزة ومتخصصة للاقتصاد والدين والاسرة ، والترفيه على عكس ما هو موجود فى المجتمعات الحديثة . ومن أجل هذا نلاحظ أن العادة قد جرت فى بعض هذه المجتمعات البدائية بدلا من وضع مخصبات فى الارض لتحسين الانتاج ، القيام بعمل حفلات سحرية أو دينية ، والهدف من ورائها الوصول الى نفس النتيجة ، وقد

(11) Lundberg: Op. Cit., p. 525.

الجوانب الوظيفية والبنائية للنظم الاجتماعية الكبرى

الوظيفـــة	النظـــام	الادوار الرئيسية	السمات الفيزيائية	السمات الرمزية
انجاب الاطفال وتربيتهم	الاسرى	الاب ـ الام ـ الطفل	المنزل ـ الاثاث	الخاتم ـ حفل الزواج الارادة والرغبة
تقديم الغذاء والمسكن والملبس	الاقتصادى	صاحب العمل ـ الموظف أو العامل ـ المستهلك المنتج	المصنع ـ المكتب ـ المخزن	الثقة ـ الشعار ـ العلامة التجارية
تنفيذ القوانين ـ القواعد والمستويات الموحـدة	السياسى	الحاكم ـ المحكوم	الاعمال الشعبية ـ الابنية العامة	العلم ـ القواعد الدستورية الترخيص
تنمية الاتجاهات التعاونية والاعتقاد والامل والاحسان	الدينى	رجل الدين ـ التابع أو المؤمن	الجامع ـ الكنيسة	الهلال ـ القرآن ـ الكعبة الصليب ـ الانجيل

تتداخل كل المراحل فى العملية الاقتصادية مع وجوه النشاط الترفيهية والفنية والدينية،ولهذا يكون الدين والفن والترفيه تحت هذه الظروف، أجزاء من النظام الاقتصادى نفسه ، وعندما يرسم الرجل البدائى على الحائط رسما يصور صيد الجاموس ، فانه يفعل ذلك لاعتقاده الجازم أن هذا النشاط الرمزى من جانبه ، مرتبط ارتباطا مباشرا بنجاحه فى الامساك بالجاموس فى الصيد الحقيقى فى اليوم التالى . وفى المجتمع الحديث الذى تنتشر فيه الصناعة ، تكون الفنون وعمليات الصيد عبارة عن وجوه النشاط الترفيهى . كما أنه فى بعض المجتمعات تقوم الاسرة بعدة وظائف اقتصادية وتربوية . بينما تصبح هذه الوظائف فى المجتمع الحديث من اختصاص نظم أخرى .

وخلاصة القول، ان النظم التى نجدها فى مجتمع معين ، والوظائف المرتبطة بكل منها ، مسائل تخضع لاختلافات متعددة فى المجتمعات المختلفة تبعا للمكان والزمان والظروف . والتغير فى الوظائف وفى العلاقات المتبادلة للنظم الاجتماعية ، يعتبر أحد المسائل الهامة التى يعالجها علم الاجتماع . ويقول تشابين Chapin ، اننا نعيش الان فى عصر يتكون من توازن معقد دقيق لعلاقات اجتماعية متعاونة ومتساندة[12] .

انتقال الوظائف من نظام لاخر :

لعل انتقال الوظائف من نظام لاخر يعتبر أحد الخصائص المذهلة للعصر الذى نعيش فيه . فقد فقدت الاسرة مثلا بعض وظائفها فى الانتاج والترفيه والامن الخارجى . وانتقلت هذه الوظائف المفقودة من الاسرة الى الحكومة والصناعة . ويظهر الانتقال الوظائفى بوضوح فى الوظائف المتغيرة للقرية والمدينة ، كما أن الدولة تنتقل اليها بعض الوظائف النظامية التى تفقدها النظم الاخرى نتيجة لزيادة عمليات التغير وتعدد عوامله .

ويجب أن نلاحظ هنا ، أن الثقافة مرتبة مثل ارتباط أجزاء الساعة

---

(12) Ibid., p. 523.

وليس كمثل قبضة مملوءة بالقمح • والنظم الاجتماعية التى هى أجزاء عامة من الثقافة لا يمكن أن تفهم تماما ، اذا نظرنا الى كل منها منفصلا عن الاخر ، وعلاقاتها المتبادلة تؤدى الى قيام نمط ثقافى يتغير فى مناطق كثيرة وفى أزمان مختلفة •

ومن أجل هذا فان تاريخ نظام مثل هذه الاسرة • لا يكشف عن نفس مسار التغير عند كل الناس • ولكن نظرا للتأثيرات الخاصة لعوامل الثقافة المادية وحجم السكان ، فان الاضطراد يظهر فى بعض النظم أينما وجدت فى أىدرجة من درجـات الاجتماع الانسانى • والنظم الاجتماعية الكبرى مثل الاسرة والسياسة (الحـكومة) التى وجـدت تقريبا فى كل مكان ، ليس لكل منها وظيفة واحدة ، بل لها عدة وظائف • وعندما يتغير النمط الثقافى قد تنتقل وظيفة من نظام لاخر • ومثال ذلك أن رعاية كبار السن قد انتقلت جزئيا من الاسرة الى الحـكومة أو التنظيمات الاجتماعية ذات الغرض المحدد ، كما أن وظائف جديدة لم تكن موجودة من قبل قد أضيفت الى النظم •

وهكذا قد تملك الدولة وسائل الانتاج أو قد تنظم استخدام الطاقة النووية ، ونتيجة لهذه الانتقالات والاضـافات يتسع نطـاق الدولة باستمرار • وفى المجتمع الاشتراكى تدور المناقشة حول الوظائف التى يجب أن تنتقل الى الحكومة •

الفصل السابع

الاقتصاد والمجتمع

الاقتصـــاد والمجتمــع

يعتبر النشاط الاقتصادى من أهم أنواع النشاط التى يقــوم بها الانسان ، ذلك لان الانسان ليعيش لابد أن تتوفر له مجمــوعة من الحاجات الاساسية ، بعضها من الصعب الحصول عليه خصوصا اذا اعتمد الانسان على نفسه كفرد فى البحث عنها • ولهذا فرضت عليه ضرورة اشباع هذه الحاجات أن يتعاون مع غــيره ، ومن ثم عرفت الانسانية التعاون فى المجال الاقتصادى منذ وقت طويل جدا ، الامر الذى جعل كل البــاحثين فى مسائل الاقتصاد والاجتماع يقررون أن النشاط الاقتصادى وما يتمخض عنه من نظم متعددة مسألة عــامة فى مجتمعات الانسان[1] •

ان حاجات الانسان كثيرة ومختلفة يبذل فى سبيلها محاولات متعددة لضمان الحصول عليها ، ولذلك فاننا يجب منذ البداية أن نفــرق بين حاجات الانسان وبين نجاحه فى اشباعها ، ويستتبع ذلك أن نفرق بين الحاجات الاقتصادية والســلع الاقتصادية وبين الحاجات الانسانية ، ذلك أن الحاجات الانسانية ليست كلها حــاجات اقتصادية ، فالناس يحتاجون الى الحب والحنان والاحترام والصحة والسعادة وغير ذلك مما لا يمكن قياسه عن طريق النقود ويلاحظ أن هذه الاشياء تتأثر فى الغالب بالظروف الاقتصادية للفرد ، الا أنها مع ذلك ليست اقتصادية فى المحل الاول •

ان الاشياء التى يمكن أن نشتريها بالنقود هى موضـــوع حاجاتنا الاقتصادية التى تسمى فى الغــالب السلع الاقتصــادية ، واذا تمكن

---

(١) اعتمدنا فى كتابة هذا الفصل على ما كتب عن الاقتصاد والنشاط الاقتصادى عند أجبرن ونيمكوف وماكيفر وبيج وجورج لندبرج وهوسلتز وسوروكين وهنط وعلى آراء متعددة لنا فى هـــذا الموضوع فى مجتمعنا الاشتراكى •

الانسان من امتلاك هذه السلع شانه يستطيع أن يحصل على النقود أو على أشياء ثمينة عن طريق المبادلة ، فاذا لم تكن لدى الانسان هـذه السلع أو ما يقابلها من نقـود فعليه أن يؤدى عمـلا معينا فى سبيل الحصول على أيهما . والسلع الاقتصادية ليست مادية بالضرورة لانها قد تشتمل على خدمات مثل خدمات الطبيب أو المدرس ، ولهذا يقول الاقتصاديون ان المنافع التى يمكن أن يستمتع بها الانسان فى مقـابل مبلغ معين من المال تعتبر سلعة اقتصادية ، ومثال ذلك اذا أراد شخص أن ينتفع ببيت يكون أمامه اختياران ، فاما أن يشترى خدمات واحد منها شهريا مقابل ما يسمى بالايجار ، أو قد يشترى بيتا بأكمله يظل يحصل على منافعه طالما كان البيت قدرا على ذلك حتى يبلى أو يسقط ، ولكننا اذا أردنا أن نحصل على منافع الطبيب أو المدرس فاننا لانستطيع أن نستخدم أحد الاختيارين السابقين .

ان دراسة وجوه النشاط التى عن طريقها يحاول الناس انتاج أو اكتساب السلع النادرة يعرف عادة باسم الاقتصاد ، أو بمعنى آخـر يتناول الاقتصاد بالدراسة الطرق التى بواسطتها يكسب الناس معاشهم ، فاذا كان الامر كذلك فان الاقتصاد لايهتم فى المحل الاول بوجوه النشاط المتعددة للافراد ، وانما يهتم أكثر بدراسة التنظيم الاجتماعى الذى عن طريقه يشبع بنو الانسان حاجاتهم من السلع الاقتصادية .

ان أهمية الاقتصاد كعلم اجتماعى تبدو لاول وهلة من أن كسب المعاش يعتبر ضرورة ملحة بالنسبة لجميـع البشر . ولهذا يقال ان الاعتبارات الاقتصادية تظلل حيـاة الانسان بأكملها ، ويذهب بعض الكتاب الى القول بأن هذه ذات تأثير لا يمكن حسابه فى تشكيل الثقافات والمجتمعات الانسانية واعطائها صورا متعددة .

الاقتصـاد والثقـافة :

ان تأثير الاقتصاد على الثقافة موضـوع يلاحظه علماء الاجتماع والاقتصاد معا ، وان كان التأثير ليس من جانب واحد ، فالثقافة بدورها تؤثر فى الاقتصاد ، وذلك لان مشاكل الانسان الاساسية تدور حـول

تكييف نفسه مع بيئته الطبيعية ، وهذا التكيف مسألة اقتصــادية فى المحل الاول ، ولعل أهم حــل لتلك المشاكل يقــوم على توفير السلع المختلفة التى تتطلبها البيئة كتوفير الملابس والوقود والمنازل وغير ذلك. ويلاحظ أن التقدم التكنولوجى يتحرك دائما مدفوعا بمحاولات الانسان لتحسين مركزه الاقتصادى . لان التكنولوجيا تشتمل أساسا على ايجاد أيسر الطرق وأحسنها لانتاج السلع الاقتصادية .

وتلعب العــوامل الاقتصادية دورا هــاما فى اعطاء نظم المجتمــع وعاداته شــكلا خاصا ، ويذهب بعض البــاحثين الى القول أن أكثر معتقداتنا رسوخا وأكثر آرائنا عن الصواب والخطأ تنبع من الفكرة البشرية عن الحقوق الاقتصادية ، ولهذا يزور المجتمع كثيرا لمسائل مثل السرقة والاختلاس والنصب والاحتيال التى تتضمن فى الواقع اعتداء على حقوق اقتصادية للغير ، كذلك فان معظم النظم الاجتماعية التى لا ينظر اليها على أنها نظم اقتصادية فى المحل الاول لها فى الواقــع جوانب اقتصادية كبيرة الاهمية ، وتمثل الاسرة أحسن مثال فى هذا المقام ، ذلك أنه عندما يتزوج رجل وامرأة فانهما لا يعبران عن رغبتهما المشتركة فى المعيشة معا واقــامة أسرة فحسب ، بل انهما فى الواقع يقرران تحمل واجبات اقتصادية هامة ، فالرجل بزواجه يلتزم بحماية زوجته ويلتزم الاثنــان معا بواجب اعالة أطفــالهم الى أقصى درجة مستطاعة .

ومع أن كل النظم الاجتماعية لها هذا الجانب الاقتصادى فى عالمنا الحديث فان كثيرا منها نمت فى المحل الاول لخدمة حاجات اقتصادية ، ومثال ذلك أن مجتمعنا الاشتراكى يضع أسمى أهدافه تحقيق الرفاهية الاجتماعية . ولو فحصنا مضمون هذه الرفاهية لوجدنا أنها تنطوى على تحقيق عدد من الحاجات لها طبيعة مادية كضمان العمل والعلاج والمعاش والبيت النظيف والمدرسة المــلائمة والترفيه الضرورى وغير ذلك من الحــاجات التى تعتبر سلعا اقتصادية ، كمــا أن طريق الوصول الى الرفاهية ينطوى أغلبه على عدد كبير من أنواع النشاط الاقتصــادى، كالتصنيع ورفع الكفاية الانتاجية وتوسيع الرقعة المزروعة من الارض

وتوسيع نطاق الخدمات كل ذلك فى سبيل العمل على الوصول بالدخل القومى الى أقصى درجات الكفاية ، ولهذا نقول أن الرفاهية الاجتماعية وهى مسألة مادية ومعنوية ، غاية نلتمس تحقيقها عن طريق وسائل مادية فى أساسها •

ان العلاقات الاقتصادية فى المجتمعات الحديثة والصناعية بالذات على جانب كبير من التعقيد ، وهذا راجع الى تعدد الحاجات الاقتصادية، وتعدد النظم التى تقوم على اشباعها وتداخلها تداخلا شديداً •

ويلاحظ أن انتاج السلع الاقتصادية لاشباع الحاجات الانسانية يتطلب مصادر متعددة ، تسمى هذه المصادر فى بعض الاحيان عوامل الانتاج وهى من ثلاثة أنواع :

الاول : العمل أو المجهودات المتعددة التى يبذلها الانسان •

والثانى : المصادر الطبيعية التى تعتبر أساس كل المنتجات المادية التى يصنعها الانسان ، أو التى يصفها الاقتصاديون بالارض عادة •

والثالث : رأس المال أو أدوات الانتاج التى تشتمل على الآلات وأبنية المصانع وكل ما يستطيع الانسان أن يفعله لمساعدته على الانتاج بسهولة وكفاية •

ومن المعروف أن عوامل الانتاج هذه يتغير وضعها من مجتمع لآخر، فقد تكون فى يد عدد قليل من الناس يتحكمون فى تحديد الحاجات الانسانية وتوجيهها حسبما يشاؤن ، وقد تكون فى يد الدولة التى تخصصها لمواجهة حاجات الجماهير المتزايدة ومحاولة اشباعها بطريقة تمكن الدولة ككل أن تواجه جميع المطالب وتقوم فى نفس الوقت بالخدمات الضرورية •

المعالم الرئيسية للاقتصاد القديم :

عرف المجتمع الانسانى أنواعا متعددة من النشاط الاقتصادى من أبسط أشكاله فى المجتمعات القديمة والبدائية الى أعقد صوره فى المجتمع

الحديث • ويعكس كل شكل ظروف المجتمع وتعقد الحاجات الانسانية وطابع ثقافته ودرجة تقدمه الفنى واتساع نطاق المصادر التى يعتمد عليهــا •

ونستطيع أن نلخص معالم الاقتصاد القديم فيما يلى :

١ ــ قام الاقتصاد القديم على أساس تقسيم العمل بين الرجال والنساء ، فيقوم الرجال مثلا بجمع مواد الطعام وتقوم النساء بالأعمال المتصلة بالاقتصاد المنزلى •

٢ ــ كانت الاسرة هى وحدة النظام الاقتصادى لان أعضــاءها كانوا يحاولون اشباع كل حاجاتهم بأنفسهم ، ولذلك كانت الاسرة تمثل وحدة اقتصادية مكتفية بذاتها •

٣ ــ وقد ترتب على ذلك أن المجتمعات البدائية مثلا لم تعتمد على التجارة الا فى حالات قليلة جدا ، كانت تقوم على تبادل بعض الســلع غير المتوفرة فى مجتمع والمتوفرة فى مجتمع آخر •

٤ ــ كانت الهدية واسطة هامة فى التبادل ولذلك تعتبر الهدية بديلا اجتماعيا عن النقود عند تلك الثقــافات التى لم تعرف النقود واسطة للتبادل •

٥ ــ كان الكرم والضــيافة من الامــور التى ميزت الاقتصاد القديم ،لانه كان يعتبر خدمة اقتصادية فى أساسه ، فالمسافر مثلا كان يدعى الى الطعام والراحة دون مقابل ، كذلك لا تستطيع الجماعة أن تترك أحدا يموت جوعا اذا كان هناك من يملك طعاما •

٦ ــ لم تكن هناك اتجاهات محدد ازاء الملكية ويقول ، عدد من الباحثين فى هذا المجال أن الملكية على النحو المعروف فى بعض المجتمعات الحديثة لم تكن موجودة فى المجتمعات القديمة أو البدائية ، وليس معنى هذا أن كل شىء كان من حق الجميع ، فقد كانت هناك ملكية خــاصة تتعلق بالشخص نفسه مثل الملابس وأدوات الزينة والاسلحــة والمنازل فى بعض الاحيان •

٧ ــ ان الدافع الاقتصادى لم يكن ذا طابع فردى كما هو مألوف فى المجتمعات الرأسمالية ، بل ان الرغبة فى السمعة الطيبة والشهرة كانت الدافع الاساسى فى كثير من المجتمعات البدائية الذى يكمن وراء كل نشاط اقتصادى هام ، فالرجل البدائى مثلا كان يشعر بالفخر عندما يحقق منفعة اقتصادية هامة بغض النظر عن قيمتها المادية بالنسبة له.

ويلاحظ أن كثيرا من وجوه النشاط الاقتصادى فى المجتمعات البدائية لم تكن مرتبطة بحاجات اقتصادية ملحة بقدر ما كانت مرتبطة بحاجات اجتماعية وثقافية •

ولهذا يقول اجبرن ونيمكوف ان الصيد كان يرتبط أحيانا ارتباطا قويا بالدين والسحر كما أن بداية التجارة ارتبطت عند بعض مجتمعات الصيادين بالاخلاق الحسنة ومن ثم يكون من السهل أن نربط بين الاقتصاد وبين المستويات الاجتماعية،لان العمليات الاقتصادية المرتبطة بالتبادل والتجارة والانتاج والتوزيع كانت متفقة تماما مع قيم المجتمع، واذن فليس غريبا أن يقال أن الحياة الاقتصادية البدائية كانت متبادلة الارتباط بالاسرة والدين وعادات المجتمع وعرفه •

تطور الاقتصاد :

لم يكن الاقتصاد البدائى بسيطا فى جميع مظاهره ففى بعض المجتمعات البدائية ، عرف التعاون فى العمل وفى الزراعة وبناء المسكن• كما أن بعض أقسام هذه المجتمعات تخصصوا فى انتاج أدوات معينة وسلع متعددة مثل الملح والحديد ، الامر الذى أدى الى ظهور التجارة واتساع نطاق العلاقات التجارية بين عدد من هذه المجتمعات • ومع ذلك يجمع الانثروبولوجيون على أن الصورة العامة للحياة الاقتصادية عند البدائيين لم تكن معقدة كما هو شأن الاقتصاد اليوم •

وهذا راجع الى أن السلع التى كانت متداولة قليلة وغير متنوعة الى حد كبير ، وظل الاكتفاء الذاتى من أهم الخصائص التى تميز الاقتصاد البدائى • ولذلك لم تكن التجارة أو التخصص أو التنظيم الاقتصادى من السمات الظاهرة له •

ان الاقتصاد الحديث الذي نعرفه اليوم لم تتبين معالمه ويأخذ طابعا محددا الا بعد أن اتسع نطاق المجتمعات وتزايد السكان واختفاء معالم الاكتفــاء الذاتى تدريجيا بين الوحدات الصغــيرة التى كان كل منها مجتمعا مستقلا بذاته •

١ ــ لقد بدأ السكان يزدادون فى أجزاء متعددة من العالم منذ زمن بعيد ، فظهرت المدن وقام التنظيم السياسى على أساس وحدات كبيرة حلت محل التنظيم القبلى • وقد كان من أهم نتائج هذا التغير الزيادة التدريجية فى «التخصص الاقتصادى» • وعلى الرغم من أن عــددا كبيرا من الناس ظل يعمل فى الصيد أو الزراعة ، الا أن أعدادا تتزايد باستمرار قصرت عملها على الادارة والحرب وملكية الارض دون العمل بها • والظاهرة البارزة فى هذا المجال أن عــددا من سكان المدن بدأ يشغل نفسه بانتاج أشياء متعددة مثل الاحــذية والملابس التى تباع لبقية السكان الذين كانوا يكتفون بذواتهم الى حد كبير •

ان نمو التخصص وزيادته يعنى فى نفس الوقت نمو التجارة • ويقول علماء الاقتصاد ، ان التخصص والتجارة يسيران جنبا الى جنب، ذلك لان الناس ينتجون ســلعة أو سلعتين يضطرون الى الذهاب الى السوق ويشترون كل شىء آخر يحتاجون اليه،اما بأن يقدموا منتجاتهم مباشرة لمبادلتها بمنتجات الاخرين أو يقدمون نقودا حصلوا عليها من بيع سابق لمنتجاتهم • ولقد ظل التبادل فترة معينة أساس التجارة الى أن تبين نتيجة لاتساع نطاقه أنه أصبح وسيلة لا يمكن الركون اليها ، ومن ثم ظهرت النقود لتصبح واسطة فى التبادل وتطورت الى حد كبير فى وقتنا الحالى ، فأصبحت السندات أو الاوراق المالية المتنوعة تحل محلها فى كثير من المبادلات الاقتصادية على نطاق واسع •

والنقــود هى أى شىء يرتضيه مجتمع معين كواسطة فى التبــادل وكمقياس للقيمة • ويلاحظ أنه عندما ظهر التخصص فى الايام الاولى لتطور الاقتصاد ظهــر معه نوع من الاتجــاه الى تشجيع التخصص الاقليمى ، ويقــول الانثروبولوجيون ، ان التخصص الاقليمى هــذا

عرفته المجتمعات البدائية عندما كان يتخصص مجتمع بدائى فى نوع معين من السلع ، ويتخصص مجتمع آخر فى نوع آخـر : ويحصل كل مجتمع على سلعة الاخر عن طريق التبادل •

وبمرور الزمن تحسنت وسائل النقـل والمواصلات فاتسع نطاق التخصص الاقليمى •

٢ ـ من العوامل التى أدت الى نمو التخصص ما ظهر من فائدته الكبرى بالنسبة للناس الذين لمسوا أن بعض الاقاليم يمكن أن تنتج سلعا لا تستطيع أقاليم غـيرها أن تنتجها أو قـد يكون فى استطاعتها انتاجها ، ولكن بزيادة ملحوظة فى التكاليف • كما أن الافراد تبينوا أنه بالتركيز على انتاج شىء واحد فانهم يكتسبون مهارة وسرعة • الامـر الذى يمكنهم من انتاج سلعة رخيصة لم تكن تتيسر بدون التخصص • ولكن الاقاليم والافراد عندما يتخصصون فانهم يصبحون معتمدين على غيرهم وخاصة فى السلع التى لا ينتجونها وتكون ضرورية فى الاستهلاك، ولذلك كما زاد التخصص كلما زاد التساند بين أقسام المجتمع الواحد، وقد عبر دوركايم عن تلك الحقيقة فى دراسته الشهيرة «تقسيم العمل الاجتماعى» عندما أدرك أن زيادة تقسيم العمل فى المجتمع يؤدى الى زيادة الاختلاف والى زيادة التساند بين أعضاء المجتمع ، وقد رتب على ذلك نتيجة هامة ، وهى أن تقسيم العمل يؤدى الى تغير أساسى فى طابع المجتمع عندما يتحول من وحدة آلية تقوم على التشابه الى وحدة عضوية تقوم على الاختلاف : وفى كلتا الحالتين يتضامن المجتمع تضامنا مختلفـا •

٣ ـ من أهم خصائص الاقتصاد فى المجتمع المعاصر استخـدام القوة الميكانيكية فى الانتاج الذى يعتبر فى حد ذاته ثورة كبرى فى تاريخ الانسان ويقول أجبرن ونيمكوف : ان القوة الميكانيكية قد أحدثت ثورتين هامتين : «الاولى» كانت فى التغير السريع فى انتاج السلع المـادية والخدمات وما ترتب على ذلك من ظهور نظم اقتصادية جديدة،وانتعاش ما كان موجودا منها بالفعل • «والثانية» الثورة التى حدثت فى كثير من النظم الاجتماعية المرتبطة بوجوه النشاط الاقتصادى المختلفة •

٤ ــ لقد أدى التصنيع الى ادخال القوة الميكانيكية فى الصناعة الامر الذى عقد من العلاقات الاقتصادية بطرق متعددة ، ومن مظاهر هذا التعقد أن ذهب التخصص الى أقصى حد لم يكن متصورا من قبل، ويلاحظ أنه كلما زادت الآلات تعقدا ، كلما زاد التخصص تعقدا أيضا، كما أنه فى الاقتصاد الصناعى يتخصص عدد من الناس فى مراحل انتاج السلع المختلفة كبناء المصانع واصلاح الآلات وحفظ المنتجات ، والادارة الصناعية والتسويق ، وغير ذلك من العمليات المرتبطة بالانتاج •

٥ ــ وقد أحدث التصنيع انقلابا هاما فى مجتمعات الانسان ، وخاصة فى أول مراحله عندما تفكك المجتمع القديم ، واختل توازن البناء الاجتماعى وما ترتب عليه من اختلاف بعيد المدى فى الابعاد الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تربط الناس فى المجتمع القديم ، فالطبقة التى عملت بالصناعة ومولتها حرصت منذ البداية على أن تحل من ناحية الثروة والسلطة السياسية محل الاقطاعيين القدامى ، ونتيجة لازدياد قوتهم استطاعوا أن يقفزوا الى مراكز السلطة ويسيروا حركة الانتاج والتنظيم الاجتماعى المرتبط به وفق مصالحهم ، ويلاحظ كثير من المفكرين ، من أمثال ، برودون وسان سيمون أن الصناعة جلبت المشاكل المتعددة على المجتمع فزادت جماهير الشعب فقرا ، وازداد بؤس العمال الذين كانوا يعملون بالمصانع ، ويعيشون فى ظروف شديدة الصعوبة نتيجة لقلة أجورهم ، وعدم العناية بصحتهم أو اسكانهم ، أو رفع كفايتهم الانتاجية • وتعتبر نظريات كارل ماركس فى القرن التاسع عشر رد الفعل الثورى لهذه المظالم والكوارث التى خلفتها الصناعة • ويقول كارل ماركس فى هذا الصدد ، ان الصناعة فى حد ذاتها ليست شرا ، ولكن استغلالها واستغلال العاملين فيها هو الشر الذى يجب القضاء عليه •

ومن الملاحظ أن ازدياد التصنيع واتساع نطاقه خلق طبقة من الرأسماليين أحسوا بالتدريج بمدى ما يربطهم من مصالح تفرض عليهم أن يتجمعوا وأن يتحدوا لمواجهة التحديات العديدة التى أخذت تظهر بين الحين والاخر ، ولهذا سعوا الى القبض على زمام الامور فى

مجتمعاتهم ، وتوجيه السياسة العامة فى اتجاه مصالحهم الاساسية ، فشجعوا الاستعمار مثلا لفتح أسواق جديدة لمنتجات مصانعهم،وزيفوا الديمقراطية ، وأكدوا الحقوق اللبرالية مثل حرية الكلام والصحافة التى يملكونها وحرية الاجتماع ، دون أن يشيروا ولو من بعيد الى الحقوق الاجتماعية التى أصبحت منطق القرن العشرين وخاصة فى التحول الاشتراكى المتدرج فى كثير من بلاد العالم • ويلاحظ أن الرأسماليين استعاضوا بالحقوق الاجتماعية ما يسمى بالخدمات الاجتماعية التى تصوروا أنها ستقوم بديلا عن تلك الحقوق الحيوية التى أصبحت فى عالم اليوم مرتبطة بكرامة الانسان وحريته الحقيقية •

٦ ــ عندما كانت الوحدة الاقتصادية فى المجتمعات القديمة والبدائية هى الاسرة ، كانت القوة البشرية العاملة تتكون من أعضائها أو من الاقارب المرتبطين بها • وعندما اتسع نطاق هذه الوحدة بالحاق العبيد بها أو الخدم أو الموالى ظل رئيس الاسرة هو المشرف على النشاط الاقتصادى ، بمعنى أنه كان يحدد عمل كل فرد ، ويحدد فى نفس الوقت طريقة التعامل ، ولذلك كان هو وحده الذى يحدد طبيعة الانتاج ، وطريقة التوزيع والاستهلاك • ولكن عندما بدأت الثورة الصناعية وقامت المصانع وزاد حجمها ، وزاد عدد العمال الذين يعملون بها حتى وصلوا الى آلاف عديدة تغير شكل الانتاج وطبيعة الاشراف وتحول المصنع من وحدة انتاجية الى مجتمع صغير • وقد ظهرت الحاجة مع ازدياد التوسع الصناعى الى ضبط العلاقات التى تقوم بين أطراف العملية الانتاجية ، وخاصة القوة البشرية العاملة وأصبح من الضرورى تنظيم العلاقات القانونية التى تربط المصنع والعاملين فيه بالحكومة وبقية المجتمع • ولسنا نريد هنا أن نتعرض فى اسباب لتطور العلاقات الصناعية،ولكننا نكتفى هنا بالاشارةالى تزايد الاهتمام بالصناعةوعلاقتها بالمجتمع قد أدى بجانبالتشريعات القانونية المتعددة التى تتعلق بحقوق العامل وواجباته ومنظماته المختلفة كالنقابات ، الى قيام ما يسمى حاليا «بعلم الاجتماع الصناعى» الذى يحلل فى المكان الأول التفاعل بين أعضاء هذا النسق الاجتماعى (المصنع) •

٧ ــ وقد امتد التصنيع الى الزراعة فاستخدمت فيها الآلات ومن الملاحظ أن استخدام الآلات فى الانتاج الزراعى قد أحدث ثورة فى هذا المجال الذى ظل قرونا طويلة يتبع نظاما تقليديا متشابها فى كل أنحاء العالم • ومن نتائج هذه الثورة أن بدأت معالم المجتمعات الريفية فى بعض المجتمعات الصناعية تختفى تدريجيا مع زيادة كبيرة فى نفس الوقت فى عدد المدن وما ترتب عليها من سيادة الطريقة الحضرية فى الحياة كنمط من السلوك يميز المجتمع ككل • ونحن فى مجتمعنا نلاحظ أن اتساع نطاق التصنيع يؤدى الى تزايد حركة الهجرة من القرية ألى المدينة والى تناقص السكان تدريجيا فى المجتمع الريفى ولسوف يزداد المجتمع الريفى تناقصا من حيث السكان كلما اتسع نطاق الصناعة عندنا وكلما زاد استخدام الآلات فى الزراعة •

٨ ــ ان النظرة التقليدية للاقتصاد ، تتغير الان بسرعة نظرا لارتباط الاقتصاد فى المجتمع الحديث بالرفاهية الاجتماعية حتى أن بعض علماء الاقتصاد يفضلون تسميته (الاقتصاد الاجتماعى) ذلك أن النمو السريع فى النظم الاقتصادية من حيث الحجم والقوة منذ استخدام البخار والقوةالميكانيكية أدى الى اختلاف فى النظام الاجتماعى ظهر فى الدول الرأسمالية خاصة فى صورة الصراع المستمر بين العمال وأصحاب المصانع • ولهذا لم تجد الدول الرأسمالية مفرا فى السنين الاخيرة لتجنب الازمات الاقتصادية والبطالة من أن تزيد من تدخلها فى الحرية الاقتصادية عن طريق التشريع • ولكن زيادة تدخل الحكومة فى المشاريع الاقتصادية الرأسمالية لن يؤدى الى القضاء على المشاكل التى أصبحت ملازمة للنظام الرأسمالى عامة نظرا للوظائف الاجتماعية المتعددة التى أصبح النظام الاقتصادى يقوم بها كما اتسع نطاق التصنيع • وقد حلت الدول الاشتراكية هذا التناقض بين المصالح الخاصة للرأسمالية المحتكرة وبين حاجات المجتمع المتزايدة ، اما بفرض رقابة كاملة على الانتاج أو بفرض ضريبة تصاعدية باهظة على فائض الانتاج أو بملكية وسائله لتتمكن الدولة بحرية من أن تنهى سيطرة جماعة ضاغطة على سياسة الحكم ، ولتتمكن فى نفس الوقت من ضبط

النمو الاقتصادى والاجتماعى على أساس خطط مرسومة تقدر امكانيات المجتمع وطاقته البشرية وخبرته الفنية فى نطاق زمنى محدد ٠

ويلاحظ أن أكثر كتب علم الاجتماع المتداولة عندنا باللغات الاجنبية تفضل عند معالجة موضوع الاقتصاد والمجتمع تحليل النظام الرأسمالى باعتباره النظام الاقتصادى الطبيعى ، وتحاول أن تكشف عن بنائه وعن وظائفه وعن تطوراته ليقابل حاجات المجتمع ، انها تحاول أن تركز على عدد من المسائل المتعلقة بالحرية والدافع الفردى والنمو التكنولوجى ودور النقابات العمالية وغير ذلك من الموضوعات المرتبطة بوجوه النشاط الاقتصادى ، كما أنها تحاول أن تظهر فى نفس الوقت النظام الاشتراكى على أنه مصادرة للحرية يقوم على تخطيط لا ينجح فى بلوغ أهدافه فى نهاية الامر ، وهم بذلك يحاولون وصف الاقتصاد السائد فى مجتمعهم ويجتهـدون فى تبرير ايديولوجيته دون أن يقدموا الصـورة الاخرى استكمالا للبحث واتفاقا مع الموضوعية التى يجب أن يتميز بها العلم٠ ان معالم الاقتصاد الاشتراكى فى مجتمعنا خاصة تبين بصورة واضحة الوظيفة الاجتماعية له ، فالتصنيع وتوسيع الرقعة الزراعية تهدف الى زيادة الدخل القومى وزيادة الدخـل الفردى بالتالى ، وتمكين الدولة من توسيع نطاق الخدمات الضرورية وزيادتها ليمكن بلوغ مرتبة الرفاهية الاجتماعية عن طريق التخطيط فى أقصر فترة ممكنة من الزمان ٠

الاقتصـاد الاشتراكى :

يمكن النظر الى الاشتراكية على أنها مذهب اقتصادى يتولى فيه المجتمع مسئولية انتاج السلع الاقتصادية ، وتكون فيه الحكومة مسئولة مسئولية مباشرة عن الانتاج لانها تكون فى المجتمع الصناعى خاصة التنظيم الوحيد الذى يمثل كل الجماعة الاجتماعية وبعض الاشتراكيات مثل اشتراكيتنا تسمح بقطاع خاص فى الانتاج بشروط معينة ، الا أن غالبية وسائل الانتاج الاساسية تكون مؤممة لصالح المجتمع ، وفى بعض الدول التى تطبق النظام الاشتراكى للكامل قد لا يكون هناك قطـاع خاص ، لان جميع وسائل الانتاج تملكها الحكومة وتديرها عن طريق

موظفيها • وفى النظام الاشتراكى يسمح للفرد بأن يمتلك بيتا أو يغير عمله دون اذن سابق ليبحث عن عمل آخر فى المؤسسات الانتاجية التى تديرها الحكومة ، ومع ذلك قد يتوقف هذا التنقل على سياسة الحكومة الاشتراكية اذا رأت فيه اجـراء لا يهدد الصـالح العام ، وليس من الضرورى فى الاشتراكية أن تكون الاجور متساوية وذلك لان الاجور تتوقف فى بعض الحالات على مبلغ أهمية الخدمات التى يؤديها المواطن للمجتمع ويدخل فى الاعتبار عند تحديد الاجور فى المجتمع الاشتراكى المسائل المتعلقة بالتدريب والمهارة والخبرة والقدرة •

الخصائص المشتركة للسلوك الاقتصادى :

يتوقف بقاء أى نوع من أنواع الحياة على العمل الذى يقوم به كل أعضاء المجتمع أو بعضهم والعمل هنا هو ذلك النوع من النشاط الذى يعتبر وسيلة لغاية اقتصادية ، وهنا يجب أن نفرق العمل عن وجـوه النشاط الاخرى التى تهدف الى اشباع ذاتى • ولما كان العمل على هذا النحو مسألة أساسية فى بقاء الانسان فانه يتميز طالما أنه مرتبط بغاية اقتصادية بالخصائص الاتية :

١ ـــ تتوقف نسبة عدد الذين يشتغـلون بالنشاط الاقتصادى من السكان على تداخل أربعة عوامل هى : المصادر الطبيعية ومدى السهولة فى الحصول عليها ، طبيعة النمو التكنولوجى ، كفاية التنظيم ، ومستوى المعيشة • ويلاحظ أن المجتمعات الانسانية تختلف اختلافا كبيرا فيمـا يتعلق بمصادر الثروة والتكنولوجيا ومستوى المعيشة التى يترتب عليها اتجاهات متعددة بشأن توزيع الثروة •

٢ ـــ تزداد كفاية الانسان فى العمل عن طريق الادوات والتكنولوجيا والتنظيم الاقتصادى ، وينشأ تقسيم العمل نتيجة لاختلاف الناس فى قدرتهم على القيام بأعمال معينة •

٣ ـــ تعترف جميع المجتمعات بضرورة تقدير العاملين على اجادتهم لاعمالهم ليكون هذا بمثابة حافزا لهم على اتقان العمل والمحـافظة على معـداته •

٤ ــ ان الخلاف على المسائل السابقة يجب أن يحل على أساس من البحث عن الحقيقة ، ولهذا يجب الاعتماد دائما على كلمة العلم ، كما أن العلم يستطيع أن يكتشف مبلغ كفاية ادارة المصانع أو عمـالها على انتاج سلع معينة بأقل النفقات •

٥ ــ لا يجب أن نغالى فى مدى ما يمكن للعلم أن يقدم للمجتمع، بل يجب أن نحدد نطاقه فى كشف مساوىء أو محاسن أنواع متعددة من التنظيم الاقتصادى ، ذلك لان العلم يستطيع أن يحل الناس فى واقع الامر عما يفعلونه •

ويترتب على ذلك أن الذين يدعـون أن الرأسمالية هى الاسلوب الوحيد الذى يؤدى الى النمو الاقتصادى مخطئون • لان العلم يكشف لنا أن هناك أنماطا مختلفة للتنظيم الاقتصادى يتوقف طابع كل منها على اعتبارات تاريخية وايديولوجية الى جانب الظروف الديناميية التى قد تجعل تفضيل نظام بعينه أمرا محتما •

الفصل الثامن

الاســـــرة

الاســـــــرة

دراسة الاسرة فى عـلم الاجتماع من أكثر الموضوعات التى نالت اهتمام أغلب الباحثين فيه : وقــد عبر كثيرون عن المكان الهام الذى تشغله الاسرة فى المجتمع بطرق متعددة ، حتى أن أحد تعريفـات علم الاجتماع فى وقت ما كانت تجعل الاسرة الموضوع الرئيسى لهذا العلم. وليس هناك موضــوع اتفق عليه علمــاء الاجتماع مثلما اتفقوا حول المسائل التى يجب معالجتها عند دراسة التنظيم الاسرى ، كمـا أن الابحاث عن الاسرة القديمة وعن التنظيم الاسرى فى المجتمعات البدائية كثيرة الى الحد الذى مكن علم الاجتماع من أن يطور الدراسة العلمية لهذا الجانب الهام من موضوعاته المتعددة . ومن أجل هذا نجد من المناسب أن نوجز فى مطلع هذا الفصل لتاريخ الدراسات الاسرية ، حتى نتمكن من اعطاء صورة متكاملة لاتجاهات البحث فى أهم وحدة اجتماعية فى المجتمع[1] .

الدراسات الاسرية :

على الرغم من كثرة الدراسات التى أجريت حول موضـوع الاسرة ، فليس لدينا فى الوقت الحاضر تاريخ شامل للمحاولات التى بذلت على مر التاريخ لفهم هذا النظام الانسانى ، وكل الذى نستطيع أن نفعله هنا أن نعرض المسألة فى خطوطها العريضة :

١ ــ يتبين الباحث من استقــراء تاريخ عــلم الاجتماع الاسرى (وهو فرع من علم الاجتماع يقتصر على دراسة مسائل الاسرة) أن

---

(١) يرجع فى سبيل مزيد من التفاصيل الى « برجس : الاسرة »، والى «سوروكين : المجتمع والثقافة والشخصية» كما أن الدراسـات التى جمعها كل من «بل وفوجل» عن الاسرة (١٩٦٢) مفيدة جدا فى الاحاطة بالابحاث المتنوعة التى عالجت كل المسائل المتعلقة ببناء الاسرة ووظائفها.

هناك عـدة نمـاذج من الدراسة تأثرت بمنـاهج العـلم من ناحية وبالايديولوجيات السياسية والدينية من ناحية أخرى •

٢ ــ عندما كان علم الاجتماع الاسرى فى أول مراحله فى أواخر القـرن التاسـع عشر ، كانت الافكار التطـورية المتأثرة بالدارونية الاجتماعية تسيطر على كل نواحى الاهتمام بموضوع الاسرة ، ولذلك كانت أهم موضوعات البحث تدور حول الاجابة عن عدد من الاسئلة مثل : هل المجتمعات الانسانية من حيث الاصل تأخذ بنظام الوحدانية فى الزواج أو بالنظام المختلط ؟ أو ، هل الاسر من حيث النسب أبوية أم أموية ؟ ومن الطبيعى أن الاجابة على هذه الاسئلة تتعلق بأصـل الاسرة الانسانية ونمـوها كانت تتطلب استخدام الوثائق التاريخية والفولكلور والاساطير • أما اذا اتجه الباحث الى دراسة الاسر دراسة مباشرة فان مادته كان يستمدها من الحقائق المعروفة عن أكثر المجتمعات بدائية • وقد كان يظن فى هذا الوقت أن الانساق الاسرية للمجتمعات البدائية المعاصرة مشابهة للصور الاولية للاسرة ، ولذلك فان دراسة هذه الاسر يمكن أن تلقى ضوءا على أصل الاسرة الانسانية ونموها •

٣ ــ ان نتيجة هذه الاستقصاءات لم تكن متسقة أو شاملة،ونشير هنا الى أن مورجان وانجلز حاولا أن يدللا على وجود أمثلة من الزواج المختلط (الشيوعية الجنسية) والزواج الجماعى فى المجتمعات البدائية، وهذا فى الوقت الذى حاول فيه وستر مارك أن يقدم الادلة التى تثبت أن الاسر البدائية كانت أسر (وحدانية) ومخلصة فى نفس الوقت •

٤ ــ جمع هنرى مين عددا كبيرا من الادلة التى تثبت أن النظام الابوى كان موجودا فى الصور الاولية للاسرة ، ولكن باخوفين قـدم أدلة أخرى تثبت أن الاموية كانت سابقة فى وجودها فى المجتمع الانسانى على الابوية •

ونظرا لان الادلة التى قدمها هؤلاء لم تكن قاطعة أو واضحة فقد ظلت موضوعات الخلاف بينهم قائمة • ولكن هذه الدراسات لم تذهب عبثا لان المعلومات التاريخية والانثولوجية التى جمعت ، جعلت الاهتمام

يتركز حول الاسرة ، الامـر الذى ترتب عليه فيمـا بعد أن أصبحت موضوعا هاما للبحث العلمى ، ظل يتطور حتى أصبح الاتفاق على عدد من المفاهيم المتعلقة ببناء الاسرة ووظائفها نقطة التقاء هامة بين علماء الاجتماع اليوم •

٥ ـــ وقد تحول الاهتمام فى أواخر القرن التاسع عشر الى دراسة مشاكل الاسرة المعاصرة وقت ذاك ، نتيجة للتغيرات الاجتماعية السريعة وما ترتب عليها من تصدعات فى عدد كبير من الاسر ، ووقوع نسبة منها على خط الفقر • ومن أبرز الاستجابات التى ظهرت فى هذا القــرن الابحاث التى أجراها سدنى وبياتريس و ب•وراونترى التى دارت حول الحياة والعمل فى مـــدن أوربا وأمريكا • ويلاحظ أن بعض الدراسات المماثلة لمشاكل الاسرة أهملت عمدا دراسة الظروف الاقتصادية والتفتت الى مسائل مثل المكان والطابع العنصرى •

٦ ـــ ويعتبر لبلاى من أبرز العـلماء الاجتماعيين الذين اهتموا بموضـوع الاسرة ، وخصوصا الجانب الاقتصادى منها ، ويبدو هـــذا من منهجه فى الدراسة الذى جعل مستوى المعيشة ، المقياس الموضوعى، الذى عن طريقه يمكن كشف بناء الاسرة ووظائفها[2] •

٧ ـــ وقد تحول الاهتمام فى مطلع القرن العشرين الى استقصاء مشاكل أخرى غير مستوى المعيشة أو الفقر ، نظرا لازدياد حـــالات الطـــلاق والانفصال ، كما أجريت عـــدة دراسات على نسب المواليد واشتغال المرأة وظهور النزعة الفردية وما ترتب على ذلك من آثار على وجود الاسرة كنظام فى المجتمع • ويلاحظ أن أكثر هذه المسائل كانت تدرس عن طريق استخدام الاحصاء الذى يستخدم الارقام المسجلة عن الطـــلاق والجريمة والاجهـــاض وحجـــم الاسرة ونسب المواليد والوفيات •

٨ ـــ ومن الجدير بالذكر هنا أن عددا من الباحثين أدرك منذ أوائل

(2) Sorokin, Op. Cit., p. 66.

هذا القرن عدم جدوى استخدام الاحصاء وحده فى دراسة الاسرة ، وتتلخص دعواهم فى أن الاسرة تميل بسرعة الى التفكك ، وأن أسرة جديدة فى سبيلها الى الظهور ، ولهذا يجب أن يكون تحليل مسـائل الاسرة مرتكزا على نوع خاص من التفكير يتصور الاسرة جزءا متكاملا من مجتمع يتغير بسرعة •

٩ — وعندما بدأت دراسة الاسرة تتقدم بدأ الباحثون يدخلون فى الدراسة عوامل أخرى لم تكن من قبل موضـع الاهتمام ، ومن أهم العوامل التى استحوذت على اهتمامهم «عامل التوافق» الذى اعتبر أساسا هاما فى ثبات الاسرة وفى تكامل أعضائها ، كما أصبح من المألوف مناقشة مشاكل التوافق الشخصي والجنس وأثره فى حياة الاسرة •

١٠ — وتعتبر دراسة برجس نقطة تحول فى اتجاه البحث الاسرى• ويبدو هذا التحول من تعريفه للاسرة بأنها وحدة من شخصيات متفاعلة• وجوهر هذا التحول يظهر فى التقليل من أهمية الاسرة كبناء اجتماعى، والتركيز بالتالى على اتجاهات الاعضاء • وقد ظل هذا الاتجاه الجديد يتلقى مصادر جديدة من التأييد والتثبيت عن طريق الدراسات التى تجلى فى علم النفس والتحليل النفسى •

١١ — وقد بدأ الباحثون فى الاسرة منذ الحرب العالمية الثـانية نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية التى ترتبت على هذه الحرب ، يهتمون بالدراسات المقارنة ، ويحاولون أن يكشفوا عن أنماط الاسرة المتعددة،ويبينون كيف يتميز كل نمط منها بطابع خاص فى العلاقات وفى رعاية الاطفال وفى تربيتهم •

١٢ — من أبرز الاتجاهات الحديثة الان ذلك الاتجاه الذى يهتم بدراسة كل التفاصيل التى تكشف عن الحياة اليومية للاسرة فى محاولة لفهم علاقة الاسرة كنسق اجتماعى بالانساق الاخـرى فى المجتمع من الناحيتين البنائية والوظيفية ، كما أن الاهتمام بالفرد فى الاسرة أصبح من العلاقات المميزة لهذا الاتجاه عند عدد كبـير من الذين يفضلونه كمدخل أساسي لفهم الاسرة الحديثة •

وهكذا نتبين أن دراسة الاسرة مرت على عدة تطورات كانت تعكس ظروف العصر وطابع الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولذلك عندما أدرك الباحثون أن الاسرة أخذت تواجه عددا من المشاكل نتيجة لانتشار التصنيع وما صاحبه فى أول الامر من بؤس وفقر وهجرة ، حولوا اهتمامهم الى دراسة العوامل التى تؤدى الى تصدع الاسرة . وما قد يترتب عليه من طلاق وانفصال وانحـراف للاحداث . وتحول اتجاه الباحثين مرة أخـرى عندما تزايد اشتغـال المرأة وما ترتب عليه من تغيرات هامة فى وظائف الاسرة وفى ظهور الفردية ، وذلك نظرا لتغير عمليات التنشئة الاجتماعية وعـلاقة الاسرة بالمجتمعات الاخـرى فى المجتمع . كما أن الاهتمام الحديث بالفرد عند دراسة الاسرة يصور النظرة الخاصة لطبيعة العلاقات الاسرية فى بعض المجتمعات التى بلغت فيها الفردية مبلغا واضحا . ونحن حين نتعرض لمجتمعنا لبحث الاسرة فيه ، نجد أنها أخذت تتغير تقريبا فى الاتجاه الذى سارت فيه الاسرة فى بعض المجتمعات التى تسبقنا فى مراحل النمو الاقتصادى والصناعى. ولهذا نجد من المناسب أن نؤكد على أهمية دراسة الانماط الاسرية فى مختلف أجزاء مجتمعنا فى الوقت الحاضر لما لمثل هذه الدراسة من أهمية فى الدراسة المقارنة على مستوى عـالمى ، أو على مستوى التغير فى مجتمعنا نفسه فى السنين القادمة .

تعـريف الاسرة :

ظهرت خلال السنوات الماضية عدة تعريفات للاسرة تتجه جميعـا الى ابراز الارتباط الدائم بين الرجل والمرأة وما يترتب على ذلك من انجاب ورعاية للاطفـال والقيام ببعض الوظائف التى لم تسقط عن الاسرة فى تطورها من صورة الى أخرى بتغير المجتمع والثقافة .

١ — ويرى اجبرن ونيمكوف ، أن الاسرة عبـارة عن «المنظمة» دائمة نسبيا تتكون من زوج وزوجة مع أطفال أو بدونهم ، أو تتكون من رجل وامرأة على انفراد مع ضرورة وجود أطفال فى هذه الحالة .

ويلاحظ أن الوظائف الجنسية والابوية من الامور التى تميز الاسرة

لانهما المبرر الاول لهذا النظام ، كما أنهما من مميزات الاسرة فى كل الثقافات ، ويلاحظ أن الزوجين وذريتهما هم القوة البشرية الاولية التى تكون بناءه الخاص[3] .

ولا تقتصر الاسرة بالضرورة ، مع ذلك ، على هؤلاء الافـراد أو تلك الوظائف . فقد تكون أكبر من ذلك كثيرا فتشمل الاجداد والاقارب والاصهار والاحفـاد ، الذين يكون وحـدة تسمى فى بعض الاحيان «العائلة» أو «الدوار» أو الاسرة الممتدة أو المركبة . ولا يثبت بناء الاسرة على وضع معين ، لانه يتغير بتغـير الثقافة ، وبالتالى تكون وظائف الاسرة مرنة الى حد كبير ، فقد تقوم بعدد كبير من الوظائف ، وقد لا تقوم الا بوظائف قليلة جدا . فالى جانب الوظائف التى سبق الاشارة اليها ، قد تقوم الاسرة بالخدمات الاقتصـادية لاعضائها ، وقد تعلمهم وتمدهم التوجيه الدينى وتهيىء لهم وسائل الترفيه وتدافع عنهم ضد أى خطر من أى نوع ، كمـا أنها قد توفر الحنـان والمودة والاشباع الجنسى . وفى ضوء هذه الاعتبارات يقرر اجبرن ونيمكوف أنه من الممكن أن نفسر الاسرة فى ضوء البناء والوظائف المتغيرة .

٢ ـ ويعـرف كل من «بل» N. W. Bell و «فوجـل» E. F. Vogel الاسرة ، بأنها وحدة اجتماعية تتكون من رجل وامرأة يرتبطان بطريقة منظمة اجتماعيا مع أطفالهما . ونظرا لان بعض الاطفـال فى الاسرة يصبحون أعضاء فيها عن طريق التبنى ، فلا يلزم اذن أن يكون الاطفال مرتبطين بيولوجيا بها . وتسمى هذه الوحدة عادة «الاسرة»[4] .

٣ ـ ويعرف بيسانز الاسرة ، أنها امرأة وطفلها ورجل يرعاهما ، والرجل غالبا ما يكون والد الطفل ، ولكن فى بعض المجتمعات قد يكون أخ الزوجـة . ومن أجل هذا كان التعـريف الشامل للاسرة يجب أن ينظر اليها باعتبـارها الجماعة النظـامية المسئولة عن تكاثر السكان .

---

(3) Ogburn & Nimkoff; Sociology, N. Y., 1960, p. 441.

(4) Bell, N. W. & Vogel, E. F. (eds.), A Modern Introduction To The Family, New York, 1962. p. I.

وينظر كل مجتمع الى الزواج على أنه الطريق القانونى السليم لانشاء الاسرة ، وهو اذن الاتحاد الجنسى الرسمى الدائم لرجل أو أكثر مع امرأة أو أكثر ؛ ويقـوم هذا الاتحـاد على مجمـوعة من الحقـوق والواجبات(٥) .

٤ ــ أما لندبرج ، فيرى أن الاسرة هى النظـام الانسانى الاولى، ومن أهم وظائفها انجاب الاطفال للمحافظة على النوع الانسانى ، كما أن النظم الاخرى تمتد أصولها فى الحياة الاسرية . أى أنماط السلوك الاجتماعى الاقتصادى والضبط الاجتماعى والتربية والترفيه والدين ، نمت فى أول الامر داخل الاسرة .

ولهذا كانت الاسرة المبكرة فى تاريخ الانسان مجتمعا صغيرا كاملا ولم تكن نظاما له وظائف متخصصة كما هو الحال فى المجتمعات الحديثة المعقدة . ويكمن تغير الاسرة فى تحولها من مجتمع صغير مكتف بذاته الى وحدة وظيفية متخصصة داخل مجتمع يزداد نموا باستمرار(٦) .

٥ ــ وينظر ماكيفر وبيج الى الاسرة على أنها جماعة ، فيقولان : أنها جماعة دائمة مرتبطة عن طريق علاقات جنسية بصورة تمكن من انجاب الاطفال ورعايتهم. وقد تكون فى الاسرة علاقات أخرى ، ولكنها تقوم على معيشة الزوجين معا ، اللذين يكونان مع أطفالهما وحـدة متميزة . وتعرف هذه الوحدة بمجموعة معينة من الخصائص مشتركة فى المجتمع الانسانى بأسره هى :

أ) علاقة زواجية (جنسية) .

ب) صورة من صور الزواج أو أى ترتيب نظامى تقوم على أساسه هذه الرابطة الزواجية وتستمر خلال الزمن .

جـ) نظام للتسمية يتضمن فى نفس الوقت طريقة لتحديد سلسلة النسب .

---

(5) Biesanz & Biesanz; Modern Society; N. Y., 1954, p. 203.
(6) Lundberg & Others, Sociology, N. Y., 1954, p. 203.

د) بعض المؤونة الاقتصاديه يشترك فيها أعضاء الجماعه . ولكنها ترتبط على الاخص بالحاجات الاقتصـاديه المتعلقه بحمل الاطفـال ورعايتهم •

هـ) مسكن مشترك ، قد تختص به الاسرة وحدها أو قد تشاركها فيه أسر أخرى •

وهكذا نرى أن هناك شبه اتفاق بين التعاريف السابقة فى الاسس التى يقوم عليها تعريف الاسرة : ولو عرضنا لعدد آخر من التعاريف ، لما وجدنا اختلافا حقيقيا • وكل ما نشير اليه هنا : أن بعض العلمـاء ينظرون الى الاسرة على أنها جماعة : والبعض الاخر ينظر اليها على أنها نظام • والواقع أن الفرق بين الجماعة والنظام ليس كبيرا : لان كليهما نوع من التنظيم الاجتماعى يفترقان أو يقتربان على أســاس درجة التجريد التى نحرص على أساسها كل منهما •

والاسرة من غير شك جمـاعة باعتراف كل العلماء تقريبا ، ولكن عموميتها فى المجتمع الانسانى من ناحية ، وأهميتها القصوى لاستمرار الجنس البشرى وقيامها على أسس تكاد أن تكـون ثابتة من ناحيـة أخـرى ، هى التى تجعل كثيرا من علماء الاجتماع يفضلون دراستها على أنها نظام اجتماعى ، وعـدم ادراجها ضمن الجماعات الاخرى فى المجتمع •

وخـلاصة القـول أن الاسرة التى تقابل كلمة Family باللغـة الانجليزية ، تعنى من الناحية السوسيولوجية ، معيشة رجل وامرأة أو أكثر معا ، على أساس الدخول فى علاقات جنسية يقرها المجتمع ، وما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات ، كرعاية الاطفال وتربيتهم ، أولئك الذين يأتون نتيجة لهذه العلاقات • أو أنها «جماعة» تقوم على العلاقة الجنسية بشرط أن تكون محدودة ودائمة بصورة تكفى لاعالة الاطفال وتربيتهم ، كما يقول ماكيفر وبيج •

ونظرا للاشكال التاريخية العديدة والمعاصرة للاسرة . يضاف الى

كلمة Family صفة تحــدد شكلها • ولهذا كان هنــاك الاسرة الممتدة Extended Family • وهى الجمــاعة التى تتكون من عدد من الاسر المترابطة ، سواء كان النسب فيها الى الرجل أو المرأة ، ويقيمون فى مسكن واحد • وهى لا تختلف كثيرا عن الاسر المركبة Composite Family أو الاسرة المتصلة Joint Family •

ويرجــع الفضل للانثروبولوجيين والاثنوجرافيين فى اكتشاف هذه الاشكال المختلفة للاسرة ، سواء من حيث الشكل أو الاقامة أو النسب، وذلك نظرا لاختــلاف المجتمعات البــدائية فى نظم القرابة وتداخــل العلاقات المترتبة على ذلك ، الامر الذى جعلهم يجمعون هذه الاختلافات بنسبتها الى شكل أعم وهو «البدنة Lineage » أو «العشيرة Clan » •

ونظرا لان اللغة العــربية أغنى من اللغــات الاجنبية الاخرى فى اصطلاحات القرابة ، فسوف نصطلح على اطــلاق كلمة الاسرة Family على الجماعة المكونة من الزوج والزوجة وأولادهما غير المتزوجين الذين يقيمــون فى مسكن واحــد • كما نصطلح على اطــلاق كلمة « العائلة Extended Family » على الجماعة التى تقيم فى مسكن واحد ، وتتكون من الزوج والزوجة وأولادهما الذكور والاناث غير المتزوجين والاولاد المتزوجين وأبنائهم ، وغيرهم من الاقارب ، كالعم أو العمة والابنــة الارمل ، الذين يقيمون فى نفس المسكن ، ويعيشون حيــاة اجتماعية واقتصادية واحدة تحت اشراف رئيس العائلة •

ونلاحظ أن العائلة توجد فى القرية فى مجتمعنا أكثر من وجودها فى المدينة ، التى تتميز بوجود الاسرة بالمعنى السابق • ومع ذلك تكون العائلة والاسرة فى القرية ممثلة لعلاقات القرابة من الدرجة الاولى • ولكن فى كل قرية يرتبط عدد من العائلات أو الاسر برباط آخــر يعتبر علاقة قرابة من الدرجة الثانية ، وهو انتماؤهم الى أصل (جد أكبر) واحد ، فيكونون فى هذه الحالة ما يسمى «البدنة Lineage »• والبدنة فى مجتمعنا القروى ، هى الجماعة القرابية الكبرى ، التى تنتمى لها

العائلات والاسر المشتركة فى الاصل الواحد والاسم الواحد ٠ والقرية بدورها تنقسم الى بدنات من هذه الزاوية [٧] ٠

مظاهر البناء الاسرى :

تبدو الاسرة عند النظرة الاولى أنها نظام اجتماعى متغير ، ولكنها مع ذلك تتميز ببعض الخصائص العامة التى نلاحظها عند مقارنة هذا النظام فى عدد من المجتمعات القديمة والحديثة ٠ ويرى عدد من علماء الاجتماع أن ما هو عام فى الاسرة الانسانية ينبثق من حقيقتين : أولاهما ، أن بقـاء الانسان ليس مسألة فردية وانما هـو فى الحقيقة أمر متصل بالجماعة أشد اتصال ٠ ذلك أن العناية بالاطفال والمسائل المتعـلقة بالعلاقات الجنسية التى تسبق مولدهم ، من الامور التى تخضع للضبط العـام فى كل الازمنة ، وفى كل الامكنة ٠ وثانيهما أن الانسان نوع واحد ، ومن أجل هذا فان تركيبه البيولوجى المتميز يفرض حـدودا معينة على مدى التغير فى سلوكه ٠

ونظرا لاهمية هـاتين الحقيقتين فاننا نعـرض لهما بصورة أكثر تفصيلا فيما يلى :

١ ـ الضبط العام والزواج :

توافق كل المجتمعات على صور من العلاقات الجنسية ولا توافق على صور أخرى على الرغم من أن ما يكون محلا للموافقة وغير الموافقة يتغير من مجتمع لآخر ٠ وقد لاحظ الباحثون بثبات أن مسئولية رعاية الاطفال تقع على عاتق الكبار ، على الرغم من أنهم قد لا يكونون الاباء البيولوجيين لمثل هـؤلاء الاطفـال ٠ ويستنتج الباحثون من ذلك أن الزواج والاسرة موجودان فى كل المجتمعات ٠

والزواج ارتباط جنسى رسمى دائم لعدد من الرجـال وعدد من

---

(٧) محمد عاطف غيث : القرية المتغـيرة (القيطون ـ محـافظة الدقهلية : دراسة فى علم الاجتماع القروى) ، دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٦٢ ، ص ٧٧ ـ ٨٠ ٠

النساء مع ما يترتب على هذا الارتباط من حقوق وواجبات • ولذلك تكون علاقة الزوج بالزوجة تخضع للضبط العام الذى يحدد مقـدما نطاق الحق والواجب قبل الدخول فى علاقة من هذا النوع ، ويختلف الزواج عن الاسرة لان الزواج ينحل وينتهى ما رتب على أسـاسه من حقوق وواجبات عند موت أحد الشريكين ، بعكس الاسرة التى لا تنحل لهذا السبب ، وعلى الرغم من أن الطلاق قد ينهى رابطة الزواج الا أنه لا يوقف الحقوق والواجبات التى كانت مترتبة على هذه العلاقة ، كما أنه لا يؤدى الى انتهاء الاسرة • ويحتفل بالزواج فى كل مكان وفى كل زمان بطرق يقرها المجتمـع وترضخ فى نفس الوقت الى الضبط العام ، ويمثل الزواج فى حد ذاته عبارة عن اعلان بأن رجلا وامرأة قررا الدخول فى علاقة جنسية يقرها المجتمع ، على أن يكون مفهـوما أنهما سوف يتحملان معا مسئولية هذه العـلاقة لمدة تطول أو تقصر بحسب الاحوال • وكل مجتمع له طريقته الخاصة فى اجراءات الزواج وفى اتمامه ، فقد تطول فى مجتمع بينما تقصر فى مجتمع آخر ، أو قد تكون المدة فى حد ذاتها متوقفة على ظروف فردية بحتة • وهناك اختلاف هام بين الزواج والاسرة ، ذلك أن الزواج يتضمن علاقة بين شخصين أو أكثر ، ولكن هذه العلاقة تكون دائما منظمة على أساس أن أحـد أطرافها يتكون من شخص واحد فقط : أما الاسرة فانها تتكون من أكثر من شخصين يرتبطون بعلاقات تدوم فى الزمان وتتخطى حدود الموت ، وتستمر فى الوجود معتمدة على بقية مكوناتها •

٢ ـ الاساس البيولوجى :

يقرر علماء الاجتمـاع أن القواعد النظامية التى تحكم مطـارحة الغرام والزواج والاسرة قواعد ثقافية واضحة ، ولهذا فانها تختلف من مجتمع لاخر ، ولا يعقل أن يكون لها أصل فى بيولوجية الانسان • وهناك فى نفس الوقت وجوه شبه أساسية داخل هذه القواعد ، كما أن الاختلافات بينها محدودة بالضرورة ، ويقال ان التشابه داخل القواعد والحدود التى تفرض على مدى التغير ترجع فى المحل الاول الى بعض الحقائق العامة المتعلقة بالبيولوجيا الانسانية •

ا ـ يلاحظ الباحثون عدم وجود «فصل» محدد لاتصال الرجل بالمرأة عند أى جنس من أجناس الانسان • فالذكر منذ مرحلة النضج حتى الشيخوخة يكون مدفوعا للبحث عن الاشباع الجنسى بغض النظر عن أى فصل من فصول السنة أو عن أى دورة من دورات الزمان : أما استجابية المرأة فانها أكثر تغيرا لانها محكومة بالدورة الشهرية ، ولكنها على أى حال تستجيب للرجل بصورة أكثر ترددا اذا قورنت بالانثى فى الانواع الاخرى ، أو بمعنى آخر ، تكون قادرة على الاستجابة فى كل الاوقات الا فى الحالات التى يجب أن تمتنع فيها نظرا لظروفها الخاصة • وهكذا نتبين أن الاتصال الجنسى فى النوع الانسانى دائم بصورة ليس لها نظير فى الانواع الاخرى •

ب) ان فسيولوجية المرأة تجعلها عاجزة فى فترات دورية ، فهى تحتاج خلال فترات الحمل والرضاعة الى معونة الاخرين ، أو بمعنى آخر تحتاج المرأة الى ترتيبات اجتماعية دائمة تضمن لها البقاء كما تضمن البقاء أيضا لاطفالها • ويلاحظ الباحثون أن الطفل أكثر اعتمادا على المرأة من الغير نظرا لطول فترة الطفولة عند الانسان ؛ التى تتطلب الارتباط الدائم للكبار من الناحية الاجتماعية والاقتصادية لصالح الطفل والمجتمع فى نفس الوقت ، ويقرر العلماء أن الطفل يحتاج الى ١٢ عاما من الرعاية والتمرين ليتمكن من اكتساب الوسائل الفنية والادوات اللازمة لحسن توائمه مع المجتمع الذى يعيش فيه •

ج) ان غلبة الرجل وسيادته مسألة بيولوجية أساسية فى الاسرة الانسانية ؛ ذلك لانه لا يحس بالنقص الفسيولوجى التى تحس به المرأة ، كما أنه فى العادة أقوى منها • ويقول أرنولد جرين أن الدور الذى تقوم به أم الزوجة (الحماه) والعجز الدورى الذى يظهر أثناء العادة الشهرية وفترات الحمل والولادة دفعت الرجل الى أن يتحمل مسئولية الدفاع وتوفير الطعام والمسكن لمن يعتمدون عليه فى حياتهم• وعلى الرغم من أن هنالك عدة اختلافات عن هذا النمط الا أن الرجل عادة يكون له أهمية اجتماعية تفوق أهمية المرأة • كما أن لواء السيادة فى الاسرة معقود للرجل ، ويدلل الباحثون على صدق هذا القول بأن

أخ الزوجة فى المجتمعات التى يسودها النظام الامى هو الذى يتولى جميع مسئوليات الاسرة ٠

وقد يذهب بعض الباحثين الى القول بأن استقلال المرأة الاقتصادى فى المجتمع الحديث أدى الى توازن القوى بين الجنسين فى الاسرة ، لكن اصطلاح توازن القوى يبدو ساذجا وبسيطا جدا ، لان الرجل ظل حتى مع تغير مركز المرأة الاقتصادى والاجتماعى صاحب السيادة فى الاسرة ٠ وتؤيد الابحاث التى أجريت فى موضوع الاسرة أن اختلاف الوظائف الاجتماعية للرجل والمرأة سيظل عاملا مهما فى المجتمع الانسانى وعنصرا أساسيا فى استمرار السيادة الاسمية للرجل على الاقل فى الاسرة ٠

تنظيم الاسرة :

يقول وليم اجبرن ان الاسرة موجودة فى كل مجتمع مهما كانت ثقافته بسيطة ، ويتأيد هذا القول عن طريق الابحاث التى أجريت فى المجتمعات البدائية أو المجتمعات التاريخية ، أما ما قد يثيره البعض عن شكل الاسرة قبل وجود الثقافة فأمر لا نستطيع تصوره ٠ ويرد آخرون على مثل هذا التساؤل باجراء مقارنة بين مجتمع الحيوان ومجتمع الانسان ٠ ذلك أن الدراسات المتعددة على أنواع الحيوان المختلفة أثبتت وجود نظام للاسرة عند بعضها ، فاذا كان الامر كذلك عند الحيوان ، فمن الطبيعى أن يكون الانسان وهو أعلى رتبة فى سلم التطور من الحيوان قد عرف الاسرة فى بداية الامر ٠

ويلاحظ أجبرن أن تنظيم الاسرة قد تعرض لتغيرات واسعة النطاق خلال التاريخ ، ويقول ان الصورة العادية للاسرة بين البدائيين تشبه أسرتنا اليوم لانها تنتظم حول زوج وزوجة وأطفالهما الامر الذى جعل الاسرة عبارة عن وحدة مستقلة لها وظائف تقوم بها بعيدة عن الوظائف التى تقوم بها أسر من نفس النوع ٠ والتغير الاساسى فى تنظيم الاسرة يكون اما باضافة أعضاء آخرين لها أو بزيادة الوظائف أو تناقصها ٠ وقد عرفت المجتمعات على مر التاريخ أيضا أن الاسرة

اما أن تقوم على زواج داخلى أو على زواج خارجى • والاساس فى هذه الحالة يقوم على اعتبارات متعـددة ، منها النظرة الخاصة الى الاقارب باعتبارهم من المحارم الذين لا يجوز الزواج منهم ، أو الرغبة فى توسيع نطاق العلاقات القرابية من الداخل ، محافظة على الثروة أو العصبية ، أو الرغبة فى انشاء علاقات مع الغير توسيعا لنطـاق العلاقات الاجتماعية ، أو طلبا لمراكز القوة التى قد تترتب على الزواج الخـارجى •

وقد عرف المجتمع الانسانى أنواعا متعددة من الزواج منها :

١ ـ الزواج الوحدانى الذى يقوم على ارتباط رجل واحد بامرأة واحدة •

٢ ـ الزواج المتعدد وينقسم الى قسمين : تعدد الزوجات وهو زواج رجل بأكثر من امرأة واحدة ، الذى يعتبر من أهم صور الزواج الباقية حتى الان ، ويقول الباحثين ان بقاء هذا النوع من الزواج يعتبر دليلا على أنه كان ولا يزال نظاما طبيعيا ، وتعدد الازواج ومعناه زواج امرأة بأكثر من رجل واحد ، ولكن هذا النوع من الزواج لم يكتب له الانتشار لما ترتب عليه من صعوبات متعددة من أهمها ، المشاكل التى ترتبت على نسبة الاطفال الى رجل بعينه من أزواج المرأة •

٣ ـ الزواج الجماعى وهى الذى يتزوج فيه عدد من الرجال عددا من النساء دون تخصيص •

ويقرر ماكيفر وبيج أن هناك عددا من المظاهر المميزة للتنظـيم الاسرى يجدر بنا هنا أن نشير اليها على النحو الاتى :

١ ـ العمومية : ومعناها أن الاسرة أكثر الصور الاجتماعية ترددا فى المجتمع الانسانى ، كما أنها توجد فى كل المراحل التى مر عليها هذا المجتمع •

٢ ـ الاساس العاطفى الذى يقـوم على مجموعة من الحـوافز المعقدة العميقة التى تترجم عن الطبيعة العضوية للانسان •

٣ ـ التأثير العميـق الذى يظهـر فى ما للاسرة من أثر واضح باعتبارها البيئة الاجتماعية الاولى التى تطبع الطفل بطابع خاص يظل ملازما له طوال حياته ٠

٤ ـ الحجم المحدد ، لان الاسرة باعتبارها جماعة لا تنمو الى ما لا نهاية بل انها تتوقف عن النمو عند حد معين ٠

٥ ـ الوضع الفريد فى البناء الاجتماعى الذى يظهر من أنها نواة كل التنظيمات الاجتماعية الاخرى ٠

٦ ـ مسئولية الاعضاء التى يتحملونها بصورة قد لا تتكرر كثيرا عند أعضاء أى جماعة أخرى فى المجتمـع ، ذلك أن العضو فى الاسرة لا يستطيع أن يتهرب من واجباته ازاءها ، بينما يستطيع ذلك بصورة ما اذا كان منتميا لاى جماعة أخرى فى المجتمع ٠

٧ ـ يشدد المجتمـع حراسته على الاسرة عن طـريق القـواعد القانونية والمحـرمات الاجتماعية ، ولذلك فـانها تحظى بأكثر اهتمام أدوات الضبط الاجتماعى ، ويعتبر هذا أبلغ دليل على أهميتها القصوى بالنسبة لمجتمعات الانسان ٠

٨ ـ الاسرة دائمة ومؤقتة فى نفس الوقت ، فهى دائمة من حيث كونها نظاما موجودا فى مجتمع الانسان فى كل زمان ومكان ، وهى مؤقتة لانها لا تبقى اذا كنا نشير الى أسرة بعينها ، بل انها تبلغ درجة معينة من النمو فى الزمن تنحل فيها أو تنتهى لتقوم محلها أسرة أخرى وهكذا٠

وظائف الاسرة :

هناك شبه اجماع بين علماء الاجتمـاع على أن الاسرة تقوم بعدد من الوظائف هى الانجاب واعطاء مركز للفرد وغير ذلك من الوظائف الاخرى التى نشير اليها فيما يلى :

١ ـ تنظيم السلوك الجنسى والانجاب :

ويلاحظ هنـا أن التزاوج ظاهرة فسيولوجية تخضـع لمجموعة من الضوابط الثقافية ، تجعل العلاقات الجنسية اجبارية لبعض الاشخاص،

ومسموحا بها للبعض الاخر ، وممنوعة للباقين • ولا يجب أن نخلط التزاوج بالزواج ، لان التزاوج قد يحدث بالطبع خارج الزواج ، وقد يحدث الزواج دون تزاوج ، لان الزواج يتكون من القواعد والتعليمات التى تحدد حقوق الزوج والزوجة وواجباتهما وامتيازاتهما كل ازاء الاخر وازاء أقاربهم وازاء المجتمع ككل ، ولهذا يعتبر الزواج اتفاقا تعاقديا يعطى العلاقات الاجتماعية التى تكون الاسرة طابعا رسميا وثابتا • وعلى الرغم من أن هناك عددا من المجتمعات تسمح بالخبرة الجنسية قبل الزواج الا أن مجتمعات أخرى تضع عقبات متعددة ازاء هذا النوع من العلاقات الجنسية قبل الزواج • ومعنى هذا أن المسموحات الجنسية تختلف اختلافا كبيرا جدا من ثقافة الى أخرى ، بل قد يختلف المجتمع الواحد فى أقسامه المختلفة ازاء النظر الى هذه الخبرات الجنسية التى تمارس خارج نظام الزواج • وقد دلت الابحاث المتعددة على أنه بالرغم من تجهم المجتمع للسلوك الجنسى على هذا النحو ، الا أن هذا لم يمنعه ولم يقضى عليه فى الواقع • ويظهر اهتمام المجتمعات بالمسائل المتعلقة بالعلاقات الجنسية فى كثرة القواعد الاجتماعية والقانونية التى تتصل بشئون الجنس والزواج •

٢ ـ العناية بالاطفال وتربيتهم :

من أهم وظائف الاسرة انجاب الاطفال والاشراف على رعايتهم وتربيتهم ، ولذلك تكون الاسرة مسئولة مسئولية أولى عن عمليات التنشئة الاجتماعية التى يتعلم الاطفال من خلالها خبرات الثقافة وقواعدها فى صورة تؤهله فيما بعد لمزيد من الاكتساب ، وتمكنه من المشاركة التفاعلية مع غيره من أعضاء المجتمع •

٣ ـ التعاون وتقسيم العمل :

يكون الرجل والمرأة فريقا متعاونا على الاقل من الناحية الاقتصادية، أو ينقسم العمل داخل الاسرة بين الرجل والمرأة فى المسائل المتعلقة براحة الطفل وطمأنينته النفسية ، وتربيته وتوجيهه ، وتختلف المجتمعات فى مبلغ مشاركة الرجل والمرأة فى النهوض بهذه المستويات ، ويلاحظ

أن الاشراف على المنزل ورعايته من الاعمال الهامة التى تتحمل المرأة مسئوليتها .

٤ ـ الاشباع :

تعتبر الاسرة الجماعة الاولية الهامة التى توفر للطفل أكبر قدر من الحنان والعطف ، ولذلك يتوقف قدر كبير من التكامل الانفعالى والعاطفى عند أعضاء الاسرة على مبلغ ما يتوفر لهم من اشباع لرغباتهم المتعددة، ويلاحظ أن هذا الاشباع لا يقتصر على الاطفال فقط ، ذلك أن الكبار يجدون مسرة كبيرة فى مداعبة الاطفال وفى اللعب معهم .

مشاكل الاسرة :

هناك قول شائع أن الاسرة فى هذه الايام تتعرض لازمات وتصدعات متعددة نتيجة للتغيرات الاجتماعية والثقافية التى يعتبرها البعض شديدة الوطأة على نظام الاسرة الحديث . ويحمل القول معان متعددة منها ، أن المجتمعات القديمة لم تخبر أسرها الازمات أو التصدعات ، أو أن الحياة الحديثة فى المجتمعات الحضرية لا تعمل على تكامل الاسرة وتماسكها ، أو أن عوامل التكنولوجيا الحديثة قد قللت من أهمية البيت وصرفت الرجال والنساء معا عن الاهتمام به . ولكن الأبحاث المتعددة عن الاسرة فى المجتمعات البدائية والقديمة ، أثبتت أن الاسرة شأنها شأن أى نظام اجتماعى آخر واجهت الازمات والتصدعات وعرفت الطلاق الذى يعتبر أكبر ضربة توجه الى هذا النظام ومع ذلك يلاحظ ازدياد نسب الطلاق فى مجتمعات اليوم بصورة لم تكن مألوفة فى أى وقت مضى حتى فى تلك المجتمعات التى تحرم الطلاق دينيا ، وقد أجمع الباحثون على أن من أهم أسباب الطلاق ما يلى :

١ ــ عدم التوافق الجنسى بين الزوجين يؤدى الى ازدياد درجة الخلافات ووصولها الى نقطة يصعب معها التوفيق ، ويصبح لا مناص من حل رابطة الزواج .

٢ ــ الحب الرومانتيكى الذى يسبق الزواج ، والذى يشترط الوقوع فيه عدد كبير من الشباب كشرط جوهرى للزواج ، ومن المعروف

أن كثيرا من المحبين لا يخططون لمستقبل عــلاقتهم تخطيطا واقعيا ، وعندما يصطدمون بضرورات الحيــاة ومشقاتها يصعب عليهم التكيف ويدركون أنهم قد خططوا لمستقبلهم على أساس غير سليم •

٣ ــ اختلاف المستوى الاقتصادى والاجتماعى والثقافى قد يكون عاملا هاما فى المدى القصــير أو الطويل فى حــل رابطة الزوجية ؛ لان الاسرة وهى جماعة تقوم على التعاون المتبادل لا تستمر طويلا فى البقاء مع وجود فوارق يحسها الزوجين باستمرار •

٤ ــ وهناك أسباب أقــل أهمية مثل الخيانة الزوجية وانخفــاض المستوى الاقتصــادى والمرض والعقم وغــير ذلك من الاسباب التى لا تعجل بقرار الطلاق فى بعض الحالات •

ويجب أن نلاحظ هنا أن المجتمعات المختلفة لا تتماثل فيها أسباب الطلاق ، بل ان المجتمع الواحد قد تظهر فيه اختلافات فى هذا المجال بين أقسامه المختلفة ، على كل حال فاننا نستطيع أن نقول ان العوامل السابقة تعتبر من قبيل العوامل الدائمة ، أما غلبة عامل على آخر فأمر متصل بعوامل اجتماعية وثقافية خاصة •

واذا كان الطلاق هو التصرف القانونى الذى يعبر عن انتهاء رابطة الزواج ، فان هناك أنواعا متعددة من السلوك تشير الى توقف هــذه الرابطة مثل الهجــر والانفصال التى يحتمل أن تعــود بعدهما رابطة الزواج مرة أخرى اذا استطاع الزوجان خلال ابتعادهما أحدهما عن الاخر أن يقدرا مسئوليتهما الاجتماعية ازاء الاسرة •

ويلاحظ أن نسب الطلاق تزداد عند الاسر قليلة الاطفال بينما تقل فى الاسر الكثيرة الاطفال ، ولذلك تميل المرأة فى بعض المجتمعات الى انجــاب الاطفال بسرعة وبكثرة لصرف الرجــل نهائيا عن التفكير فى الطلاق • كما أن الزوجة قد تسىء تدبير أمور المنزل فى بعض الاحيان لتستنزف ميزانية زوجها حتى لا يحقق فائضا من المال يستخدمه فى قضاء وقت الفراغ بعيدا عنها أو يمكنه من الزواج بأخرى •

ان تصدع الاسرة يعتبر فى نظر كثير من الباحثين سببا هاما فى انحراف الاحداث وفى السلوك الاجرامى عامة ، وفى عدد من مشاكل سوء التكيف والتوافق والمرض النفسى الذى يتعرض له الافراد فى حياتهم أو فى تفاعلهم مع أعضاء المجتمع الاخرين .

التوافق الزواجى :

يقول جورج لندبرج اننا نستطيع أن نصل الى عدد من التعميمات نتيجة للدراسات التى أجريت عن الطلاق والسعادة الزوجية والتبرم بالحيــاة الزوجية التى تحــدد اتجاهات التوافق وعــوامله فى الزواج والاسرة وهى كما يلى :

١ ــ الطفل الذى ينشأ فى بيت سعيد وفى جو عائلى مريح ينجح فى حيــاته الزوجية ويكون سعيدا بها ، أو بمعنى آخر الآباء السعداء يخرجون أطفالا يكونون سعداء عندما يتزوجون .

٢ ــ عندما تتم العلاقة الجنسية مصحوبة بالاشباع والحب تكون أساسا هاما فى الصلات القوية التى تربط الزوجين ، وتؤدى الى علاقة دائمة وثابتة .

٣ ــ ليست هناك علاقة وثيقة بين وجود الاطفال أو عدم وجودهم أو عددهم وبين السعادة الزوجية .

٤ ــ يرتبط التوافــق الزواجى بسمات الشخصية مثل الاستعداد للتخلى عن موقف التحــدى فى المناقشة أو الصبر عنــد الاستثارة أو القدرة على تجنب قهر الاخرين واذلالهم .

٥ ــ ترتبط القــدرة على الاخذ والعطــاء فى المسائل العــاطفية بالسعادة الزوجية .

٦ ــ كلمــا كان الانسان سعيدا فى زواجه كلما كان أكثر حبــا للناس ، ذلك أن أولئك الذين يستمتعون بصحبة الغير هم أكثر الناس فرصة فى النجاح فى الحياة الزوجية .

٧ ــ يرتبط النجاح فى الزواج بمــدى تقدير الفرد لمسائل الدين

والقيم الرفيعة ذلك أنه كلمـا كان الانسان شديد الحـرص على أداء الواجب مؤمنا بالقيم الانسانية كلما كانت الفرصة أمامه كبيرة لان يسعد فى حياته الزوجية • والزواج الناجح هو الذى يجمع الزوجين عن طريق الحب والصداقة ، لان ارتباط هاتين العاطفتين يؤدى الى حسن التفاهم والتقاء الاهتمامات وتبادل الاحترام والمساواة فى تقرير أمور الاسرة ، الامر الذى يؤدى الى نجاح الزواج •

٨ ـ تقدير الزوجـة لجهود زوجهـا فى توفير الاستقرار والامن الاقتصادى للاسرة الى جانب تقدير الزوج لعمل الزوجة للمنزل يرتبط ارتباطا قويا بالسعادة الزوجية •

٩ ـ لا يرتبط نجاح المرأة فى عملهـا اذا كانت عاملة أو موظفة بالسعادة أو الشقاء فى الزواج •

١٠ ـ تستطيع المطلقات أن تتوافق عنـد الزواج الثانى ، وتدل البيانات التى جمعها الباحثون أنهن يستطعن أن يكن سعداء كما لو كن متزوجات لاول مرة •

ويعد كرك باتريك Kirkpatrick العوامل المتعددة التى ترتبط بالتوافق الزواجى قبل الزواج ويعده على النحو الاتى :

١ ـ عوامل ما قبل الزواج :

أ) سعادة زواج الوالدين •

ب) طول مدة التعرف والمودة والخطبة •

جـ) المعلومات الجنسية الصحيحة فى الطفولة •

د) السعادة الشخصية أثناء الطفولة •

هـ) موافقة الوالدين والاخرين على الزواج •

و) التوافق أثناء فترة الخطوبة والرغبة الطبيعية فى الزواج •

ز) التشابه الدينى والعنصرى •

حـ) المركز الاجتماعى والتربوى العالى •

ط) السن الذى يصل فيه الفرد الى مرتبة النضج ٠

ى) الانسجام العاطفى مع الوالدين أثناء الطفولة ٠

٢ ــ عوامل ما بعد الزواج :

أ) المقدرة على اتمام العملية الجنسية بصورة مرضية ٠

ب) الثقة بالعواطف التى تظهر بعد الزواج والرضا عنها ٠

جـ) العلاقة المتوازنة بين الزوجين بدلا من السيطرة من جـانب واحد مع تقدير لدور الزوج ٠

د) الصحة العقلية والفيزيائية ٠

هـ) الصحبة المنسجمة التى تقوم على المصالح المشتركة والمرتبطة فى نفس الوقت باتجاهات مناسبة نحو الزواج وشريك الحياة ٠

تغير العائلة فى المجتمع العربى ونتائجه :

من المألوف فى دراسات الاسرة أن يتخذ الباحث طريقين : الاول ، عرض الحقائق المقارنة عن الاسرة باعتبارها نظاما اجتماعيا موجودا فى كل مجتمع بغض النظر عن الزمان والمكان ٠ وهذا ما فعلناه فى الصفحات السابقة ، والثانى ، عرض الحقائق المتعلقة بالاسرة فى المجتمع الذى ينتمى اليه الباحث لتكون أقرب وأشد اتصالا بالقارىء ٠ ومن هـذه الزاوية لانكاد نجد مؤلفا فى علم الاجتماع أو الاسرة،الا كانت موضوعات الاسرة ذات صلة وثيقة بطابعها فى مجتمع معين ٠ ومن أجل هذا سوف أعرض فيما بعد لبعض الحقائق المتصلة بالاسرة فى مجتمعنا ، وفى القسم القروى منه خاصة ،لاننى أعتقد أن المعلومات السابقة عن بناء الاسرة ووظـائفها ومشـاكلها يمكن أن تنطبـق نسبيا على الاسرة فى القسم الحضرى من مجتمعنا ٠

ان مجتمعنا القروى يتغير ، وتغيره أصبح حقيقة واضحة ومحـلا للدراسة ٠ ومن أكثر النظم فيه استجابة لعوامل التغير ، نظام الاسرة٠ لان تغيره يكشف عن الاثار العميقة لما لحق طابع المجتمع القـروى كله من تغير ٠

ويجب أن نلاحظ هنا أن دراسة المجتمع القروى عندنا لا يمكن أن تتم دفعة واحدة نظرا للصعوبات العديدة التى تواجه الباحث:لاختلاف القرى من حيث الحجم والبعد عن المدينة وغير ذلك من العوامل التى تجعل من الضرورى تنميطها لامكان دراستها علميا •

ولكن الحقائق التى سنشير اليها فيما بعد كانت نتيجة دراسة على نمط واحد ، يمكن أن تحدد نسبيا الخطوط العامة التى يسير فيها تغير المجتمع القروى ونظام الاسرة خاصة[٨] •

ان التغير فى (العائلة) أحد النتائج الهامة للتغير الاجتماعى فى المجتمع القروى • والذى ترتب عليه تغيرات مصاحبة تشمل الاسس التى تقوم عليها الحياة الاجتماعية ، حقيقة ان التغير الاجتماعى يغير من الحياة القروية ككل بما فيها الحياة العائلية ؛ الا أن تغير العائلة فى مراحل التغير الاولى كان أوضح ونتائجه المصاحبة كانت أوسع • والان تزداد عوامل التغير ، وتزداد لذلك عمليات التغير فى كل ناحية •

لقد كانت زيادة السكان فى القرية وما تبعها من زيادة حجم العائلات المتعاقبة والتى تعيش على أرض تتناقص باستمرار ، النذير الاول لأزمة العائلة فيما بعد • وكان فى وجود العائلة القديمة على نحو ما معتمدة فى حياتها الاقتصادية على أرض تزدحم فيها الايدى العاملة، ايذانا ببدء خلافات لا تنتهى ، تزداد ولا تختفى الا لتعود أكثر شدة من قبل • ويشترك فى هذا الخلاف الرجال والنساء على السواء ، ويعملون بالتالى على تفكك العائلة:لان السلطة التى كانت تعيد التوازن ، فقدت مقومات الطاعة لها منذ أن فقدت القدرة على امساك تضامن العائلة عن طريق وحدة الحياتين الاقتصادية والاجتماعية وعندما يبدأ الافراد يناقشون حياتهم الاقتصادية ويعملون على تدبير أمورهم تهبط سلطة التضامن باستمرار • وقد كان تغير الاساس الاقتصادى للعائلة عاملا مهما فى خفض حجم العائلة فى أغلب المجتمعات الريفية لا فى مجتمعنا

---

(٨) محمد عاطف غيث (المرجع السابق) ص ١٥٩ ــ ١٧٤ •

وحده ، بل فى كثير من أنحاء العالم • فمارتن يانج M. Yang يلاحظ فى قــرية Taiton فى مقاطعة Shantung بالصين أن الشبان لا يحملون الآن أى عاطفة وثيقة نحو العائلات ، وأصبح الخــلاف أمرا عاديا يتعلق أغلبه بمسائل المسكن والعمل والغذاء[9] • اذن فقد كان لتغــير حجم العائلات وانفصالها الى أسر مستقلة وخصوصا من الناحية الاقتصادية، آثار هامة على الحياة العائلية وخصائصها القديمة المتفقة مع تنظيمها المتميز ، بل على مجتمع القرية ككل وطبيعة الحياة الاجتماعية فيه ، وأيضا على علاقات القرية بالقرى الاخرى وبمراكز الادارة والسلطة فى المدينة وفى العاصمة •

وهنا ينبغى أن نسأل سؤالا هاما ، هل القرية فى وجود العائلة كانت « كلا Whole » ، وفقدت هذه الكلية فى وجود الاسرة ؟ والاجابة على هذا السؤال بالايجاب يتفق مع الاتجاه العام لمدرسة شيكاغــو التى كان ردفيلد Redfield من أبرز ممثليها والتى تنظر الى القرى الان وقبلذلك على أنها مختلفة أساسا عن المجتمعات البدائية فى صفتين أساسيتين ، وهى العزلة الكلية بينما تكون شبه منعزلة وجزءا من كل • وعلى ذلك تختلف طرق الدراسة باختلاف النموذج على هذا النحو • وقد حاول كثير من الباحثين اثبات هذا الفرض•مثل هاتش Hatch ، وبر جرايسلوند Per Gracslun فالقريتان محل دراستهما كانت كل منهما تفقد الكلية فى مجرى التاريخ حتى أصبحت منذ مدة والى الان جزءا من كل[10]•والواقع أن خاصية الكلية ترتبط ارتباطا وثيقا بالاكتفاء الذاتى•فاذا كانت قريتا هاتش وجرايسلوند علىهذا النحو فىالماضى وأخذتا تفقدان هذهالخاصية، فاننى لا أعرف على وجه التحديد أن القرى فى مجتمعنا كانت كل منها كلا كذلك فيما مضى• ذلك لان الاكتفاء الذاتى مسألة نسبية ، وارتباط القرية كما قال ريد فيلد بأحــد المدنيات القديمة لا يجعلها من جميع الوجوه «كل Whole » أى مكتفية بذاتها كالمجتمع البدائى • والاكتفاء الذاتى لا يعنى اكتفاء من الناحية الاقتصادية بل هو أيضا من الناحية

---

(9) Martin C. Yang, A Chinese Village, London. 1947. p. 239.
(10) Redfield, The Little Community, Chicago 1956. pp. 108-109.

الاجتماعية . فاذا كان الاكتفاء الذاتى يؤدى الى العزلة . فان القرى لم تكن كذلك فى أى مرحلة من مراحل تاريخها ــ على ما أعلم. فالقروى كان يحس بالقرى المجاورة والمدينة ويحدد مركزه فى العــالم على هذا الاساس[11] . كما كان يحس بالحكومة لانها تفرض عليه الضرائب ، وتنقله من قريته للعمل فى «السخرة» أو الالتحاق بالجيش ، ويتدخل رجالها عند الاشتباك وسقوط القتلى وهكذا .

اذن فالقرية يمكن أن تكون مكتفية بذاتها ومنعزلة نسبيا كما كانت من قبل ومع ذلك تكون جزءا من كل ، أى أن عزلتها واكتفائها بذاتها النسبيين كانا أكثر أثرا فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية من انتمائها الى كل أكبر وهو المجتمع الكبير . ولهذا كان التغير الاجتماعى فى حقيقة الامر تغيرا فى العزلة والاكتفاء الذاتى . وكلما زاد التغــير فى هاتين الناحيتين كلما ظهر أثر الكل فى حياة الجزء ... وهكذا ، وبالتـــالى فان التغير فى علاقة الكل بالجزء يؤدى الى تغيرات هامة فى الجزء . ومن هذه الزاوية كان اهتمام الباحثين فى المجتمعات القروية الهندية منصبا على دراسة أثر المدينة والحكومة فى التغــيرات الاجتماعية فى هــذه المجتمعات[12] .

ولم تفقد القرية «الكلية النسبية» بتغير العائلة وتفككها الى أسر مستقلة فقط ، بل تغيرت الكلية أيضا بالنسبة لوحداتها الرئيسية وهى البدنات ، لان دائرة الاعتماد بالنسبة لها زادت كما زادت هذه الدائرة بالنسبة للقرية ككل . والاعتماد فى الحيــاتين الاجتماعية والاقتصادية كمقياس لتغير مدى العلاقات كثافة وعددا يشبه فى نواح كثيرة التغير من الكل الى الجزء فى حالة المجتمعات القروية . وعلاقة الاعتماد هذه يتخذها جودفرى ومونيكا ويلسون أساسا للمقارنة بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتحضرة . ولهذا كلمــا زاد الاعتماد ــ مع زيادة حجم

(11) Redfield & Alfons Villa, Chan kom : A Maya Village, Washington, 1960 p. 1.

(12) Mckin, Marriot, Village India, Chicago.

المجتمع – كلما تغير المجتمع من البدائية الى العصرية(١٣) وهكذا •

ومعنى هذا أن علاقة الانتماء الى الكل كانت ذات اتجاه معين فى الماضى ، ويتغير هذا الان • ويمكن تطبيق هذا القول على العائلة القديمة وعلى الاسرة الان • كما يمكن تطبيقه أيضا على أى قرية فى الحالتين • فالقروى فى العائلة والبدنة كان يحس بعلاقة الانتماء للنسق القرابى أكثر من احساسه بالانتماء للمجتمع القروى ، ولا يحس بالقرية الا فى بعض المناسبات الخاصة • ومع هذا يكون احساس الانتماء جمعيا لا فرديا ، وكذلك الامر بالنسبة للقرية فقد كان احساسها ككل بذاتيتها أو هويتها هو الاحساس الدائم ، أما احساسها بالدولة أو بالمجتمع الكبير فكان احساسا مؤقتا • ولهذا كانت القرية تنتمى للمكان الذى تعيش فيه انتماء من الدرجة الاولى ، أما الاسرة اليوم فانها تنتمى – وعلى الاخص من وجهة نظر الفرد – الى مجتمع القرية أكثر من الانتماء الى النسق القرابى القديم ، ومعنى هذا أن دائرة علاقات الفرد أصبحت تشمل من الناحية النظرية جميع أفراد القرية ، وبالتالى فان القرية الان تنتمى الى دائرة أكبر من حيث المكان ، ويزداد انتماؤها كلما صغرت الوحدة المكانية • ولهذا كان انتماءها للمركز أقوى من المحافظة ، وأقوى أكثر بالنسبة للدولة ككل • وكقاعدة يمكن القول انه كلما زادت عوامل التغير الاجتماعى وزادت آثارها كلما زاد اتصال الاجزاء شدة بالكل ، سواء كانت هذه الاجزاء فردا أو أسرة أو قرية •

ان النتائج التى ترتبت على تغير العائلة فى الحياة الاجتماعية فى مجتمع القرية تعتبر تغيرات مصاحبة عديدة لتغير العائلة ، وتزداد ويتمين اتجاهها بمرور الزمن • ويمكن ابرازها على النحو التالى :

١ – زيادة التنقل الاجتماعى :

أصبحت الاسرة أساس البناء الاجتماعى وزادت الصلات المتبادلة بين القرى والعالم الخارجى ، وزادت تبعا لذلك كثافة العلاقات ومداها فى الداخل والخارج معا • لهذا فللتنقل الان الخصائص الاتية : •

(13) Godfrey & Monica, Wilson : Op. Cit., pp. 25-30.

أولا : «غير محدود Unlimited » لان الحواجز القديمة للعائلة والبدنة ومجتمع القرية ككل لم تعد تمنع امتداد العلاقات فى أى اتجاه، ولذلك زادت سرعة التنقل ومداه •

ثانيا : أفقى لا يقتصر فقط على الزواج ، بل يمتد الى عدد من العلاقات المختلفة لجميع الافراد من الجنسين من مختلف فئات السن • وتعدى الانتقال على هذا النحو حدود النسق القرابى وأصبح انتقالا فى دائرة مجتمع القرية •

ثالثا : رأسى وهو ما لم يكن موجودا من قبل • فالافراد والاسر تنتقل الان من حيث المركز الاقتصادى والاجتماعى نتيجة لتفتيت الملكية أو انعدامها من طبقة أعلى الى طبقة أدنى • كما أن بعض أصحاب المهن الذين كانوا ينتقلون من الناحية الاجتماعية افقيا • أصبحوا الان ينتقلون رأسيا أيضا على أساس ارتفاع مركزهم الاقتصادى والاجتماعى • ويغير بعض القرويين العمل الزراعى فيشتغلون بالتجارة أو بالمهن والحرف ، فينتقلون رأسيا من طائفة الى أخرى وهكذا • كان من هجرة القرويين والمتعلمين من القرية الى المدينة تمثل فى جوهرها تنقلا اجتماعيا رأسيا •

رابعا : توسطى Intermediary أى غير واضح • وذلك لان بعض الافراد ينتقلون من مركز الى آخر غير محدد ، كأن يعمل القروى بالتجارة والزراعة معا • أو يسكن المدينة والقرية فى نفس الوقت •

٢ ـ اللاثبتية Uncertainty

كانت علاقة القرى بالارض والعائلة والزمن علاقة ثابتة منتظمة ، وتدور حياته فى دورات يمكن التنبؤ بها فى دقة وتحديد كبيرين ، ولهذا كان من السهل تعيين الابعاد الايكولوجية والبنائية[14] للفرد والعائلة ، فدورة عام واحد كانت تعنى أنواعا مختلفة من العمل والمحاصيل وفترات محددة من الفراغ ، كما كانت تعنى احتفالا بمناسبات وقياما بشعائر

---

(14) E. E. Evans-Pritchard, The Nuer, Oxford, 1940.

مختلفة ، وتوالى السنين لا يحمل معنى التغير ، وانما يحمل معنى التردد أو المطابقة • ولهذا كانت دورة حياة الافراد من الجنسين تكاد أن تكون متشابهة ، ونظرا لعدم اختلال هذا النظام ، فقد كان الفرد متثبتا من كل شيء يتعلق بحياته الاجتماعية والاقتصادية — حتى الموت فأجل «مكتوب» وكان الذى يقوى هذا التثبت وجود الحياة العائلية بخصائصها التى أشرنا اليها • ولكن تغير العائلة تحت تأثير العوامل الاقتصادية واستمرار انخفاض مستوى المعيشة الى جانب التأثيرات المتابعة من المدينة جعل هذا التثبيت يختل • ولهذا اختلت علاقة القروى بالارض وبعلاقاته القرابية ، وأصبح الامتداد الزمنى لا يؤدى الى دورات متشابهة للحياة ، بل يؤدى الى تغيرات تحمل معها القلق وعدم الامن • فكل ما كان ثابتا فى الماضى يراه الان متغيرا ولا يعلم اتجاهه أو مداه •

وتفصيل ذلك انه اذا اعتبرنا القرية مجتمعا «ثابتا» فيما مضى ، وقد كان كذلك لان الانساق الاساسية فى تكوينه كانت ثابتة أيضا ، جاز لنا القول انه كان مجتمعا متوازنا ، ويهتز هذا التوازن عن طريق التغيرات الاجتماعية ، ونتيجة لهذا الاهتزاز فان الاباء لا يعرفون مستقبل ابنائهم من حيث المهنة ، بعكس الحال فى الحالة الاولى ، والاتجاه الان الى الاهتمام بتحسين مستوى المعيشة وبالاخلاق القروية أكثر من الاخلاق الجمعية • ومع انه فى الماضى لم يكن هناك مجال للتجريب ، فقد تمت المحاولات والاخطاء قبل ذلك حتى وصل الحال الى وضعه الراهن واستقر على طرق معينة مفضلة ، ويقال «اننا نفعل ذلك لان الامر كان كذلك دائما»(١٥) •

ومع أن التجريب الان ليس له دور كبير وغير ظاهر فى بعض الاحيان فليس هذا راجعا الى السبب الاول ، بل ان القرويين يعرفون أن هناك طرقا أفضل ، ولكنهم لاسباب متعددة ، وأهمها عجزهم الاقتصادى لا يقبلون على أى تغير خصوصا فى النواحى المتعلقة بالثقافة المادية •

---

(15) W. Ogburn, M. Nimkoff : Handbook of Sociology 1953, pp. 585-586.

وخلاصة القول ان القروى الان لا يعرف اذا كان سيظل بالقرية أم سيهاجر أو هل سينجح فى الوفاء بحاجات أسرته أم سيتعرض للفشل، هل سيكون دائما على علاقات طيبة مع الجميع ، أو هل التغير عامة فى صالحه أم سيلاقى الصعاب •• وهكذا •

٣ ـ الاستقلال والتبعية Antonomy & Sudordination :

لم يكن الفرد فى العائلة مستقلا بل كان تابعا لها ، ولهذا لم تكن له تبعية أخرى حتى لسلطة القرية الكلية • فنظام المسئولية الجمعيـــة كان يجعل الافراد جميعا وحدة واحدة داخل العائلة أو البدنة ، ولم يكن لاحد منهم استقلال خاص من هذه الناحية ، وكذلك بالنسبة للعـائلة فى حدود البدنة ، النسق القرابى الاكبر •

أما الان وفى ضوء التغير الاجتماعى الذى حدث للعائلة والمجتمـع والقرية ، فقد أصبح الفرد أو الاسرة التى ينتمى اليها مستقلة وتابعة فى نفس الوقت • لانه نظرا لتعدد علاقات الافراد وكثافتها فى نفس الوقت فى الداخل والخارج • فقد أصبحت ضيقة Norrow بمعنى أنه لا يشترك فيها عدد كبير على نفس المستوى كما كان الحال أيام العائلة • ولهذا كلما ضاقت العلاقات بهذا المعنى كلما زاد استقلال الفرد أو الاسرة • أما التبعية فقد كان الفرد تابعا لوحدة صغيرة ، أى أن علاقات التبعية كانت تدور فى دائرة محدودة وهى البدنة أو العائلة ، ولكن الوضع الان أن دائرة التبعية اتسعت حتى شملت مجتمع القرية ، بل الدولة بأسرها أيضا • ومثال ذلك أن التبعية من حيث السلطة هى تبعية للقرية وللمدينة أيضا • اذن كلما زادت علاقات الفرد من حيث الاتساع كلما اتسع نطاق تبعيته وهكذا •

٤ ـ فردية البعد البنائى Individualism in Structural distance :

الابعاد البنائية[١٦] ــ أو الاجتماعية ــ كانت أبعادا بين عـائلات

---

(١٦) البعد البنائى ـ فكرة استخدمها ايفانز بريتشارد فى الفصل الخاص بالزمن والمكان فى كتابه عن النوير ليصــور طبيعة العلاقات بين القرى والبدنات المكونة لشعب النوير •

وبدنات وبين عائلات وبدنات أخرى • والبعد البنائى على هـذا النحو كان يتضمن حجم البدنة ودورها فى سلطة مجتمع القرية ، وبالتـالى مركزها الاجتماعى والاقتصادى ، الى جانب درجة التضامن فيها•ولهذا لم يكن للفرد استقلال بنائى خاص • فأعضاء البدنة جميعا متشابهين بعدا بنائيا ، ومتميزين على هذا الاساس عن أعضاء البدنات الاخرى•

والان نظرا لتفكك العائلة واتساع نطاق العلاقات التى تربط الاسر والافراد ، وتغير مضامين الانساق القرابية ، وظهور المصلحة كمحـدد لاتجاه هذه العلاقات ودرجة شدتها • فقد أصبح البعد الاجتمـاعى فرديا • وأهم ما يدخل الان فى تحديد هذا البعد المركز الاقتصادى • كما أن المركز الاقتصادى لم يعد يتحدد أساسا بملكية مساحة معينة من الارض ، بل بمقدار ما يكسبه الفرد من الزراعة أو من غيرها من الاعمال ، تجارة أو مهنا أو حرفا •

ومن هذه الزاوية ارتفع مركز أفراد كانوا يتبوؤن فيما مضى مرتبة أدنى ، وهم على الاخص المشتغلون بالحرف والمهن المختلفة ، وضاقت الابعاد التى تفصلهم عن القرويين المشتغلين بالزراعة • ومع هذا يدخل المركز الاجتماعى القديم فى تحديد البعد البنائى ، ولكنه قد يتجاوز عنه فى العلاقات الاجتماعية كالزواج • وكقاعدة يمكن القول أنه كلما زاد التغير الاجتماعى كلما تحددت الابعاد البنائية بين الاسر والافراد على أساس اقتصادى ، وقل دور المركز الاجتماعى فى هذا التحديد •

ونظرا لاتساع مدى العـلاقات التى تربط القرية الان بغيرها من القرى المجاورة وبالمدن ، فان الابعاد البنائية للافراد تقاس أيضا على أساس اقتصادى • فالفرد يدخل فى علاقة اجتماعية مع فرد من قـرية أخرى.اذا كان فى نفس المستوى ، ولكن فى هذه الحالات يدخـل فى الاعتبار المركز الاجتماعى للعائلة أو البدنة اذا كانت هذه علاقة زواج، كما يدخل فيها بصفة عـامة البعد البنائى للقريتين ، ويدخـل فى هذا الاعتبار أيضا خصائص كل قرية على حده ، أو النموذج الذى اشتهرت

به بين القرى أو فى المنطقة المحلية ، اذن فالقرية ينظر اليها من هــذه الزاوية كما ينظر للفرد أو بطريقة مشابهة •

ومثال ذلك أن أفرادا من القرية يقبلون على الزواج من فتيات من قرية أخرى نظرا «لسمعتها» المسالمة ، ويعرضون عن الزواج بفتيــات من قرية أخرى «لسمعتها» العدوانية • وكقاعدة كلما ازدادت صلات القرى بعضها بالبعض الاخر كلما تفككت فــكرة النموذج فى تطبيقها على القرية ككل ، وكلما أصبح ممكنا الدخول فى علاقات متعددة على مستوى الافراد والاسر •

٥ ـ الهجرة رأسيا وافقيا Vertical & Horizontal

تزداد الهجرة بمرور الزمن • وقد بلغت أقصاها فى المجتمع القروى فى فترة الحرب العالمية الثانية والسنوات التى أعقبتها • وهى مستمرة حتى الان • وهى اما رأسية أو أفقية • فالهجــرة الرأسية تتمثل فى القرويين الذين يتركون القرية اما بصفة دائمة ليعملوا فى غير العمــل الزراعى فى جهات بعيدة ويعيشون مع جماعات تختلف عن عائلاتهم من حيث المركزين الاقتصادى والاجتماعى • فبعضهم يعمل فى تطهير الترع والمصارف • والاخرون يقيمون فى المدينة ويعملون فى المصانع أو فى مصالح الحكومة المختلفة • كما انه يمكن اعتبار من يتعلمون من أبناء القرية ضمن هذه الفئة ، لانهم فى حقيقة الامر يقيمون ويعمــلون فى المدينة ويغيرون من مركزهم الاجتماعى والاقتصادى ، وينضمون الى جماعات تختلف من حيث القيم والمركز عن أسرهم •

أما الهجــرة الافقية فانها تتمثل فى القــرويين الذين يهاجرون من القرية مؤقتا ليعملوا فى الزراعة خصوصا فى مواسم الحصاد أو الجنى ثم يعودون الى القرى ثانيا • وهؤلاء ينتقلون من جماعة الى جمــاعة مماثلة تقريبا ، أو دائما حين ينتقل الفرد بمفرده أو مع أسرته ليقيم فى قرية أخرى بعيدة أو قريبة ، يزرع الارض عن طريق الايجار أو الملكية، فلا يتغير دوره أو مركزه بذلك •

ومن حيث أثر المهاجرين على القرية ، نجد أنها تتأثر أكثر بالمهاجرين

رأسيا ، لانهم اذا ظلوا على صلة بالقرية فانهم يعلونون أسرهم الباقية ويجلبون معهم أثنـــاء عودتهم طرقا جديدة وأفكارا جديدة أيضا[١٧] . وقد لاحظت أن غير المتعلمين منهم أكثر من المتعلمين أثرا فى هذه الناحية.

٦ ــ التفكك النسبى فى الفواصل :

كان من خصائص العائلة القديمة الفصل التام وتحـــديد العلاقات والعمل على أساس الجنس والسن . وكان هذا الفصل أحد قيم التنشئة الاجتماعية ونماذج السلوك المرعية.وبناء على التغير فى العائلة وماتترتب عليه من استقلال الاسر بالاضافة الى النتائج السابقة ، يلاحظ أن مركز المرأة آخذ فى الازدياد ، كما يزداد الان دورها فى الحياة الاجتماعية العامة ومشاركتها فى الحياة الاقتصادية .

وقد زاد عمل المرأة ومسئوليتها فى الاسرة عنهما فى العائلة ، ولذلك تسهم بنصيب أوفر فى العمليات الزراعية التى كانت وقفا على الرجال. كما أنها تقوم بدور هام فى المبادلات الاقتصادية . وفى السوق نجد الرجال والنساء معا . وبالتالى يتغير النموذج أو طبيعة السلوك المتوقع من المرأة . حقيقة ان الرجال لازال لهم السيادة من الوجهة النظرية، الا أن تبعية المرأة المطلقة له تصبح مثار جدل بين الزوجين . وفى كثير من الاسر تقوم المرأة حين يموت الزوج بجميع مسئولياته فيما عـــدا العمل الزراعى الذى يتطلب مجهودا بدنيا شاقا. . وفى غير ذلك تبـــذر البذور وتسقى المزروعات وتجنى وتحصد . ومن المناظر المألوفة فى القرى أن يتحدث الرجال الى النساء علنا أو يسرن معهن فى الطرقات سواء كانوا ينتمون اليهن عن طريق القرابة أم لا .

أما فواصل السن فقد تفككت هى الاخرى ، فلم يعد الشباب مثلا يلتزمون بدقة أنماط معينة من السلوك أمام الكبار ، كما أنهم يجلسون معهم يتبادلون «المزاح» أو الرأى ، وكقـــاعدة يمكن القول أن أنواع السلوك المترتبة على فواصل السن كاحترام الصغير للكبير وطاعته وعدم

---

(17) M. Yang, Op. Cit., p. 230.

تبادل المزاح معه ، تتغير الان الى نوع من حرية السلوك فيه انحراف كبير عن التقاليد القديمة •

اذن يمكننا أن ندرك مما سبق أن الحياة القروية القديمة التى كانت تقوم على الحياة الجمعية فى العائلة وما لها من خصائص تتغير الان بفعل عوامل متعددة ، أهمها العــوامل الاقتصادية وتأثيرات المدينــة والقانون • وليست هذه الملاحظة خاصة بالقرية فى مجتمعنا ، بل أغلب الظن أن تغير القرية ظاهرة عامة فى المجتمعات التى يعتمد جزء منها على الزراعة ، حتى أن ردفيلد Redfield تزعم فى شيكاغو حركة كبرى تهدف الى دراسةالحياة الريفية فى مختلف أجزاء العالم قبلما تتغير معالمها[١٨]• فكما فعل الانثروبولوجيون من قبل فى المجتمعات البدائية قبل الغــزو الاوربى وابانه ، فلابد أن يحدث نفس الشىء فى المجتمعات القروية مع التعديلات الضرورية فى المنهج بسبب الاختلاف بين دراسة الكل المنعزل المكتف بذاته فى حالة المجتمع البدائى ، والجزء غير المنعزل غير المكتف بذاته نسبيا فى حالة القرية • وقد أجريت فعلا عدة دراسات هــامة فى الهند والمكسيك وبعض دول الشرق الاقصى لمواجهة هذا المطلب العلمى الهام• حتى أن ردفيلد وغيره من زملائه وتلاميذه نتيجة لهذه الدراسات، أخذوا يقارنون المجتمعات القروية التاريخية والمدروسة بالطريقة العلمية لاستخراج التعميمــات التى تصــور الجوانب المتشابهة فى الحيــاة الريفية عامة •

وقد وجدت فى أثناء البحث وبعده عددا من وجوه الشبه بين القرية فى مجتمعنا القروى والقرى الاخرى التى درست فى بعض أجزاء العالم• فمثلا فى بحث العائلة القــديمة والمتغيرة فى الهند وصــل دوبيه Dube الى عدة نتائج هامة لا تختلف كثيرا عن النتائج التى وصلت اليها[١٩]• فالعائلة القديمة فى قرية شاميربت Shamirpet كانت متضامنة أو متماسكة،

---

(18) R. Redfield, Peasant Society and Culture, Chicago, 1956, pp. 137-139.

(19) S. C. Dube, Indian Village, London, 1956. pp. 222-229.

ترتبط بالارض والمسكن ارتباطا وثيقا ، والعلاقات داخلها وخـارجها محددة على أساس السن والجنس والنسـق القرابى ، وهى اليوم تسجل تغيرات هامة ، فالقروية خاصة نامية ، والهجرات متعددة نتيجة لاختلال الاوضاع الاقتصادية وتأثيرات المدينة ، كما أن التقاليد القديمة المنظمة للعلاقات الاجتماعية أخذت فى التداعى ، أى لم تصبح بعـد محددة بأحكام لنماذج السلوك القروى والجمعى ... وهكذا .

ومثل آخر من الصين عندما يصور مارتن يانجM. Yang مدى اعتماد العائلة القديمة على الارض فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية ، ومدى ما تذهب اليه من تغير اذا تغيرت علاقتها بالارض فيقول « ان الارض أساس العائلة الحقيقى ، وعندما نقول ان العائلة تفككت فمعنى ذلك أنها فقدت أرضها»[20] .

ولا يعنى هذا أن وجوه التشابه فى الحياة الريفية تؤدى مثـلا الى تطابق التنظيم العائلى فى القديم وسيره فى اتجاه واحد أثناء التغير، فالتغير الاجتماعى مرتهن بعدة عوامل قد تكون متوازية الاهمية أو قد يفوق بعضها الاخر من هذه الناحية بحسب ظروف القرى محل الدراسة، ولهذا فان اتجاهات التغير أو سرعته قد تختلف من قرية الى أخرى ، بل قد تختلف من قرية الى أخرى فى نفس المجتمع كما هو واضح من وصف حامد عمار لتغير العائلة فى قريةسلوا[21] بمقارنته بالتغـير فى النموذج الذى درس . ولعل الاختلاف كما أظن لا يرجع الى اختلافات أساسية وانما يتعلق باختلافات بالمدى لاختلاف الظروف نسبيا .

---

(20) M. Yang. Op. Cit., p. 46.

(21) Hamed Ammar, Growing up in an Egyptian Village, London, 1954, pp. 42-47.

الفصل التاسع

قواعد الضبط والامتثال فى المجتمع

قواعد الضبط والامتثال فى المجتمع

عرضنا أكثر من مرة فى الفصول السابقة ، الى الوسائل التى تبلغ بها الجماعة أهدافها ، وتحافظ على وحدتها ، وتقلل الى الحد الادنى من الانحرافات التى تدتصيبها بالتفكك والاختلال ، وفى هذا الفصل سنعرض بالتفصيل للقواعد التى تنظم السلوك الانسانى لرعاية النظام فى المجتمع وبلوغ أكبر درجة ممكنة من التكامل • ويجب أن نعلم منذ البداية أن مسألة حث الافراد على امتثال لقواعد المجتمع ومعاييره والمحافظة على النظام ، قديمة جـدا قدم المجتمـع الانسانى • وقد برزت كموضوع للدراسة والتفكير منذ العصـــور الوسطى ، وتناولها عدد من المشرعين والفلاسفة والسياسيين ورجال الدين بالبحث •

ومع أن كل مجتمع ينطوى على عدد من الوسائل والاجراءات التى يستعين بها على حفظ النظام ، الا أن زيادة الاهتمام بموضوع الضبط الاجتماعى علمة صاحب التغيرات الكبرى التى حدثت لمجتمع الانسان • فكلما ازداد المجتمع اتساعا ، وتعددت جماعاته ، وزاد تقسيم العمل فيه ، وزادت صلاته بالمجتمعات الاخرى ، كلما زاد اختلاف الافراد الذى قد يبلغ فى بعض الاحيان درجة تحتاج الى تدخل قوى لها سلطة الالزام ، حتى لا يصل الخلاف الى حد التصادم •

ومن المعروف أن مسألة الضبط الاجتماعى لم تكن تعير أحـد فى المجتمعات البدائية أو الصغيرة ، نظرا للقواعد الثابتة نسبيا التى تسير عليها ، والتى تحدد بدقة مراكز الناس وأدوارهم ، وتعين فى نفس الوقت أبعاد نشاطهم فى المجتمع •

ويقول ريتشارد لابيير Richard Lapiere ، ان الدراسة السوسيولوجية لمسألة الضبط الاجتماعى لا تمتد فى تاريخها الى أكثر من خمسين عاما ،

فقد كان روس Rose أول من استخدم اصطلاح «الضبط الاجتماعى Social Control» ليشير عن طريقه الى ميدان محدد فى الدراسات السوسيولوجية • وقد كتب روس أول دراسة متكاملة عن الضبط الاجتماعى علم ١٩٠١ ، وان كان كل من توماس وغيره قد استخدم هذا الاصطلاح بطريقة وصفية خلال دراسة ليست مخصصة لبحث موضوع الضبط الاجتماعى • فقد كتب توماس W. E. Thomas مقالا من هذا النوع فى المجلة الامريكية لعلم الاجتماع لعام ١٨٩٨ ، عنوانه «علاقة الجنس بالضبط الاجتماعى البدائى»[1] •

ومع ذلك فقد تطورت دراسة الضبط الاجتماعى فى السنين الاخيرة بازدياد الابحاث التى أجريت على الجماعات والتفاعل الاجتماعى وما تمخضت عنه هذه الابحاث من ابراز لموضوعات جديدة فى علم الاجتماع ، كمستويات الفعل الاجتماعى والمعايير الاجتماعية والقيم ، والقواعد العامة والسلوك • ولكن الذى جعل دراسة الضبط الاجتماعى ذات أهمية فى علم الاجتماع ، ظهور «مسألة الثقافة» وضرورة دراستها كموضوع جوهرى ، والانصراف عن الاراء التى كانت تنادى بتقليل الحد الذى تبرز فيه الثقافة فى معالجة موضوعات علم الاجتماع الاساسية • وقد تمخضت الدراسات الثقافية عن حقائق غلية فى الاهمية، تتصل بالانماط الثقافية التى تتصل اتصالا وثيقا بالتنوع الثقافى بين المجتمعات داخل المجتمع الواحد •

وقد عرفنا من قبل ، كيف تشكل الثقافة التفاعل الاجتماعى وتوجهه اتجاهات محددة ، ولا يقتصر عمل الثقافة على ذلك ، بل انها تسهم فى ارساء قواعد الضبط الاجتماعى وأساليبه على قواعد محددة تفرض الزاما على الافراد ، وتعمل عن طريق ميكانيزماتها المتعددة على تقليل نسب الانحراف والعدوان على أسس النظام فى المجتمع • ومن المناسب

---

(1) Lapiere. Richard; A Theory of Social Control, New York, 1951, pp. 3-5.

هنا أن نعرض لعدد من المناقشات التى دارت حــول موضوع الضبط الاجتماعى والتى تناولت تعريفه وموضوعه وأساليبه •

١ ــ يرى بعض المؤلفين فى علم الاجتماع من أمثال هارى بردميير Harry Berdemeier وريتشارد ستيفنسون Richard Stephenson أن هناك نوعين من العمليات الكبرى التى تجعل الناس يمتثلون للقواعد النظامية فى المجتمع والتى تمكنهم فى نفس الوقت من التنبؤ والاعتماد على سلوك أحدهم الآخر• ويقولان أن العملية الاولى هى عملية التنشئة الاجتماعية التى تشكل الفرد منذ مراحل الطفولة المبكرة وتعده للحياة الاجتماعية المقبلة التى سيتعامل فيها مع آخرين من غير أسرته ، ولذلك فان التنشئة الاجتماعية تعلم الطفل قيم المجتمع ومعاييره الاساسية التى سيشترك فيها مع غيره عندما ينضج ، والتى ستجعله من ناحية أخرى متشابها فى خطوط شخصيته الاساسية مع أعضاء المجتمع الذى سيعيش فيه • أما العملية الاخرى فهى تشتمل على ميكانيزمات[٢] الضبط الاجتماعى التى تعمل على تنظيم الاشياء للحيلولة دون وقوع الانحراف أو اثارة أى عامل من عوامله •

ومن الملاحظ أنه على الرغم من أن عمليات التنشئة الاجتماعية قد تكون مكتملة ، فان الناس قد يتعرضون للتوتر نتيجة لمواضعهم فى البناء الاجتماعى ، ولهذا فانهم قد يقعون تحت قوة قاهرة تجعلهم ينحرفون عن المعايير • ويعرف المؤلفان ميكانيزمات الضبط الاجتماعى على هذا الاساس ، بأنها كل الترتيبات الاجتماعية التى تمنع مثل هذه التوترات أو تمنع هذه التوترات من أن تؤدى الى الانحراف ، ويحاول المؤلفان أن يعددا أنواع ميكانيزمات الضبط الاجتماعى التى تعتبر خطوطا دفاعية ضد الانحراف ، وهما فى هذا الصدد يعتبران التنشئة الاجتماعية خطا دفاعيا هاما ، ولكنهما لا يدرجانه ضمن خطوط خمسة أخرى •

---

(٢) الميكانيزم هو بناء أو نمط محدد من السلوك يعمل على اعداد الفرد أو الجماعة للقيام بفعل معين ، ومن أمثلته الافعال المنعكسة للكائن الحى واتجاهات الاشخاص ولغة الجماعة وعاداتها الشعبية وأساطيرها ونظمها •

وأول خط دفاعي هـو قطـع الطريق على التوتر أو التصدع ذاته بوسـاطة ميكانيزمات معينة من شأنها أن تمنع التوتر الكامن من أن يصبح واقعا ، فاذا لم يفلح خط الدفاع الاول فى منع التوتر وظهرت أعراضه على أعضاء الجماعة ، يظهر خط الدفاع الثانى الذى يضع الاستجابات المترتبة على هذا التوتر فى قوالب تأخذ طابع النمط الاجتماعي للسلوك بما له من قدرة على توقيع الجزاء على المخالفين ، وهنا يظهر خط دفاعي ثالث مرتبط بالضرورة بالخط الثانى ويتكون من الترتيبات التى تجعل الاستجابات غير المقبولة اجتماعيا صعبة جدا أو باهظة من حيث نتائجها، وفى كلمات أخرى يقول المؤلفان ان كل توتر لا يمكن أن يتجنب فى كل نسق اجتماعي ، بل لازالت هناك طـرق لمنع الناس من الوقـوع فى الانحـراف وتشجيعهم لتصريف توترهم عن طريق استخدام صمامات للامن يقرها المجتمع" ومع ذلك فقد لا تصلح الخطوط الثلاث السابقة لرفع الانحراف عن النسق الاجتماعي ، الامر الذى يفرض اللجوء الى خط دفاعي رابع ، هو سجن المنحرفين أو عزلهم أو حتى اعدامهم،ويرى المؤلفان أيضا أن مجرد منع الانحراف أو مصادرته على أية صورة لن يخلص المجتمع من مظاهر الانحراف المتعددة ولن يمنع أيضا المنحرفين من معاودة السلوك الانحـرافى ، ولهذا فانهما يقترحان خطا دفاعيـا خامسا لاعادة تنشئة المنحرف اجتمـاعيا عن طريق العلاج النفسى أو الاجتماعي على سبيل المثال[3] .

وواضح أن بردمير وستفنسون يعرفان الضبط الاجتماعي من خلال سبب وجوده ويركزان على أن الضبط الاجتماعي يعالج الانحراف فى المجتمع ولهذا يعددان الاساليب المختلفة التى يمكن أن يستعان بها فى تقليل نسبة الانحراف أو فى منعه كلية ، وهما فى هذا لا يختلفان كثيرا عن بقية من تعرضوا لموضوع الضبط الاجتماعي فى علم الاجتماع ، ذلك أن مناقشة هذا الموضوع يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الانحراف عن المعايير والمستويات والقواعد المتبعة فى السلوك الاجتماعي .

(3) Bredemeier & Stephenson. The Analysis of Social Systems New York, 1962, pp. 146-147.

٢ ــ ويقول لندبرج Lundberg ان الضبط الاجتمـاعى عبـارة نستخدمها لنشير الى المسالك الاجتماعية التى تقود الافراد والجماعات نحو الامتثال للمعايير المقررة أو المرغوبة، ويذهب الى أن أنماط السلوك الاجتماعى الكبرى ذات الطابع الدائم العام (النظم الاجتماعية) تعتبر نوعا من أنواع الضبط الاجتماعى ، ويقول أيضا ان الحكومة من بين هذه النظم ، هى التى ينلط بها فى المجتمع الحديث مسألة الضبط الاجتماعى، ويبدو الضبط الحكومى واضحا فى كثير من التنظيمات كأقسام الشرطة والمحاكم والمدارس والمسئولين عن الصحة العامة وهكذا . ولكنه فى هذا المقام يشير الى الدور الكبير الذى تلعبه الانماط الاجتماعية كالعادات الشعبية ، والبدع ، والعرف ، والرأى العام ، وغير ذلك فى الضبـط الاجتماعى،ويرى كذلك أن الضبط الاجتماعى كموضوع وأدواته المختلفة كوسائل والتى تعمـل على امتثال الناس للمعـايير الاجتماعية ، تكون عرضة للتغير وخاصة عن طريق ما سماه الاختراعات الاجتماعية[4] .

ونلاحظ هنا أن لندبرج يوسع مفهـوم الضبط الاجتماعى بطريقة تختلف عما ذهب اليه علماء علم الاجتماع ، ولا يرجع ذلك الى ابرازه للدور الكبير الذى تلعبه المنظمات الحكومية فى توجيه السلوك الاجتماعى فى المجتمع الحديث ، بل لانه يجعـل الضبط الاجتماعى وسيلة لمنـع الحروب ولضبط الزيادة السكانية فى المناطق المزدحمة بالسكان وللحيلولة دون زيادة الطابع المركزى للحكومة وما يترتب على ذلك من مظـاهر بيروقراطية قد تعطل الاداة الحكومية ذاتها .

٣ ــ أما أجبرن ونيمكوف Ogburn and Nimkoff فيقولان أن بعض طلاب علم الاجتماع يستخدمون اصطلاح (الضبط الاجتماعى) بطريقة عامة جدا : لوصف كل الوسائل التى تستخدمها الجماعة لتحقيق النظام الاجتماعى ، ويترتب على هذا الاستخدام أن العادات الشعبية وتقسيم العمل مثلا يمكن اعتبارهما من وسائل الضبط الاجتماعى ، طالما أنهمـا يساعدان على استقرار الجماعة وتكاملها . ولكنهما يستخدمان فى معالجة

---

(4) Lundberg and Others, Sociology, New York, 1958, pp. 720-721.

موضوع الضبط الاجتماعي معنى مقننا وأكثر تحديدا من المعنى السابق ، فالضبط الاجتماعي في نظرهما عبارة عن العمليات والوسائل التي تستخدمها الجماعة لتضييق نطاق الانحرافات عن المعايير الاجتماعية. ويترتب على هذا المعنى أن العادات الشعبية في عمومها ليست وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي في مجتمع معين ، ولكن عادة شعبية محددة كالسخرية يمكن أن تكون أحد وسائل الضبط الاجتماعي ، اذا استخدمت لكبح جماح المتطرف ورده الى طريق الجماعة .

٤ — ويختلف تعريف جونسون Johnson عن التعريف الاول لان كلا التعريفين مستمد من تولكوت بارسونز الضبط الاجتماعي ، الذي يتكون من كل الميكانيزمات التي تعارض الاتجاهات الانحرافية ، أو تصادرها سواء بمنع الانحراف الظاهر أو باجتثاث عناصر التأثير أو الاثارة التي تميل نحو أخراج الانحراف من حالة الكمون الى الواقع[٥] .

المدخل السوسيولوجي لفهم الضبط الاجتماعي :

يرى بعض علماء الاجتماع أن موضوع الضبط الاجتماعي لا يختلف كثيرا عن موضوع التنظيم الاجتماعي ، ومن ثم فان مناقشة هذا التنظيم يمكن أن تغطي المسائل التي تعود الباحثين على ادراجها ضمن موضوع الضبط الاجتماعي . كما أن غيرهم من أمثال جورج جرفيتش يعتقد أن أنواع الضبط الاجتماعي كالظواهر عقلية مثل الدين والقانون والفن والمعرفة والتعليم ، التي يجب أن نفصلها عن وسائل الضبط الاجتماعي التي هي الظواهر الاجتماعية كالجماعات والمجتمعات . ولكننا نرى أن اعتبار الضبط الاجتماعي نوعا من التنظيم الاجتماعي قد يكون اعتبارا وجيها ، لكن النظر الى الضبط كما يريد جرفيتش لا يعطينا عمقا في فهم هذا الموضوع الهام ، لانه في واقع الامر يفصل بين ما هو نسق من الضبط الاجتماعي وبين ما هو اجتماعي ، وقد سبق أن ذكرنا أن الدراسة في علم الاجتماع سواء بالنسبة لهذا الموضوع أو غيره ، تقوم على النظر الى الحقيقة الاجتماعية من زوايا ثلاث مترابطة هي المجتمع

(5) Johnson, Sociology, London, 1961, pp. 553-544.

والثقافة والشخصية ، ولذلك فالضبط الاجتماعي باعتباره جزءا من هذه الحقيقة الاجتماعية يجب أن يدرس بهذا المفهوم ، فالاشخاص هم الذين يكونون محل الدراسة لمعرفة مدى امتثالهم للمعايير والقيم ، ولا يمكن أن تتم الدراسة الا اذا لاحظنا هؤلاء الاشخاص فى تفاعلهم داخل جماعات أو مجتمعات . كذلك لا يمكن أن يستقيم فهمنا لطبيعة سلوك هؤلاء الاشخاص ، الا اذا كانت لدينا معرفة محققة عن نمط الثقافة الذى يعطى هذه المعايير الاجتماعية قالبا معينا وأبعادا خاصة يمكن أن نلاحظ خروج الافراد عليها أو امتثالهم لها . ومن أجل هذا فاننا نعرض فى ايجاز لمجموعة من الحقائق الاجتماعية التى تعتبر شروطا أساسية لفهم عمليات الضبط الاجتماعى وأساليبه المختلفة بغض النظر عن المكان الذى نلاحظ فيه هذه الظاهرة :

١ ــ من المسائل المعروفة فى علم الاجتماع أن الجماعة الانسانية تعتبر قوة محافظة بطبيعتها ، فالجماعة مثلا تحافظ على حقوق أعضائها، ولذلك فان اعتداء عضو على عضو آخر يقابل من الجماعة بعد الرضا ، الذى قد يصل فى كثير من الاحيان الى عقاب المعتدى ، ومثال ذلك أن بعض الجماعات تحرم السرقة من داخلها على الاعضاء ، بينما قد تسمح لهم بأن يسرقوا من خارجها ، وقد استنتج علماء الاجتماع من ذلك أن الجماعة الانسانية تقوم كمدافع ضد العدوان الذى قد يقع على بعض أعضائها .

ان فكرة الجماعة نفسها كمشكلة لسلوك أعضائها تتضمن فكرة القهر أو الالزام الجماعى ، ولذلك فالجماعة لا تواجه السلوك فحسب ، بل انها تحدده وتنظمه أيضا ، وقد برزت هذه الفكرة منذ زمن بعيد على يد دوركايم الذى قال ان جوهر الحياة الجمعية هو فيما تمارسه من قهر أو الزام على الفرد .

٢ ــ الامتثال للمعايير الاجتماعية هو الهدف الذى يسعى اليه القهر الاجتماعى ، ذلك أن الفرد لا يستطيع أن يتراجع أو أن يدير ظهره للقيم أو المعايير السائدة فى جماعته لانه يخشى من عواقب

الانحراف ، كما أن الفرد المنحرف يعلم أن عدم امتثاله يؤدى الى عدم الترحيب به فى أى جماعة أخرى ، ولذلك يفكر مرتين قبل أن يستمر فى السلوك الانحرافى •

٣ ــ الجماعة تصادر الاختلافات المتطرفة ذلك لان المعايير الجماعية هى فى واقع الامر مستويات نضعها لتكون حدودا لا يتعداها الاعضاء ، ومع ذلك فقد تظهر فى أغلب الجماعات أنواع من اليوتوبيا تعتبر فى واقع الامر انحرافا عن المعايير الموضوعة وهنا نلاحظ أن الانحراف اذا كان بسيطا فربما تجاهلته الجماعة ، أما اذا وصل الى درجة يهدد استقرار الجماعة أو تكاملها فان العقاب الذى يتلقاه المنحرف فى هذه الحالة يتناسب مع تقدير الجماعة لخطورة الانحراف نفسه عليها •

٤ ــ كل جماعة تضع حدودا للتسامح عند الاعتداء أو الانحراف عن المعايير المقررة ، وهذا راجع الى أن هذه المعايير عبارة عن مقاييس على درجة كبيرة من الاكتمال من الصعب أن نحققها فى الواقع ، ولهذا يصبح التسامح أمرا طبيعيا يتواضع عليه أفراد الجماعة ، ويتوقف التسامح على طبيعة الموقف الاجتماعى ، وعلى مركز الشخص وسمعته، وكذلك على نمط السلوك المتضمن • وهناك عدة اعتبارات يجب أن تكون فى الذهن عند النظر فى حدود هذا التسامح ومن أهمها :(٧)

أ) التقاليد الاجتماعية قد تسمح فى مجتمع بتسامح لا يسمح به مجتمع آخر • وهذا يفسر اختلاف المعايير والمبادىء الاساسية التى توجه النظام الاجتماعى أو تحدد ايديولوجيته • ولذلك فان السلوك البورجوازى فى المجتمعات الاشتراكية يعتبر انحرافا عن المعايير الاجتماعية ، ومن ثم لا يكون محلا للتسامح •

ب) كلما زاد اللاتجانس فى مجتمع كلما زادت حدود التسامح اتساعا ، وهذا راجع الى أن المجتمع المترامى الاطراف تتعدد فيه الثقافات الفرعية وتتنوع فيه الجماعات وتختلف بناء على ذلك أنماط

(6) Ogburn & Nimkoff, A handbook of Sociology, London, 1960, pp. 174-183.

الشخصيات ، الامر الذى يؤدى الى وجـود عدد كبير من مستويات السلوك المتمايزة • ولهذا لا يجـد المجتمع مناصا من توسيع نطـاق التسامح ، والا انقلبت جماعات المجتمع على نفسها وحل الصراع محل التنافس والتعاون • أما لماذا تكون المجتمعات البدائية أو الصغيرة أقل تسامحا ، فان هذا يرجع الى أن المعايير الاجتماعية فيها واحدة تفرض التشابه على أعضاء المجتمع • ومن ثم كان الانحـراف أمرا يلاحظه الجميع وتشتد له حساسية المجتمع وغالبا ما يعاقب عليه بصرامة •

جـ) كلما زاد التحضر فى المجتمع كلما زادت أهمية مؤسسات الضبط الاجتماعى الرسمية على حساب الوسائل القديمة التى كانت تسندهـا العادات والعرف • ولذلك نعتبر أن زيادة الالتجاء الى الشرطة والمحاكم فى المجتمع القروى علامة من علامات التغير الاجتماعى فيه ، لان القاعدة القديمة فيه كانت تمنع الالتجاء الى الغير فى فض النزاع أو مصـادرة الانحراف • سواء فى الوحـدات الصغيرة المكونة للقرية أو فى مجتمع القرية ككل •

د) يقـول بعض علمـاء الاجتماع أنه كلمـا زادت مرتبة الفرد الاجتماعية كلما كان أكثر حرية ، أى أنه يكون فى استطاعته الاختلاف مع المعايير الاجتماعية دون أن يتعرض للجزاء الذى يتعرض له من هم أقل منه مرتبة ، ومثال ذلك أن القرويين يكونون أقل حرية بالخروج على المعايير ، وكذلك الطبقات محدودة الدخل أو قليلة الثقافة ، بينما لا يكون الامر على هذا النحو عند الطبقات الاعلى دخلا والاكثر ثقافة •

هـ) مهما زادت حرية الفرد نتيجة للمرتبة الاجتماعية الكبيرة التى يتمتع بها ، فانه لا يستطيع أن يخالف التوقعات الاجتماعية والمعايير الى أى حد • فقد يسمح له بمخالفة الرأى العام ، أو اعتناق مبادىء تخالف مبادئ غالبية أعضاء المجتمـع ، ولكنه لا يسمح له بارتكاب المحرمات التى تعتبر مخالفات خطيرة فى كل المجتمعات •

و) كل سلوك مخالف للعرف غير مقبول فى أى مجتمع • ومثال ذلك

أن الجماعة لا تسمح لاحد فى هذه الايام أن ينادى بالعودة الى الرق مثلا . وليس العرف عاملا سلبيا دائما يمنع الفرد من هذا أو ذاك . بل انه يكون عاملا ايجابيا فى عدد من الحالات . ومثال ذلك أن العرف كان يفرض على الرجل حماية المرأة، ولازال الرجل فى عدد من المجتمعات مسئولا عن سلوك زوجته أو أخته . ففى حالات الانحراف عن قواعد السلوك الذى يقبله المجتمع يمكن أن يوقع العقاب الذى قد يصل أحيانا الى درجة القتل .

ميكانيزمات وقف التصدع والتوتر المؤدى الى الانحراف :

اذا ظهر فى الموقف الاجتماعى أى علامة على قرب حدوث الانحراف نتيجة لتصدع فى مراكز الافراد أو فى أدوارهم ، فانه من الممكن التدخل عن طريق أحد ميكانيزمات الضبط الاجتماعى لتلافى هذا التصدع وتخفيف التوتر ، والعودة بالموقف الاجتماعى الى وضعه الطبيعى . وهناك ثلاث ميكانيزمات أساسية فى هذا المجال نشير اليها على النحو التالى :

١ - العزل : وهو العزل البنائى للمراكز والادوار لمنع التصدع عن طريق فصل المصادر الكامنة للصراع المتضمنة فى المركز والدور الذى يقوم به الفرد . والوظيفة الرئيسية لهذا العزل منع الناس من أن يواجهوا توقعات متعارضة فى وقت واحد . ويمكن الوصول الى هذا العزل بطرق ثلاث :

أ) قد تقسم الثقافة الزمن الى فترات مختلفة بالاضافة الى المراكز المختلفة التى تكون للفرد . ولذلك اذا شغلت هذه المراكز فى وقت واحد ، كان احتمال ظهور الصراع عند الفرد كبيرا . ومثال ذلك أن الفرد فى المجتمع الحديث قد يكون ابنا وأبا ومديرا وعضوا فى ناد وعاملا فى جمعية خيرية . ومن الطبيعى أن يقسم وقته للقيام بالادوار التى تصاحب هذه المراكز . فاذا لم يحسن التوقيت لكل مركز وما يصاحبه من دور وقع فريسة الصراع . ومن أجل هذا كان العزل بمعنى عدم خلط الادوار بالمراكز أو العكس مؤديا الى القضاء على التصدع فى مهده .

ب) وكذلك يمكن القضاء على الصراع الكامن أو احتمالاته عن طريق تقسيم المكان . فالانتقال من مجموعة من الاتجاهات والمعتقدات الى مجموعة أخرى يمكن أن تكون عملية سهلة ، اذا أمكن عزل مكان كل مجموعة عن الاخرى مع ما يصاحب كل منها من ملابسات وظروف . ومثال ذلك أن الفرد قد يكون متعدد الجوانب ، أى أنه قد يكون كاتبا وفيلسوفا ومتدينا . ومن غير شك أن لكل حالة ظروفها واتجاهاتها ، وليس على الفرد لكى يتجنب الصراع الا أن يخصص لكل نشاط مكانا محددا ، حتى لا يكون «لكل نشاطه» فى كل مكان يذهب اليه .

جـ) كما أن عزل المتصلين بالدور ، وخصوصا اذا كانوا مختلفين باختلاف الادوار ، يمكن أن يقضى على الصراع فى مهده . ومثال ذلك أن الطالب يجب أن يفصل بين شخصيته التى يكون عليها مع من يحب ، وبين شخصيته عندما يكون مع استاذه ، وكذلك شخصيته عندما يكون مع والديه . ذلك لان خلط هذه الشخصيات جميعا فى كل دور ربما أدى الى صراع يمكن أن يكون طريقا للانحراف . ومثال آخر على ذلك ، الرجل الذى يتزوج من سيدتين ، يلعب دورين مختلفين ، لاختلاف المتصلين بكل دور . ولذلك فانه يقضى على الصراع بعزل الزوجتين كل فى مسكن مستقل ويقسم وقته بينهما .

ويلاحظ أن العزل البنائى يمكن أن يستخدم كضابط اجتماعى فى مواقف أخرى . ومثال ذلك أنه اذا وجد عدد من الاشخاص يتعرضون فى موقف معين لتصدع واحد ، فان عزل كل منهم عن الاخر ، يقطع عليهم خط الرجعة عن طريق تذويب القوى التى توحد بينهم ، فتزيد من دوافع الانحراف .

٢ ـ المنع : هو أحد الوسائل التى يستعين بها الضبط الاجتماعى على تجنب التصدع والتوتر الذى قد يترتب على عدم الاتساق بين المراكز والادوار . ويعنى المنع هنا «العزل الرمزى» للزمن والمناسبات أو الشركاء ، ولما كان من الصعب أو المستحيل فى كثير من الاحيان عزل المراكز أو شركاء الدور لكف الصراع ، فانه يلزم فى هذه الحالة الركون

الى ميكانيزم آخر لتقوية المركز السائد فى علاقة معينة ، واخضاع كل المراكز الاخرى له • والمنع لا يمنع من التفاعل مثل العزل ، وخاصة بين شركاء الدور الذين يحتمل أن يتصارعوا ، وفى الغـالب يسمح المنـع للمراكز التى يحتمل أن تتصارع من أن تقوم بأدوارها فى وقت واحد• ومثال ذلك أن الاختلاف بين العزل والمنع يظهر عندما ننظر فى قواعد الجنس عند من يرتبطون عن طريق الدم أو الزواج ، ويكون من المحـرم على بعضهم أن يتزوج البعض الاخر ، فان تنفيذ هذا التحريم يتم عن طريق فصل الرجال عن النساء فيزيائيا ، ولكن هذا الفصل لا يمنع من تفاعلهم واتصالهم على مستويات مختلفة ومتعددة فيما عدا الاتصال الجنسى •

٣ ـ الاسبقيـة : ومن الوسـائل التى تستخـدم فى منع التصدع والتوتر ما يقال له «أسبقية المركز النظامية» ذلك أن التحديد الاجتماعى الواضح لمطالب المـركز التى يجب أن يكون لها الارجحية والافضلية ، تخلص الناس من النضال فى سبيل الوصول الى قرار • ولهذا يسبب الصراع أقل قدر ممكن من الصعوبات ، لان الناس يستطيعون تقديم بعض مطالبهم على غيرها مستندين فى ذلك الى القانون أو الى ما تشير به نظم المجتمع • ومثال ذلك : اذا شاهدت زوجة زوجها يقوم بعمـل غير مصرح به ، فهل لها أن تنحرف عن الولاء لزوجها وتشهد ضده ، أم أن عليهـا أن تبقى مـسامتة ، فتنحرف عن مركزهـا كمواطنة ••• ؟ القانون الانجلوأمريكى يعطى الاسبقية لمركز المرأة كزوجة على مركزها كمواطنة ، ولهـذا يعفيها من الشهادة ضد زوجهـا • واذن كلما كانت المطالب مرتبة بحسب أهميتها بطريقة مقررة كلما أسهمت فى خفض حدة الصراع الذى يمكن أن يثير كوامن الانحراف عند الفرد ، عند الاختيار بين هذا المطلب أو ذاك •

تطويع التصدع أو التوتر وسياسته :

عندما يفشل البناء فى وقت التصدع أو التوتر ، ويظهر الاحبـاط والتوتر فى الواقـع فانه من الممكن منـع المنحرف من الاسترسال فى الانحـراف عن طـريق تمكينه من التخلص من التوتر بطـرق مقبولة

اجتماعيا . ويتضمن هذا الاجراء ما يطلق عليه اسم «تطويع التصدع أو التوتر وسياسته» . ويأخذ هذا الاجراء طابعا نظاميا بوساطة طرق متعددة أهمها : السلوك التعويضى وبدائل المركز . ولسوف نعرض لهما فى ايجاز على النحو الاتى :

١ ـ السلوك التعويضى : وهو ذلك السلوك الذى يمكن الناس من التخلص من التوتر،وهو متعدد الانواع بتعدد درجات القبول الاجتماعى المرتبطة بكل نوع على حدة .

أ) النوع المفضل ثقافيا : وهو الذى يكون فى متناول أكثر الناس. ومثال ذلك ، أن العامل الذى يفشل من حيث مركزه المهنى ، يمكن أن يجد اشباعا تعويضا فى الدور الذى يلعبه فى أسرته . فقد يلقى التقدير فى قيامه بدوره كزوج وكوالد ، فيعوض بذلك ما شعر به من خيبة وفشل متعلق بانخفاض مركزه فى عمله . وقد يكون العكس صحيحا بالنسبة للرجال ، ومعنى ذلك أن العمل يقوم بالمركز التعويضى ليغطى الاحباط الذى يجده فى دوره فى الاسرة . والمرأة الحديثة تجد تعويضا عن فشلها فى أن تكون زوجة أو أما حقيقية بالانخراط فى النشاط الاجتماعى أو السياسى .

ب) النوع المسموح به ثقافيا : ومعنى ذلك أن هذا النوع ليس مفضلا كالنوع السابق ووظيفة هذا النوع خفض التوتر الفردى دون زيادة انتاجية المركز أو الوظائف الاجتماعية الاخرى . وهنا نلاحظ أن المجتمعات قد تسمح فى وقت ما بسلوك لا تسمح به فى وقت آخر . ولهذا كان السلوك التعويضى من النوع المسموح به ثقافيا ، متعلقا بالزمن والمكان . ومن أمثلة السلوك المسموح به ثقافيا ، ذلك النوع الذى يتجه الى اشباع الحاجات والرغبات المحبطة أو الهروب من المطالب المتعارضة عن طريق اطلاق العنان للتخيل . ويغذى هذا التخيل وسائل كثيرة ، مثل أحلام اليقظة وقراءة القصص ومشاهدة الصور المتحركة والاستماع المستمر للاذاعة ومشاهدة التليفزيون وغير ذلك . ويتوقف قدر كبير من السماح بمثل هذا السلوك على مضمون هذه الوسائل .

فقد تمنع الثقافة الاستمرار فى هذا السلوك اذا كان المضمون ممنوعا أو غير مرحب به •

ج) النوع المتسامح فيه ثقافيا : وينطوى هذا النوع على عدد من وجوه النشاط متعارضة رسميا ، ولكن القيام بها يتسامح فيه ، ويمارس فى ظل ظروف ثقافية معينة • ومثل هذا النوع من السلوك يقف على حافة الانحراف ، والتسامح فيه يكون الى الحد الذى لا يظهر أنه أصبح يشكل خطرا على الجماعة أو على الانماط الاجتماعية المقررة • ومن أمثلة هذا النوع من السلوك تناول الخمر والخشونة وبعض العادات الجنسية والعربدة •

د) اما النوع الرابع وهو الممنوع ثقافيا : فان الخط الذى يفصله عن النوع السابق دقيق جدا ، لان التحول من المتسامح فيه الى الممنوع سهل جدا • والامثلة على ذلك كثيرة ، فقد يرتكب المخمور جريمة ، وقد ينقلب الهوس بالجنس الى قتل النساء ••• وهكذا •

٢ ـ بدائل المركز : اذا لم يؤدى التعويض الكافى الى بناء مركز أو لا تسمح المراكز الاخرى بتعويض تام ، فان الافراد يمكن أن يسمح لهم بالانسحاب من المركز الذى يؤدى الى التصدع أو التوتر ، وذلك فى سبيل نوع آخر من النشاط الامتثالى • ان السماح بالانسحاب من المركز يمكن الفرد من تجنب التوترات التى تترتب عليه ، كما أن ضرورة اتخاذ مركز آخر موافق عليه ثقافيا يضمن الامتثال ويمنع الانحراف • وكلما كان من المتيسر الالتجاء الى المراكز البديلة ممكنا وفى الوقت نفسه يسمح للافراد بالتحرك من مركز الى آخر ، فان احتمالات الانحراف تقل الى الدرجة الادنى •

ويعتبر الانتقال من مركز الى آخر من مميزات النسق المهنى المفتوح ، وكذلك المكان الذى يسمح بالتنقل بين أجزائه المختلفة فالناس لا يفرض عليهم مراكز معينة أو أدوار معينة مع شركاء لا يستطيعون التعامل معهم أو قد يسببون لهم تصدعات وتوترات تؤدى الى انحرافهم ، بل ان الناس فى الغالب يبحثون دائما عن المراكز البديلة الى أن يجدوا

واحدا منها يقضى حاجاتهم ، أو يسمح لهم بالتعامل مع شركاء أو رفقاء يستريحون اليهم •

وهناك ثمة خطر اجتماعى فى اعداد بدائل المراكز ، لان الناس قد يتحركون من هذا المركز الى ذاك دون أن يكونوا مؤهلين فعلا لاى واحد منها من أجل القيام بالدور الذى يناط بكل مركز بطريقة حسنة • وينطبق هذا القول على ذلك العامل الذى ينتقل من عمل الى آخر ، أو الزوج الذى ينتقل من زوجة الى زوجة ، أو الزوجـة التى تغير أزواجها فى فترات قصيرة المدى ، ويتنبه المجتمع للخطر الذى يترتب على مثل هذه الحالات ، ولذلك يضـع عقوبات أو حواجز لهـذه الحركة تستند الى المقومات النظامية فى المجتمع،حتى يكون لمثل هذا التحرك جدية واعتبار• ومثال ذلك أنه اذا ازدادت حالات الطلاق فى مجتمع زيادة يمكن تفسيرها على أساس عدم حسن استخدام بدائل المراكز ، فان المجتمـع يقيم الحواجز التى تؤدى الى تقليل نسب الطلاق ، وذلك عن طريق تصعيب اجراءاته أو احالة الامر على جهـات من وظيفتها أن تفحص الاسباب الجدية وراء طلب الطلاق ، وتحاول فى نفس الوقت أن تجعـل تكاليف الطلاق باهظة •

ويجب أن نلاحظ هنا أن بدائل المراكز يمكن أن تؤدى الى نفس التوتر والتصدع التى تؤدى اليه المواقف الاحباطية ، اذا لم يكن عند الناس مستويات محددة تماما تمكنهم من الحكم على حاجاتهم • ولذلك يكون الفرد الذى لا يعرف ما يريد واقعـا تحت توتر ، لانه فى هذه الحالة لا يقوم بأى دور يمكن التعرف عليه ، وخلاصة القول أن تعـدد المراكز والادوار فى المجتمـع يمكن أن تكون وسيلة من الوسائل التى تخفف من حدة الانحراف الذى يمكن أن يتسبب عن احساس الفـرد بالعزلة أو بانسداد الطريق أمامه لتغيير الموقف الذى سبب له التوتر أو التصدع فى بادىء الامر •

ميكانيزمات الحصار والتعويق :

ان الوسـائل السابقة التى عرضنا لها ، والتى تعتبر خطوط الدفاع

الاولى لمنع الانحراف أو لكبت مؤثراته ، قد لا تفلح فى القضاء عليه . ولهذا نلجأ الى الوسيلة الثالثة من وسائل الضبط الاجتماعى وهى منع الانحراف من أن يصبح سلوكا اذا استطعنا أن نجعل مثل هذا السلوك صعبا أو باهظا .

١ ـ تعسير الانحراف : ومعناه أنه فى سبيل ضمان الامتثال على الرغم من المؤثرات الانحرافية ، نقيم مواقفا تمنع تكيف المنحرف واستمراره فى سلوكه ، لان الامر فى هذه الحالة سيكون صعبا . وحتى اذا ظهر الانحراف فى الواقع فانه سيكون عديم التأثير نسبيا . ويكون الجزاء السلبى هنا ، الذى يظهر فى عدم الرضا عن الانحراف وامكانية قهر المنحرف ، من العوامل التى تهيىء الفرصة وتمهد الطريق أمام الامتثال . ومن نتائج هذه الميكانيزمات أن الناس يمتثلون بالرغم من أنفسهم .

٢ ـ بهاظة الانحراف : ومعناه أن الناس قد يبتعدون عن السلوك الانحرافى اذا كانت تكاليف الانحراف أعلى من تكاليف الامتثال ، ولعل هذا هو أحد الاسباب الذى من أجله لا يكون العقاب مناسبا للجريمة فى كل الاحوال ، ويقول جورج هومانز George Homans ان عددا كبيرا من وسائل الضبط التى تعمل بطريقة غير رسمية فى أى جماعة اجتماعية تعتبر نتيجة لطبيعة تنظيم الحياة الاجتماعية ، ذلك أنه لما كان التساند والتبادل متضمنا فى تقسيم العمل فى الجماعة ، وتجد الحاجات المكملة وسائل أشباعها عن طريق أنماط التفاعل المقررة ، فان الخروج على مثل هذه التنظيمات والقواعد يقابل من غير شك بالمقاومة .

وترجع هذه المقاومة الى أن التغير فى النمط المقرر حين يتسبب فيه عضو واحد من أعضاء الجماعة . فان تأثير هذا التغير يسرى الى الاعضاء الاخرين فى تلك الجماعة ، ولذلك فان المنحرف فى هذه الحالة يضطر الى الامتثال لان الجماعة تبادر بحرمانه من مراكزه وأدواره التى كان يشغلها أو التى كان من المحتمل أن يشغلها فى المستقبل .

ولعل اهتمام هومانز بوسائل الضبط غير الرسمية ترجع الى أنه كان يحلل جماعات صغيرة بسيطة التركيب نسبيا ، ولكن المجتمع الحديث لا يمكن أن يكف الانحراف أو أن يمنعه بحرمان المنحرف من السلع والخدمات ، أو بتهديده بحرمانه من مراكزه وأدواره عن طريق الجماعة التى ينتمى اليها نظرا لاتساع نطاق المجتمع الحديث من ناحية ولتعدد أنماط السلوك المقررة من ناحية أخرى • ومن ثم فان فاعلية عدم الرضا الاجتماعى كوسيلة من وسائل الضبط تقل بالضرورة ، ونحن هنا لاننكر أهمية عدم الرضا الاجتماعى وانما ننيط به دورا جزئيا فى منع الانحراف•

ويلاحظ أن المجتمعات الحديثة تعتمد اعتمادا متزايدا على وسائل الضبط النظامية التى تظهر فى الجيش والمدرسة والمصنع والجماعات المنظمة التى يكون لكل منها وسائلها فى الضبط التى تناسب أنماط السلوك فيها والاهداف التى تسعى اليها ، كما أن المجتمع بصفة عامة يعتمد على القانون الذى يضع القواعد العامة لضبط المظاهر العامة من سلوك الافراد بغض النظر عن انتماءاتهم الجماعية ، ولهذا يعتبر القانون فى المجتمعات الحديثة من أهم وسائل الضبط الاجتماعى وأكثرها عمومية وأشدها الزاما وأكثرها فاعلية فى منع الانحراف وفى الوصول الى السلوك الامتثالى بصفة عامة •

٣ ـ اهمية القانون : عندما يكون المنحرف من وجهة نظر الرأى العام غير قادر على اظهار انحرافه،فانه مع ذلك يظل متربصا بالانحراف ولذلك يجب أن يبعد عن مسالك الانحراف عن طريق التهديد بالعقاب البدنى أو السجن أو النفى أو الاعدام • وتكون مثل هذه الوسائل فى الضبط الاجتماعى بين الجماعات الثانوية نظامية ، بمعنى أنها تحدد فى شكل ميكانيزم رسمى يسمى القانون • وعندما يصبح القانون منطويا على جميع الميكانيزمات التى تؤهله لمنع الانحراف وعقابه ، فانه ينطوى بالضرورة على مراكز من شأنها التحرى عن المنحرفين والحكم عليهم وعقابهم ، وكلما زادت قواعد القانون دقة كلما زادت ضرورة التخصص فيه لمواجهة كل أنواع الانحراف والمنحرفين •

ولما كان القانون ينطوى على العقاب ، فانه يكون عاملا كافا عن الانحراف وله فاعلية فى ظل أربعة شروط هى :

أ) يجب أن يكون العقاب قاسيا بدرجة كافية ليعيد التوازن بهدف الوصول الى الامتثال •

ب) يجب أن يكون مباشرا وفوريا بدرجة كافية ليربط فى الاذهان العلاقة الوثيقة بين العقاب والانحراف •

ج) يجب أن يكون واحدا نسبيا ، بمعنى أن يطبق على جميع الاشخاص الذين يرتكبون انحرافا معينا •

د) يجب أن يكون مؤكدا وموثوقا به لتصبح للشروط الاخرى فاعلية محققة •

ولما كانت هذه الشروط متساندة ويتوقف تطبيقها على اعتبارات متعدده يتعلق بعضها بالقيم ، فانه من الصعب أن نحدد الفاعلية النسبية لاى منها أو امكان تطبيقه جميعا الى أقصى درجة من درجات الكفاية •

وخلاصة القول ان الضبط الاجتماعى ضرورى لمعالجة الفشل فى التنشئة الاجتماعية ، كما أنه من ناحية أخرى يشحذ همم أولئك الذين تعلموا دروس هذه التنشئة جيدا ، ويلاحظ أن العمليات الرئيسية المتضمنة فى التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى واحدة تقريبا،وعلى الاخص الثناء واللوم والمكافأة والعقاب على السلوك الذى يحوز الرضى أو لا يحوزه على التوالى •

وكما رأينا فى التحليل السابق لميكانيزمات الضبط الاجتماعى ، نستطيع أن نقول ان الجزاءات من ثلاثة أنواع : جزاءات فيزيائية واقتصادية ونفسية اجتماعية ، ويلاحظ أن الانسان يستخدم الجزاءات النفسية الاجتماعية أكثر من استخدامه للجزاءات الفيزيائية لانه حيوان ثقافى فى المحل الاول • وتقوم اتصالاته مع الاخرين على الرموز،ونحن لا نستطيع أن نفصل هذه الانواع الثلاث من الجزاءات فى الواقع ، لانها

مرتبطة بطرق متعددة ، ولهذا قد يحكم القاضى بالغرامة أو قضاء عدة أيام فى السجن ، ومن المسائل الهامة التى يجب ألا تغيب عن بالنا أن الضبط الاجتماعى يستخدم المكافأة كما يستخدم العقاب ، ولكن العقاب يكون أشد وقعا على النفس فى حالة الانحراف من المكافأة فى حالة الامتثال ، ومثال ذلك أن العقاب الفيزيائى لا يمكن مقارنته بالمكافآت المادية ، فالشد على اليد أو القبلة أو العناق علامات على الرضى ولا تتضمن مسرة فيزيائية يمكن أن تقارن بالالم الفيزيائى عند العقاب البدنى .

فاعلية الضبط الاجتماعى :

ناقش عدد من المؤلفين موضوع الاثر الذى تتركه وسائل الضبط الاجتماعى فى الحصول على مزيد من الامتثال داخل الجماعة أو المجتمع، وقد ساقوا فى هذا الصدد أمثلة عديدة تؤيد اتجاهاتهم المختلفة .

ويمكن أن نحصر هذه الاتجاهات فى اتجاهين أساسيين :

الاول - أن فاعلية الضبط الاجتماعى تتوقف على أدواته المختلفة ، أى أنه كلما زادت هذه الادوات نفاذا الى الافراد واصطبغت بالطابع الرادع فى أكثر الاحيان ، كلما ظهرت آثار الضبط الاجتماعى فى التقليل من نسب الانحراف وخاصة ذلك النوع الذى يكون فيه اعتداء جسيم على المعايير الاجتماعية ذات الطابع العام . ويدعم أنصار هذا الاتجاه موقفهم بقولهم اننا نريد وسائل ضبط فى المجتمع الحديث لها قوة القهر والالزام التى كانت للوسائل العرفية فى المجتمعات القديمة أو البسيطة.

وواضح أن هؤلاء يؤكدون على أهمية القانون وضرورة توسيع نطاقه وتحديد قواعده بحيث يكون صالحا لمواجهة أى انحراف مهما صغر فى المجتمع رعاية للنظام والامتثال .

والثانى - ذلك الاتجاه الذى لا ينكر أهمية وسائل الضبط الاجتماعى فى الوصول الى درجة من الامتثال عالية ، ولكن مؤيديه يرون أن الفاعلية النهائية للضبط الاجتماعى تتوقف على طبيعة الجماعة من ناحية ، وعلى

نمط التنشئة الاجتماعية من ناحية أخرى • ولذلك يحاولون أن يركزوا أنظارهم على الظروف الجماعية التى قد تؤدى الى الانحراف أو الى الامتثال • ومثال ذلك قولهم :

أنه كلما كانت الجماعة محببة الى الفرد كلما زادت فاعلية وسائل الضبط الاجتماعى فى رد الفرد الى طريق الجماعة المرسوم • ومثال ذلك أن أحد عوامل انحراف الاحداث ترجع الى أن الحدث لا يتطابق مع والديه • ومن ثم لا يقدر عضويته فى جماعته الاسرية ، ذلك لان الاب هو رمز السلطة وعندما يعارض الطفل أباه فانه غالبا ما يعارض كل رموز السلطة الاخرى مثل الشرطة والقضاء وحراس السجون ، وربما كانت معارضة الحدث لوالده طريقا يجعل شعور الطفل يتحول بصفة عامة الى نوع من الاحساس بأن المجتمع كله يقف ضده ؛ ومن ثم تنمو عنده اتجاهات للعصيان ويصبح متأثرا بالرغبة فى الانتقام ، كذلك تتوقف فاعلية الضبط الاجتماعى على استقلال الجماعة ، بمعنى أنه كلما زاد استقلال الجماعة كلما قلت فرص الانحراف ، وكلما زادت فاعلية الضبط • وقد دلل أنصار هذا الاتجاه على قولهم هذا بدراسات مقارنة أجريت على عدد كبير من الجماعات والمجتمعات المحلية تمثل ثقافات مختلفة وتتدرج فى درجة استقلالها • كما أنهم وجدوا أيضا نتيجة لدراساتهم لعدة جماعات مختلفة البناء والوظيفة فى مجتمع معين ، أن الاوامر المتعارضة أو التوجيهات غير المتناسقة تؤدى الى العصيان أو الاحباط • وفى هذا المقام تبينوا أن الاوامر ذات الطابع الايجابى والمتناقضة فى الواقع تؤدى الى زيادة نسبة العصيان ، كما أن الاوامر السلبية تؤدى الى الكبت والى المظاهر العصبية •

ان كلا الاتجاهين السابقين لا يصلح كل منهما على حدة لبيان العوامل الاساسية التى من شأنها أن تؤدى الى فاعلية أكثر فى وسائل الضبط الاجتماعى ، ذلك لان الاعتماد على مجرد الوسائل للوصول الى الامتثال داخل الجماعة دون معرفة بطبيعتها يؤدى الى عدم ادراك الاداة المناسبة لانحراف معين أو لجماعة بعينها •

كما أن الاتجاه الاخر الذى يركز اهتمامه على التنشئة الاجتماعية وطابع الجماعة ينسى شيئا هاما ، وهو أن عمليات التنشئة الاجتماعية نفسها تعكس درجات متفاوتة من الضبط الاجتماعى ، وأن بناء الجماعة ووظيفتها تتضمن بالضرورة طريق الوصول الى أهدافها وأسلوب الدفاع عنها ووسائل تذليل الصعوبات التى تقف فى وجهها ، وهى كلها من غير شك أساليب فى الضبط الاجتماعى •

وحقيقة الامر أن فاعلية الضبط الاجتماعى تتوقف على مزج دعاوى الاتجاهين معا ، ويتأيد هذا بوضوح فى المجتمعات الحديثة التى تجعل من القانون الاداة الكبرى فى الضبط الاجتماعى ، ذلك أن ما يلحق قواعد القانون أو نصوصه من تعديلات انما يتم لمواجهة المتغيرات التى تحدث فى الجماعات المختلفة المكونة للمجتمع • والمشرع الحديث يضع فى اعتباره دائما ضرورة استقراء الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ليكون لتشريعه فاعلية • ومن الادلة على ذلك أن كثيرا من التشريعات ولدت ميتة لانها جاءت غير معبرة عن طبيعة الاحوال الاجتماعية وغير متمشية مع حقيقة الظروف التى وضعت من أجلها •

المتضمنات الاجتماعية للضبط الاجتماعى :

من المناسب هنا كما يقول أجبرن ونيمكوف أن نشير الى بعض النتائج التى تترتب على الضبط الاجتماعى ، لانها تلقى مزيدا من الضوء على علاقة الجماعة بالفرد من وجهة نظر أدوات الضبط الاجتماعى •

١ ـ يحظى المنحرفون باهتمام الجماعة أكثر مما يحظى الممتثلون• ذلك أن الجماعة تنشغل بمن يعتدى على المعايير أو يتنكب الطريق السليم أكثر من انشغالها بالاشخاص العاديين ، والامثلة على ذلك عديدة فالطفل المشاغب يأخذ من وقت العائلة واهتمامها أكثر من الطفل الممتثل، وكذلك بالنسبة للطالب الذى يحاول الخروج على نظام الجامعة ، ومن يتتبع مناقشة مجالس الكليات أو الجامعات يجد أن جزءا كبيرا من نشاط هذه المجالس يخصص لمعالجة مشاكل الطلاب المتخلفين أو المشكلين •

٢ ـ يندر أن يرتفع الفرد فوق مستوى جماعته،ومعنى ذلك أن الجماعة تضع الحدود وترسم الاطار الذى يحدد مدى اختلافات السلوك عند أعضائها ، ولهذا يكون السلوك موافقا عليه اذا تم فى أى ناحية من نواحى هذا الاطار . أما اذا خرج عليه فان أعضاء الجماعة يحاولون رده . وقد عبرنا عن هذه النقطة من قبل بقولنا ان الجماعة الانسانية محافظة بطبعها،ومع ذلك فان درجة التغير فى السلوك لاتتأثر بالاختلافات فى معايير الجماعة فحسب ، بل تتأثر بالدرجة التى يطابق الفرد نفسه اليها مع الجماعة ، كما أن درجة التغير هذه تتوقف أيضا على مبلغ القهر الذى تمارسه الجمـاعة فى سبيل امتثال اعضـائها لها . وفى المجتمع الحديث قد ينتقل الفرد من جماعة الى أخرى سعيا وراء اطارات أوسع للسلوك اذا تبين أن جماعته المفضلة قد ضاقت به .

٣ ـ الجماعة أحد الوسائل الفعالة لتغيير سلوك الفرد ، ومعنى ذلك أن الافراد الذين يظهرون حساسية شديدة لاساليب الجماعة فى الضبط الاجتماعى يكونون أكثر استجابة للتغير اذا تم عن طريق هذه الجمـاعة .

٤ ـ الجماعة ككل أكثر حثا على النظام وأشد فاعلية فى الوصول اليه من قائد أو زعيم محلى ، ويرجع ذلك الى أن الجماعة أكثر قدرة على فرض الضبط على سلوك أعضائها من فرد يناط به سلطة ويوكل اليه هذا الضبط ، وجريا وراء تطبيق هذه الفكرة عمليا تعمل المدارس على المحافظة على النظام ، عن طريق اعطاء بعض وسائل الضبط لعدد من التلاميذ ليراقبوا سلوك زملائهم ، وقد لوحظ أن التلاميذ يكونون أكثر استجابة لهذه القيادة الجمـاعية من زملائهم اذا قورنت باستجاباتهم للسلطة المركزية التى قد يمارسها ناظر المدرسة .

الفصل العاشر

أسس التمايز والترتيب الطبقى فى المجتمع

أسس التمايز والترتيب الطبقى فى المجتمع

من أكثر الموضوعات اثارة للجدل بين المفكرين والعلماء ، الموضوع الذى نعالجه فى هذا الفصل ، نظرا لارتباطه ببعض الجوانب السياسية واتصاله الوثيق فى بعض الاحيان بالمسائل الايديولوجية، إن الاختلافات بين الناس كانت ولا تزال موضع النظر والبحث منذ آلاف السنين .

وقد انحصر النقاش فى عدد من المسائل ، من أهمها الدخل والمهنة والمستوى الثقافى ومستوى المعيشة وغيرها . ويلاحظ أن علماء الاجتماع اهتموا بالاختلافات فى هذه المسائل والتى تظهر بوضوح بين أقسام المجتمع المختلفة، وربما كان هناك فرق أساسى فى معالجة هذه الاختلافات فى الماضى وفى وقتنا الحاضر . ويظهر هذا الفرق فى أن القدماء ردوا كل تمايز يظهر بين الافراد فى المجتمع الى أسباب وراثية فى غالب الامر ، ومن ثم شغلوا أنفسهم بالبحث ، عما اذا كان الذين يشغلون مراكز ممتازة فى المجتمع فضلاء فى نفس الوقت . ولكن المتعارف عليه الان أن ينشغل العلماء بدراسة أسباب عدم التساوى بين الناس ، ويكون التركيز على العوامل الملموسة فحسب ، أما المسائل التى يمكن أن تتصل بمواهب الناس وفضائلهم ، فلا تكون محل الاهتمام . ومن المناسب هنا أن نعرض فى ايجاز لبعض الدراسات والافكار القديمة وتطورها حتى وقتنا الحاضر ، لالقاء مزيد من الضوء على الموقف المعاصر فى علم الاجتماع فيما يتصل بموضوع التمايز والترتيب الطبقى :[1]

---

(١) من الكتب التى خصصت بأكملها لدراسة موضوع الترتيب الطبقى فى المجتمع ، الكتاب الذى ألفه «ايجون ارنست برجل» عام ١٩٦٢ ، حاول فيه أن يعرض لكل الافكار والنظريات المتعلقة بالطبقات والطوائف والتنقل الاجتماعى وعلاقة هذا كله بالانساق الاجتماعية المختلفة . ونلاحظ انه يميل الى وجهة النظر الامريكية التقليدية فى معالجة هذا الموضوع الهام .

١ ـ أفلاطـون : حاول أفلاطون وهو يكتب عن الدولة (المدينــة) المثالية ، أن يحكم على الناس على أساس ما يتمتعون به من قدرات موروثة • فلاحظ أن الناس فى المجتمع يتبادلون الخدمات ، لان العمل بطبيعته ينقسم بينهم اقســاما عديدة ، فيقــوم البعض بأعمال معينة يؤدونها على أحسن وجه ، ولكن آخرين قد لا يتمكنون من انجاز نفس هذه الاعمال لاسباب تتعلق بقدراتهم الموروثة • أى أن كل انســان مهيء بالوراثة ليقوم بعمل معين يتناسب مع استعداده ، ويؤهله فى نهاية الامر الى شغل مرتبة معينة فى المجتمع الذى ينتمى اليه • وقد كان أفلاطون يعتقد أن المجتمع والفرد يمكن أن يفيدا كثيرا ، اذا اقتصر كل انسان على عمل ما هو معد وصالح له فقط • ولكن هذا المطلب المثالى لا يمكن أن يتحقق فى الواقع • وقد اعتقد أفلاطون أيضا أن نظــام التربية فى الدولة المثالية يمكن أن يستخرج أحسن ما فى الانسان ويسبر غور طاقته الحقيقية التى ترتبط بقدراته الموروثة • وعلى ذلك ينقسم السكان الى أقسام متعددة ، القسم الذى يتكون من العمال ، والقسم الذى يتكون من الذين يقومون بأعمال ادارية وتنفيذية ، والقسم الذى يتكون من الذين يقومون بأعمال ذات طبيعة عسكرية ، وأخيرا القسم الذى يتكون من الحكام • ويدافع أفلاطون عن هذه القسمة ، بقوله : ان المجتمع المثالى يجب أن يقسم العمل على النحو السابق ، الذى يحقق مصالح الفرد والجماعة العليا ، كما أن الفرد يمكن أن يصل فى ظل هذا النظام الى السعادة •

٢ ـ مكيافيللى : لقد وضع مكيافيللى هدفا وحاول أن يستقصى العوامل التى يمكن أن تحققه أو تعوقه • وقد كان هدفه الاكبر أن يصل الى وحدة ايطاليا السياسية فى الوقت الذى هددها الانحلال السياسى ، وجعل مجرد وجودها موضع خطر داهم•ومن أجلهذا أعاد تحليلالتاريخ بصورة مبسطة ليتمكن هو وغيره من مواجهة المشكلة الاساسية• فعندما كانت ايطاليا تعمها الفوضى ، وبدون زعيم ، لم يشغل مكيافيللى نفسه بالبحث فى الطبقات المختلفة فى المجتمع • ذلك لان أزمة ايطــاليا فى عصره جعلته يحاول أدراك المجتمع من وجهة نظر الحاكم والمحكومين أو

الامير والشعب • وقد تصور أن مستقبل هذه البلاد يتوقف على حكمة وشجاعة ومكر رجل واحد قادر على قيادة الامة • ويقول مكيافيللي انه من الصعب ، فى الوقت الذى يقف فيه الانسان فى موقف عدائى من أخيه الانسان ، أن نفكر فى العلاقة بين الناس الذين ينتمون الى مراتب مختلفة فى المجتمع • واذن يكون الموضوع الاساسى للنظر ، هو البحث عن الرجل القوى الذى يستطيع أن يشق للشعب طريقاً للخلاص من هـذه الازمات والنكبات التى يتعرض لها المجتمع • وعلى ذلك يكون مكيافيللي قد تصور المجتمع منقسما الى «طبقتين» الحكام والمحكومين•

٣ ــ ويميل عدد من الباحثين فى الطبقات إلى القول بأن الدراسة الحديثة للترتيب الطبقى تمتد جذورها الى القرن الثامن عشر • ففى هذا الوقت كانت دراسة الطبقات الاجتماعية تعتبر جزءا من التاريخ الطبيعى لبنى الانسان • وفى عام ١٧٩٣ نشر جـون ميلار John Millar الذى كان استاذاً للقانون فى جامعة جلاسجو كتابا عنوانه «أصل التمييز فى المراتب» أو «بحث فى الظروف التى تؤدى الى ظهور النفوذ والسلطة عند الاعضاء المختلفين فى المجتمع» وقد كان ميلار كغيره من معـاصريه متجها الى دراسة صفات وعادات الامم ، من أجل فهم تقـدم الجنس الانسانى من حالة البربرية الى الوضع الحالى الذى يتميز بوجود الامم المتمدنة • ولذلك كانت دراسة المراتب أو الطبقات المختلفة فى المجتمع ، جزءا من التاريخ الطبيعى للجنس البشرى ، وهذا يعود الى أن الانسان يعيش دائما فى جماعات •

ويقول ميلار أيضا ، ان دراسة الطبقات الاجتماعية فى المجتمع يجب أن تبدأ بدراسة البيئة الخارجية ، ثم دراسة اقتصاد البلاد ونوع العمل الذى يقوم به الناس ، والمجتمعات المحلية التى يعيشون فيها والعلاقات الاجتماعية التى يشاركون فيها ، ومثل هذه الدراسات ضرورية لان هذه الموضوعات الجـزئية لابد أن لها تأثيرا كبـيرا على عادات النـاس واستعداداتهم وطرق تفكيرهم •

وعلى الرغم من أن دراسة الطبقات فى أيام ميلار لم تسر فى الطريق

الذى رسمه ، الا أن دراسة الطبقات الاجتماعية الحديثة تتجه الى السير فى هذا المدخل الذى أشار الى ضرورته ميلار لدراسة الترتيب الطبقى فى المجتمع •

٤ — ان هذا المدخل لدراسة الطبقات الاجتماعية ، ليس الا طريقا واحدا من الطرق التى أثر بها تفكير القرن الثامن عشر ، ذلك أنه من المهم أن ندرك أن الحوادث الكبرى التى حدثت فى هذا القرن تركت آثارا بالغة الاهمية على هذه الدراسة ، ومن أخصها الثــورة الفرنسية والامريكية وقيام الصناعة الحديثة • ويمكن أن نشير فى هذا المقام الى تيارين متميزين من الفكر برزا كرد فعل لهذه الاحداث(٢) •

أ) لقد تصور «المحافظون» المجتمع على أن الافراد فيه يولدون فى طبقة معينة تحدد حقوقهم وواجباتهم • ولكنهم بدلا من أن يتصوروا أن هذه الحقــوق والواجبات تفرض على الافــراد عن طريق التقاليد الخلقية ، زعموا أنها تفرض فى ظل التطــورات الصناعية الجديدة عن طريق الجزاءات القــانونية • ونتيجة لذلك تكون العــلاقة بين السيد والخادم مثلا ، علاقة تعاقدية ينظمها القانون ، كما أن أساس التعامل بينهم يكون عن طريق المدفوعات النقدية التى تستبعد كل المعانى الخلقية لهذه العلاقة • واذن تكون الطبقات فى المجتمـع الصناعى عبـارة عن تجمعات من الناس لهم مواضع متشابهة فى المجتمـع ويجمعهم رابط واحد ، هو المصلحة الاقتصادية • وقد حاول المفكرون المحافظون فى القرن التاسع عشر أن يعيدوا تأكيد الروابط الخلقية التى تربط الافراد بالمجتمع بعيدا عن العلاقات التعاقدية وعن مظاهر التبادل النقدى •

ب) ولكن «الاحــرار» استجابوا للتصنيع بطــريقة عكسية • ان تجربة الصناعة عندهم تعتبر أزمة للمجتمع الانسانى ولتاريخه ، ومع ذلك لم ينظروا اليها نظرة يأس ، بل على العــكس أكدوا أن الفرصة أصبحت متاحة للتقدم • وهــم وان كانوا يتفقــون مع المحافظين فى

(٢) راجــع كتاب بندكس وليبست عن «الطبقة والمركز والقوة» الطبعة الخامسة ، ١٩٦١ •

التحدي الاخلاقي الذي ترتب على التصنيع ، الا أنهم تصوروا أن الصناعة أضافت حملا ثقيلا على كاهل العمال • وأهم ما استأثر باهتمام الاحرار في هذه الفترة ذلك الصراع الذي يتزايد في الشدة ، بين العمال وأصحاب رأس المال ، والذي يزداد عنفا كلما زاد التوسع في استخدام الآلات والعناية بانتاجية العامل • وقد كان الاعتقاد السائد أن الغنى يزداد ثراء والفقير يزداد فقرا ، كما أن الرأى كان منصرفا الى أن الزيادات الحتمية في الثراء وفي الفقر ، ستؤدي الى اتجاهات غير أخلاقية عند الفقير والغنى على السواء • وتفسير ذلك أن الغنى يزداد طمعا في مزيد من الثروات ، ويصاحب هذا الطمع عدم تقدير للقيم الثقافية والانسانية ، كما أن الفقير يزداد ازدراء لحياته وعبوديه للآلة • ولعل هذا التدهور الخلقي وهذا البؤس هو الذي حرك الاحرار لتعجل اليوم الذي يتم فيه القضاء على هذا التدهور ويعاد فيه تنظيم المجتمع •

وواضح أن المحافظين الاحرار اختلفوا في تصور أزمة المدينة الصناعية • فالمشكلة الخلقية عند المحافظين هي في ضعف الروابط بين الفرد والجماعة التي ينتمي اليها • ولذلك تعنى الفردية عندهم ، تدهور المستويات الخلقية التي يستطيع الفرد عن طريقها توجيه سلوكه • أما بالنسبة للاحرار ، فالمشكلة الخلقية • هي في القهر وفي سحق فرص الفرد للنمو والتقدم • ومن الطبيعي أن يتصور كل من الفريقين اصلاح المجتمع من الزاوية التي يعتقد أنها مصدر الشر الذي تمخض عند التصنيع • ولذلك يكون اصلاح المجتمع عند المحافظين ، يتركز حول اعادة تكامل الفرد والجماعة ، أما الاحرار فان اصلاح المجتمع عندهم لن يتم الا اذا خلقت ظروف اجتماعية جديدة تعيد للانسان كرامته المسلوبة وتشبع حاجته في التعبير عن ذاته بحرية دون أن يتعرض للقهر والاستغلال •

٥ — هذا ويبدو من النظرة الاولى أن الدراسات السوسيولوجية المعاصرة للترتيب الطبقي ، لا تتصل بأحد الاتجاهين السابقين : المحافظ

والحر ؛ ولكن الحقيقة أن هذه الدراسة لا تذهب بعيدا ، بل انها تدور حول الاجابة على الاسئلة التي كانت محور الاتجاه الحر والاتجـاه المحافظ • ومن الواضح أن محافظى القرن التاسع عشر كان لديهم رغبة فى الابقاء على الاوضاع الراهنة ، أما الاحـرار فقد كانوا يأملون فى الاصلاح الاجتماعى واعادة تنظيم المجتمع • ومع أن هناك اعترافا يكاد أن يكون عاما ، بأن الدراسات السوسيولوجية قد اسقطت عند دراسة الترتيب الطبقى ، المسائل السياسية المتعلقة به ، الا أنه من الواضح أن تقسيم نواحى الإهتمـام عند البحث الى مسائل تتعلق بالاستقرار ، ومسائل تتعلق بالحركة والديناميات لازال أهم ما يميز دراسة هـذا الموضوع فى علم الاجتماع المعاصر • ونحن نعتقد ، أنه على الرغم من زعم كثير من الباحثين فى علم الاجتماع ، أنهم يدرسون الموضوع دراسة محايدة ، فان تحيزهم (السياسى) يظهر فى اختيارهم لهذه الناحية أو تلك عند دراسة موضوعات الترتيب الطبقى • ومثال ذلك أن الباحث الذى يفضل دراسة العناصر الدائمة أو الثابتة فى الطبقة دون غيرها ، يحيد نفسه دون أن يدرى فى نطاق خاص متصل بالاتجاه المحافظ ، كما أن الباحث الذى يفضل دراسة النواحى المتغيرة فى المجتمع فانه يجارى الاتجاه الحر دون أن يدرى أيضا • ونحن نشك فى أن الباحثين حـين يعلنون فى براءة ، أنهم محايدون عند دراسة موضوعات الترتيب الطبقى، أنهم محايدون فعلا أو أنهم ينتمون الى اتجاه دون آخر من غير دراية حقيقية •

وبناء على ذلك نستطيع أن نميز الاتجاهين الرئيسيين فى دراسـة الترتيب الطبقى وما يترتب على كل منهمـا من نتائج متصـلة بطبيعة الدراسة واتجاهاتها والموضوعات الاساسية التى يفضل كل من أنصار هذين الاتجاهين التركيز عليها •

أ) اتجـاه التسلسل والتمايز الدائم : ومحصلة هذا الاتجاه تظهر عند أولئك الباحثين الذين يفضلون دراسة الطريقة التى يضـع على أساسها الفرد نفسه فى سلسلة المراكز فى المجتمع الذى ينتمى اليه ، وكذلك الطريقة التى يحافظ بها عن طريق أفعاله ، على وضعه فى هذه

السلسلة ، ويظهر اهتمام هؤلاء بالنواحى الدائمة والثابتة فى المجتمع ، فى تركيز أبحاثهم على نظام مراتب الافراد ، الذى يعتبر من غير شك جانبا هاما فى مسألة الترتيب الطبقى • وعلى ذلك يرتب الافـــراد على أساس عدد من مقاييس الامتياز والنفوذ والتى يستخدمونها مع غيرهم لتمكنهم من الحكم على الطريقة التى يجب اتباعها عندما يتصلون أحدهم بالاخر • ونتيجة مثل هذه الدراسة وغـــيرها تعتبر محاولة لتحليـــل الاسلوب الذى يحاول على أساسه الترتيب الطبقى الحاضر أن يحافظ على جوهره[٣] •

ب) الاتجـــاه الجمعى المتغير : ويهدف الى دراسة السلوك الجمعى فى تأثره بالتنظيم الاقتصادى للمجتمع ، ومن اجل ذلك يرتب الباحثون الافراد طبقا لعدد من المقاييس الخارجية ، مثل المهنة والدخـــل ونمط الاستهلاك والملكية وغير ذلك•وتعتبر التغيرات التى تحدث فى الاتجاهات المهنية وفى توزيع الدخل جانبا متكاملا من أبحاث هؤلاء • ولعل هذا هو الذى جعل بعض الكتاب يقولون ان هذه الابحاث المتعلقة بالسلوك الجمعى تركز على المسائل المتعلقة بالتغير الاجتماعى فى المحل الاول،لان أصحابها يقررون ، أن سلوك الجمـــاعة يكون استجابة مباشرة للبيئة المتغيرة • ولهذا كانت كثير من كتابات كارل ماركس،دراسة للجماعات بهدف تحليل عمليات التغير الاجتماعى • ومع أن هناك عدة اختلافات بين الدراسات التى تدرس نظام المراتب فى ضوء أعتبارات اقتصادية ، وبين النظرية الماركسية التى تنسب تغيرات البناء الاجتماعى الى تغيرات سابقة فى الظروف المادية للمجتمع ، الا أنهمـــا يشتركان فى الاعتقاد بأن سلوك الجماعات يعتمد على التغيرات التى تحـــدث فى التنظيم الاقتصـــادى والتوجيه السياسى • ومن هذه الزاوية ، يعكس الاتجاه الجمعى المتغير والاتجاه الماركسى الاهتمام المتزايد بالنواحى المتغيرة للمجتمع •

---

(٣) هذا هو الاتجاه الشائع فى علم الاجتماع الامريكى ، ويحـــاول بارسونز ومدرسته فى هذه الايام تدعيمه بتحليل جديد ومنطقى مختلف عما درج عليه أغلب الكتاب المعاصرين •

اساس التمايز فى المجتمع

١ ــ تختلف مراكز الافراد ومراتبهم فى أغلب المجتمعات والجماعات، وتعكس هذه الاختلافات قيم المجتمع بطريقة يمكن تمييزها وابرازها للدراسة المقارنة • وقد تقوم اختلافات المركــز على أساس السن أو الجنس أو الثروة أو المؤهلات الشخصية • وفى بعض المجتمعات هناك تدرج فى المراتب ، بحيث لا نستطيع أن نحــدد مراتب معينة تختلف اختلافا أساسيا عن مراتب أخرى فى نفس المجتمع ، بينما نجد الانقسام الطبقى فى مجتمعات أخرى واضحا مثل الطوائف فى الهند أو الاقطاعيات فى مجتمع القرون الوسطى •

٢ ــ وأول ما يجب أن نلاحظه هــو أن الافراد والجماعات قــد تختلف بعضها عن الاخر فى صفات معينة ، كالجنس أو المهنة • الامر الذى يسمح بتصنيف الناس على هذا الاساس ، أو يكون الاختلاف بينهم من طبيعة يمكن قياسها مثل اختلافات الدخل أو اختلافات العمر • كما أننا نلاحظ أن الافراد أو الجماعات غير المتجانسة من حيث الجنس أو المهنة أو الصفات الاخرى يقومون بوظائف مختلفة عندما يتفاعلون، مثل الحصول على الطعام أو حمل الاثقال أو القتال ، وعندما تثبت هذه الوظائف المختلفة عن طريق الثقافة فى نموذج يحدد الموقف الاجتماعى لشخص معين يشغل هذا الموضع ، فاننا نسمى هذه الوظائف «الادوار الاجتماعية» • ولما كان المجتمع عبارة عن تنظيم من عدة جماعات تقوم بأنواع مختلفة من النشاط ، فاننا نتوقع نتيجة لهذا أن توجد أدوار اجتماعية كثيرة•فالفرد يقوم بأدوار متعددة بتعدد انتماءاته الاجتماعية، ولذلك نلاحظ أنه فى المجتمع البسيط المتجانس ثقافيا والمستقر نســبيا تكون أدوار الناس قليلة • الامر الذى يترتب عليه ألا نجد تصادما أو نزاعا بين أدوار الناس ، وكل النزاع الذى يحدث يكون نزاعا من النوع الذى خبرته الجماعة لمدة طويلة ووجدت له الحلول السلمية • ولكننا نجد الامر على عكس ذلك فى المجتمعات التى تتغير بسرعة ، حين تتعدد الجماعات المختلفة المقاصد التى ينتمى اليها الفرد ، ولهذا نقول انه

كلما تعقد المجتمع كلما تعقدت الادوار الاجتماعية وأصبحت الفرصة سانحة للنزاع بينها ٠

٣ ــ كل المجتمعات تمايز بين أعضائها على أساس الادوار ، كما أن كل المجتمعات تقيم هذه الادوار بطريقة متمايزة ٠ ولذلك تعتبر بعض الادوار أكثر أهمية وأكثر قيمة من أدوار أخرى ٠ وبالتالى يقدر المجتمع أولئك الذين يشغلون أدوارا مهمة من وجهة نظره ٠ وهــذا التقدير الاجتماعى المختلف للادوار الاجتماعية التى يقوم بها الافراد هو الذى أدى الى ظهور فكرة المركز ، ولذلك ينظر الى المركز من وجهة نظر علم الاجتماع على أنه المرتبة التى تقرنها الجماعة بدور معين أو بمجموعة من الادوار ، ولذلك تسمى العملية التى عن طريقها ترتب الجماعات أو الافراد فى سلسلة متدرجة من المراكز «الترتيب الطبقى» Stratification ونحن نستخدم هذه الكلمة فى علم الاجتماع لما بين التدرج الاجتماعى وبين ترتيب الصخور القديمة فى طبقات داخل القشرة الارضية من وجه شبه بطريقة ما ، ولكن التدرج الاجتماعى أقل دواما واستمرارا فى الزمن من الطبقات الجيولوجية ، واذن يوجــد الترتيب الطبقى اذا وجــدت الجماعات فى مواضع مرتبطة بمراتب معينة ولها درجة معينة من الدوام٠

٤ ــ ويكاد علماء الاجتماع يجمعون على أن كل المجتمعات الانسانية المعاصرة والتاريخية تنطوى على نوع معــين من الترتيب الطبقى على أساس اختلاف أدوار الناس ومراكزهم فى الحياة الاجتماعية ٠ وقــد أدى تقسيم العمل فى المجتمعات الحــديثة الى أنواع لا حصر لها من الاعمال التى تختلف بعضها عن الاخر وما يؤدى اليه هذا الاختلاف من اختلاف الذين يقومون بها ٠ ولهذا فان الحديث عن المساواة المطلقة بين أعضاء المجتمع الواحد فى وجود هذا التقسيم المعقد للعمل ، وفى وجود المراكز والادوار غير المتساوية أمر غير منطقى وغير واقعى أيضاء ولكن الترتيب الطبقى قد يتأثر ببعض الايديولوجيات التى قد تقرب الابعاد الاجتماعية بين الناس أو قد تزيدها اتساعا ٠

٥ ــ وعند دراسة الترتيب الطبقى للمجتمع لا يجد البــاحث فى

المجتمع مفرا من التعرض لموضوع الطبقات الاجتماعية التى تعتبر جوهر الترتيب الطبقى فى كل مجتمع ، وفى هذا الصدد لا نجد موضوعا اختلف عليه علماء الاجتماع مثل موضوع الطبقة الاجتماعية من حيث طبيعتها وحدودها ومقاييسها •

المركز الاجتماعى :

١ — المركز هو الوضع الاجتماعى الذى يعين لصاحبه بغض النظر عن صفاته الشخصية وخدماته الاجتماعية ، درجة من الاحترام والنفوذ والتأثير • وعلى الرغم من أن هناك ارتباطا تاريخيا وثيقا بين الطبقة الاجتماعية وبين نوع المهنة ، فانهما لا يمتزجان ، لان الفواصل الطبقية لا تقوم أساسا على الوظيفة ، ولكنها تقوم على المركز Status •

٢ — وتختلف الدعائم التى يستند عليها المركز باختلاف المجتمعات وباختلاف الفترات التاريخية فى هذه المجتمعات نفسها • ففى المجتمعات البدائية حيث لا يوجد تمايز طبقى بالمعنى المعروف يقوم المركز على أساس الامكانيات الفردية • لكن المركز يمكن أن يقوم على اختلافات فى المولد أو الثروة أو المهنة أو السلطة السياسية أو الجنس أو الامتياز العقلى كما فى الصين القديمة • وغالبا ما يتحدد المركز باجتماع أكثر من خاصية من الخواص السابقة • وكلما أصبح لعامل من العوامل السابقة مركز الصدارة بحيث يلتف حوله باقى العوامل ، ويصبح هذا العامل أمرا متعارفا عليه فى التراث الاجتماعى كلما مهد السبيل الى قيام طبقة اجتماعية مستندة اليه • وذلك مثل طبقات السن والثروة •

الترتيب الطبقى :

١ — لماذا نصنف الناس ونحب دائما أن ننظر اليهم لا كأفراد ، ولكن كطبقات ؟ الواقع أن مثل هذا النوع من السلوك يؤدى الى اهدار حقوق بعض الافراد على الرغم من أن الاجابة على السؤال السابق قد تكون بطريقة أخرى عندما يذهب البعض الى القول بأنه يجب أن نتصرف حيال كل الافراد طبقا لما هم عليه فى واقع الامر ، لا طبقا لانتماءاتهم الطبقية • ويتأيد هذا الادعاء على أساس الاختلافات الكبيرة

التى نلاحظهـا فى ذكاء الافـراد وتربيتهـم وشخصياتهم ومهاراتهم وطوابعهم العامة والخصائص الاخـرى التى تزيد من ضرورة معاملة الناس على أساس مؤهلاتهم الشخصية بغض النظر عن الطبقة التى ينتمون اليها . وعلى الرغم من وجاهة هذا الزعم ونبل أهدافه الا أنه يتغافل عدة اعتبارات هامة تؤدى الى عدم وجود مثل هذا السلوك فى واقع الامـر ، ذلك أن مطالب الحياة الحـديثة التى تقتضى القرارات السريعة والاستجابات اليومية بالاضافة الى القدرات الانسانية المحددة تجعل الناس يتصرفون بعضهم ازاء البعض الاخـر كطبقات أكثر من أفراد سواء أرادوا ذلك أو لم يريدوا .

٢ ـ ومن السهل فى الاسرة أو فى الجماعات الصغيرة أن يتصرف الاعضاء بعضهم مع الاخر على أساس كونهم أشخاص ، ولـكن اذا اضطرت الاسرة أو الجماعة أن تتعامل مع غرباء غير معروف الخصائص فان أعضاءهما لا يملكون الا أن ينظروا اليهم نظرة طبقية ، ومعنى هذا أنه نتيجة لاتساع حجم المجتمع وتمايز الناس الشديد وسيادة العلاقات غير المباشرة وانقسام الناس الى جماعات مهنية وتوزعهم فى أقســام المجتمـع المختلفة ، تصبح النظـرة الطبقية محددة لطابع العـلاقات الاجتماعية ومسيرة للاستجابات السريعة التى تؤدى الى اعطاء تبرير سريع للسلوك الاجتماعى وتحديد واضح للمواقف الاجتماعية . ويزعم لويد وورنر أن تقسيم العمـل حـين يزداد الى جانب تعدد واختلاف الوحدات الاجتماعية تصبح الحاجة الى التآزر والتماسك شديدة جدا ، واذا وصل المجتمع الى هذه الدرجة وأمكن الوصول الى هذا التكامل تكون الفرصة كبيرة أمام المجتمعات الكبرى أن تعيش وأن تنمو ، ولن يتحقق التكامل والتآزر الا بناء على تحديد مراتب الناس وتعيين مواضعهم فى النسق الاجتماعى على أساس تدرج معين للوظائف والمراكز وأنواع السلوك المتوقعة والمقررة لكل درجة على حدة .

٣ ـ وهنا نلاحظ أن الترتيب الطبقى للمجتمع يترتب عليه نتائج كثيرة منها : أنه اذا كان المجتمع محددا للطبقات بطريقة حاسمة فـان

فرص الحياة المتنوعة لا تكون سانحة أمام الكثرة من الناس ، بل يحدث فى أغلب الاحيان أن يظل الفرد محصورا داخل نطاق طبقته الا فى أحوال استثنائية نادرة • ولكن المجتمع الذى يذيب الفوارق بين الطبقات بمعنى ألا يغلقها على أعضائها بأن تكون مفتوحة للدخول فيها أو الخروج منها فان أكثر من فرصة تسنح لجميع الافراد أن يغيروا من مواضعهم ومن مرتباتهم ومن أنماط سلوكهم بحسب مؤهلاتهم الشخصية • والفرق بين الطبقة المغلقة والطبقة المفتوحة هو الذى جعل كثيرا من العلماء يصنفون الترتيب الطبقى فى المجتمع أصنافا كثيرة ربما خرجت عن الغرض الاساسى من دراسة هذا الموضوع فى علم الاجتماع على وجه العموم ، كما أن امكان وجود الطبقات المفتوحة أدى الى وجود فكرة التنقل الاجتماعى التى تميز المجتمعات العصرية والصناعية الان •

٤ — وليس هناك شك أن انتماء الفرد لطبقة معينة يطبعه بطابع خاص ويحدد أسلوبه فى الحياة ونظرته اليها ، حتى أن بعض أفراد طبقة معينة قد يعرفون بملابسهم أو بلهجاتهم أو بما يفضلونه أو يكرهونه وخاصة فى المسائل المتعلقة بالذوق العام •

وكذلك يؤثر الانتماء الطبقى على المرتبة الاجتماعية التى تؤثر بدورها على مايمكن أن يحصل عليه الفرد من نفوذ أو من قوة فى الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه •

٥ — ومهما كان الرأى فى موضوع الطبقات ، فاننا يجب أن ننبه الى أن كثيرا من المادة الموجودة حولها يرتبط ارتباطا وثيقا بالنواحى الايديولوجية فى المجتمعات المختلفة • فالباحث الامريكى فى موضوع الطبقات يرفض قبل كل شىء التفسير الماركسى للطبقة ويحاول أن يبرز معالم المجتمع الامريكى من حيث بنائه الاجتماعى ، فى تحديد معانى الطبقة المختلفة وفى النظر اليها وفى ادراك علاقة الطبقات بعضها بالاخر • كما قد يميل بعض الباحثين الاخرين الى ابراز التجربة التاريخية لترتيب الناس فى المجتمعات المختلفة ، وخاصة فى المجتمعات القديمة التى مرت على عدة تطورات هامة وعلى الاخص من ناحية الصراع الذى كان بين

طوائف المجتمع المختلفة حول النفوذ أو القوة أو حول الاستمتاع بالثروة أو طريقة توزيع الدخل • ولهذا كانت أبحاث الطبقة فى أوروبا أكثر اهتماما بتاريخ الصراع الطبقى من الابحاث التى نجدها عند العلماء الامريكيين •

وليس هناك شك فى أن أفكار سان سيمون وسيسموندى وكارل ماركس عن الطبقات قد فتحت مجالا جديدا فى العلوم الاجتماعية ووضعت نظريات محددة حول مفهوم الطبقة ووظائفها فى المجتمع •

الطبقات الاجتماعية :

ان دراسة ترتيب الناس فى المجتمع ، وفحص الاسس التى يقوم عليها عدم التساوى بينهم فى المراكز والادوار وفى فرص الحياة ، تشكل الاهتمام الاول لمن يبحثون موضوع الترتيب الطبقى فى المجتمع واننا لا نشك فى أن مسألة الطبقات هى نقطة الانطلاق فى الدراسة والتحليل ، ولعل علم الاجتماع الامريكى يميل الى اصطلاح « الترتيب الطبقى Social Stratification » أكثر من ميله الى ابراز اصطلاح « الطبقة Class » لاسباب ايديولوجية أو سياسية ، نظرا للارتباط الوثيق بين الماركسية وتحليل الاساس الطبقى للمجتمعات الرأسمالية •

وكما سبق أن ذكرنا ، يحاول أكثر الباحثين دراسة التفاعل ومايترتب عليه من مراكز أو مراتب مختلفة فى المجتمع ، وذلك لوضع الناس فى سلسلة متدرجة تنظم على أساس اختلاف هذه المراكز وما يصاحبها من أدوار فى الحياة الاجتماعية • وهم بذلك يطمسون فكرة الانقسام الطبقى الواضح فى المجتمع ويقللون من حدة الشعور لهذا الانقسام تمشيا مع ايديولوجية المجتمع ، التى تقوم فى أساسها على اعتبار أقسامه ذات طبيعة مرنة تسمح دون عائق بالتنقل الاجتماعى • وبهذا يتصورون القضاء على الافكار المتعلقة بالتصادم الفعلى الذى يحدث بين المصالح المتعارضة لفئات المجتمع التى تتفاوت فى الدخل تفاوتا كبيرا • كما أنهم يحاولون تبرير اتجاههم هذا عن طريق عدد من الافكار التى يؤكدونها دائما مثل ، دوام صورة البناء الاجتماعى ، والثبات النسبى للانساق

الاجتماعية ، وعند دراسة مسائل التغير الاجتماعي يرجعون عوامله الى كل شيء تقريبا ما عـدا العوامل الاقتصـادية أو التكنولوجية ، واذا تعرضوا لها ، يقللون دورها أو يربطونها بعدد لا حصر له من العوامل الاخرى ، التي قد تكون ذات طبيعة معتمدة أو مصاحبة .

ان الحقائق المتعلقة بالتغير الاجتماعي والثقـافي ، ينبغي أن تكون واضحة أمام كل باحث في الترتيب الطبقي في المجتمع ، لان الطبقات الاجتماعية ، تتغير كأي قسم من أقسام المجتمع الاخرى ، وكأي ظاهرة من ظواهره ، استجابة لمؤثرات خارجية وداخلية معا ، ولا يقتصر التغير في الطبقة على الشكل فحسب ، بل ان التغير يمتد الى المضمون أيضا ، ان القضاء على الصراع الطبقي في المجتمع كما يرى الماركسيون ، لايتم الا بتغير جذري يتناول الاساس الاقتصادي الذي يقـوم عليه البناء الاجتماعي ، كما أن تذويب الفوارق بين الطبقات ، لن يتم الا اذا بلغ التغير الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع أهدافه الكبرى .

ومن أجل هذا نقول ، ان البحث في تذويب الفـوارق الطبقية في مجتمعنا ، لابد أن يتم في ضوء الحقائق المضبوطة عن تغير المجتمع،ذلك لان تذويب الفوارق مسألة تغير اجتماعي وثقافي في المحل الاول . اننا في المجتمع الاشتراكي نحطم الاسس التي كان يعتمد عليها التقسيم الطبقي ، الذي كان يخلق طبقات متصارعة ، تستغل أحدها الاخرى ، ومن أهم هذه الاسس ، احتكار الارض ورأس المال والتحكم في المصالح الاقتصادية ، وما يترتب عليها من بنـاء اجتماعي يحمل طابع التمايز الطبقي الواضح . أن نجاح مجتمعنا في كسر حدة الانقسام الطبقي تم عن طريق تدمير مقوماته .

ولهذا نقول ان الفوارق الحقيقية قد ذابت فعلا ، ويبقى أن نعثر على الاسلوب الذي يمكننا من رسم خطط التعاون والتنافس في سبيل المصلحة المشتركة ، وهو في رأينا يقوم على التغيير المخطط الذي يستهدف مصالح الجماعة العليا ، كما يقوم أيضا على إقتلاع جذور الرواسب القديمة التي لا تزال تؤثر في طبيعة النظرة الى الحياة ، وانتزاع الثياب

المضللة الذى يتخفى وراءها من لازال متصلا فكريا بمجتمع تركه التاريخ وراءه فى تقدمه الحتمى •

ومن أجل توضيح الموقف السابق ، سوف نعرض فيما يلى لعدد من تعريفات الطبقة الاجتماعية والمقومات التى تستند اليها :

١ — يقول أرنولد جرين Arnold Green ، ان التفاعل الاجتماعى محكوم الى درجة كبيرة بالترتيب الطبقى • ذلك لان المراتب التى يحتلها الناس على أساس مراكزهم ، فى ضوء مكان الاقامة والمهنة والجنس والدين والثروة وأسلوب الحياة ، تشير وتحدد فى نفس الوقت نفوذهم وقوتهم النسبية • ويلاحظ جرين أن مقومات الترتيب الطبقى هذه تعين الناس على توقع السلوك فى مواقف متعددة • ولكنه يرى أن فكرة الطبقة الاجتماعية لا تسمح لنا باقامة تصنيف طبيعى كما يفعل البيولوجى فى المملكة الحيوانية ، ويعترف بأن علم الاجتماع الامريكى لم يفلح حتى الان فى تعريف الطبقة الاجتماعية تعريفا مرضيا ، وهو لذلك يقول ، ان البعض يحاول أن يؤكد وجود بناء طبقى قومى ، بينما يؤكد آخرون وجود بناء طبقى محلى ، أى أن مقاييس الطبقات تتغير من منطقة الى أخرى فى المجتمع الواحد • ويرى عدد آخر من الباحثين أن هناك مقاييسا موضوعية كالثروة والمهنة يمكن أن نحدد عن طريقها الطبقات الاجتماعية •

ولازال هناك من يعتقد أن الحكم على الطبقات لابد أن يكون من طريق ذاتى يتمركز حول مدى القبول الاجتماعى ومظاهر النفوذ ، التى تحدد المراتب الطبقية[4] •

ويحدد جرين موقفه من موضوع دراسة الطبقات الاجتماعية ، فيزعم أن الطبقة لا توجد فى المجتمع الواحد وجودا يتخلل جميع أطرافه ومناطقه المتعددة ، بل ان الطبقة تكون دائما ذات وجود محلى • ومعنى هذا أننا نجد بناء طبقيا مختلفا فى كل منطقة محلية فى المجتمع الواحد•

---

(4) Green, A., Sociology, New York, 1960, pp. 173-174.

ويستند جرين الى ظروف المجتمع الاريكى • ويحـاول أن يعمم نظريته ، مدللا على ذلك بالظروف المشابهة للمجتمعات الاخرى • كمـا أنه يجمع بين المقاييس الموضوعية كالثروة والمهنة ، والمقاييس الذاتية كالقبول الاجتماعي والسمعة الاجتماعية ، فى تحديد المقومات التى يستند اليها البناء الطبقى[5] • وهو بذلك ينظر الى الطبقة نظرة فردية ويضيق نطاقها فيحصرها فى منطقة محلية ، حتى لا يعترف بالظروف المتشابهة التى تميز عددا من الجماعات بغض النظر عن مكان اقامتهم ، يمكن أن تجمع بينهم وتمهد الطريق أمامهم للشعور بوحـدة المصالح ، وبالتالى تكون الطبقة الاجتماعية حقيقة مجتمعية وليست حقيقة محلية •

٢ ــ ولا يختلف جونسون Johnson ، كثيرا عن جرين فى الخطوط الاساسية ، لانه يركز على المراتب الاجتماعية التى تتصـل بخصائص الافراد ومظاهرهم السلوكية•ويقول ، ان اصطلاح «الطبقة الاجتماعية» يعنى «شريحة داخلية الزواج ، تتكون من عـائلات متساوية النفـوذ تقريبا ، مؤهلين للتفاعل الاجتماعى ، كل مع الاخرى ، ويكون ذلك دليلا على المساواة» • والشريحة كمصطلح تشير الى أن الطبقة الاجتماعية جماعة أو أكثر ، يمكن ترتيبها فى نسق متكامل نسبيا من مراتب النفوذ •

ويدلل جونسون على سلامة هذا التعريف كما يلى :

أ) الاسرة أساس الطبقة ووحدتها ، ومعنى ذلك أن الاختلافات بين أعضاء الاسرة ترجع الى الجنس والسن ، ولكن هـذه الاختلافات تهمل عند الترتيب الطبقى ، لان هؤلاء الاعضاء ينظر اليهم على أنهم متساوون طبقيا •

ب) الطبقات يتم الزواج فى كل منها داخليا ، ذلك لان الرجـال يميلون الى الزواج من نساء غير مختلفين عنهم فى الاصل الاسرى أو التربية •

جـ) التفاعل المستمر بين أعضاء عدة جماعات دليل على انتمائهم الى

---

(5) Ibid., pp. 179-181.

طبقة واحدة . ومن علامات المساواة الطبقية أن تتزاور الاسر وتتبادل المودة والتعاون ، أو أن يشترك أعضاؤها فى ناد احد أو جمعية واحدة.

د) عندما يتشابه أعضاء الجماعات المتعددة فى أسلوب الحياة ، يكون هذا دليلا على انتمائهم الى طبقة واحدة ، وأسلوب الحياة له مظاهر كثيرة ، مثل طريقة التزين والنظافة والاشارات وطريقة الكلام وشكل الملابس ونموذج مكان الاقامة وموقعه فى المجتمع المحلى ... وهكذا[6] . وواضح أن جونسون يضيق نطاق الطبقة ويحصرها فى مجتمع محلى واحد ، ويؤكد أهمية التفاعل الاجتماعى فى تحديد مقومات الطبقة . وهو وان كان يعرض فى أثناء مناقشته للطبقات الاجتماعية ، للمهنة والثروة والاسس الاقتصادية الاخرى ، الا أنه يغلب عليها القيم المتضمنة فى اتجاهات التفاعل الفردى والاسرى .

٣ — ويعرض جورج لندبرج Lundberg لطبيعة الطبقات الاجتماعية بقوله ، ان أساس العضوية فى جماعة ، هو التيام بسلوك معين متوقع من هذه الجماعة . ويسمى نمط السلوك المتوقع بالاضافة الى وظيفة معينة «الدور» ، ويطلق على مبلغ الاهمية المرتبطة بهذا الدور اسم «المركز» . ولهذا يمكن مقارنة مراكز الادوار من حيث علوها أو توسطها أو قلة أهميتها . ويلاحظ أن كلا من الفرد والجماعة لهما مراكزا كما أن لهما أدوارا . ولذلك تسمى مثل هذه الجماعة طبقة اجتماعية ، والترتيب الطبقى هو صلة هذه الجماعات (الطبقات الاجتماعية) كل بالاخر . وعلى هذا نجد أن كل مجتمع معقد مرتب ترتيبا طبقيا ، وتتميز مثل هذه المجتمعات باللامساواة التى تترتب على الاختلافات القائمة بين الناس . ويلاحظ أيضا أن الناس يقيمون هذه الاختلافات فى ضوء اصطلاحات ما هو أعلى ، وما هو أدنى .

ويقول لندبرج أيضا ، أنه عند مقارنة عدد من المجتمعات المختلفة ، نلحظ أن أنساق الترتيب الطبقى تختلف من ناحيتين : الاولى من ناحية

---

(6) Johnson, H., Sociology, London, 1961, pp. 468-510.

وضوح الطبقات الاجتماعية وتميزها والثانية من ناحية مقدار التنقل الذى يحدث بين هذه الطبقات • وعلى ذلك تكون «الطائفة» نوعـــا من الترتيب الطبقى يتميز بعدم المرونة فيما يتصل بالناحيتين السابقتين • واذن تعرف الطائفة على أنها طبقة اجتماعية غير مرنة يولد فيها الفرد ولا يستطيع أن يخرج عليها الا بصعوبة شديدة • ويعتبر نظام الطوائف فى الهند من خير الامثلة على ذلك[7] •

٤ ـ ويضع وليام أجبرن يده على الصعوبات الكامنة فى تعـريف الطبقة ، ويعرض للاتجاهات المختلفة فى هذا الصدد ، ولكنه يقول أن الباحث يستطيع أن يستخدم الطبقة والمركز ، كل مكان الاخر كأنهما يعنيان نفس الشيء ؛ وهو من أجل هذا ناقش الترتيب الطبقى فى فصل مستقل سماه «المركز والدور» كدليل على اقتناعه بهذه الفكرة • واذن فالطبقـة لها ناحيتـان ، ناحية ذاتية وهى الشعـور الطبقى ، وناحية موضوعية هى الدخل والمهنة ، ولكنه فى نهاية الامر يجد أن تعريف كارل ماركس للطبقة من أحسن التعاريف وأكثرها دقة وتحديدا ، لانه يقيم الطبقـة على أسـاس مقاييس موضـوعية اقتصـادية كالثروة والمهنة والدخل[8] ولعل أجبرن يختلف فى معالجته لمسألة الطبقات الاجتماعية والترتيب الطبقى عن أغلب علماء الاجتماع الامريكيين • فعلى الرغم من اهتمامه بالمسائل التى تمثل وجهة النظر الامريكية ، الا أنه يميل فى النهاية الى معالجة الطبقة من وجهة نظـر جمعية ، ويعالجها على أنها ظاهـرة مجتمعية ، ويحـاول أن يكشف عن أثر التغـيرات الاجتماعية والثقافية فى تغير البناء الطبقى وما يترتب عليه من تغيرات واسعة النطاق فى الحياة الاجتماعية • ومن يقف على نظـرية أجبرن العامة فى علم الاجتماع يكتشف فورا اعتقاده التام بأن تغير المجتمع يرجع فى المحل الاول الى التغيرات التى تحدث أولا فى الاساس المادى له كالتكنولوجيا والصناعة بوجه عام •

---

(7) Lundberg & Others, Sociology, New York, 1958, pp. 476-477.
(8) Ogburn & Nimkoff, Sociology, London, 1960, pp. 123-150.

نظرية كارل ماركس :

تمثل نظرية ماركس فى الطبقات الاجتماعية نقطة هامة من مجموع دراساته ، وكان لها تأثير كبير على التفكير الاجتماعى الحديث • ومن يفحص أعمال كارل ماركس لا يجد جزءا فيها خصص لموضوع الطبقات، ولكن مناقشته جاءت فى عدة فقرات متفرقة • ولهذا فان من يحاول التعرف على هذا الموضوع عليه أن يجمع كل مايكتبه ماركس عن الطبقات فى أعماله المتعددة ، ويجتهد فى أن يربط الاراء المتعددة فى إطار نظرى متكامل •

ويقسم ماركس التاريخ الى مراحل متعددة مثل ، المدينة القديمة والاقطاع والرأسمالية • وتتميز كل من هذه المراحل بنوع خاص من الانتاج ، يترتب عليه بناء طبقى يتكون من الطبقة الحاكمة والطبقة المستغلة والمسلوبة الحقوق • ويحدد الصراع الذى يقوم بين هاتين الطبقتين ، طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الناس • ويلاحظ أن الطبقة الحاكمة تهيمن على الحياة العقلية والخلقية للاخرين ، من خلال سيطرتها على كل وسائل الانتاج ، ولهذا يقول كارل ماركس ، ان القانون والحكومة ، والفن والادب والعلم والفلسفة ، تكون جميعا فى خدمة مصالح هذه الطبقة الحاكمة •

ويستطرد ماركس قائلا ، انه فى وقت معين تكون كل طبقة ذات طبيعة ثورية ، ولهذا تكون الطبقات «تقدمية» بمعنيين : عندما تتطابق مصالح الطبقة الاقتصادية بالتقدم الفنى ، وبالتالى يتزايد الرفاهية الانسانية واتساع نطاقها • ولذلك تتجه جهود هذه الطبقة أو تلك نحو متابعة المصالح المرغوبة ، ومن ثم تميل ناحية الافكار والنظم المتحررة، بقدر ما تعارض كل ما من شأنه تعطيل التقدم الفنى ، وتعويق طريق الرفاهية • ولكن عندما تصعد الطبقة لتحتل مراكز السلطة والحكم مثل الرأسمالية ، فانها حينئذ تلعب دورا مختلفا • ذلك لانها تدرك أن مساندتها للتقدم الفنى رعاية لمصالحها الاقتصادية ، وسوف يشكل خطرا عليها ، لان مزيدا من التغير فى هذه الناحية سيعرض سيادتها الاقتصادية للخطر ، واذن فلابد أن تقف لتعارض ما ساندته من قبل •

ومعنى هذا أن صعود مثل هذه الطبقة الى مراكز الحكم يحولها من بطلة فى التقدم ، الى بطلة فى التعويق ، ولهذا تقاوم باصرار كل المحــاولات التى تبذل لتغيير التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع • ويترتب على هذا الاصرار فى المعارضة أن تتجمع المصاعب والتوترات والمشـاكل ، ويصبح لا مناص من التغيير الثورى للمجتمع لانهــاء الصراع الذى وصل الى نقطة الانفجار •

ولعل النقطة الهامة التى أثارت عددا من الاعتراضات على نظــرية كارل ماركس ، هى موضوع الصراع الطبقى والتغير التاريخى ، الذى يصفه النقاد وخصوصا فى الغرب ، بأنه محاولة تعسفية لتفسير مجرى الحوادث الانسانية • وجوهر الاعتراض على نظرية ماركس،أن التصور المادى للتاريخ استخدم بطريقة توحى أن العوامل الفنية والاقتصادية، هى وحدها التى لها وجــود حقيقى فى النطــاق الاجتماعى والسياسى والعقلى بأكمله ، ويبدو أن فريدريك انجلز ، زميل كارل ماركس ، لم يكن على وفاق تام معه ازاء هذا النوع من التفسير ، ويظهر ذلك فى خطابين أرسلهما انجلز الى ماركس عام ١٨٩٠ •

ويبدو أن ماركس وأنجلز ــ مع هذا ــ قد ذهبا الى أقصى طرف فى تفسيرهما للتــاريخ استجابة لمطالب النضــال السياسى والاجتماعى فى عصرهما • ويقول بعض المعلقين على نظرية ماركس ، أنه لــولا هذا التطرف ، لما كان من الممكن أن تصادف نظريته القبول والنجاح الذى لاقته ، ولاتزال تلاقيه حتى الان •

ويعرف كارل ماركس الطبقة الاجتماعية بأنها ، «تجمع من أشخاص يقومون بنفس الوظيفة فى نظام الانتاج» • ولذلك كان الاحرار والعبيد، أو السادة والرقيق أو الخدم وغيرهم على هذا النحو من الثنائية ، هم أسماء الطبقات الاجتماعية فى مختلف فترات التاريخ • وتتميز هــذه الطبقات أحدها عن الاخرى ، بمركز كل منها المختلف فى الاقتصــاد • وأساس الوجود الطبقى عند ماركس هو الوظيفة التى يقوم بها الاعضاء فى عملية الانتاج • ولذلك تساءل الكثيرون عن السبب الذى من أجــله

جعل ماركس تنظيم الانتاج المحدد الاساسى للطبقة الاجتماعية ، وقد أجاب ماركس على هذا التساؤل فى كتاباته المبكرة فى الفلسفة ، وعلى الاخص فى نظريته عن تقسيم العمل(٩) .

ان العمل عند كارل ماركس هو السبيل الوحيد الذى يحقق الانسان به ذاته ، فالانسان لا يستطيع أن يعيش دون أن يعمل ، ولذلك كانت الطريقة التى يعمل بها الانسان فى المجتمع هى السبيل الوحيد لفهم الطبيعة الانسانية . وقد شرح ماركس باسهاب نواحى الانتاج المختلفة التى تفسر حركة التاريخ . ويقول فى هذا المقام ، أن جهود الانسان لضمان لقمة العيش هى الاساس الاول لتحليل تغير المجتمع مع ملاحظة أن التحسن المستمر فى أدوات الانتاج عبر التاريخ كان مرتبط بتزايد حاجات الانسان . هذا ويكشف التاريخ عن الفترات التى زاد فيها الصراع بين الطبقات حول توزيع نتائج العمل . والصراع عند ماركس أول علامات التناقض الطبقى فى المجتمع ، الذى يزداد عن طريق اتصال العاملين فى الطبقة الواحدة بطريقة سهلة ، الامر الذى يزيد أو يقوى من شعورهم الطبقى . ويصل هذا الشعور الى نقطة معينة يتجمع عندها التوتر ، الذى يتخذ طريقه الى التنظيم فالثورة .

نظرية سوروكين : (١٠)

ناقش سوروكين موضوع الطبقات الاجتماعية فى عدد كبير من كتبه ولكنه فى كتابه (المجتمع والثقافة الشخصية) الذى أصدره عام ١٩٤٧، حاول أن يربط مسألة الترتيب الطبقى بأنواع التجمعات الانسانية الاخرى التى تشكل مجموع السكان . ويجب أن نشير هنا الى أن سوروكين من أكثر المعارضين لنظرية كارل ماركس ، ذلك لانه يعتقد اعتقادا جازما بأن المؤثرات الاساسية فى العالم الثقافى الاجتماعى

(9) Bendix & Lipset., Class Status and Power : A Reader in Social Stratification, 1961, pp. 26-35.

(١٠) عرض سوروكين نظريته فى الطبقات فى كتبه المتعددة وعلى الاخص الـ Culture and Personality Society, وفى Social & Cultural Mobility كما حددها اكثر فى مجلد علم الاجتماع القانونى والسياسى (١٩٤٧) ص ٢١ — ٢٨ .

لا ترجع الى عوامل اقتصادية أو مادية ، وانما ترجع الى مجموعة من العوامل يكون العامل الاقتصادى واحدا منها فحسب • وهو مع ذلك لا يخفى اهتمــامه بالمسائل المتعلقة بالجــوانب الايديولوجية والقــيم والمعنويات الاخرى فى بناء المجتمع وتغيره • ومن الصعب أن نضــع سوروكين ضمن الاتجاه الامريكى فى هذا المجال ، لانه لم يهتم ، اتفاقا مع هذا الاتجاه بالمسائل المتصلة بمراكز الناس ومراتبهم فى المجتمع اهتماما يجعله ينساق الى ترتيبهم فى نطاقات محلية لتجنب الاعتراف بوجود الطبقة فى المجتمع وجودا عاما •

ويعتقد سوروكين أن الطبقة الاجتماعية ، تتكون من جماعات متعددة الروابط ، ويقول ان الطبقة الاجتماعية ليست الا نوعا من الجماعات ، سواء أطلقنا عليها هذا الأسم أو أى اسم آخر • كما يقول أن الطبقة الاجتماعية حقيقة موجودة ، ولا ينبغى أن نناقش أهميتها أو واقعيتها لان ذلك أمر مسلم به • وقد حدد سوروكين خصائص الطبقة بقوله : انها من الناحية القانونية ، مفتوحة لمن يدخل فيها أو يخرج منها ، ولكنها من الناحية الواقعية شبه مغلقة ، وهى طبيعية ومتماسكة ، وعــدائية لجماعات أخرى (طبقات اجتماعية) لها نفس الطبيعة العامة • ويرى أيضا أن الطبقة الاجتماعية يمكن النظر اليها ، على أنها جماعة منظمة نسبيا ، ولكنهــا فى الواقع ضعيفــة التنظيم ، كما أنهــا تعى وحدتها ووجودها فى بعض الاحيان ، وفى أحيان أخرى قد لا تصل الى هــذه المرتبة من الوعى والشعور بالوجود • وهى فضلا عن ذلك تعتبر من الخصائص المميزة لاوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والقرن الحالى أيضا • ويضيف سوروكين الى خصائص الطبقة خاصية هامة ، وهى أنها جماعة متعــددة الروابط ، أى أنها ترتبط عن طريق رابطين هامين هما الرابط المهنى ، والرابط الاقتصادى ، وهى من حيث الترتيب الطبقى تتميز بمجموعة من الحقــوق والواجبات تختلف عن حقــوق وواجبات الطبقات الاخرى التى لها نفس الطبيعة العامة •

ويزيد سوروكين تعريفه المفصــل للطبقة الاجتمــاعية شرحا على النحو الآتى :

١ ــ تختلف الطبقة عن الطائفة المغلقة على أساس طبيعتها المفتوحة قانونا وشبه المفتوحة فى الواقع ، كما أنها تختلف عن الانظمة الاخرى أو الولايات من حيث العدد ونوع الروابط المعقدة التى ترتبط بها . ومن هذه الزاوية تختلف الطبقة أيضا عن الاسرة والقبيلة والامة ، وغير ذلك من أنواع الجماعات المتعددة الروابط .

٢ ــ تتماسك الطبقة عن طريق مجمــوع القيم والمعانى والمعايير التى تكمن وراء مركزها القانونى والاقتصادى والمهنى . وينبعث عن هذا النوع من التماسك نوع من العداء ينصب على الطبقات الاجتماعية الاخرى المختلفة عنها .

٣ ــ ان امتزاج الروابط التى تربط الطبقة يعتبر أمرا طبيعيا ، ولذلك يصاحب الفقر المهن اليدوية ، كما ينعكس هذا أيضا على العاملين فيها من حيث حقوقهم وامتيازاتهم ، والعكس فى هذه الحالة صحيح ، بمعنى أن الثروة تصاحب المهن التى تتميز بالاعمال المبدعة الخلاقة ذات الطابع العقلى ، ويترتب على ذلك أيضا أن يكون للعاملين فى مثل هذه المهن مراكز ممتازة من الناحية الواقعية والقانونية .

ان الفراد الذين يتشابهون فى مهنهم ووضعهم الاقتصادى ومركزهم القانونى فى مجمــوعة سكانية واحدة ، ولكنهم غــير منتظمين أو شبه منتظمين ، يعتبرون من الناحية الفنية جمعا اسميا ولا يكونون طبقــة اجتماعية . ومعنى ذلك أن سوروكين يعتقد أن التنظيم أو شبه التنظيم هو الذى يكون الطبقة الاجتماعية الواعية ، لان التنظيم اذا حدث يمهد الطريق لما يسمى بانبثاق الشعور الطبقى بين أفراد الجماعة ، كما يؤدى فى نفس الوقت الى ظهور معان وقيم ومعايير تسير جنبا الى جنب مع نمو الطبقة ذاتها ، وتبدو هنا معارضة سوروكين للنظرية الماركسية فى قوله ، ان الوعى الطبقى لا ينبثق نتيجة لنظرية هذا أو ذاك ، لان مجرد النظرية لا يعتبر دليلا على الوجود الطبيعى للطبقة . وواضح من هذه العبارة أن سوروكين يريد أن يقول : ان الشعور الطبقى ينبثق تلقائيا داخل الجماعة نتيجة لعمليات تنظيمية جماعية ، ولكنه ينسى أن النظرية

اذا عبرت عن الواقع أو ترجمت عن الذبذبات البعيدة فى البناء الاجتماعى، فانها تعتبر من أعمال الخلق غير المنفصل عن الواقع كثيرا ، ولا يكون انبثاق الشعور الطبقى نتيجة لنظرية ما الا مسألة زمن فقط ، وقد يكون زمنا قصيرا فى بعض الحالات • ومثال ذلك أن عددا من المفكرين قبل كارل ماركس أحسوا بالتناقض الذى يزداد ظهورا على مر الايام بين الرأسمالية الصاعدة وبين جماهير العمال الكادحة ، وكان حل هذا التناقض فى رأيهم عبارة عن نظرية جديدة فى تذويب الفوارق بين الطبقات واخضاع رأس المال لمطالب التغير الاجتماعى والاقتصادى الذى لا مناص منه • وقد أدركنا فى مجتمعنا الاشتراكى المعاصر ، أن تحرير المواطن وكفالة الضمانات الحقيقية لحياته ، وحريته فى التعبير والحركة ، لن يتم الا بالقضاء على المصادر المباشرة وغير المباشرة التى تدمر فاعليته أو تخدعه عن ادراك مصالحه الحقيقية ، ومن ثم كان لابد من ترويض رأس المال على نحو معين أو القضاء على احتكاره وسوء استغلاله • وليس من شك أن مثل هذا النوع من التفكير يعبر عن نظرية ويترجم فى نفس الوقت عن مطالب جوهرية ، ويهدف الى تحقيق مصالح حيوية لمختلف الجماعات التى يتكون منها المجتمع •

٥ ــ ان اختلاف الطبقات الاجتماعية عن غيرها من أنواع الجماعات فى المجتمع يبدو فى الروابط الملتئمة التى تربط كل منها ، وأخصها الروابط المهنية والاقتصادية ، الى جانب روابط الانتماء الى نفس الشريحة فى المجتمع •

٦ ــ ان ارتباط الروابط الاقتصادية والمهنية معا يعمل على احداث تأثيرات بالغة القوة على العقل والجسم ، الامر الذى يظهر فى طريقة السلوك وفى النظرة الى الحياة عند الفرد • كما أن تأثيرها المشترك يزداد قوة عن طريق المركز المتشابه للافراد داخل اطار الترتيب الطبقى للمجتمع • ويعتقد سوروكين أن هذا التأثير وذلك التشابه هما اللذان يؤديان فى واقع الامر الى ظهور ما يسمى بالشعور الطبقى •

ويعتقد سوروكين أن تعريفه هذا يغطى فكرة الطبقة الاجتماعية من

جميع جوانبها ، ولا تظهر فيه النقائص التى تظهر فى التعريفات الاخرى التى تبرز جانبا واحداً وتهمل الجوانب الاخرى ، ذلك لانه أبرز الجانب المهنى والاقتصادى وأكد على أهمية الروابط المتعددة الاخرى التى تسهم فى الوجود الطبقى ، وما يترتب عليها من ظهور الشعور الطبقى الذى يعتبر العلامة المميزة للطبقة الاجتماعية .

نظرية لويد وورنر W. Lloyd Warner

من أشهر النظريات الامريكية فى الترتيب الطبقى ، تلك النظرية التى تمخضت عن دراسة لويد وورنر ومعاونيه للطبقات الاجتماعية فى أحد المدن الامريكية الصغيرة التى أطلق عليها اسم "Yankee City" وقد استخدم وورنر فى هذه الدراسة «المدخل الانثروبولوجى» الذى درس على أساسه عدداً من القبائل فى استراليا . ويتلخص هذا المدخل الانثروبولوجى فى المحاولة التى يبذلها الباحث لربط البناء الإجتماعى والثقافى بالمجتمع بأكمله .

ولقد كانت أولى دراسات وورنر للمجتمعات المحلية الحديثة بالاشتراك من التن مايو Elton Mayo ومعاونيه ، وخاصة فى الابحاث التى أجريت على المصانع والتى كان الهدف منها تمشيا مع الطريقة الانثروبولوجية ، تحديد معالم التنظيم الاجتماعى لمجتمع محلى بأسره، من أجل ادراج المصنع فى المضمون الكلى للنسق الاجتماعى[11] .

١ — ويحلل وورنر التنظيم الاجتماعى للمجتمع المحلى على أساس ابراز مكوناته من التجمعات الفرعية التى يسمى كل منها بناءا اجتماعيا، والمجتمع المحلى فى رأيه يتكون من عدد من البناءات الاجتماعية هى : الاسرة والنظم الاقتصادية والمنظمات الاختيارية،والطبقات والطوائف، والمدرسة ومكان العبادة ، والتنظيم السياسى وتجمعات السن والجنس. كما يرى أن كل مجتمع يعطى أولوية واهتماما خاصا ببناء واحد يعطى

---

(١١) أعتمدنا فى عرض نظرية وورنر على ماكتبه سوروكين فى «المجتمع والثقافة والشخصية» ، ربوجل فى «الترتيب الطبقى» ، وعلى ما كتبه ر.ر. كورنباوسر فى «الطبقة والمركز والقوة» وعلى قراءات أخرى مختلفة.

صيغة عامة لباقى المجتمع ، ويربط فى تكامل كل البناءات الاخرى لتكوين الوحدة الاجتماعية .

ويلاحـظ أن وورنر ولنط Lunt بدءا أبحاثهما وهمـا يعتقدان أن الطبقة تحددها العوامل الاقتصادية الى درجة كبيرة . وقد أيدت مادة الاستبار التى جمعت أولا هذه النظرة ، ولكنهما اكتشفا عندما تقدم الاستبار وتطور ، أن «المخبرين Informants » ، وان كانوا ينظرون الى النفوذ والمهنة على أن لهما أهمية عظمى فى ترتيب النـاس فى مراتب عـلوية أو سفلية ، الا أنهما ليستا العاملين الوحيـدين اللذان يمكن استخدامهما فى الترتيب ولا تضمن وحدهما للفرد مركزا اجتماعيا معينا. ومن أجل هذا أسقطوا «الفرض الاقتصادى البسيط» من حسابهم .

٢ ـ واذن فوورنر تحول من ابراز العوامل الاقتصادية والمهنية ، الى تصوير آخر للطبقة يعتبر فى نظره بديلا عن نظرية كارل ماركس . وجوهر هذا التصور يقوم على ابراز جميع العوامل التى يستخدمها أفراد المجتمع ليرتب كل منهم الاخر فى نظام تسلسلى شامل . ولذلك تكون الطبقة عبارة عن اثنين أو أكثر من الناس يعتقد أنهم فى مراتب علوية أو سفلية ، ويرتبهم على هذا النحو أعضاء المجتمع الاخرون .

ويعتقد وورنر أن سلم المراتب المتساوية يخترق المجتمع من أوله الى آخره ، أى أنه لا يقتصر على منطقة محلية واحدة ، ولذلك يكـون التسلسل الطبقى مؤديا الى ترتيب أعضاء المجتمع فى سلسلة رأسية من السلالم الافقية . ومثال ذلك أن الاطفال يولدون فى نفس الطبقة التى ينتمى اليها الـوالدان ، ولكن تنقل Mobility عـبر التسـلسل الطبقى صعودا أو هبوطا أمر ممكن.والمجتمع الطبقى يوزع الحقوق والامتيازات والواجبات بطريقة غير متساوية بين درجاته العلوية والسفلية .

ويترتب على ذلك ثلاث معالم هامة فى نظرية وورنر :

أ) المدخل الذاتى الضرورى لدراسة الطبقة . فعلى الرغم من أن وورنر يحاول أن يمزج وأن يعكس ارتباط العوامل الموضوعية والذاتية

فى الترتيب الطبقى ، الا أن تعريفه للطبقة يؤكد العوامل الذاتية التى تتصل بالمراتب والدرجات التى يعطيها أعضاء المجتمع كل للاخر •

ومن الواضح أن المراتب أو المعدلات ذاتية لانها تقوم على القيم والاتجاهات والمعتقدات التى تحدد المراكز التى توصف بأنها مراكز ممتازة فى المجتمع • اما اذا استخدم الباحثون المقاييس الموضوعية لتحديد الطبقة ، فان كل الاشخاص الذين يشغلون نفس المركز فى عينة مختارة ، سوف يضمهم هؤلاء الباحثون فى نفس المرتبة بغض النظر عن الطريقة التى ينظر بها أعضاء المجتمع لها • وليس المركز الموضوعى مقيسا بالمهنة أو الدخل ، هو الذى يرتب الشخص فى طبقة معينة فى رأى وورنر ، بل انه ذلك المركز الذى يقيمه أعضاء المجتمع الاخرون هو الذى يضع الشخص فى مرتبة معينة داخل طبقة محددة •

ب) ينصب اهتمام وورنر الاول على البعد الامتيازى (مقام الشخصى) فى الترتيب الطبقى • ونلاحظ هنا أن الدراسات حول طبيعة الطبقة قد سارت فى طريقين ، الاول ، اهتم بالطرق التى يمارسها الاشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية اقتصادية معينة • لتأكيد قوتهم فى النطاق السياسى والاقتصادى اتفاقا مع مصالحهم • والثانى ، اهتم بالطرق التى تنظم نسق مراتب النفوذ • ومن الواضح أن وورنر فى دراساته سار فى الخط الثانى •

جـ) أن طريقة وورنر فى تعريف الطبقة وطابع الاجراء الذى استخدمه للوصول الى هذا التصور للطبقة هو الذى قاده الى القول • ان الطبقات التى يصفها موجودات تجريبية قائمة فعلا • ومن ناحية أخرى يعتقد وورنر أن السبب فى قيام الطبقة كحقيقة واقعية ، هو أنه يصف الطبقات على أساس الطريقة التى يفكر بها الناس أنفسهم فى الطبقة • ومن أجل هذا استطاع أن يكتشف طبقات اجتماعية متمايزة •

٣ ــ ومن أجل الوصول الى نظرية فى الطبقات ، درس وورنر ومعاونوه البناء الاجتماعى لثلاث مجتمعات محلية هى Yankee City وهى مدينة فى نيوانجلند يبلغ سكانها ١٧٫٠٠٠ نسمة تقريبا ، المدينة

القديمة Old City وهى تقع فى جنوب الولايات المتحدة الامريكية . يبلغ عدد سكانها ١٠٫٠٠٠ نسمة تقريبا ، وجونزفيل Jonesville فى الغرب الاوسط ، ويبلغ عدد سكانها ٦٫٠٠٠ ، (وتسمى هذه المدن فى الواقع المتاون Elmtown ، وبريرى سيتى Prairie ، وهومتاون Hometown) وقد كان فى نية وورنر فى بداية الامر دراسة منطقة حول شيكاغو يقع فيها مصنع «وسترن الكترك Western Electric » ولكنه تحول الى دراسة مجتمع محلى له تنظيم اجتماعى نما خلال فترة طويلة من الزمان تحت تأثير جماعة ذات نفوذ وفى ظل تقاليد متماسكة .

وعلى هذا الاساس اختار وورنر المدن السابقة . ولكنه اختار Yankee City بالذات لانها مجتمع عالى التكامل أى أن الصراع داخله فى حده الادنى ، كما أن تنظيمه الاجتماعى ينطوى على علاقات اجتماعية تحدد مكان الشخص بدقة . والمكان (المرتبة) معروف فضلا عن ذلك لكل أعضاء المجتمع . وقد زعم وورنر أن هذه المدن تمثل كل المجتمع الامريكى .

ولم يظهر فى دراسة Yankee City أو Old City الطريقة التى استخدمها وورنر ومعاونوه بالضبط ، ولكن دراسة جونزفيل استخدمت فيها طريقتان هما :

أ) طريقة المشاركة المقيمة (E. P.) وتقوم هذه الطريقة على افتراض أن أنواع مشاركات الفرد فى الجماعات الرسمية وغير الرسمية أو وجوه النشاط المتعددة معروفة ومقيمة فى نفس الوقت من الناس الذين يعرفونه . كما أن هذه الوجوه المتعددة من النشاط والجماعات تخضع هى نفسها لمراتب محددة ويقول وورنر ، ان أعضاء المجتمع المحلى يتبعون بطريقة ظاهرة أو باطنة أسس الترتيب ، كما أنهم يترجمون تقييماتهم لمثل هذه المشاركة الاجتماعية الى نوع من الترتيب الطبقى الاجتماعى بصورة تمكنهم من التعبير عنها للباحثين .

ب) طريقة «قائمة خصائص المركز L. S. C » وتشتمل على عدد

من الوسائل الفنية تستخـدم فى استبار المـادة التى تجمع عن طريق المخبرين الذين يزودون الباحث بتقييمات لمشاركات الافراد الاخرين عن طريق قوائم فرعيةللمهنة ومصدر الدخل ونموذج المنزل ومنطقة الاقامة.

٤ ــ وقـد انتهى وورنر من دراسـة للطبقات الى تقسيمها على النحو الاتى :

أ) الطبقة «عالية العليا» وتتكون من ارستقراطيين بالمولد والثروة وهم فى الغالب أبناء الاسر القديمة .

ب) الطبقة «سفلية العليا» وهى تشبه الطبقـة السابقة الا أنهـا تختلف عنها فى أن أسرها ليست قديمة لا تستطيع أن تبحث عن أصولها بعيدا فى الماضى .

جـ) الطبقـة «المتوسطـة العليا» وتتكـون من رجال الاعمـال والمتخصصين فى أعمال معينة ، ويقول وورنر ان هذه الطبقات الثلاث تشكل ما يصفه بأنه «المستوى الاعلى من الرجل العادى» .

د) الطبقة «المتوسطة السفلى» وتتكون من رجال الاعمال الصغار والكتبة وبعض العمال المهرة .

هـ) الطبقة «السفلى العليا» وتتكون من العمال المخلصين الامنـاء ومن الفقراء الشرفاء .

و) الطبقة «سفلية السفلى» وتتكون من أولئك الذين يكونون فى مستوى أقل من الرجل العادى مثل العمال غير المهرة أو شبه المهـرة ، ويسكنون عادة المناطق المتخلفة .

٥ ــ ان النقد الذى وجه الى نظرية وورنر كثير ومتعدد الجوانب ويمكن تلخيصه فى النقاط الاتية :

أ) على الرغم من أن وورنر قد أدخل فى تعريف الطبقـة عـدة عوامل ، وادعى أن نظريته المترتبة على هـذا التعريف ستكون بديلا لنظرية كارل ماركس ، الا أن المتتبع لاعماله ونتائجها يلحظ من فـوره

أن مسألة «النفوذ» أو «المقام» كانت النقطة الجوهرية لكل استقصاءاته، ولذلك تكون دراسته ، دراسة لتلك المسألة وليست دراسة للطبقات الاجتماعية •

ب) أهمل وورنر المدخل التاريخي فأوقعه هذا في أخطاء ، وجعل نتائجه ناقصة الى حد كبير ، كما أغفل قيما عديدة عند حصره للقيم المختلفة في المجتمع ويرجع ذلك الى عدم ابرازه الحقائق المتعلقة بمسائل التغير الاجتماعي • وقد ترتب على ذلك أن وصفت أبحاث وورنر بالاستاتيكية ، وبأنها تعبر عن مجتمع قديم •

ج) نظرا لصغر حجم المدن التي درسها ، فقد فات وورنر أن يبرز مسائل التنقل الاجتماعي وما يتمخض عنه من تغيرات في نظرة الناس وفي مراتبهم في السلم الطبقي •

د) ان اعتماد وورنر على استقصاء «رأي الناس» في الناس كأساس في الدراسة جعل بعض علماء الاجتماع والانثروبولوجيا من أمثال سوروكين وميلز وهانلين وروبرت ميرتون ، يعتقدون أن وورنر تخلى عن النظرية المتكاملة في سبيل « اتجاهات » مشكوك في صدقها •

هـ) كما أن وورنر تعرض لاقسى أنواع النقد ، عندما زعم أن دراسته للطبقات الاجتماعية في المدن الثلاث يمكن أن تمثل الطبقات في المجتمع الامريكي بأسره• فقد اتفق أغلب علماء الاجتماع والانثروبولوجيا على القول بأن وورنر لم يدرك الفوارق في البناء والوظيفة الديناميه لمدينة صغيرة ومدينة كبيرة تصل حتى درجة المتروبوليس •

هذا وقد سبق أن ذكرنا ، أن طريقة وورنر ان صلحت لمدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكان كل منها عن ١٧٫٠٠٠ ، واذا صلحت أيضا لدراسة «مدينة امريكية» • فمن المشكوك أن تكون هذه الطريقة صالحة للتطبيق في مدينة كبرى وفي مجتمع مختلف عن المجتمع الامريكي ، الا اذا عدلت تعديلا جوهريا •

التنقل الاجتمـاعى Social Mobility

ذكرنا من قبل أن الترتيب الطبقى أمر موجود فى كل المجتمعــات؛ ورأينا أن أصــول الطبقات ترتد الى بعض الاختــلافات الملحوظة بين الناس ، والى القيم المرتبطة بهذه الاختلافات ، ولذلك كان أى تغيير فى ترتيب هذه القيم يؤدى الى تغير فى ترتيب مركز الطبقات المختلفة . ولكنا ذكرنا من قبل أيضا أن الطبقات تسمح فى نفس الوقت لكثير من الافراد ، اما بالدخول فيها أو الخروج منها ، الامر الذى يترتب عليه حركة اجتماعية ، يغير الناس على أساسها مراكزهم . ويطلق على هذه الحركة اسم «التنقل الاجتماعى» . والدورة الاجتماعية التى تترتب على مثل هذا التنقل توجد فى كل مجتمع ، ولكن سرعتها تختلف باختلاف المدى ، ففى المجتمعات البدائية . يتحرك الناس داخل مجتمع صغــير ويتحركون داخل مجتمع كبير فى المجتمعات المتحضرة والتنقل امــا أن يكون أفقيا وهو انتقال الظاهرة الثقافية من الشخص أو الجماعة الى شخص أو جماعة أخرى متشابهين أو متطابقين ، ورأسيا اذا مرت هذه الظاهرة الثقافية من أعلى الى أسفل أو من أسفل الى أعلى ، وقد يكون هناك تنقل توسطى اذا ظلت مراكز الناس ومواضعهم عند التنقل غير محددة . وبالنسبة للفرد يكون التنقل أفقيا اذا انتقل من جماعة اجتماعية الى جماعة أخرى لها نفس المستوى ، ورأسيا اذا انتقل من جماعة أدنى الى جماعة أعلى أو العكس .

وعلى الرغم من أن كثيرا من الباحثين فى علم الاجتماع يتفقون فى المعانى المرتبطة بالتنقل الافقى والرأسى فى المجتمع ، الا أنهم يختلفون فى سرعة الدورة الاجتماعية فى المجتمعات . فالتنقــل ومداه يرتبطان بحجم الجماعة التى يشترك فيها الناس بحرية ، والتنقل على هذا قد يتحدد رأسيا عن طريق الحواجز الجغرافية أو صعوبة وسائل المواصلات، وأفقيا عن طريق الطبقة أو الطائفة أو العنصر أو الجنس و السن .

فالزواج مثلا يمكن أن يقارن فى مجتمعين اذا كان يتضمن تغـيرا مشابها فى شدة العلاقات ، وبالتالى لا يقاس التنقل عن طريق البعد

الجغرافى أو الرأسى ، وانما عن طريق حجم الجماعة أفقيا والتى يشترك فيها الناس بحرية •

واذا ضربنا مثالا لذلك بالتغير فى القرية وخاصة بمقارنتها فى فترة كانت مستقرة الى حد ما مع فترة أخرى تتغير فيها بفعل عوامل متعددة من عوامل التغير الاجتماعى ، يمكننا أن نلاحظ أن التنقل الاجتماعى فى فترة الثبات النسبية كان له خاصيتين :

الاولى ـ أنه كان «محدودا Limited» وهذا راجع الى «التدرج فى الصغر» • فالقرية كمجتمع كانت صغيرة ، ولهذا كان التنقل محدوداً من حيث السرعة والمدى ، والعائلة كوحدة من وحدة أكبر هى البدنة ، كانت بالتالى أصغر ، فهى من هذه الزاوية كانت الوحدة الصغرى للحياة الاجتماعية • وبالنظر الى خصائصها العامة نلاحظ مباشرة أن التنقل الاجتماعى داخلها وفى اطار البدنة كان أكثر «تحديدا» •

والثانية ـ أنه كان أفقيا Horizontal لان الزواج اذا لم يغير من الوضع الرأسى للفرد ، الذى ينتقل من عائلة لاخرى ، فانه يكون تنقلا أفقيا • هذا لان مدى العلاقات وكثافتها كان محددا فى دائرة البدنة الواحدة ، وقام على أساس النسق القرابى والزواج الداخلى • كما أن العائلات المكونة للبدنة الواحدة كانت متشابهة المركز الاقتصادى والاجتماعى • ولذلك كان انتقال المرأة من عائلة لاخرى هو انتقال أفقى لا رأسى • وأغلب الظن أن هذا النوع من التنقل كان مقصورا على الزواج أو الطلاق ، وكان تنقلا لاشخاص وليس لجماعات •

أما فى الفترة المتغيرة فان التنقل الاجتماعى له عدة خصائص ، فالاسرة أصبحت أساس البناء الاجتماعى • وزادت الصلات المتبادلة بين القرية والعالم الخارجى ، وزادت تبعا لذلك كثافة العلاقات ومداها فى الداخل والخارج معا ، ولهذا فالتنقل :

أولا : «غير محدود Unlimited» لان الحواجز القديمة للعائلة والبدنة ومجتمع القرية ككل لم تعد تمنع امتداد العلاقات فى أى اتجاه• ولذلك زادت سرعة التنقل ومداه •

ثانيـا : أفقى لا يقتصر على الزواج ، بل يمتد الى عدد من العلاقات المختلفة بين جميع الافراد من الجنسين من مختلف فئات السن، ويتعدى الانتقال على هذا النحو حدود النسق ، ويصبح انتقالا فى دائرة مجتمع القـرية .

ثالثـا : رأسى وهو ما لم يكن موجودا من قبل .

فالافراد والاسر تنتقل الان من حيث المركز الاقتصادى والاجتماعى نتيجة لتفتيت الملكية أو انعدامها من طبقة أعلى الى طبقة أدنى . كما أن أصحاب المهن الذين كانوا ينتقلون من الناحية الاجتماعية أفقيا ، أصبحوا الان ينتقلون رأسيا أيضا على أساس ارتفـاع مركزهم الاقتصـادى والاجتماعى . ويغير بعض القرويين أيضا العمـل الزراعى فيشتغلون بالتجارة أو بالمهن والحرف ، فينتقلون رأسيا ، طائفة الى أخرى وهكذا كما أن هجرة القرويين والمتعلمين من القرية الى المدينة تعتبر فى جوهرها تنقلا اجتماعيا رأسيا .

رابعـا : توسطى Intermidiary أى غـير واضح . وذلك لان بعض الافراد ينتقلون من مركز الى آخر غـير محدد ، كأن يعمل القـروى بالتجارة والزراعة معا . أو يسكن المدينة والقرية فى نفس الوقت .

اسباب التنقل الاجتماعى :

ان قيام الطبقات وتطورها يكشف عن حقيقة هامة ، وهى أن قيام طوائف فى المجتمع كنظام مغلق أو كنسق مغلق أمر مستحيل ، ذلك لان الظروف التى تؤدى الى قيام الطبقات سوف تميل الى العمل دائما على قيام ترتيب طبقى جديد ، اما خـلال الطوائف القائمة فعلا ، أو بين الطوائف ذاتها . وعلى ذلك فاننا نهتم بابراز الظروف الاجتماعية التى تؤدى الى تسهيل أو تعويق حركة الافراد من طبقة الى أخرى، ونستطيع أن نحدد هذه الظروف فيما يلى :

١ ـ التغـير الاجتماعى :

يسهل التغير الاجتماعى الواسع النطاق حركة انتقال الافراد من أدنى السلم الاجتماعى الى أعلاه أو العكس ، ويعمل أيضا على فتح

الطبقات وازالة التحديدات الطبقية الضيقة • كما أن الثورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تؤدى الى حركة تنقل اجتماعى واسع النطاق مثل ، ما حدث فى كثيرا من بلاد العالم كروسيا وجمهورية مصر العربية، ولهذا تعد الثورة الاجتماعية نوعا من التنقل الاجتماعى المتطرف •وكلما استمرت الثورة الاجتماعية كلما استمر التنقل الاجتماعى حتى تستقر الثورة فيستقر الترتيب الطبقى على نحو معين •

٢ ــ وسائل الاتصال :

كلما زادت وسائل الاتصال بين الناس وبين الجماعات كلما شجع هذا التنقل الاجتماعى • والعكس كلما وضعت المعوقات والحدود أمام سهولة الاتصال ، كلما عوق هذا من فرص التنقل الاجتماعى • ولذلك فان المجتمع الذى يتميز بكثرة وسائل الاتصال يتميز فى نفس الوقت بكثرة التنقل الاجتماعى ، لان الاتصال فى حد ذاته يحطم الحواجز التى تفصل الناس بعضهم عن الاخر •

٣ ــ تقسيم العمل :

يتأثر مدى التنقل الاجتماعى بين الطبقات المختلفة بدرجة تقسيم العمل • فاذا اتسع نطاق تقسيم العمل وتنوع التخصص الى درجة معقدة ، فان ذلك يخلق ظروفا تعوق الانتقال السهل من طبقة الى أخرى داخل المجتمع ، وربما كان تقسيم العمل والتخصص أحد العوامل الهامة فى المجتمع الحديث التى تؤدى الى خلق التمايزات بين الناس وتصنيفهم فى فئات طبقية •

والمسألة الاساسية فى الترتيب الطبقى للمجتمع تتوقف الى حد كبير على طابع التنظيم الاجتماعى • فاذا كان هذا التنظيم يقوم على تعيين حدود دقيقة بين الافراد على أساس أدوارهم ومراكزهم وما يرتبط بها من مراتب ظهرت الطبقات واضحة وارتفعت الحواجز بينها وتميز المجتمع فى نهاية الامر بقلة التنقل الاجتماعى • أما اذا كان التنظيم الاجتماعى يقوم على تعيين حدود دراسته لهذه الأدوار والمراكز فان الطبقات الاجتماعية تكون مرنة الى حد كبير ويكون التنقل الاجتماعى بينها أمرا ميسورا •

الفصل الحادي عشر

التغير الاجتماعي



التغــــير الاجتمـــاعى

المجتمع كمجموعة معقدة من العلاقات الاجتماعية لا يبقى كما هو ، انه فى حالة دائمة من الحركة ، والتعديل الذى يتم فى طبيعة ومضمون وبناء الجماعات والنظم ، وفى العلاقات بين الناس والجماعات والنظم خلال تتابع الزمن يكون ميدان الدراسة فى التغير الاجتماعى ، ولذلك يجب أن نفكر فى هذا التغيير على أنه عملية اضطرادية مستمرة ، وهذا لا يعنى أن درجة التغير الاجتماعى واحدة دائما ، فقد نلحظ من دراستنا لتتابع الوقائع التاريخية أن هناك فترات من التاريخ تميزت ببطء التغير الاجتماعى ، ولكن مقارنة التغيرات البيولوجية والجيولوجية بالتغــير الاجتماعى يكشف عن السرعة الهائلة التى يحدث بها التغير فى المجتمع ،

التغــير والتقــدم :

١ ــ لا يجب هنــا أن نخلط بين فكرة التغــير الاجتمــاعى Social Change وبين فكرة التقدم الاجتماعى Social Progress ، فالفكرة الاولى فى جوهرها تشير الى البحث عن المبادىء التى تحكم الذبذبات الاجتمــاعية ، ولذلك فالتغير الاجتماعى يقــوم على تحليل موضوعى لاسباب هذه الذبذبات واتجاهاتها ،

ومن ناحية أخرى يتضمن «التقدم الاجتماعى» مدخلا معياريا قيميا للحكم على الاحداث الاجتماعية ، ولذلك يهتم التقدم الاجتماعى بالبحث عن «مجتمع أفضل» بينما يهتم التغير الاجتماعى «بالمجتمع فى الواقع» أو بمعنى آخر يحمل التقدم الاجتماعى فى مضمونه الاساسى «ماينبغى أن يكون» بينما يشير التغير الاجتماعى الى« ماهو موجود وما سيوجد»،

٢ ــ وترجع فكرة التقدم الى أقدم أنواع التفكير الانسانى، وقد كان لوكريتيس Lucretius أول من استخدم هذه الكلمة فى حوالى ٦٠ق٠م٠ ولكن نظــريات التقدم الاجتماعى لم تصبــح موضوعا من موضوعات

البحث الا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر • فقد ذهب كل من فرنسيس بيكون ورينيه ديكارت إلى أن الانسان يستطيع أن يحقق تقدما لا حدود له عن طريق مجهوداته الارادية •

٣ — وأول محاولة لاقامة نظرية عن التقدم بصورة متكاملة كانت على يد فونتنل Fontenelle (١٦٥٧ — ١٧٥٧) وتقوم نظريته على أن استمرار تجمع المعرفة العلمية يهيىء السبيل أمام التقدم المستمر المستمر للانسان • وقد جاء بعد فونتنل كتاب كثيرون من أمثال آبى دى سان بيير Abbé de Saint-Pierre وخاصة فى كتابه عن «ملاحظات عن التقدم المستمر للعقل» الذى قال فيه ، ان المدينة وقد ولدت فانها تتحرك بصفة مستمرة نحو السعادة القصوى لكل سكان الارض ، كذلك أكد تيرجو Turgot فى فرنسا ، أن تطور التاريخ والمدنية مسألة تجمع وتراكم ، وأن كل تقدم ثقافى يعجل فى درجة التقدم • والتقدم التاريخى عند تيرجو مستمر ومرتبط عليا ، ذلك لان كل العصور مرتبط أحدها بالاخر بسلسلة من الاسباب والنتائج التى توحد الوضع المعاصر للعالم بالاوضاع التى مرت عليه من قبل•وقد تابع كوندرسيه Condorcet تيرجو فزعم أن كل مرحلة تاريخية عبارة عن خطوة محددة نحو التكامل الإعلى لمجتمع الفردوس •

٤ — وقد أصبحت فكرة التقدم فى القرن التاسع عشر المحرك الاول للمفكرين الذين كتبوا عن المجتمع وخاصة فى السنين القليلة التى سبقت مولد علم الاجتماع • فسان سيمون مثلا كان يبشر بالعصر الذهبى القادم ويقول «ان العصر الذهبى ليس وراءنا ولكنه أمامنا» • ان أطفالنا سيصلون يوما الى هذا العصر ، «وعلينا أن نمهد الطريق لهم» وقد سار أوجيست كومت وراء سان سيمون عندما أخرج قانون المراحل الثلاث التى تصور مراحل التقدم العقلى والاجتماعى عند الانسان • هذا وقد اختلطت فكرة هربرت سبنسر عن التقدم بفكرته عن التطور • ولذلك جاءت نظريته عن التقدم الاجتماعى متوازية ومنسجمة مع نظرية التطور الكونى والبيولوجى ، وكان سبنسر يعتقد أن التطور الاجتماعى جزء من عملية اضطرادية طبيعية خالصة تحدث خلال العالم الكونى ،

يشتمل على حركة تتجه من البسيط الى المركب ومن المتجانس الى اللامتجانس فى ضوء عملية مزدوجة من التكامل والتفكك •

٥ — وعندما تطورت مناقشة نظرية التقدم فى العصر الحاضر اتجهت اتجاهين : الاول انطوى على احياء النظرية الدورية فى التاريخ على يد كل من شبنجلر فى كتابه عن «تدهور الغرب» وسوروكين فى كتابه عن «الديناميات الاجتماعية والثقافية» والثانى انطوى على طرح اصطلاح التقدم الاجتماعى كلية واحلال اصطلاح التغير الاجتماعى محله • ولعل وليام اجبرن Ogburn الذى يمثل أكثر المتشيعين للنظرية التكنولوجية فى التغير الاجتماعى ، هو المسئول عن انتشار الاصطلاح الجديد،عندما نشر كتابه عن «التغير الاجتماعى» لاول مرة عام ١٩٢٢ • وأكثر اهتمام أجبرن ينصب على دراسة العلاقة بين الاختراعات والتغير الاجتماعى • وهو لا ينكر أثر العوامل البيئية والطبيعية والبيولوجية فى تغير المجتمع ، ولكنه يشعر أن هذه العوامل ليس لها التأثير الذى للعوامل الثقافية أو الاختراعات فى احداث التغيرات الاجتماعية •

ويعنى اجبرن بالاختراع خلق أو اكتشاف عنصر أو سمة ثقافية جديدة ويظهر الاختراع من تركيب جديد للعناصر الثقافية الموجودة فعلا • ويحدث التغير الاجتماعى عند ادخال أو تبنى المجتمع لهذا العنصر الجديد • ويعتقد أجبرن أن الحاجة ، والقاعدة الثقافية،والقدرة العقلية ، والتراث ، عناصر أربعة ضرورية لابد من وجودها ليمكن للاختراع أن يظهر • ولهذا فان أصل الاختراعات ونموها وتأثيراتها مسائل متصلة أشد الاتصال بالتغير الاجتماعى • فالانماط المختلفة للاختراعات تؤدى الى تأثيرات اجتماعية متمايزة ، والاختراعات الكبرى اذا قبلها المجتمع تؤدى الى تأثيرات كبرى ، كما أن الاختراعات الصغرى تؤدى الى نتائج قليلة الاهمية • وفى العصر التكنولوجى الذى نعيش فيه تفسر وطاة الاختراعات الآلية والاستعداد المباشر لقبولها التغيرات الاساسية فى حياة الانسان أكثر مما تفسره اختراعات الانسان الاجتماعية والايديولوجية •

ويعتقد أجبرن أن نظريته فى التغير الاجتماعى لا تقارن بالنظريات الدورية فى التغير الثقافى والاجتماعى • فالاختراعات التى لها خاصية التجمع والتراكم تؤدى الى النمو الثقافى المتقدم ولا تؤدى الى تصور التغير على أنه تقدم وتراجع كما يتصوره الذين يؤيدون النظريات الدورية •

٦ — ويعتبر سوروكين وشبنجلر وتوينبى من أنصار النظريات الدورية ذات المدى الواسع التى يفسرون بها الذبذبات الكبرى فى الثقافة والمجتمع • فقد درس سوروكين فى كتابه المشار اليه الثقافتين الاغريقية والرومانية من عام ٦٠٠ ق•م الى وقتنا هذا مع اشارات مختصرة الى الثقافات المصرية والعربية والهندية والصينية والبابلية ، ووجد أن كل هذه الثقافات مرتبطة ارتباطا منطقيا بمعنى معين ، كما أنها مرتبطة ارتباطا وظيفيا عليا • وهو يعنى بذلك أن أجزاء أى ثقافة معينة تناسب بعضها الاخر بطريقة معلومة ومفهومة ، كما أن كل جزء من الثقافة يميل الى أن يكون له تأثير سببى على كل جزء آخر • وذلك مثل تأثير الفلسفة على الفن ، والفن على القانون ، والقانون على السياسة •• وهكذا • ويبنى سوروكين المراحل الثقافية والاجتماعية على ثلاث نماذج سيكولوجية هى الفكرية والحسية والمثالية التى سبق أن عرضنا لها •

٧ — أما توينبى فانه يحلل فى كتابه «دراسة التاريخ» ٢١ مدينة، ويقول ان تاريخ أى أمة معينة مثل انجلترا يفهم على أنه جزء متكامل من التاريخ الكلى للمدينة الغربية • فالامم كأجزاء لا تكون وحدات تاريخية لان هذه خاصة المدينة وحدها • ذلك لان كل مجموعة من الامم تكون جسما واحدا من المدنية ، وتتطور فى التاريخ على هذا الاساس فتنمو وتزدهر وقد تنهار أيضا معا • وحيوية أى مدنية وحياتها نتيجة لاستجابة القوى الداخلية الروحية والتاريخية فى المدنية الى التحدى الذى يواجهها من الطبيعة أولا ومن البشر بعد ذلك • فاذا تغلبت المدينة على معوقات الطبيعة ، توقف نموها بعد ذلك على قادتها العظام الذين يتردد ظهورهم ليمارسوا تأثيراتهم البناءة عليها • ولكن اذا كانت هناك أقلية خلاقة فى المدينة فانها تبدأ فى التعثر •

وهكذا نرى كيف تغيرت النظرة خلال تطور التفكير الانسانى من النظر الى التقدم الاجتماعى الى دراسة التغير وما ترتب عليه من اتجاهات ، وكيف انتظمت دراسات التغير ووجهت على أساس فهم معين لتطور التاريخ والحوادث الانسانية وفى هذا الصدد يفضل سبروت Sprott أن يصنف نظريات التغير الى نظريات بعيدة المدى كالنظريات السابقة ، والى نظريات قصيرة المدى تعالج موضوع التغير بالنسبة لمجتمعات محدودة أو أنماط معينة فيها أو ظواهر بعينها .

افكار ضرورية لفهم التغير الاجتماعى

كان فهم التغير الاجتماعى ولا يزال يمثل جانبا مميزا للانسان. فقد استقصى كل ركن من أركان العالم بحثا عن تفسير مقنع فوجد مثل هذا التفسير تارة فى ارضاء الالهة وتارة أخرى فى ضخامة وتعقد العالم الطبيعى ، أو فى الاسرار التى تكتنف عقله وجسده ذاته أو فى العالم الاجتماعى الذى يشارك فيه بقدر . وعلى الرغم مما لدى الانسان الحديث من علم وتكنولوجيا فانه لازال يواجه بالموضوعات القديمة التى لم يجب عليها الجواب النهائى مثل : لماذا وكيف يتغير المجتمع ؟ ما اتجاه المجتمع الذى يسير فيه والى أين ؟ .

ونحن هنا حين نعرض لاتجاهات التغير الاجتماعى المختلفة انما نحاول أن نجيب على هذه الاسئلة ولنفهم لماذا كانت هذه الاسئلة صعبة بالنسبة لعلماء الاجتماع المحدثين ، وينبغى أن نلقى نظرة مبدئية حول مسألة الملاحظة التى يجب اجراؤها للانماط المتغيرة للمجتمع محل الدراسة .

التغير الاجتماعى والنظرية الاجتماعية :

١ — يشير التغير الاجتماعى الى نمط من العلاقات الاجتماعية فى وضع أجتماعى معين يظهر عليه التغير خلال فترة محدودة من الزمان. ومن أجل هذا وعلى ضوء التعريف السابق يواجه دارس التغير الاجتماعى عدة صعوبات فى تحديد النمط المتغير . وأول هذه الصعوبات ما تعلق بوضعه هو ، لان الذى يلاحظ المجتمع مثل الذى يلاحظ العالم الطبيعى،

يقف دائما فى وضع نسبى من حيث الزمان والمكان • فما يراه غـالبا ليس الا جزءا صغيرا من الاطار الكبير الذى يحوى جميع الحقائق التى يرى بعضها • ولذلك تكون تسجيلاته للحقائق موثوقا بها بالاضافة الى المدى الذى استطاع به أن يختار عينة ممثلة من المجتمع • ومثال ذلك أن أغلب نظريات التغير الاجتماعى عبارة عن تصورات وأفكار مستمدة من العالم الغربى كما أن الدارسين أنفسهم نتاج لتفكير العـالم الغربى وثقافته •

وثانى هذه الصعوبات ما تعلق بالزمان ، لان الزمن يمكن أن يخدع الدارس أو يوقعه فى الخطأ ، ومثال ذلك : ما تعريف « الزمن الطويل » «والسريع» ومثل هذه الافكار الخاصة بطول الزمن أو سرعته غـالبا ما تظهر أمام دارسى التغير باستمرار • وعندما نقول أن العصر الحديث هو عصر التغير الاجتماعى السريع فان هذا القول يشير الى أن مجموعة كبيرة من العلاقات الاجتماعية — فى الزمن الجارى — يمكن أن تلاحظ على أنها تتغير بسرعة خصوصا اذا قورنت بمجموعة أخرى من العلاقات استطاع الدارس أن يسجل سرعتها النسبية فى التغير المختلفة عن سرعة المجموعة الاولى • ان ظواهر التغير الاجتماعى يمكن أن تحدث فى لحظة واحدة ويمكن فى نفس الوقت أن تستغرق تاريخ الانسان الثقافى بأسره• ولكن الذى يجب أن نؤكده أن علماء الاجتماع اهتموا اهتماما بالغـا بمسألة التغير الأجتماعى دون أن يغفلوا فى نفس الوقت الابعاد الزمنية•

وثالث هذه الصعوبات ما تعلق بالصدق والثبات ، ذلك أن ما يراه الملاحـظ يتوقف فى بعض نواحيه على الوضع الذى يلاحـظ منه ؛ وفى نواحيه الاخرى على الافكار التى تسيطر أو تواجه اتجاهاته الذهنية ولذلك يجـد الباحث الاجتمـاعى صعوبة كبرى فى تنظـيم ملاحظاته وتصنيفها ووضعها فى القوالب المناسبة حتى لا تتدخل أحكامه الشخصية فى الحقائق التى يجمعها أو فى تفسيره لها فلا يجب أن ينسى اذا كان البحث فى المجتمع ينتمى اليه أنه هو نفسه نتاج حى له • ولذلك يجب أن يلاحظ بوضوح الاشياء التى يفضل هو نفسه أن تبقى دون تغيـير والاشياء التى يفضل هو نفسه أن تتغير ، وهكذا كانت المعرفة بما هى

الاجزاء التى تتغير فى المجتمع والسرعة التى تتغير بها تتوقف على مدى تمثيل العينة وضبط العامل الزمنى وموضوعية الملاحظ .

٢ ــ تحديد أنماط التغير الاجتماعى يتضمن قدرة على الفصل بين العلاقات الاجتماعية المتغيرة وبين العلاقات الجامدة أو التى تتغير ببطء شديد ، وليس معنى هذا أن بالمجتمع أجزاء لا تتغير وأجزاء تتغير ، بل الغرض من ذلك تحديد العلاقات من حيث قابلية بعضها للتغير السريع وعدم قابلية البعض الاخر لمثل هذا التغير . فالفكرة الاساسية الان أن كل شىء فى المجتمع يتغير . ولذلك يمكن أن ندرك المجتمع كمتوازن دينامى من العلاقات المتغيرة تختلف فى كل يوم عن اليوم السابق وهكذا . وهنا ينبغى أن نميز بين التغير الثقافى ، والتغير الاجتماعى .

الثقافة تعنى التراث الاجتماعى ، أى كل ما خلفه شعب معين أو حفظه ويشمل هذا وسائلهم وعاداتهم ونسقهم التكنولوجى ونظمهم الاجتماعية والفن والافكار والاسلحة . والصور الثقافية هى فى الغالب صور مرت على تاريخ طويل وتبدى نوعا من الصلابة والاستمرار . وربما أدت الثورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الى تغيرات كبرى فى العلاقات الاجتماعية ولكن الثقافة قد تبقى دون أن تتغير الا قليلا .

وهناك من التغيرات الاجتماعية ما يمكن ملاحظتها فورا مثل ظهور طبقة مختارة أو تغير الطبقات الاجتماعية أو موت عدد من السكان أو ابادتهم الامر الذى يوجب على الباحث تسجيله بدقة ، ولكنه ينبغى أن يسجل فى نفس الوقت العلاقات الاجتماعية أو الشئون الاخرى التى أظهرت نوعا من الثبات .

وهناك عدة عوامل فى المجتمع تؤدى الى درجة عالية من الثبات . وأول هذه العوامل دوام حاجات الانسان البيولوجية ، وثانى هذه العوامل ما تعلق بالحوافز الاجتماعية مثل الرغبة فى الارتباط والتميز والقبول . فالناس فى كل مكان جعلوا من رغباتهم نظما اجتماعية ، مثل تلك التى تعبر عن البحث عن الطعام واشباع الحاجة الجنسية والحاجة الى الرفقة والرغبة فى العبادة والتقديس ، كل هذا الى جانب الحاجة

الى اللعب والراحة • كما أن البيئة قد تبقى لعدة مئات من السنين ثابتة غير متغيرة • وكل هذه الظروف تمثل مسائل لها من الدوام ما يجعل عالم الاجتماع يهتم بها كل الاهتمام • ومن واجباته الاولى أن يحدد الارتباطات العلمية فى العلاقات الاجتماعية المتغيرة ، فاذا كانت هذه العلاقات فى حالة تغير سريع ، فان مهمته تصبح ضخمة وصعبة فى نفس الوقت ، ولا يخفف من الصعوبات التى تقف أمامه الا أن بعض أنماط العلاقات الاجتماعية تبقى ثابتة نسبيا • وينبغى أن نشير هنا الى أن كثيرا من نظريات التغير الاجتماعى استمدت أصولها من الفلسفة الاجتماعية ، ومن النظر الى المجتمع ككل مترابط الاجزاء ، ومن ثم كان تغير المجتمع فكرة يمكن أن تطبق على نطاق واسع لتشمل الانسانية بأسرها • ولكن الاتجاهات الحديثة فى دراسة التغير أخذت تميل الى الاخذ فى الاعتبار بأصول البحث الاجتماعى ، وما تقتضيه من النظر فى أجزاء محددة من المجتمع لادراك التغير فيها • ولهذا فان الباحث فى التغير الاجتماعى يجد نوعين من النظريات • النظريات بعيدة المدى والنظريات قصيرة المدى على نحو ما سنشير اليه فيما بعد •

٣ - هناك - بصفة عامة - نوعان من العمليات الاطرادية مستمرتان فى النسق الاجتماعى • العمليات التى تحفظ أو تميل الى حفظ بناء النسق والعمليات التى تميل الى تغييره • والامثلة على النوع الاول من العمليات : التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى ، والخط الفاصل بين مثل هذه العمليات وعمليات التغير ليس واضحا ومثال ذلك أن الاباء فى المجتمع الذى يكون فى حالة نمو يعلمون أطفالهم أثناء تنشئتهم بطريقة هادفة قيما وأنماطا من السلوك تتجه فى أغلب الاحيان الى البناء المستقبلى للمجتمع أكثر من اتجاهها نحو بنائه الحالى - أو على الاقل لا يعلم الاباء أبناءهم كل شىء تعلموه هم من آبائهم • وفى هذه الحالة ينقل الاباء الثقافة أو يحفظونها ، ولكنهم فى نفس الوقت يعملون على اعادة تشكيل النسق الاجتماعى ، مع أن عمليات التغير من حيث التعريف تشير الى تغير النسق الاجتماعى الا أنها يمكن أن تساعد فى الحفاظ عليه • ذلك أنه فى مواجهة بعض الظروف الجديد قد يحتاج النسق الاجتماعى الى

تكييف بنائه الى حد ما ليتمكن من البقاء ، فالتغير فى بناء النسق قد يمكنه من الاحتفاظ بتكامليته كنسق متميز لانه اذا احتفظ بنفس البناء لمدة طويلة جداً فقد يفقد تكامليته كنسق كلية • ومن أجل هذا كان أول واجب علينا أن نشرح بمزيد من الاهتمام وبقدر ما نستطيع ماذا نعنى « بالتغير الاجتماعى » •

انواع التغير الاجتماعى :

كل نسق اجتماعى يتغير طوال الوقت • وهذا يتأتى على الاقل من أن أعضاءه يتقدمون فى السن وبالتالى يمرون على تغيرات فسيولوجية يؤثر بعضها على قيامهم بأدوارهم • ولكن التغيرات التى ترجع الى التقدم فى السن قد لا تكون غاية فى الاهمية فى المدى القصير ، وانما يحدث أن تكون هناك تغيرات أخرى قصيرة المدى مستمرة دائماً • ومثال ذلك أنه فى عملية التفاعل يؤثر أعضاء النسق فى اتجاهات بعضهم الاخر بما فى ذلك توقعاتهم المتبادلة ، واذا كان النسق الاجتماعى فرعا من نسق أكبر فان أعضاءه يتأثرون من حيث امكانياتهم واتجاهاتهم عن طريق مشاركتهم فى انساق اجتماعية غير نسقهم الاصلى •

وبغض النظر عن مثل هذا التغير المستمر فاننا غالبا ما نميل الى الاشارة الى النسق الاجتماعى على أنه ثابت نسبيا بمعنى أنه غير متغير • ومثل هذه الاحكام تعنى اننا ننظر الى بعض التغيرات على أنها أكثر أهمية من البعض الاخر ، كما انه لاسباب متعددة نهمل تغيرات معينة اهمالاً تاما • ولسوف نعرض فيما بعد لانواع التغير الاجتماعى والمضامين التى تبدو فيها أهميتها • وقبل أن نمضى فى تحليلنا ينبغى أن نحدد مفهومنا للبناء الاجتماعى فى نقطتين : الاولى أن البناء شىء ثابت نسبيا الى نقطة أو نقاط ذات أهمية خاصة • ومثال ذلك أن الام تسلك ازاء طفلها سلوكا يختلف من يوم لاخر ، ومع ذلك تحافظ على نوع من العلاقة بالنسبة للطفل ، فهى تستمر فى حمايته وتوجيهه وتشجيعه والعناية به • واذا تغاضينا عن الاختلافات الصغرى فى الطريقة التى تقوم بها بهذه الانواع من النشاط يمكن أن نقول أن دورها كأم يبقى ثابتا تماما وهذا جزء من بناء العلاقة • والثانية اننا نربط البناء

بالوظائف ، ومثال ذلك انه فى العائلة (وهى نسق اجتماعى) يكون لدور الام وظائف مثل تنشئة الاطفال والاحتفاظ بالانسجام والخلقيات • ومن أجل هذا نقول ان التغير الاجتماعى عبارة عن تغير فى بناء النسق الاجتماعى ، أى يتغير هذا الذى كان ثابتا أو غير متغير نسبيا • وفوق هذا فان أكثر التغيرات أهمية من بين التغيرات البنائية ما له نتائج على طريقة تأدية النسق لوظائفه • وعلى الاخص من حيث بلوغه لاهدافه بكفـــاءة •

اذن فالتغير الاجتماعى يعنى التغير فى البناء الاجتماعى • وسنحاول فيما يلى أن نعرض للتغيرات التى نعتبرها تغيرات بنائية •

١ — التغير فى القيم الاجتماعية : أكثر التغيرات البنائية أهمية ذلك التغير فى المستويات الشاملة التى تطلق عليها اسم القيم ، والقيم التى نعالجها هنا هى القيم التى تؤثر بطــريقة مباشرة فى مضمون الادوار الاجتماعية والتفاعل الاجتماعى • ولنقرب الفكرة من الاذهان سنضرب مثلا يدور حــول الانتقال من النمــط الاقطاعى الى النمط التجــارى الصناعى • لأن التغيرات التى تكون فى هذا الانتقال لا تحدث خلال فترة وجيزة من الزمان بل قد تستغرق أجيالا بأكملها • ففى المجتمع من النمط الاول كان الفرسان ورجال الدين يمثلون قمة المجتمع والقيم الســائدة ترتبط بأخلاقيات هــاتين الطبقتين ، ولذلك فــان الوظائف الاقتصادية على الرغم من أهميتها لضرورتها : لم تكن تحظى بالتقدير الكبير • ولذلك كان المشتغلون بها فى مرتبة أقل • والعكس فى المجتمع من النمط الثانى ، فالانتاج الاقتصادى يمثل المقام الاول والاشتغال به يعتبر أمرا يفخر به المرء ، ولذلك كان القادة فى هذا الميدان يحصلون على مراكز سامية •

٢ — تغير النظام ، ونعنى به التغير فى البناءات المحددة مثل صور التنظيم والادوار ومضمون الدور • فالتغير من نظام تعدد الزوجات الى نظام وحدانية الزوج والزوجة ومن الملكية المطلقة الى الديمقراطية ، ومن النظام الذى يقوم على المشروعات الخاصة الى الاشتراكية أمثلة

للتغيرات التى تحدث فى نظم المجتمع على نطاق واسع . وقد تكون التغيرات التى تحدث فى بعض أنظمة المجتمع قليلة نسبيا ، الا أن انتشارها بعد ذلك يؤدى الى تغيرات هامة فى البناء الاجتماعى بأسره. ومثال ذلك أن الانتقال من نظام التعدد الى الوحدانية فى الزواج لم يحدث مرة واحدة ، بل ظهر فى بعض العائلات ثم انتشر بعد ذلك حتى أصبح النظام الاخير هو السائد ، وأصبحت العائلات التى لازالت تأخذ بنظام التعدد تعتبر شاذة أو منحرفة .

٣ — التغير فى مراكز الاشخاص . قد يحدث التغير فى أشخاص بالذات يقومون بأدوار فى النسق الاجتماعى ، ذلك أنه خلال فترة طويلة من الزمن تصبح مثل هذه التغيرات لا مفر منها ، لان الناس يتقدمون فى السن ويحالون على المعاش أو يموتون . ولعل أهمية مثل هذه التغيرات تختلف ، ومع ذلك فانه من المهم أن ندرك الاهمية الدائمة التى تكون للاشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية معينة ، لانهم بحكم مراكزهم يستطيعون التأثير على مجريات الاحداث فى المجتمع . وبعبارة أخرى قد لا يكون فى تعاقب الاشخاص تغير بنائى فى حد ذاته ولكنه قد يتسبب فى احداث تغير بنائى فى ظل ظروف معينة . وما قلناه عن تغير الاشخاص يمكن أن يطبق على التغير فى قدراتهم واتجاهاتهم . فانه لا يؤدى الى تغير بنائى ولكنه قد يكون سببا مباشرا فيه .

العوامل العلية فى التغير :

لازال موضوع العلية الاجتماعية من أهم الموضوعات التى تشغل علماء الاجتماع وخاصة عند التعرض لدراسة التغير الاجتماعى . فقد جرت عادة بعض الباحثين على ابراز بعض العوامل باعتبارها صاحبة الكلمة الفاصلة فى احداث التغير . ومن دراسة مقارنة لأكثر العوامل ترددا فى تفسير التغير تبين أنها يمكن أن تنقسم الى عوامل جغرافية وبيولوجية وثقافية . وكذلك اذا استعرضنا النظرية الاجتماعية ، وقفنا على نتيجة هامة ، وهى أن أكثر تفسيرات التغير مالت الى ابراز عامل واحد على أنه السبب الوحيد فى التغير الاجتماعى ، ومن أجل هذا نطلق على هذا الاتجاه «الحتمية» فى تفسير التغير . وسبب هذه التسمية ،

أن العامل الذى يبرز كمسبب للتغير ينظر اليه على أنه ينطوى على صفة تعمل بناء على قوانين خاصة به ، ومستقلة فى نفس الوقت عن جميع العوامل الاخرى بما فيها ارادة الانسان ورغباته . ومن المناسب هنا أن نعرض لصور «الحتمية» المختلفة وفروعها المختلفة . .

١ ــ الحتمية الجغرافية ، التى تشرح طابع الحياة الاجتماعية والثقافية فى ضوء اصطلاحات المناخ والتربة والحقائق الجغرافية الاخرى . ويتفرع عن الحتمية الجغرافية الحتمية الفيزيائية التى تشرح الظواهر الاجتماعية فى ضوء اصطلاحات القوى الفيزيائية مثل النجوم والكهرباء والبقع الشمسية والغبار الذرى وهكذا .

٢ ــ الحتمية البيولوجية ــ التى ترجع الى الاختلافات الثقافية بين الجماعات الى الاختلافات الوراثية فى الذكاء والقدرات والامكانيات . ومثال ذلك القول بأن الدم العائلى يحدد طابع الانسان . ويتفرع عن الحتميــة البيولوجية ، الحتمية العنصرية التى ترد الاختــلافات بين الجماعات الى اختلافهم فى الاصل والسلالة ، والحتمية السيكولوجية التى تشرح الحقيقة الاجتماعية فى ضوء موضوعات مثل الغرائز والدوافع والمزاج والمشعرات . كمــا يمكن ادراج الداروينية الاجتمــاعية ضمن الحتمية البيولوجية أيضا ، حين نفسر الحياة الاجتماعية على أنها نتيجة المعركة الدائمة فى سبيل البقاء ، والبقاء للاصلح .

٣ ــ الحتمية الثقافية ــ التى تزعم أن المجتمع نتاج اجتمــاعى أخرجته أجزاء الثقافة المختلفة مثل العادات والتقاليد والعــرف والنظم الاجتماعية ، التى تكون القاعدة الثقافية التى تبنى مع التغير . ويتفرع عن الحتمية الثقافية الحتمية الاقتصادية التى تزعم أن العامل الاقتصادى هو الذى يحــدد طابع المجتمع وهو الذى يغــير النظام الاجتماعى ، والحتمية التكنولوجية التى ترى أن المجتمع نتاج للعمليات التكنولوجية وهكذا[1] .

---

(1) Allen, F. & Others., Technology and Social Change, N. Y., 1957 pp. 77-78.

ولكن عوامل التغير ينظر اليها الان فى ضوء فكرة العلاقة الوظيفية التى تنظر الى أحد العوامل فى بعض الاحيان باعتباره «متغيرا معتمدا»، وذلك على أساس الظواهر التى يؤثر فيها ، أو على أساس تأثره نفسه بظواهر أخرى • وبهذه الصورة تبرز العلية النسبية لجميع العوامل فى تفسير التغير •

التغير الاجتماعى والتغير الثقافى والتفاعل :

عندما نشير الى التغير الاجتماعى ، فاننا نعنى به التغيرات التى تحدث فى التنظيم الاجتماعى ، أى فى بناء المجتمع ووظائف هذا البناء المتعددة والمختلفة • ولهذا يكون التغير الاجتماعى جزءا من موضوع أوسع هو التغير الثقافى Cultural Change • والتغير الاخير يشمل كل التغيرات التى تحدث فى كل فرع من فروع الثقافة بما فى ذلك الفن والعلم والتكنولوجيا والفلسفة ••• الخ ، وهذا بالاضافة الى التغيرات التى تحدث فى صور وقواعد التنظيم الاجتماعى •

اذن ، موضوع التغير الثقافى أوسع من موضوع التغير الاجتماعى، ولكن اهتمامنا يتركز أكثر فى علم الاجتماع حول الموضوع الضيق،ولذلك لن نهتم بمسائل معينة مثل تطور الاصوات فى اللغة ، أو تاريخ الصور الفنية أو تطور الاساليب الموسيقية أو نمو النظرية الرياضية • وطبيعى اننا يجب أن نفهم دائما ، ان كل أجزاء الثقافة ترتبط بطريقة ما بالنظام الاجتماعى ، ولكن يجب أن نفهم فى نفس الوقت أن بعض التغيرات التى قد تحدث فى بعض فروع الثقافة لا نستطيع أن نلاحظ تأثيرها فى النسق الاجتماعى • ولهذا نهتم — من الناحية السوسيولوجية — بالتغير الثقافى الى المدى الذى ندرك فيه تأثيره فى التنظيم الاجتماعى ، أى اننا لا نهتم به منفصلا عن التغير الاجتماعى •

وفى الفيزياء الذرية لا ينظر الى قضيب من حديد على أنه خامل ، بل ان البروتونات والالكترونات فيه تكون فى حالة من النشاط الدائم • ولكن شكل القضيب يظل ثابتا نسبيا ، ويتغير فقط اذا أذيب أو كسر أو التوى أو علاه الصدأ وهكذا • وكذلك يكون الافراد فى المجتمع دائمى

التفاعل ، ومع ذلك يظل البناء الذى يستمر فى الزمان • ولذلك يجب ألا نخلط بين «النشاط» وبين تغيرات البنـــاء التى تكون وحدها « التغـــير الاجتماعى »[2] •

وهناك من غير شك صلة بين التفاعل الاجتماعى والتغير الاجتماعى، ذلك أن التغير ذاته يتم من خلال التفاعل • فقد يحدث النمو فى تنظيم العمل نتيجة لمظاهر التوتر فى التفاعل بين أصحاب العمل والعمـــال فى النظام القديم • وبمعنى آخر يكون التفاعل ممكنا لان هناك بناء،ويكون التغير ممكنا لان هناك تفاعلا • وربما يكون التمييز بين التفاعل والتغير مسألة أولية أو بديهية ، ولكن الامر عند التطبيق لا يكون واضحا •

ومثال ذلك : أين تضع الظاهرة التى أطلق عليها فلفريدو باريتـــو «دورة الصفوة» • لقد ظهر من تحليل باريتو نفسه انه كان يعرض هذه الظاهرة وهو يتصور انه يناقش التغـــير الاجتماعى ، ولكن اذا ظلت الظروف التى تؤدى الى هذه الدورة واحدة ، فلن يكون هناك تغـــير ، بل يكون مجرد دورة اجتماعية،ولكن اذا كان فى احلال طبقة من الخاصة محل طبقة أخرى تغييرا فى البناء الاجتماعى فان هذا يمكن اعتباره تغييرا اجتماعيا على الرغم من أن هذا الاحلال قد يتخذ شكل الدورة •

تفسير التغير الاجتماعى :

العوامل الاساسية :

تميل نواحى النشاط اليومية فى معظـــم المواقف الاجتماعية الى أن تصبح نمطية • كما أنهـــا تصبح متمشية مع التنظيمات الثقافية التى تتوافق مع المظاهر العامة للبيئة الطبيعية والسمات النفسية والفيزيائية للنـــاس ، وبالاضافة الى النمـــاذج السائدة للجمـــاعات • ولذلك فان التجديدات الاساسية التى تتم فى أطار الحياة الاجتماعية والثقافية على أى مستوى من درجـــات الاجتمـــاع الانسانى سوف تصيب النمـــط بالاضطراب كما تصيب توافقه مع الجوانب الاخرى الذى قد يكون

---

(2) Davis., Human Society, N. Y., 1949, pp. 622-624.

معها فى المجتمع أو الجماعة وحدة بنائية ووظيفية متكاملة . ونحن نعلم أن هذا الاضطراب فى حد ذاته ، عبارة عن اختلال للتوازن الذى يجعل من أى نظام متوازن قبلا غير قـادر على تأدية وظائفه . ولهذا فان الاختلال يؤدى الى سلسلة من التغيرات التوافقية[٣] .

وفى أى موقف اجتماعى نستطيع أن نكتشف ثمة أربعة عوامل أو ظروف هامة تعتبر عوامل أساسية فى كل تغير اجتماعى وهى : البيئة الطبيعية ، الجمـاعات الانسانية الموجودة فعلا ، الثقـافة السائدة ، والمظاهر البيولوجية والسيكولوجية للناس.ولذلك فان أى تغير فى عامل أو أكثر من هذه العوامل سوف يثير تعديلات توافقية فى الانساق المترابطة للسلوك الاجتماعى،ومن ثم تبدأ فى الحركة سلسلة مترابطة من التغيرات الاجتماعية . وينبغى أن نضع فى الذهن دائما أن واحدا من هذه العوامل لا يستطيع أن يعمل منفردا أو مستقلا عن عمل العوامل الاخرى ، لان هذه العوامل مرتبطة أحدها بالاخر . وكل منهـا بالكل بطرق متعددة ومختلفة فى نفس الوقت ، ولكننا لغرض التحليل العلمى نحاول أن نصل الى أصول التغير الاجتماعى عن طريق النظر الى كل عامل على حدة كما يلى :

١ ــ البيئة الطبيعية : وتشمل جميـع الظـواهر الفيزيائية التى ليست من صنع الانسان ، وهما مصادر الحياة والمناخ والطبوغرافيا والتربة وباطن التربة وما فيه من معادن والنبات والحياة الحيوانية . وأى تغير فى أى من ظواهر هذه البيئة الجغرافية قد يكون بفعل عوامل لا انسانية أو طبيعية أو بفعل عوامل ترجع الى نشاط الانسان الاجتماعى. ومثال ذلك ، قد تثور البراكين أو تحدث ذبذبات فى المناخ ، أو قد يغير النهر مجراه دون تدخل من الانسان . ولكن الانسان من جهة أخرى قد يستنفذ المعادن التى فى باطن الارض أو يزيل غابة بأكملها ، أو قـد يصنع بحيرة صناعية .

---

(٣) التغير التوافقى هو التغير الذى يحدث فى نظام استجـابة أو تاثرا لتغير فى نظام آخر .

والتغيرات الاجتماعية التوافقية قد تحدث نتيجة لتعديلات فى بعض مظاهر البيئة الطبيعية . ومثال ذلك ما قد يحدث من تغيرات فى النشاط الاقتصادى أو طرق الزراعة أو العادات والتقاليد العائلية نتيجة الاخذ بالزراعة الآلية ، وأبرز الامثلة على ذلك عندما يغير القروى بيئته ويهاجر الى المدينة ، فان طريقة حياته بأكملها يصيبها التغير الاساسى ، كما أنه فى بعض البلاد التى تعمل بعض جماعاتها ، كوحدات فى عمليات للتعدين يحدث أن تختفى جماعة من المعدنيين أو قد تتجــه الى نوع آخر من النشاط الاقتصادى اذا استنفذت كل طاقات المناجم التى كانت تعمل فيها.

وأكثر من هذا قد يؤدى التعديل فى الظروف الجغرافية الى فرض تغيرات فى أحد العوامل المهمة . ولذلك فان العائلة العاملة فى الزراعة اذا هاجرت الى مدينة صناعية ، فان حجمها يصبح أصغر . اذن فى مثل هذا المثل وكثير غيره تتسبب التغــيرات الاجتماعية والثقافية المتوافقة عن تعديلات فى العوامل المرتبطة .

٢ ــ التعديل الذى يحــدث فى الجمــاعات الانسانية ، قد يكون مصدرا آخــر من مصادر التغير الاجتماعى ، وهــذا ليس راجعا لان الجماعات تنظم وتفرض أنواع السلوك المتوقع من أعضائها فحسب ، بل أيضا لانها فى نفس الوقت عبارة عن وحدات تقوم ببعض الوظائف الاجتماعية الهامة . ولهذا فان التغيرات التى تتم فى الجماعات تؤدى وتعكس فى نفس الوقت الانساق الخاصة بالسلوك المتوقع والنمــاذج الاجتماعية السائدة بما تحويه من قواعد ومقاييس .

ونشير هنا الى أن هناك أربع نماذج من التغيرات الجماعية يمكن أن تؤدى الى تغير اجتماعى :

أ) التغير فى كثافة السكان .

ب) التعديلات التى تحدث فى التكوين الجنسى أو العمرى .

جـ) التغيرات التى تحدث فى عدد أو أنواع وحدات الجماعة .

د) ظهور نماذج جديدة من الجماعات أو اختفاء نماذج قديمة منها.

مثل هذه التغيرات التى تحدث فى الجماعات قد تؤدى الى تغيرات اجتماعية توافقية عن طريق تغير الحاجات الاجتماعية التى كان السلوك الجماعى يقوم بها . ومثال ذلك أن حاجات الاسرة الصغيرة أو المنعزلة تختلف أساسا عن حاجات الاسرة الكبيرة المكتفية بذاتها . ومن ناحية أخرى نجد أن التغيرات الجماعية سوف تغير امكانيات السلوك الاجتماعى والوظيفة الجمعية ، ذلك أن الاسرة الريفية الكبيرة (العائلة والبدنة) يمكن أن تقوم بعدة وظائف تعجز عنها الاسرة الحضرية ، الزوجية أو الفردية . وبالاضافة الى ذلك تتغير التوقعات الاجتماعية بتغير المدى والنماذج والحجم وتعقد البناء الجماعى .

كما أن التغيرات التى تتم فى طابع الجماعة سوف تؤدى الى احداث تأثيرات واضحة فى واحد أو أكثر من العوامل الاساسية الاخرى. فكلما صغر حجم العائلة فانها تصبح أقل قدرة على مواجهة الظروف الجغرافية المتصلة بعملية الزراعة ، وكذلك كلما صغر حجم العائلة فان الانساق الثقافية للسلوك العائلى تتغير تغيرا أساسيا . أى أننا نرى التغير فى بعض الظواهر أو الملامح المتعلقة بالجماعات الاجتماعية يؤدى الى سلسلة من التغيرات الاجتماعية التوافقية .

٣ ـــ الثقافة التى تعبر عن نسق من العلاقات الاجتماعية التى يكون كل منها نمطا يمكن أن تكون نفسها مصدرا للتغير الاجتماعى، ذلك لان الثقافة لها صفة «التكوين التلقائى الذاتى الدينامى» ، فاذا نظرنا الى أى نسق ثقافى خاص ، فان التجديد قد يأتى من الداخل أى (داخل الثقافة) أو من خارجها . وهناك على ما نعلم ثلاثة مصادر كبرى للعناصر الثقافية الجديدة وهى الاختراع والانتشار والاستعارة ، وكقاعدة تتغير الثقافة عن طريق تجمع العناصر أو المكونات . وأحيانا وليس كقاعدة قد تفقد بعض العناصر القديمة أثناء عمليات التغير،ولكن يتكرر بصفة غالبة أن تستمر العناصر القديمة وتعيش جنبا الى جنب مع العناصر الجديدة بصورة تختلف أو تتغير فيها أنماط السيادة أو التساند لاى منهما .

وغنى عن البيان أن التغيرات الثقافية تغير المطالب كما تعدل مدى الامكانيات السلوكية ، ومثال ذلك أن الاسرة العاملة فى الزراعة اذا استخدمت الجرارات والوحدات الكهربائية والغسالة الكهربائية والموقد البترولى أو وحدات التبريد ، فانها تكون بذلك قد استعارت عناصر ثقافية جديدة ولكنها توضع جنبا الى جنب مع العناصر الاخرى التى كانت لها وهى تعيش على امكانيات ثقافتها الاصلية ، ومع ذلك فقد تتسبب فى احداث عدة تغيرات فى طريقة الزراعة أو العمل المنزلى أو النشاط العام لاعضاء العائلة ككل •

٤ ــ التغيرات التى تحدث فى مجال الشخصية ، تعتبر مصدرا رابعا من مصادر التغير الاجتماعى ، لان أنساق العلاقات الاجتماعية الموجودة فعلا تعبر عن الصلاحية الوظيفية بالنظر الى حاجات وامكانيات الناس • ولهذا تكون العلاقة بين الشخصية والكائن الفيزيائى متبادلة ومباشرة فى نفس الوقت ، وكل تغير فى المظاهر السيكولوجية والبيولوجية بالتالى قد يؤدى الى احداث تغيرات اجتماعية توافقية •

وتكون حاجات وبناء وامكانيات الشخصية الانسانية نسقا ديناميا يقوم بوظائفه من خلال مجموعة من الانساق ، أهمها المجتمع والثقافة والبيئة الطبيعية ، ومع ذلك قد تثير متطلبات وقدرات هذه الشخصيات تغيرات اجتماعية مستقلة عن هذه الأنساق الاخرى •

مستويات التغير :

على الرغم من أن التغير الاجتماعى يعتبر عملية اطرادية معقدة فانه من الممكن بشىء من الحذر أن نصل من دراسته الى تعميمات معينة • فمن ناحية نستطيع القول بأن التغير الاجتماعى عبارة عن التغير الثقافى ومن ناحية أخرى يبدو على أنه اختلافات أو تغيرات فى العلاقات المتبادلة بين الاشخاص والجماعات • وعند التحليل النهائى نجد أن التغير الاجتماعى مع ذلك تغير فى الثقافة والعلاقات الاجتماعية ، لانهما ناحيتان لا يفترقان من العملية الاطرادية للتغير •

وكما أشرنا الى ذلك من قبل تتغير الثقافة أساسا عن طريق تجمع العناصر التى تخترع أو تستعار من ثقافات أخرى ، والعناصر الثقافية تدخل النسق الثقافى القائم وقد تشتبك مع السمات الثقافية الاخرى فى صراع أو قد تتحد معها • ودخول العناصر الجديدة فى نسق ثقافى يؤدى الى اضطراب أو انحراف التوافق السائد بين العناصر المرتبطة من قبل وظيفيا • كما أن هذا الاضطراب وهذا التوافق الجديد للعناصر الثقافية هو الذى يكون مضمون التغير الثقافى •

ويمكن أن نميز مراحل أربع فى العملية الاطرادية للتغير الثقافى •

الاولى : تنتشر سمة أو عنصر جديد خلال النسق من مركز الاصل سواء كانت هذه السمة أو العنصر اخترع اختراعا داخل الثقافة الواحدة أو استعير من ثقافة أخرى ، وتتدخل عوامل كثيرة فى التأثير على معدل اتجاهات الانتشار • وفى أثناء الانتقال خلال النسق قد تتغير السمة أو قد تتحد مع سمات غير مرتبطة • ومثال ذلك أن بعض العناصر الثقافية الحضرية قد تدخل الى العائلة الريفية من مدن قريبة ، وهذه العناصر الثقافية الحضرية قد تتحد مع العناصر القديمة التى كانت موجودة فعلا فى العائلة قبل ذلك •

الثانية : فى أثناء عملية الانتشار تؤدى العناصر الجديدة الى قلقلة المركبات الثقافية القائمة فعلا • ولذلك قد تدخل معها فى مناقشة أو صراع فى سبيل البقاء ، ومن ناحية أخرى قد تكمل أو تنمى السمات الاخرى الموجودة للنسق الثقافى ، لانها تعمل على مراجعة كفاءة الوظائف القائمة لعناصر النسق • ففى حالة العائلة قد تدعم العناصر الجديدة العناصر القديمة اذا ارتبطت بوظيفة هامة من الوظائف الهامة للعائلة كالاساس الاقتصادى •

الثالثة : انتشار العناصر الجديدة يثير تغيرات توافقية فى السمات المتصلة ومركبات السمات • فقد يعاد تنظيم مظاهر الثقافة القائمة أحيانا لتتمكن من مواجهة وامتصاص السمة الجديدة ، ومثل هذه الناحية

من العملية الاطرادية يثير مسألة المشابهة بين العنصر الجديد وبين الموجة التى تؤدى الى اثارة أمواج حولها باعتبارها مركز الحركة •

الرابعة : العنصر الجديد يمتص تماما فى النسق الثقافى ما لم يكن النسق محل قلقلة مستمرة عن طريق تجديدات تضاف اليه على فترات تطول أو تقصر • ومثال ذلك أن استعمال أدوات معينة مستعارة من المدينة فى حالة العائلة الريفية يؤدى الى التآمها مع الادوات الاخرى بحيث تأخذ مكانها جنبا الى جنب معهـا وتصبح من معـدات الحياة اليومية فيها • ولكن اذا توالى دخول الادوات (العناصر) الجديدة التى تكون متناقضة أو متشابهة ، أدى هذا الى قلقلة مستمرة لعدم الاخـذ بأداة معينة واستعمالها استعمالا دائما •

من أجل ذلك نعود فنكرر أن التغير الاجتماعى يبدو على أنه تغير فى العلاقات التى تقوم متبادلة بين الاشخاص وبين الجماعات • ولغرض التحليل نستطيع أن نميز ثلاثة أنماط من التغيرات فى العائلات الاجتماعية•

أ) تحدث تعديلات فى الشروط أو الظروف أو المراكز النسبية داخل الرابطة الواحدة •

ومثال ذلك أن التغير الاجتماعى قد يعدل من العلاقات التى تقوم على أساس المركز الاجتماعى أو الاقتصادى بين الافراد أو الجماعات • ولذلك ينتقل المجتمع المتجانس من حالة التشابه أو من الفولك الى حالة اللاتجانس أو المدنية ، أى الى مجتمع يقوم على أساس نظام الطبقات التمايزة ، وقد حدث هذا بصورة متكررة فى مبدأ الاخذ بالتصنيع فى أوربا فى المجتمعات الجبلية المحلية المنعزلة • كذلك نجد أن عملية التنقل الاجتماعى الى أعلى تغير باستمرار المراكز النسبية لكثير من الاشخاص والجماعات فى المجتمعات الامريكية •

كذلك يمكن أن يعدل التغـير الاجتماعى من الظروف التى تشـكل العلاقات المتبادلة بين الاشخاص والجماعات • وقد كان هذا واضحا فى

العائلات التى انتقلت من القرى فى كثير من أنحاء العالم واستقرت فى المراكز الصناعية أو الحضرية ٠

ومثال ذلك أن الظروف التى كانت تجعل من التعاون المتبادل وعلاقات الجوار أساسا هاما فى علاقة عائلات القرية حل محلها الان علاقات المنافسة والتحدى فى بعض الاحيان ٠

ب) قد تتغير طبيعة العلاقات الاجتماعية من حيث التردد والقرب فى مجرى التغير الاجتماعى ٠

ومثال ذلك أن الاشخاص أو الجماعات الذين كانت لهم علاقات مباشرة طويلة الامد قد يتفرقون ويفقدون اتصالهم الوثيق أثناء التغير، أو قد يكون فقدانهم لعلاقاتهم الوثيقة أحد النتائج التى يتمخض عنها التغير فى المدى القصير أو الطويل ٠ ومن جهة أخرى نجد أن كثافة العلاقات ومداها داخل الوحدة المثلية يصيبها التغير أيضا ، فهى تميل الى الانخفاض من حيث الكثافة والى الاتساع من حيث المدى ٠

جـ) يؤدى التغير الى تغير صور العلاقات المتبادلة بين الاشخاص والجماعات ، فقد يصبح الاصدقاء أعداء وقد يحل الصراع محل التعاون، وقد يحدث العكس ويتكرر بنفس الدرجة ٠ فقد يصبح المتنافسون شركاء ٠ فالثقافة الذى تعمل على أن تصب العلاقات المتبادلة بين الاشخاص والجماعات فى قالب معين كما تعمل على اعطائها تعبيرا خاصا ٠ ولذلك كانت التغيرات التى تحدث فى الثقافة والتعديلات التى تحدث فى أشكال الظروف التى يتم فيها التفاعل ، ناحيتين متلازمتين من عملية التغير الاجتماعية الاضطرادية ٠

الطابع الدورى للتغير :

التحليل السابق لعوامل التغير الاجتماعى وعملياته المختلفة يكشف الى درجة كبيرة ، أن اتجاه التغير الاجتماعى يأخذ النمط الدورى٠ ذلك لان الحركة أو النقلة التى يتعرض لها أحد العوامل الاساسية قد يبعث الحركة فى عوامل أخرى ومن ثم يؤدى الى سلسلة من التغيرات ٠

ومثال ذلك أن الاختراع أو استعارة عنصر ثقافى من ثقافة أخرى قد يتسبب فى احداث سلسلة من التغيرات التوافقية المتصلة به . ولهذا فنحن نؤكد دائما أن التغير الاجتماعى يعتبر من هذه الوجهة عمـلية اطرادية مستمرة . ومن أجل هذا نقول بأن عنصرا معينا يمكن أن ننظر اليه فى ضوء نمط معين أو دائرة متكررة .

فالعائلة الريفية الكبـيرة ذات الصفة المتجـانسة عندما تتغير الى الاسرة الحضرية الصغيرة المنعزلة تكون قد مرت على دورة كاملة من التغير الاجتماعى ، لان هذا التغير يعتبر انحرافا من العائلة الثـابتة المتوافقة فى نظام اجتماعى زراعى الى نوع من المجتمع الوظيفى الذى يتوافق مع المجتمع الحضرى الصناعى المعقد .

ولذلك اذا كان اهتمامنا موجها الى الطابع الدورى للتغير الاجتماعى فانه من الممكن أن نرتب الحوادث والحقائق فى ترتيب تاريخى معين . وعلى هـذا نستطيع أن نميز بين فترات من التاريخ تختلف من حيث سرعة وعمق الاختراعات ، الامر الذى يمكننا من تمييز اتجاهات التغير الاجتماعى . وهذا من شأنه أن يعيننا على رسم طريق التغير فى المستقبل فى المواقف المتعددة للحياة الاجتماعية .

ونحن هنا نستطيع أن نميز أربع مراحل على الاقل فى دورة واحدة للتغير الاجتماعى .

الاولى : يمكن أن نطلق عليها «نقطة الانطلاق» . وهذه فترة تتميز ببطء التغير الاجتماعى فيها . ونقطة الانطلاق هذه يمكن أن تكـون أى وقت أو فترة فى تاريخ الجماعة أو النظـام أو المجتمع . وعند تحليل التغير الاجتمـاعى يكون الاهتمام مركزا بصفة خـاصة على الانساق الموجودة فعلا للعلاقات الثقافية والاجتماعية .

الثانية : يمكن أن نطلق عليها «التجـديد» وهى التى تعمل فيها مجموعة من القوى الداخلية والخارجية بالنسبة للوحـدة الاجتماعية على احداث قلقلات فى نمط العلاقات الاجتماعية الموجودة فعلا . ومن

أجل هذا يجب أن نتأكد دائمـا أن التغير الاجتماعى مستمر ويعمـل باستمرار فى كل وحدة اجتماعية • ولكن يجب أن نلاحظ أيضا أنه فى أوقات متفرقة تكون نسبة التجديدات الهامة أكبر من وقت الى آخر • واصطلاح التجديد يجعلنا نتنبه الى حقيقة هامة وهى عـدم استواء التعديلات الثقافية والاجتماعية • وعند هذا المستوى من التعليل يكون الاهتمـام مركزا على المظـاهر الجديدة فى الحيـاة الاجتماعية وعلى العلاقات التى تكون فى حالة من الاضافة •

ومثالا تطبيقيا على ما نقول ، أن العـائلة المتغـيرة حينما أدخلت الجرارات وعددا من معدات الحياة اليومية الحديثة على التراث الثقافى القديم لها ، صاحبها مجموعة من الافكار والقيم وطرق العمل التى تركت آثارها بارزة على نظام العائلة نفسه • ولهـذا كان التأثير المتجمـع للتجديدات الاجتماعية والثقافية مؤديا الى نتائج بعيدة المدى فى النسق الاجتماعى والثقافى •

الثالثة : يمكن أن نطلق عليها «التفكك» لانه فى هذه المرحلة يضطرب اطار العلاقات الاجتماعية الذى كان له صفة الثبات النسبية بفعل وطأة التجـديدات المستمرة • ويبدو هذا واضحـا عند مقارنة العـلاقات الاجتمـاعية فى المراحـل الاولى قبل التغـير والمراحل اللاحقة لندرك ما أصابها من اضطراب وغموض وتعقد فى بعض الاحيان • ولذلك فان السمات والمركبات الثقافية تنتزع من حالتها الرتيبة وتوافقها المتبادل وتدخل مرحلة جديدة من اعادة التوافق على أساس أن التوافق القديم قد أصيب بالتفكك نتيجة لاستمرار التجديدات •

ومن أبرز النتائج لهذا التفكك ، أن الفرد يصيبه نوع من اللاتثبت وانعدام الامن خصوصا فى علاقاته وخبراته اليومية مع أقرانه أو مع الجماعات • ومرد ذلك أن استمرار التجديدات دون أن تكمل توافقهـا بعضها مع الاخر أو مع العناصر القديمة يؤدى باستمرار فى النسـق الاجتمـاعى الى عدم تكامل الاجزاء ، الامـر الذى يؤدى الى حيرة

واضطراب وعدم امكان الافراد داخل الجماعات من رسم أنماط سلوكهم على نموذج معين •

الرابعة : ويمكن أن نطلق عليها «التماسك أو اعادة التنظيم أو التكامل» لانه فى هذه المرحلة تنمو وتزدهر اطارات جديدة من العلاقات الاجتماعية وتتخذ شكلا محددا داخل المجتمع ، فتنشأ أنماط من التوافق تضم المظاهر الجديدة للمجتمع المتغير فى السلوك العادى • فاذا تناقصت سرعة وعدد التجديدات أو اذا أصبحت أدوات الضبط والتخطيط منظمة، فان التماسك قد ينقلب الى فترة من الثبات والتآزر الاجتماعى • وقد تصبح هذه الفترة بعد ذلك بمدة طويلة أو قصيرة حسب الظروف ، نقطة انطلاق لدورة جديدة من التغير الاجتماعى • واذا لم يتناقص معدل التجديدات ، واذا لم ينشأ هناك نظام من الضبط والتخطيط ، فان التماسك قد ينقلب بطريقة أو بأخرى الى نوع من التفكك ، وفى مثل هذا الموقف يتماسك المجتمع ويتفكك فى نفس الوقت • ولذلك نظن أن جميع مراحل دورة التغير الاجتماعى تتعاقب فى الظهور فى تداخل واضح بحيث يصعب علينا أن نميز كل مرحلة عن الاخرى تمام التمييز •

نسبية التغير :

التغير الاجتماعى نسبى دائما بالاضافة الى مجموعة من الظروف الاجتماعية والقيم التى تؤدى وظيفة القواعد التى تتحكم فى تغير معدله وعمقه واتجاهه ومعناه ، فأنماط العلاقات الاجتماعية تتخلل عادات الناس وتقاليدهم • ولذلك فان أى تغير فى ظرف اجتماعى أو علاقة اجتماعية يثير حكما من أحكام القيمة • ونتيجة لذلك يرتبط التغير الاجتماعى بالمواقف والظروف الاجتماعية • وتكون عوامل التغير وحقائقه ونتائجه مصدر اهتمام بعض أو كل أعضاء الجماعة التى تتأثر بالتغير • ومن أجل هذا وفى ضوء نسبية التغير الاجتماعى ، فان له وجوها هامة متعددة •

أولا : قد يكون التغير سريعا أو بطيئا • فمن الممكن أن نقيس معدل التغير فى جماعة بشىء من التحديد خلال فترة محددة من الزمان • ولكن

القياس قد يؤثر أو لا يؤثر فى أحكام الملاحظين وغير الملاحظين . ولذلك يكون التغير الذى قد يبدو مفاجئا لشخص أو لجماعة بطيئا أو متخلفا لاخرين . ومثال ذلك أن العائلة الريفية التى تستخدم الجرارات ومعدات الحياة اليومية الحديثة قد تنظر الى التغير على أنه سريع من وجهة نظرها لانها أدخلت هذه العناصر الثقافية الجديدة فى حياتها ، وقد تنظر عائلة أخرى فى منطقة بعيدة الى التغير على أنه بطىء أو متخلف اذا لم تأخذ بهذه الادوات أو كانت فى غير متناولها لاسباب مختلفة .

ثانيا : التغير نسبى فى عمقه لانه أحيانا يعيد ترتيب النظام الاساسى وبناء المجتمع ، وأحيانا أخرى قد لا تتأثر الا المظاهر السطحية أو العرضية للنسق الاجتماعى . ومثال ذلك أن ادخال الادوات الحديثة فى العائلة الريفية قد لا يؤثر فى نمط حياتها الا قليلا ، وقد يعيد ترتيب أنماط السلوك كلية .

وفى هذا المقام يجب أن نفرق بين التطور والثورة . فالتطور يشير الى التغير التدريجى الذى يصيب النظام ، وقد لا يصيب منه الا الاجزاء العرضية أو السطحية أو بمعنى آخر ، التطور الاجتماعى هو التغير الذى لا يغير بصورة أساسية البناء الاجتماعى الرئيسى . أما الثورة فانها تشير الى تغير أساسى يصيب النظام أو النسق الاجتماعى. ومثل هذه التفرقة تخدمنا فى محاولتنا قياس عمق التغير الاجتماعى فى أى ناحية من نواحى المجتمع .

ثالثا : تميل النواحى المختلفة للنسق الثقافى أو الاجتماعى الى التغير بمعدلات مختلفة . ومثل هذا الرأى قام فى أعقاب نظرية وليام أجبرن عن التخلف الثقافى . ولكن الاعتراضات التى أثارها الكثيرون ، كما سوف نرى فيما بعد ، تجعلنا نقول ، ان هذا الميل الى التغير المتمايز فى أجزاء المجتمع أو أجزاء الثقافة ليس قاعدة يمكن أن تطبق فى جميع الحالات .

الفصل الثاني عشر

التغير والتخطيط والحرية

التغير والتخطيط والحرية

ظاهرة التغير من الحقائق الواقعة في كل المجتمعات على اختلاف أنواعها ، وان بدت هذه الظاهرة متباينة الشكل والمضمون ، فهو تباين واختلاف في الدرجة وليس في النوع ، وقد كان للتقدم التكنولوجي الكبير وتعدد وسائل الاتصال الحديثة اثر بعيد في احداث تغيرات اجتماعية ، لم يقف تأثيرها عند مدى محدد داخل مجتمع معين بل امتد حتى شمل المجتمع الانساني عامة .

وقد تطور التفكير الانساني وانتقل من مستوى الى مستوى آخر حتى وصل الى المستوى الاخير الذي يعيش عصرنا فيه ، وهو «التفكير في مستوى التخطيط» ولذلك لا نستطيع أن نفهم طبيعة العصر الا اذا وضعنا أيدينا على أسس التخطيط ومفاهيمه الاساسية . والتخطيط له صلة وثيقة بالتغير الاجتماعي لانه أداة من أدواته في واقع الامر ، باعتباره محاولة فعالة لضبط الاتجاهات الجارية للتغير وتوجيهها للحصول على الاهداف التي تحقق مصالح الجماعة العليا .

وموضوع التخطيط وفلسفته يعتبران من أكثر الموضوعات استدعاء للانتباه ومادة للبحث والدراسة . ويقول آرثر لويس بحق «ان السؤال الذي يواجهنا الان ليس ، هل نخطط ؟ وانما كيف نخطط ؟» ومعنى هذا أن التخطيط حقيقة واقعة ومستوى من مستويات التفكير الاساسية واداة جوهرية من أدوات التطبيق ، وهو فلسفة عصرنا وطابعه ، ولذلك فعالم اليوم هو عالم التخطيط .

التخطيط نوع متميز من التفكير :

من أهم المشاكل التي واجهت البشر دائما ، المشكلة التي تتعلق بنمط التفكير واسلوب العمل لارتباطهما الوثيق ببناء الشخصية ، ذلك لان كل

اضافة أو كل تعديل جوهري يعتبر فى واقع الامر تغييرا يقـابل دائما بعقبات وصعوبات متعددة • وقد سبق أن ذكرنا أن كل تغيير اجتماعي يواجه باتجاهات معادية يعتنقها أولئك الذين لهم مصلحة فى بقاء القديم، ومن أجل هذا كان ادراك الصعوبات والعقبات وتحديدها عاملا هاما فى مواجهتها والتغلب عليها •

لقد مر التفكير الانسانى على مراحل متعددة ، كان أكثرها أثرا ، نجاحه فى تسجيل تراثه ، لانه استطاع بذلك أن يضيف الى تجـارب الاجيال السابقة تجارب الاجيال اللاحقة ، الامـر الذى جعل ثقـافة الانسان تتراكم وتتقدم باستمرار ، وبالتالى استطاع الانسان فى مرحلة معينة أن يوجه المعرفة والارادة توجيها فى بناء فى التاريخ •

ومعنى هذا أن التفكير الانسانى وصل فى تطوره الى المرحلة التى تخلى فيها عن نزعات الانانية والذاتية المطلقة وأصبح مرتبطا بالاعمال التى من شأنها أن تؤدى الى بناء أفضل عن طريق الجهود المشتركة ، بغض النظر عما اذا كانت الفـائدة التى ستترتب على هـذه الجهود ستنعكس مباشرة على القائمين بها أو سيستفيد بها غيرهم فى الاجيـال القـادمة •

ويجب أن نشير هنـا الى ارتباط أعمـال الانسان وسلوكه بطريقة تفكيره ، فكل عمل يقوم به الانسان يقابله نوع معين من التفكير ، وظيفته أن يضع الاطار الذى يحدد ميدان النشاط • ولهذا اذا ازداد نشـاط الانسان زيادة كبيرة فمعنى هذا أن تفكيـر الانسان قد ازداد بنفس الدرجة • وفى هذه الحالة تصبح الحاجة الى التنبؤ بالنشاط المستقبل وما يرتبط به من أفكار حاجة ملحة ، لان عدم ضبط المسائل المتصـلة بالتنظيم فى ضـوء هذا الاتساع يهـدد المواقف الاجتماعية جميعـا بالاضطراب ، وهكذا يصبح التخطيط ضرورة لتوجيه التغير السريع فى الاتجاهات التى يمكن أن نتوقعها ، ولذلك فانه يعتبر محـاولة لادراك أكثر التغيرات أهمية وأكثرها تأثيرا فى العملية الإجتماعية الاضطرادية كلها • ويختلف التخطيط عن التنظيم أو الانشاء ذلك أن التنظيم عبارة

عن ترتيب جديد لاشياء موجودة فعلا فى الواقع ، كما أن الانشاء ، وان كان يشابه الابتكار أو الخلق باعتباره يؤدى الى اقامة شيء جديد ، الا أنه يقوم على استخدام مواد موجودة فعلا . ولكن التخطيط فى جوهره يعتبر عملا من أعمال الخلق والابتكار . ومن اجل هذا لا ينبغى أن نفكر فى التخطيط كما نفكر فى البناء أو التنظيم . ويمكن أن نفهم العلاقة بين هذه المفاهيم بطريقة اخرى فنقول ، أن البناء الاجتماعى ينتقل من مرحلة التخطيط بعد نجاحه الى مرحلة من التنظيم تقوم على الانشاءات التى تمت بناء على تنفيذ التخطيط .

ولهذا يكون التخطيط اعادة بناء مجتمع متقدم تاريخيا نحو وحدة تتكامل تكاملها كاملا عن طريق البحث من مواضع مركزية معينة .

الوسائل الفنية فى معالجة مسائل المجتمع :

لقد أحدثت الاختراعات الفنية عدة تغيرات فى مجالات الانتاج الاقتصادى ، ويشار غالبا الى الوسائل الفنية (التكنيك) باعتبارها مؤثرا هاما فى طبيعة الانتاج الاقتصادى . ومن الواضح أنه قد ترتب على استخدامها تقدما فى مجال سيطرة الانسان على الطبيعة ، وتزداد هذه السيطرة كلما تقدمت التكنولوجيا . ومعنى هذا أن استخدام الوسائل الفنية يمكن أن يطور الجانب الاقتصادى فى حياة المجتمعات . والسؤال الذى يتردد فى أذهان الباحثين فى شئون المجتمع : ألا يمكن أن نطبق مثل هذه الوسائل الفنية على العلاقات الاجتماعية لنحرز نفس التقدم الذى أحرزته فى المجالات الاخرى ؟ والواقع أن تقدم البحث فى علم الاجتماع أدى الى الوقوف على كثير من الحقائق التى يمكن استخدامها فى بناء مجموعة من الوسائل الفنية لتغيير المجتمع أو اعادة بناء المواقف الاجتماعية بصورة تشابه التكنولوجيا فى ميادين الانتاج واستخدام مواد الطبيعة استخداما فى صالح الانسانية . ولكن نظرا لما يكتنف تغيير المجتمع من مخاطر ، ونظرا للمصاعب المتعددة والازمات الاجتماعية التى يمكن أن تترتب على التجريب فى هذه الناحية ، فان تطبيق الوسائل الفنية الاجتماعية لابد أن يكون مقترنا بفلسفة خاصة تحقق الاهداف المحددة التى يتصورها المجتمع .

ولذلك يعتبر التخطيط الاجتماعى احد هذه الوسائل
الفنية الفعالة التى توجهها الدولة حسب امكانياتها وفى
اتجاه القيم التى تشكل قاعدة نظامهـا السياسى •

وعلى الرغم من أن كلمة الوسائل الفنية أو التكتيك استخدمت فى الاصل للدلالة على الاشياء الملموسة فقط ، مثل الآلات ، فان الراديو والتليفزيون وكل وسائل الاتصال العقلى ووسائل الانتقـال والانتاج ومعدات الجيش ، تجعل فى الامكان اقامة نظام اجتماعى معين • لانها تعمل على مساندة تأثيره واستمرار فاعليته ، وهذا لا يعنى أن هـذه الوسائل الفنية المادية هى التى تعتبر أساس الوسائل الفنية الاجتماعية لانها ليست الا عوامل فقط ، ويمكن أن نلخص المقـومات التى تستند اليها الوسائل الفنية الاجتماعية فيما يلى :

١ ـ معرفةوثيقة بتكوين الجماعات فى المجتمـع والوظائف التى تؤديها ومدى ارتباط كل منها بالاخرى •

٢ ـ تحديد لدرجة مرونة التنظيمات الاجتماعية بقصد الوصول الى أفضل الطرق لتغييرها •

٣ ـ تحديد أهداف السلوك العـامة على أساس معـرفة وثيقة بالمبادىء النفسية التى تؤدى الى تكامل الجماعة أو تفككها •

٤ ـ معرفة بطرق التنظيم وعوامله المساعدة كوسائل الاتصـال العقلى أو المادى •

٥ ـ ادراك صحيح لكيفية التنسيق بين القوى الاجتماعية المختلفة التى تعمل فى الموقف الاجتماعى المطلوب توجيهه توجيها خاصا •

٦ ـ توجيه أكثر الاهتمـام للتنظيمات الاجتمـاعية التى تستغرق أكثر حياة الافراد وتنظم أكثر أنواع سلوكهم •

ويجب أن تستند هذه المقومات الى مجموعة من المبادىء الهامة التى تصور وتحلل فى نفس الوقت مجرى الحوادث وخلاصتها : أن أغلب ملامح عصرنا ترجع الى الانتقال من مبدأ حرية العمل ، الى المجتمـع

المخطط ، وكذلك الانتقــال من ديمقراطية الاقلية الى المجتمــع الكبير (الجماعى) • ومن أجل هــذا نؤكد أن الوسائل الفنية المستخدمة فى تحسين أو تعديل أو دراسة المجتمع أو رعاية أفراده على أى نحو ، لابد أن تسير فى نفس اتجاه هــذه المبادىء وبالتطبيق على مجتمعنا تتبين ما يلى :

١ ــ ان مجتمعنا قد جعل التخطيط القائم على الدراسة والبحث قاعدة التفكير وأساس العمل ، أو بمعنى آخر أصبح التخطيط سياسة الدولة فى التنمية الاجتماعية والاقتصادية والصحية وغيرها •

٢ ــ ان مجتمعنا يهدف الى تحقيق رفاهية المجموع وبالتالى تصبح الرعاية الاجتماعية ضرورة للوصول الى هذا الهدف •

٣ ــ ان فلسفة الرعاية (أو الخدمة العامة) تأخذ الطابع الجمعى لا الفردى وتسير فى الاتجاه الافقى لا الرأسى •

٤ ــ ان ما يصلح لمجتمع يأخذ بمبادىء حرية العمل التى تؤدى فى نهاية الامر الى حرية الرأسماليين وحدهم ، لا يصلح لمجتمع يهدف الى تحقيق حرية الفرد فى المجموع عن طريق التخطيط •

٥ ــ ان الوسائل الفنية فى معالجة مسائل المجتمع دراسة أو تقويماً التى نبتت فى المجتمعات الرأسمالية (والمعروفة فنيا بالخدمة الاجتماعية) لا تصلح للتطبيق من حيث فلسفتها على مجتمعنا المخطط • كما سيبدو هذا فى الفقرة التالية :

مشكلة الحرية واتصالها بمراحل تطور الوسائل الفنية والاجتماعية

يختلف شكل الحرية كما يختلف قياسها أيضا ، لانه يتغير من وضع اجتماعى لآخر ، فالحرية فى الاسرة شىء وحرية اللعب والحرية الدينية والسياسية شىء آخر • وبالتالى فالضمانات الاجتماعية للحرية لابد أن تختلف من حيث مفاهيمها تبعا لذلك ، فمعنى الحرية يختلف باختــلاف الموقف ، فالحرية فى ظروف نضال الانسان المباشر مع الطبيعة تختلف

كلية عن الحرية فى ظروف نضاله مع الطبيعـة الثانية (المجتمع) التى ظهرت فى المرحلة الثانية من تطور التكنيك الاجتماعى •

ويشير كارل مانهايم الى أن تلك الاختلافات فى مفهوم الحرية ، من الناحية السوسيولوجية ، تصبح ذات معنى فقط اذا اعتبرنا المشكلة غير متوقفة على علاقاتها بالمجتمعات المختلفة أو الاوضاع السائدة فى أى مجتمع ، وانما تتوقف من حيث وضعها واتصالها بمراحل تطور الوسائل الفنية الاجتماعية المختلفة ، أى بمرحلة الاكتشاف ثم بمرحلة الاختراع وأخيرا بمرحلة التخطيط •

١ ــ ففى المرحلة الأولى ــ مرحله الاكتشاف عن طريق الصدفة أو مرحلة المحاولة والخطأ ، كانت الحرية تعبر عن نفسها عن طريق الافعال المباشرة والاستجابات المتعددة للمؤثرات المحيطة بالانسان ، والشعور بالحرية أو بعدمها كان يتوقف على شعور الإنسان بأن هناك ثمة عوائق تمنعه من تحقيق رغباته • ويرى مانهايم أن حرية هذه المرحلة كانت فى مستوى حرية الحيوان • فالانسان يشعر بتهديد لحريته اذا حظر عليه الا يتعامل مع الاشياء أو الافـراد كما يريد ، كالحيوان الذى يشعر بالحيرة والتوتر عندما يحرم من استعمال جسـده كما يريد • ففكرة الحرية فى ذلك العهد ـ هى الذاتية ، وهذه الذاتية لم تنته بالضرورة عندما تعلم الانسان استخدام الادوات البسيطة ، لانه عند تعرفه على هذه الادوات شعر بخيبة الأمل عندما عجز عن استعمالها وتملكها كما لو كانت أجزاء من جسده وعلى الرغم من أن استخدام الادوات البسيطة لم ينتشر فى هذه المرحلة ، الا أنها دفعت الانسان الى نوع من التقدم ، أى أن عملية التكيف أصبحت أكثر فاعلية •

فالتوازن بين الانسان ورغباته من جهة ، وبينه وبين البيئة من جهة أخرى ، مهد السبيل الى تعديل جزء من البيئة ولذلك كانت أى عقبة تقف أمام هذا التعديل تعتبر تهديدا للحرية •

فالانسان فى هذه المرحلة كان حرا فى أن يكيف نفسه مباشرة مع أى موقف معين ••• وكان وقوف أى شخص أمامه ليمنعه من تنفيذ رغباته

فى تعامله مع المواقف المختلفة يعتبر تهديدا لحريته • فمعنى الحرية للانسان فى هذا الوقت ، هو ألا يكون مهددا فى محاولاته للتكيف • ومادام الافراد يميلون الى تنفيذ رغباتهم المباشرة ويجتهدون فى البحث عن أشكال تلقائية للتعبير الذاتى ، فسوف تبقى الحرية المنبعثة عن هذا التعبير مهما تعقد البناء الاجتماعى ، ولكن بشكل ومضمون آخر •

٢ — وفى المرحلة الثانية ، مرحلة الاختراع ، استطاع الانسان نظرا لمعرفته المتزايدة بالآلات وطريقة استخدامها ، أن يكتشف ويختار غايات ووسائل تقف موقفا وسطا بين نفسه وبين هدفه النهائى ففى هذه المرحلة تعلم الانسان أن يتحرر أكثر وأكثر من الاعتماد كلية على الطبيعة • والحرية فى هذه المرحلة تتوقف على تحديد الاهداف الوسيطة للعمل الجمعى على الرغم من أن الهدف النهائى قد يكون غامضا • واذا كان الانسان فى هذه المرحلة قد تحرر من طغيان الطبيعة وقلل من اعتماده الكبير عليها وذلك بفضل التكنيك الاجتماعى ، الا أنه فى نفس الوقت ربط مصيره بنفس الدرجة بالزام اجتماعى لا يمكن تجنبه• وقد تم هذا عندما تحول عن الطبيعة الاولى (البيئة) الى الطبيعة الثانية (المجتمع) التى لا تقل فى درجة تهديدها عن الطبيعة الاولى • فالأمر لا يختلف اذا مات الانسان جوعا أو اثر زلزال ، أو تحطمت عيناته وفنيت بالتصدع الاجتماعى الذى يؤدى الى الثورة والحرب• فالنتيجة واحدة على الرغم من أن الكارثة ترجع الى أسباب طبيعية فى الحالة الاولى أو لاسباب اجتماعية فى الحالة الثانية •

فالحرية فى هذه المرحلة الثانية تقوم اذن على الرغبة فى خلق الظروف التى تحقق التكيف الاجتماعى بدلا من قبول الامور على علاتها• فالفرد يشعر بالحرية عندما تصبح لديه القدرة على أن يعمل وأن يقيم نظاما له أهداف خاصة ومحددة ، أو على الاقل يشترك بنصيب فى ادارته ، وبالاختصار عندما يكون حرا فى أن يخترع • وبما أن كل اختراع ساعد على تغيير البشرية فقد أصبح واضحا أن عصرنا لم يكن العصر الاول الذى عدل فيه الانسان من نفسه عند تعديله وتغييره

لبيئته ، ذلك لان التأثيرات المتزايدة للثقافة لا تغير علاقاتنا مع الطبيعة فحسب بل تعدل أيضا من علاقتنا الشخصية •

٣ - أما الحرية في المرحلة الثالثة - مرحلة التخطيط - فانها لا تعني سيطرة المنظمات الفردية ، لان هذا لا يؤدي مطلقا الى تعاون تخطيطي • ففي أعلى المراحل يمكن للحرية أن تعيش عندما يضمن التخطيط وجودها ، ولكن الحرية هنا تنطوي على تقييد سلطات المخطط ، لان الخطة بالضرورة ، تشتمل على الاشكال الاساسية للحرية ، وكل قيد يفرض عن طريق سلطات فردية قد يهدم الخطة كلها ، وبالتالي يرتد المجتمع الى المرحلة السابقة وهي مرحلة التنافس والسيطرة • وسواء كانت السلطة الحاكمة فردا أو جماعة أو مجموعة شعبية فانها ملزمة بالسيطرة الديمقراطية لتفسح مجالا كاملا للحرية في خطتها ، وفي الوقت الذي تتسق فيه كل وسائل التأثير على السلوك الانساني يصبح التخطيط هو الشكل المنطقي للحرية الذي يكتب له البقاء والدوام •

ان المفهوم الحديث للحرية لا يؤدي الى مجرد الرغبة في السيطرة على تأثيرات البيئة الاجتماعية ، لان الاساس الذي تستند عليه الحرية، هو أن التقدم الهائل في الوسائل الفنية الاجتماعية يسمح لنا بأن نسيطر ونؤثر على مجرى الحوادث الاجتماعية من مركز رئيسي طبقا لخطة محددة •

وفي هذا الصدد يقول كارل مانهايم ، من الآن فصاعدا سيعرف الافراد شكلا رفيعا من الحرية عندما يجدون حياتهم الفردية منظمة بكفاية وعدل داخل اطار (النظام) الاجتماعي الذي وضعته الجماعة، بشرط أن يكون هؤلاء الافراد هم الذين اختاروا هذا الاطار ، فالتخطيط العادل الديمقراطي لا يقيد ولا يحد من حريتنا ، والمجتمع الرأسمالي غير المخطط لا يعتبر في حد ذاته الشكل الاساسي الذي يحتوي على أرفع مستوى من مستويات الحرية ، فالحرية في «المجتمع الرأسمالي الحر» غالبا ما تكون مكبوتة ووقفا على طبقة الاغنياء فقط أي طبقة الذين يملكون ، أما طبقة الذين لا يملكون فانهم مضطرون للخضوع الى الضغط

الواقع عليهم • ويقول كارل مانهايم أيضا أن ظهور الحرية المخططة لا يعنى الغاء كل أشكال الحرية الاخرى التى ظهرت فى مراحل للتاريخ أو تطور الحياة الأجتماعية • فان كل تقدم نحو تحقيق مستوى اجتماعى أفضل لا يعنى منع الاحتفاظ بالانماط السابقة للعمل والتفكير والحرية، بل على العكس من ذلك فالابقاء على الحريات السابقة هو خير ضمان ضد التحكم المبالغ فيه فى التخطيط • والمجتمع اذا انتقل لمرحلة جديدة ولتنظيم جديد لمعظم أوجه حياته ، فـان بعض أنماط وسائل التكيف القديمة يمكن أن تبقى وتستمر • وبالتالى تكون أحد الضمانات الهامة للحرية فى المجتمع المخطط هـو التمسك والمحافظة على قدرة الفـرد على التكيف •

وعلى الرغم من أن كثيرا من المجتمعات على اختلاف ايديولوجياتها قد أخذت بمبدأ التخطيط الا أن هناك سؤالين يترددان الان ينبغى أن نجيب عليهمـا قبل أن نمضى فى التحليل ، والسؤال الاول يقوم على أساس نظرى صرف وخلاصته : هل يمكن للتخطيط الاجتماعى أن يكون ذا أثر ملحوظ على مجرى نمو المجتمع ؟ والسؤال الثانى يقـوم على أسـاس خلقى وخلاصته : هل يميل التخطيط الاجتماعى الى تحـديد حرية الفرد وتدميرها ؟

العوامل المؤثرة فى طبيعة التخطيط الاجتماعى ومداه :

من المسائل المعروفة الان أن طبيعة التخطيط الاجتماعى ومـداه الواضحتان فى المجتمعات الحضرية يختلفان اختلافا بينا عما كان عليه الحال فى المجتمعات الاقطاعية القديمة أو المجتمعات التاريخية • ومرد هذه الاختلافات يقع فى التمايز بين أنماط المجتمعات ، ومن بين العوامل المؤدية الى تمايز أنماط هذه المجتمعات نستطيع أن نبرز أربعـا منها خصوصا تلك التى لها علاقة وثيقة بموضوعنا هى :

١ ــ حجم القاعدة الثقافية • ٢ ــ حجم الجمـاعة •

٣ ــ تعقد النسق الوظيفى • ٤ ــ درجة التمدن أو النمو الثقافى •

هذا وقد سبق أن أشرنا أن التخطيط الاجتماعى الناجح يشترط فيه أن يقوم على معلومات موثوق بها • ولهذا فان التخطيط يقتضى رعيا وفهما عميقا بعلاقات العلية التى تحكم المادة الفيزيائية والانسان على السواء • ذلك لانه عندما تحاول الجماعة أن تخطط للمستقبل دون المعرفة الضرورية بعلاقات العلية ، فان مجهوداتنا يمكن أن يحكم عليها مقدما بالفشل • وغنى عن البيان أن المجتمعات الحضرية الحديثة لديها من الامكانيات الثقافية ومن المعرفة الشاملة لعلاقات العلية ما يمكن أن يجعلنا نأمل فى صلاحية الخطط الحديثة وفرص النجاح المتعددة أمامها•

فاذا كان الحجم الممتد للقاعدة الثقافية فى المجتمعات الحضرية يهيىء «الفرصة» للتخطيط الاجتماعى الناجح ، فان الحجم الكبير للجماعة الان مضافا اليه المستوى العالى من التكامل الوظيفى يهيىء «الحاجة» ، ذلك لانه من الحقائق المعروفة فى علم الاجتماع أنه عندما تعتمد مجموعات كبيرة من الناس على نسق وظيفى على درجة عالية من التكامل، وخاصة فى مصادر الرزق الاساسية ، فان هؤلاء الناس يكونون معرضين الى ظروف خطيرة قد تنجم عن أى اضطراب فى هذا النسق • فالاضطرابات والكوارث الطبيعية والجرائم والصراعات الداخلية فى الجماعات تعتبر مصادر تهديد ممكنة لكل عضو من أعضاء الجماعة • ولذلك كانت أى أزمنة فى أى جزء من أجزاء المجتمع يمكن أن تؤدى الى نتائج تمتد جغرافيا الى مسافات بعيدة ذات صلة وظيفية ، وأن تكن بعيدة عن الازمنة أو الاحداث التى وقعت فى هذه الاجزاء •

ومن أجل هذا يميل السكان فى المجتمع الحضرى الحديث الى الاعتماد على التخطيط درءا لهذه المفاجآت • كما أن ارتباط الناس فى أنساق وظيفية كبرى يؤدى الى اندماجهم فى تخطيط شامل يتناول النسق بأكمله ، بغض النظر عن كون هذا النسق مجتمعا متروبوليتيا أو أمة بأسرها • وهذا لا يمنع من التخطيط الجزئى الذى يشمل وحدات فرعية داخل هذه الانساق الكبرى •

أما فيما يتعلق بالنمو الثقافى الذى اعتبر أحد العوامل الهامة فى

التخطيط الاجتماعى ، فاننا نعتقد أنه من أهمها جميعا ، ذلك لان الاتجاه العام فى المجتمعات الحضرية الحديثة يشجع التناقص المستمر فى العادات التقليدية القديمة ويفسح مكانا متسعا للكفاءة . ويؤكد الانثروبولوجيون هذه الحقيقة من زاوية أخرى ، فقد وجدوا فى بعض المجتمعات البدائية أو ما يسمى Folk Societies عكس هذا الاتجاه ، حين يرفض الناس أدوات أو آلات على درجة كبيرة من الكفاية تصلح لتنمية وسائل السيطرة على الطبيعة ، لمجرد أنها لا تنسجم مع الثقافة التقليدية التى يأخذون بها حياتهم . ولكن الامر ليس على هذا النحو فى المجتمعات الحضرية حيث يقدر الناس الكفاءة من أى طريق ويضعونها فى مكان يعلو العادات التقليدية ، وعلى الاخص فى ميدان التكنولوجيا ، فهم لا يقبلون العناصر الثقافية التى تأتيهم عن طريق الاتصال الثقافى بالمجتمعات الحضرية الاخرى فحسب ، بل انهم يبحثون فى دأب مستمر عن سمات ثقافية جديدة من خلال عمليات البحث والاختراع .

النظرة الحتمية والتخطيط الاجتماعى :

سنجيب الان على السؤالين الذين أثرناهما من قبل وهما : هل يؤثر التخطيط الاجتماعى تأثيرا حقيقيا فى مجرى نمو المجتمع ؟ وهل يميل التخطيط الاجتماعى الى وضع القيود وتدمير حرية الفرد فى نهاية الامر ؟ . فى خلال الفترة التى سميت فيما بعد بعصر التنوير الفرنسى اعتنق كثيرا من الفلاسفة الاجتماعيين الاتجاه الذى يمكن أن نسميه بالاتجاه الرومانتيكى فى النظر الى التغير الاجتماعى . وكرد فعل للنظرة التى سادت العصر الوسيط والتى مالت الى معالجة النظام الاجتماعى على أنه هو كذلك بالضرورة وأنه من حيث نظامه مظهر لفعل العناية الالهية ، حاول هؤلاء الفلاسفة أن يبرهنوا على أن الانسان حر ، ومظهر حريته ان له أن ينظم بارادته شئون المجتمع الذى يعيش كما يتراءى له وكما يتصور أن مايقرره فى صالحه الاخير . فاذا أراد الانسان فانه يستطيع أن يبنى نظاما اجتماعيا أفضل يكون متفقا الى حد كبير مع ما يتصوره هو من مثل . وقد لاقت هذه النظريات ترحيبا كبيرا ، وأسهمت فى الدفعة القوية التى انتهت بالثورة الفرنسية .

ولكن هذه النظرية التى مجدت قدرة الانسان لم يكتب لها التفرد طويلا • ففى الفترة التى صاحبت وأعقبت الثورة الفرنسية ظهرت مجموعة من الفلاسفة الاجتماعيين من أمثال مالتس وهيجل وماركس وسبنسر وسمنر ، جاءت بنظرية جديدة ، وهى أن نمو المجتمعات الانسانية محدد الى درجة كبيرة بقوى غير شخصية خذلت دائما التصميم الانسانى ، وستظل باستمرار تخذل الضبط الانسانى • ويفسر بعض الباحثين هذه النظريات على أنها مجهودات الانسان لتغيير مجرى النمو الاجتماعى ستذهب عبثا • فما هو مقدر أن يحدث سيحدث ، ولن تغير رغبات الانسان وآماله فى التدخل فى سير الاحداث شيئا ، ولن تعدل مجرى الحوادث أو تحرفه عن اتجاهه •

وفى السنين الاخيرة وبناء على عدة دراسات مستمرة على المجتمعات الانسانية ، ظهرت مجموعة من علماء الاجتماع رفضوا وجهتى النظر الرومانتيكية والحتمية على السواء • ذلك أن كل نظرية تتضمن عمقا خاصا ولكن بطريقة فيها مبالغة كبيرة • فالحتميون على حق حينما قرروا أن الانسان ليس حرا فى تنظيم شئون المجتمع كما يريد ، ذلك لان المجرى الرئيسى لنمو المجتمع يبدو أنه محدد بقوى فوق مقدرة الانسان وفى غير متناوله ، وبالتالى لا يمكن له أن يسيطر عليها ، ولكن فرق بين أن نقول أن مجرى النمو محدد ، وبين أن نقول أن مجرى النمو محتوم بهذه القوى • فمن خلال هذه الحدود التى حددتها هذه القوى يستطيع الناس عن طريق التخطيط الاجتماعى أن يقيموا أنساقا مختلفة للقيم قد تكون لها نتائج مغايرة بالنسبة لعمليات النمو فى المجتمع • أما مدى اتساع هذه الحدود فانه سؤال سيظل من غير تحديد حتى يصل فيه البحث فى المستقبل الى قرار •

وتصور الحوادث فى الاتحاد السوفيتى فى السنين الاخيرة امكانيات التخطيط الاجتماعى وحدوده • ذلك لان التصنيع السريع للمجتمع السوفيتى فى هذه الفترة ، ظهر على أنه يؤيد أن التخطيط المنظم يمكن أن يغير بصورة جوهرية مجرى نمو المجتمع • ومع ذلك فبغير هذا

التخطيط فان الاحتمال بأن روسيا كانت ستصل الى هذه القوة الصناعية والحربية فى منتصف القرن العشرين لازال يستأهل النظر والدراسة • ومن ناحية أخرى فان اخفاق الاتحاد السوفيتى فى تحقيق كثير من أهداف التخطيط بالرغم من الجهود الجبارة التى بذلت يدل دلالة واضحة على أن هناك قوى تتدخل فى تسيير مجرى نمو المجتمع فوق طاقة الضبط الانسانى •

الحرية والتخطيط :

مناقشة هذا الموضوع ترتد دائما الى الاختلافات الايديولوجية بين المجتمعات ، ففى الدول الرسمالية يزعمون أن التخطيط فى المجتمع الشيوعى يلغى حرية الفرد لان فئة قليلة تمارسه وتفرض ما تخططه على الغالبية العظمى بالرغم مما يتعرضون له من تقشف ومجاعات ومصاعب شتى فى حياتهم • بينما يقوم التخطيط عندهم على تحقيق أكبر قدر ممكن من الرفاهية للغالبية العظمى لان هذه الغالبية تكون لآرائها وزن عند رسم السياسة التخطيطية ، ولذلك يزعمون أن للتخطيط الاجتماعى فى هذه الدول مهم لحرية الفرد ، بينما تزعم الدول الشيوعية أن التخطيط فى الدول الرأسمالية جاء تقليدا للتخطيط عندهم، وهو فى النهاية يخدم مصالح الرأسماليين ويدعم الاحتكارات•والتخطيط فى المجتمعات الشيوعية يقوم على أساس تحرير الفرد من السيطرة المطلقة لرأس المال فى ضوء مبادىء المساواة ، ولهذا يزعمون أن التخطيط هو الوسيلة التى سوف تؤدى فى النهايةالى تحرير الفرد من الاستغلال•

التخطيط الاجتماعى والعلوم الاجتماعية :

لاجل أن ندرك العلاقة بين التخطيط الاجتماعى والعلوم الاجتماعية يجب أن نتذكر التبرير الذى كان يسوقه علماء الاجتماع من عهد أوجيست كومت حتى الان ، وهو أن الغرض الاعلى من علم الاجتماع هو الاسهام فى المحاولات البشرية التى تبذل لتصميم وتخطيط نظام اجتماعى أفضل • وعلى الرغم أنه من الضرورى أن نلقى الضوء على الروابط التاريخية بين الدراستين ، فان هذا لا يغنينا عن كشف النقاب عن وظيفة كل منهما • ذلك لانه فى بعض الاحيان يختلط على الاذهان

عمل علماء الاجتماع وعمل المخططين الاجتماعيين ، ولعل مرد ذلك أن كثيرا من علماء الاجتماع شغلوا أنفسهم فى بعض الاوقات بمسائل السياسة الاجتماعية ، أو كثرت دعوتهم عن طريق الاجهزة الحكومية لابداء الرأى فى موضوع بعينه ، ومع ما بين التخطيط الاجتماعى والعلوم الاجتماعية من روابط متعددة ، الا أن هدف كل منهما مختلف عن الاخر • فهدف التخطيط الاجتماعى حل المشاكل العملية للمجتمع • أما هدف العلوم الاجتماعية فهو تجميع أكبر قدر ممكن علميا من المعلومات عن المجتمعات الانسانية • واننا نلحظ من استعراض تاريخ العلوم الاجتماعية أنها كانت قليلة الاهتمام بالمسائل المتعلقة بالسياسة الاجتماعية والتخطيط ، ولكنها بدأت الان تهتم اهتماما متزايدا بهذه الامور ، وقد كان الاقتصاد أسرع العلوم الاجتماعية فى هذا الاتجاه ويليه علم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس وعلم السياسة • ويخشى كثير من علماء الاجتماع أن يؤدى اهتمامهم بالمسائل العلمية الى فقدان الارض المحايدة التى يقفون عليها والتى منها يستطيعون النظر الى مسائل المجتمع نظرة ناقدة وخاصة الى النظم التى تشرف عليها الاجهزة الحكومية •

التخطيط الاجتماعى غاية كل تخطيط :

جرت العادة على تقسيم التخطيط تقسيمات مختلفة ، وأكثر التقسيمات شيوعا الان التقسيم بالنظر الى المستويات العامة ، فهناك تخطيط عالمى كالذى تقوم به هيئة الامم المتحدة فى مجالات الثقافة والتعليم والزراعة والعمل ، وتخطيط قومى كالذى تقوم به الدول المختلفة لتنمية اقتصادياتها وقدراتها المتعددة للاكتفاء الذاتى ؛ وتخطيط محلى كالذى تقوم به بعض الدول ذات المساحات المترامية الاطراف لكل ولاية أو منطقة متمايزة فيها •

ولكن النوع الاول والثالث من مستويات التخطيط ليس واضحا تماما فى حياة المجتمعات المختلفة ، ولذلك كان التركيز اليوم على المستوى الثالث ، ونظرا لان العصر الذى نعيش فيه الان هو عصر

التخطيط فقد أصبح سياسة الدولة مهما اختلف طابعها السياسى أو الاجتماعى ، أو بمعنى آخر أصبح التخطيط الان ضرورة ولا مجال حينئذ لمناقشة أهمية التخطيط ، بل ان المناقشة تدور فى واقع الأمر عن كيفية التخطيط . ففى العصر الذى نعيش فيه الان أصبح التخطيط أداة الدولة لضبط امكانياتها وتوجيهها لتحقيق مصالح المجتمع العليا ، وخاصة فى وجه المنافسة المستمرة للدول الاخرى ، وفى ضوء المشاكل المتعددة التى تواجهها أغلب المجتمعات نتيجة لزيادة السكان والرغبة فى الحصول على مستوى أفضل للمعيشة .

ويميل بعض العاملين فى ميادين التخطيط الى تقسيمه فى المجتمع الواحد الى أقسام متعددة ، مثل التخطيط الاقتصادى والثقافى والعلمى والصحى والمحلى والاجتماعى . كما يزداد الميل أيضا الى الاهتمام بالتخطيط الاول وهو التخطيط الاقتصادى ، الامر الذى أدى الى صعوبات كثيرة ومفارقات متعددة .

نحن لا ننكر أهمية التخطيط الاقتصادى والصناعى فى التنمية الاقتصادية والتصنيع وخاصة فى الدول النامية . الا أن غلبته على كل تخطيط آخر واحتكار أجهزته لكل الامكانيات والخبرات يؤدى الى احداث سرعات مختلفة فى التغير ، الامر الذى يفضى بالضرورة الى التخلف فى كثير من أجزاء المجتمع .

ولكننا يجب أن ننبه هنا الى مسألة هامة ، وهى أن كل تخطيط — وخاصة فى مجتمعنا — يهدف فى نهاية الامر الى تحقيق غاية اجتماعية هامة . فالتصنيع وتنمية الموارد الاقتصادية ونشر التعليم والتقدم العلمى والفنى ، كلها وسائل لغاية أكبر ، وهى ضمان تحقيق الرعاية الاجتماعية فى سبيل الوصول الى رفاهية المجتمع التى هى قاعدة الانطلاق وغاية العمل فى المجتمع . ان كل تخطيط يحتاج الى تمويل ، ولذلك يحتاج التخطيط الاجتماعى الى تمويل — من هذه الزاوية — أكثر من الحاجة الى تمويل أى تخطيط آخر . وربما كانت النظرة الجزئية فى التخطيط الاقتصادى وانعزاليته الظاهرة عن كل

تخطيط آخر ، هى التى تؤدى الى تخلف الخطط فى الميادين الاخرى .
ويجب أن نضع فى الذهن دائما أن التخطيط فى المجتمع كل لا يتجزأ ،
واذا كانت التجزئة مفيدة فهى لضمان التخصص وحسن الافـادة من
الخبرة الفنية فى كل مجـال على حدة . فالتخطيط فى المجتمـع يخضع
لجهاز مركزى يتصور عن طريق البحث العلمى كل احتياجات السـكان
فى ضوء تقديراته المضبوطة للامكانيات المادية والخبرة الفنية والقـوة
البشرية فى مدى زمنى معين .

وفى ضوء تفسيرنا السابق توجه هذا الجهاز أيديولوجية محـددة
تعكس الهدف الاكبر وهو رفاهية المجتمع فى نهاية الامر . وعندما تتعدد
أجهزة التخطيط فى المجتمع الواحد ، فان تعددها لا ينبغى أن يكـون
راجعا الى تعدد الخطط ، بل الى الحاجة الى تعدد أجهزة التطبيق،واذن
فالتخطيط العام فى المجتمع يقوم على قاعدة اجتماعية واضحة تتفرع
منها شعب مختلفة اقتصادية أو صناعية أو علمية أو صحية ، وتترجم فى
كل خطواتها عن غاية المجتمع الاساسية وهى الرفاهية الاجتماعية .

مراجـــع مختـــارة

Bell, N. W. & Vogel, E. E., A Modern Introduction to the Family; N. Y., 1962.

Bendix & Lipset, Class, Status and Power, N. Y., 1961.

Benedret, R., Patterns of Culture, London, 1953.

Bergel, E. E., Social Stratification, New York, 1962.

Biesanz, J. & Biesanz, Modern Society-An Introduction to Social Science, N. Y., 1954.

Bredemeier & Stephenson, The Analysis of Social System; New York, 1962.

Dodd, S., Dimensions of Society, New York, 1940.

Davis, Kingsley; Human Society, New York, 1955.

Evans-Pritchard; Social Anthropology, 1951.

Green, A., Sociology : An Analysis of the Life in Modern Society, N. Y., 1960.

Handlin, O., The Uprooted, Boston, 1951.

Herskovits N. J., Acculturation : A Study of Cultural Contact, New York.

Hoselits, B. F., (ed.), A Reader's Guide to the Social Scienes; New York, 1959.

Hoselitz, B. F., Sociological Aspects of Economic Growth; N. Y., 1960.

Hughes, E. G., The Cultural Aspect of Urban Research in : "The State of the Social Sciences" (ed.), by White, L. D., Chicago, 1956.

Hunt, E. F., Social Science : An Introduction to the Study of Society, New York, 1955.

Kroeber A. C., Anthropology, New York, 1948.

Lapiere, R. T., A Theory of Social Control, N. Y., 1954.

Loomis, Ch. & Beagle, A; Rural Social Systems, New York, 1951.

Lundberg G., Foundations of Sociology, New York, 1939.

Lundberg, G., & Others; Sociology; New York, 1948.

MacIver, R. and Page, Ch, Society, London, 1936.

Malinowski, B., Dynamics of Culture Change. New York, 1936.

Merton: R., & Others (eds.), Sociology Today, Problems and Prospects; New York, 1962.

Merton, R., Social Theory and Social Structure; New York, 1962.

Ogburn, W., & Nimkoff, Handbook, of Sociology, London, 1953.

Ogburn, W., Social change, second printing, New York, 1952.

Radcliffe-Brown, Structure & Function in Primitive Society, London, 1956.

Redfield, R., The Folk Culture of Yacatan, Chicago 1941.

Redfield, R., The Folk Society. Amer. J. Socio, L. 11. 4 (January 1947) 293-308.

Redfield, R., The Little Community Veiowpoinis for the Study of Human Whole, Chicago, 1956.

Redfield, R., Peasant Society and Culture, Chicago, 1956.

Redfield, R., A Village that chose progress. Chan Kom Revisted Chicago, 1957.

Roucek, J. S., (ed.), Contemporary Sociology, London, 1949.

Sorokin, P., Social and Cultural Dynamics Vols. 4, New York, 1941.

Sorokin, P., Society, Culture and Personality, New York, 1947.

Sprott; Sociology, London, 1957.

Timacheff, N. S., Sociological Theory, Its Nature and growth; N;. Y., 1955.

Wilson, G., and Wilson, N. The Analysis of Social Change, 1945.

Znaniecki; The Method of Sociology, New York, 1934.

